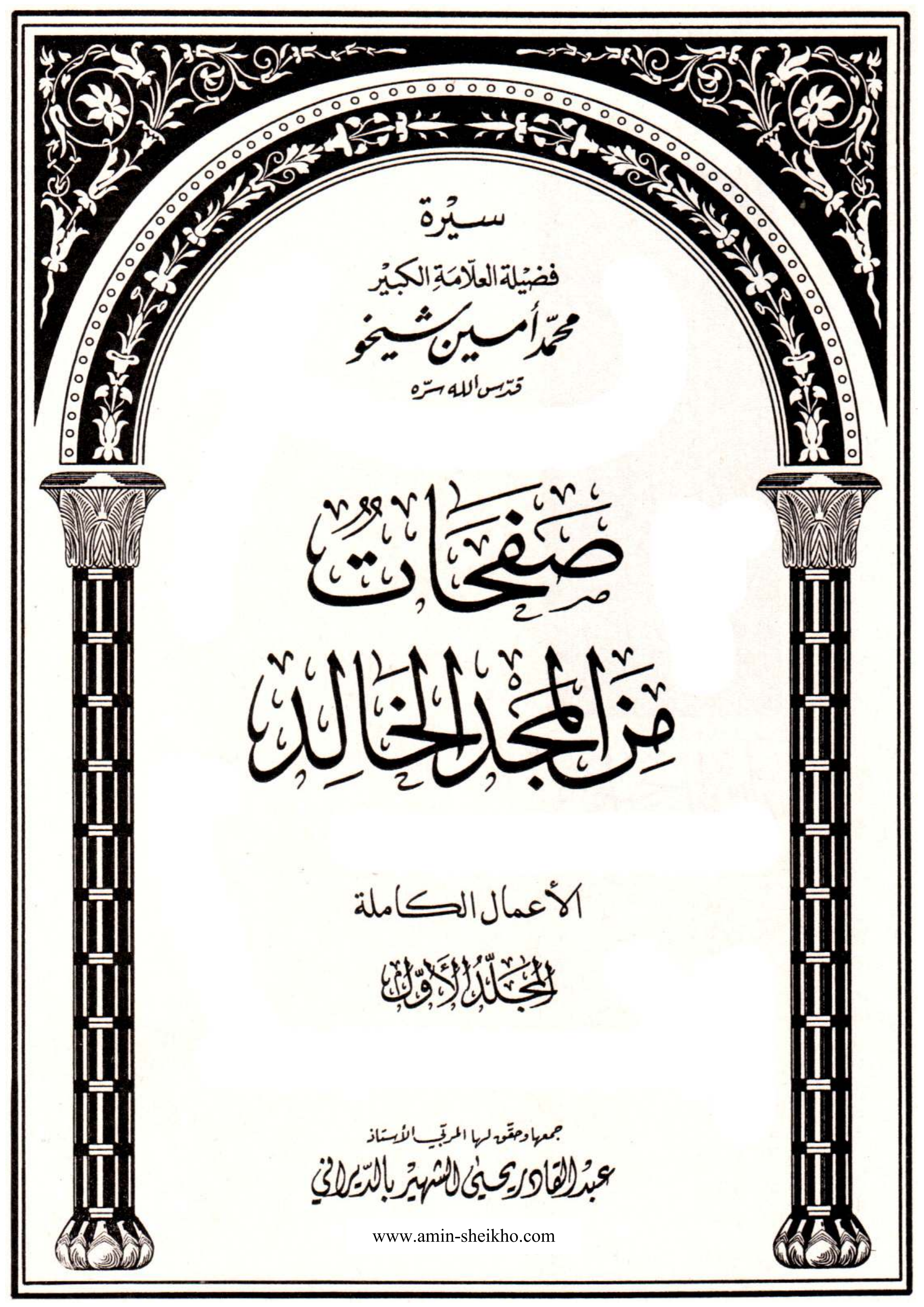

سيرة حياة
فضيلة العلامة العربي الكبير
محمد أمين شيخو
قدس الله سره
صفحات من المجد الخالد
الجزء الأول
جمعها وحقق لها المربي الأستاذ
عبد القادر يحيى الشهير بالديراني



سيرة

فضيلة العلامة الكبير

محمد أمين شيخو

قدس الله سره

صفحات من المجد الخالد

الأعمال الكاملة

المجلد الأول

جمعها وحققها لها المربّي الأستاذ

عبد القادر يحيى الشهير بالديراني

الفهرس

فضيلة العلّامة الكبير

محمّد أمين شيخو

قدّس الله سرّه

الحسيب النسيب

(١٣٠٨-١٣٨٤) هـ

(١٨٩٠-١٩٦٤) م

نسبه الشريف:

ينسب العلامة محمد أمين شيخو إلى السلالة الهاشمية.. سلالة رسول الله ﷺ، فقد قَدِمَ جدُّه (شيخو) مع أخي جدِّه (يوسف) من الحجاز إلى مصر.. فما طاب لهما المقام إلا في دمشق مهد الأنبياء، وتفرَّعت عنهما:

- أسرة بيت (اليوسف) الشهيرة بالغنى والثراء.
- وأسرة بيت (شيخو) التي تحدَّر منها فضيلة عالمنا الكبير محمد أمين شيخو.

وكلمة (شيخو) نسبة إلى أسم جدّه (شيخو) المنسوب للشجرة المحمَّدية من نسل الحسين عليه السلام.. فهو عربي الأصل هاشمي النسب.

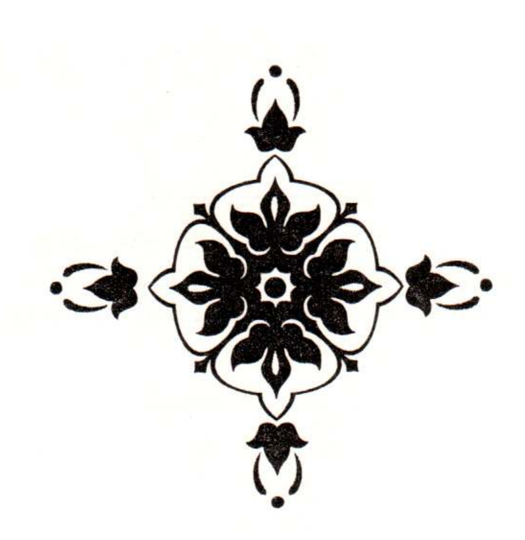
نسبٌ شريفٌ طاهرٌ ساد الورى   عــزاً وإجـلالاً ومجداً فــاخـراً

آثارُهُ تُنبيكَ عن أخبارِهِ

حتّى كأنّكَ بالعيانِ تراهُ

تاللهِ لا يأتي الزمانُ بمثلِهِ

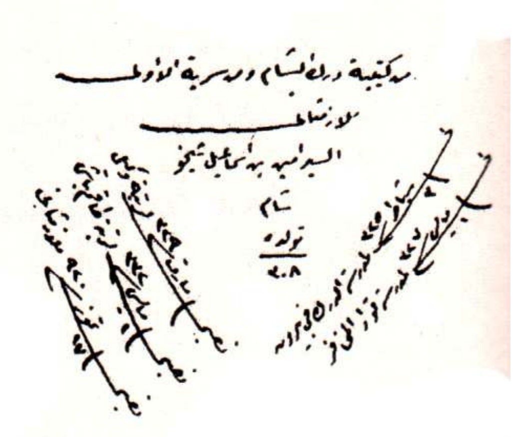
أبدًا ولا يحمي الحقيقةَ سواهُ





ان الملازم الثاني السيد محمد امين شيخو المحرره كنيته ادناه لقد كان مثالاً للهمة والنشاط، خلوقاً مقداماً فيما اتى به من جليل الخدمات والاعمال فاكتسب الثناء تقديراً على افعاله وحسن سلوكه واطواره الممتازه واشعاراً بفضله وجده اعطيت له هذه الوثيقة تحريراً في ٥ كانون الثاني ٩٢١





إن الملازم الثاني السيد محمد أمين شيخو المحررة كنيته أدناه ، لقد كان مثالاً للهمة والنشاط ، خلوقاً مقداماً فيما أتى به من جليل الخدمات والأعمال فاكتسب الثناء تقديراً على أفعالــه وحسن سلوكه وأطواره الممتازة وإشعارا بفضله وجدّه ، أعطيت له هذه الوثيقة تحريراً .

٥ كانون الثاني ١٩٢١

هذه وثيقة من وثائق عديدة مُنِحَها فضيلة العلاّمة الكبير محمد أمين شيخو أثناء خدمته كضابط في الدولة السورية تُبيِّن تاريخه المشرق والحافل بالجليل من الأعمال والتضحيات الإنسانية المثلى .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

من ذلك السيد المتهادي بحلل البهاء والنور يموج في العزم والقوة والشباب والفتوة والشجاعة والبأس والإباء حاسراً عن ذراعيه متفوّقاً على أقرانه ويتميَّز بجمال مُحيَّاه فضلاً عن طهارته وعفته ونبالة وجهه.

لنكن مع صفحات هذا المجد الخالد في رحلة تضحياته الطويلة المجيدة التي دفعت مسيرة الإنسانية نحو الخير والعدل والسلام وجنَّبتها الوقوع في مهاوي الظلم والظلام.

"إنه العلاَّمة الكبير محمد أمين شيخو قدَّس الله سرَّه العالي العظيم"

* * *

مولده الشريف:

هلَّ هلال بدره في دمشق ١٣٠٨هـ في يوم مبارك لأب دمشقي يمتهن التجارة فأحبه حبّاً عظيماً وهام في جماله وطلعة بدره وطيب حضرته الذكي.

كان في طفولته نشيطاً ذكياً يتفجَّر بالحركة والمرح ليبعث في قلوب من حوله صفاء الحياة وبهجتها، وكلما مضى في نشأته وتطوره يوم كان يبدو عليه المزيد من الذكاء وقوة الشخصية وهذا ما جعل مكانته لدى والديه كبيرة يكرمانه ويرعيانه بكل محبة وعطف وحنان، ولكن ما لبثت يد المنية أن اختطفت ذلك الوالد الحنون وأخذته وهو في سن الشباب بعد أن أنهكه المرض وأعياه الألم.

كان لوفاته أثر كبير في قلب كل من علم الأمر، إذ خلَّف وراءه أرملة وولدين.

لم يكن السيد محمد أمين قد أتم السابعة من عمره بعد، عندما حمل المسؤولية، مسؤولية والدته وحمايتها والدفاع عنها والحفاظ عليها من الشرور التي ظهرت من حول عائلته بعد رحيل والده عن الوجود وسفر أخيه الكبير سليم إلى تركيا.

حتى في يتمه كان متميزاً، وفي صبره على مشاق الحياة والعسر بعد اليسر، وصبره صبراً لا يطيقه الجبابرة من الرجال، وفي كونه فرداً من أفراد العائلة الصغيرة الكريمة التي ألمت بها ظروف صعبة.

وبسبب نسبه الشريف إلى سلالة الرسول الكريم ﷺ حاز على تقرّب من قبل كبار المسؤولين الأتراك مما مكَّن أسرته أن تقطن بحي ساروجة التي سمُّوها "استانبول الصغيرة" والتي كان يقطنها مسؤولوا الدولة التركية الحاكمة إذ ذاك ومكَّنه من أن يدرس في الكلية الملكية العثمانية بدمشق "عنبر"، وأنهى دراسته فيها عندما بلغ الثامنة عشر من عمره.

تخرَّج منها برتبة ضابط أمن، بذَّ أصدقاءه وأقرانه بالشجاعة الفائقة وبالأمانة والصدق والاجتهاد والدأب على العمل المتواصل والنبوغ فيه.. ولقد تولَّى العديد من أقسام الشرطة في مناطق دمشق ومديراً لنواحيها فكان القدوة المثلى، إذ ما يلبث أن يتولَّى قيادتها حتى يعمَّ الأمن ويرفرف فوق منطقة عمله حمام السلام.

لقد كان العين التي لا تنام.. والسهم الذي لا يُخطئ في كنانة الدولة، فما كان يعجزها مجرم أو جريمة إلاَّ وتلجأ إليه، ولا يسود الخوف والقتل والفساد والإجرام في منطقة ما إلاَّ وكان الأمل المنقذ فيدرأ الخطر ويحرِّر الرقاب.

وعندما حلَّ الوهن في جسد الدولة التركية وخمدت فيها شعلة الإسلام عمَّ الفساد وامتدت جذور الفوضى في كل أرجاء البلاد وبلغ الإجرام حدّاً لا يُوصف ولا يُطاق حتى صار العيش صعباً والأيام محفوفة بالأخطار والليل بهيماً ومرعباً إلاَّ في دمشق وريفها وضواحيها، حيث كانت عينه الساهرة ترعى الأمن وقلبه الرحيم يكرِّس السلام.

وبعمله وشجاعته وإقدامه واجه أعاصير المجرمين وأحاط بالكثير من العصابات وقبض على كبارها وزعمائها، فتوّجت أعماله كلها بالنصر والتأييد حتى لُقِّب "بأصلان" أي: الأسد لِما عُرِف من بسالته وعدم مهابته للصعاب، فكان باعتماده على ربِّه رجل الأمن الوحيد الذي وقف في وجه الظلم والإرهاب، حتى وصل الأمر أن المجرمين والسارقين كانوا يلجؤون إليه ويأتون إليه خوفاً من بطشته والتماساً لعدله ورحمته ورضاه.

وهكذا تدرَّج في المناصب وتنقَّل بين الأقسام إلى أن عُيِّن مديراً لقلعة دمشق بما فيها المستودعات والسجون، وبقي فيها ردحاً من الزمن قدَّم أثناءه من روائع البطولات والأمجاد ما لم ترَ الشام مثيله إلى الآن، حيث جازف بإطلاق سراح آلاف المحكوم عليهم بالإعدام وزجَّهم في الصفوف الأمامية للدفاع عن البلاد ضد العدو الكافر، وكان السبب في إزالة أعواد المشانق من البلاد التي زرعها جمال باشا السفاح

تعسُّفاً في أسواق البلاد وأحيائها والتي كانت تبتلع كل يوم المئات من أبناء الشعب. وكم تعرَّض في سبيل ذلك إلى الموت مرات ومرات فأنجاه الله بعظمته ورحمته ونصرته.

وفي عهد فرنسا وبما أنه ضابط أمن مدني أُعيد إلى تسنُّم منصبه كمدير ناحية أو رئيس قسم، وحين اندلعت الثورة السورية الكبرى كان بحبه لربِّه ورغبته النبيلة في خدمة وطنه العضد والساعد للثوَّار، وشريانها الأبهر، فكان خاتمها بيده أميناً عليه فأقضَّ مضاجع الفرنسيين بمحاولاته الرهيبة لقلب الهزيمة نصراً مسلِّماً الثوَّار أكبر صفقة من الأسلحة مصدَّرة من فرنسا إلى بلاد الشام، ولما قام بتسليم هذه الأسلحة التي كان الفرنسيون يضعونها في مخازن قلعة عنجر في لبنان إلى الثوَّار ليلاً طاش صواب الجنرال "كاترو" فأصدر القرار بإعدام السيد محمد أمين. ولكن الله العلي نجَّاه ومعاونه بكلماته التامات وانقلب لديهم مكيناً أميناً "على ظنِّهم الخاطئ".

* * *

لزم الشيخ أمين كفتارو قرابة إحدى وعشرين سنة وتفانى في خدمته والإخلاص له والدفاع عنه، وفي الأربعين من عمره الغالي فتح الله عليه من علمه فبدأ بتلاوة سورة الفاتحة شهوداً، فأضحى يمدُّ شيخه بالعلوم الربَّانية العليا بشهادة شيخه، فضلاً عن مساعدته إيَّاه من جاهه وماله.

وبعد وفاة الشيخ المذكور حزن عليه كثيراً وتأثَّر لوفاته، فلقد كان خيراً عميماً يجري على يد ذلك الشيخ الطيب، ولم ينسَ لحظات الصفاء التي جمعتهما والتي كانت سبباً ليسلك سُبُل الهداية والدعوة إلى الله وفق كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ولا يحيد.

وبعد وفاته خلفه في تسليك المريدين فحمل لواء الإرشاد بكل قوة وجدارة.

وهو يدعى "أمين بك"، وكلمة "بك" أصلها تركي وهي تعني: الطاهر.

كان يرتاد مجالسه زهرة شباب الشام ولبنان والعراق طالبين الري من ينبوعه المحمدي الثري المعطاء لِما فيها من جو المهابة والجلال والقدسية.

إذا المكارم في آفاقنا ذكرت فإنما بك فينا يُضرب المثل

* * *

تميَّزت مجالسه القدسية بروعة البيان وتفرّده وكمال المعنى ووضوحه وحضور الحقيقة وكمالها، فكانت كلماته تقع في نقطة الهدف وتكون في قلوب السامعين برداً وسلاماً ونوراً يأخذ بألبابهم تطير بنفوسهم إلى عليين.

بدَّد الظلمة ومزَّق التناقضات وقضى قضاءً مبرماً على مدارس الدسوس والجدل العقيم الذي أقام في عقول الناس فجوة كبرى بينهم وبين ربِّهم، فعرَّف الناس حقيقة الإله وكمال صفاته.. ربّاً رحيماً حكيماً عادلاً منْعِماً متفضِّلاً يستحق العبادة لذاته وكونه صاحب الجمال والكمال، فهو الذي لا يُحمد على مكروه سواه لِما يعود على المرء بالشفاء والعطاء، وهو الغني عن العباد وعن ولائنا له وطاعتنا إيّاه، فنحن نحتاج إلى الدخول عليه في حصن الإيمان النوراني فنتَّقي به كل مكروه وسوء.

لقد كان سفر حياته الشريفة ترجمةً عالية ودستوراً واضحاً لما أتى به من بيان مُذهل تنطوي فيه حقائق مدهشة صاعقة تدير الرؤوس وتحني الجباه، فكانت الحقيقة نوراً والصورة برهاناً وكان المثل والتطبيق العملي الصحيح عنواناً.. بيان قد عجزت عن مثيله وإلى الآن حضارات العالم وقوانين الدنيا الوضعية..

لِمَ خُلِقنا؟. ولِمَ هذا الكون العظيم، ما فائدة طقوس الدين؟.

لِمَ الجوع فالأكل برمضان؟. ما مردود وفائدة الصلاة؟.

لِمَ الحج في صحارٍ، لا ماء فيها ولا شجر؟.

لِمَ وجدنا؟. وأين كنّا؟. لِمَ الموت وماذا حقّاً بعده؟.

ما هي النفس؟. ما هي الروح؟. وما العقل؟.

ماهية الجنَّة؟. ماهية جهنم؟.

القضاء والقدر؟. عالَمُ الأزل؟.

حقائق وأسئلة غابت عن أذهان الناس، إذ انشغلوا بالدنيا وزخرفها ونسوا أن يبحثوا في ملفات الوجود ويتعرَّفوا على أسراره.

حتى لقد قال فيه عالِمُ العصر الإنكليزي الشهير السير "جون بينت" قول حق إبان اجتماعه بعلماء الغرب:

"**إن كل ما توصَّلنا إليه من علوم لا يعدل بحر ذلك العالِم الكبير في الشرق**".

* * *

لقد كانت دعوته إلى الله انطلاقاً من منهج لا يعرف الخطأ أبداً:

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُواْ إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1].

على ضوء هذه الآية الكريمة قام يدعو إلى الله ما ينوف عن ثلاثين عاماً بصورةٍ يدور فيها حول النقاط التالية:

- تعريف الناس بكمال الله تعالى وبيان رحمته بعباده وعدله في خلْقه، وردّ كل ما علق بالأذهان وما دار على الألسنة مما يتنافى مع العدالة والرأفة والرحمة وسائر الكمالات الإلهية ونبراسه في ذلك قوله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2].

- بيان كمال الرسل عليهم الصلاة والسلام الذين شهد الله تعالى في كتابه الكريم بطهارة نفوسهم وعصمتهم وجعلهم مُثُلاً عليا للعالمين يقتدون بهم، كما ورد في كتابه الكريم "عصمة الأنبياء" وذلك ما لم تستطعه الأوائل. ودحض كل افتراء أو تفسير يتنافى مع سموّهم ورفيع مكانتهم متمسّكاً في ذلك بقوله تعالى:

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ..﴾[3].

- الدعوة إلى التمسُّك بأهداب الشرع الشريف، وتقوى الله حق تقاته مع تحذير الإنسان من أن يُتبع نفسه هواها ويتمنى على الله الأماني راجعاً إلى قوله تعالى:

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً﴾[4].

وقول رسول الله ﷺ: «**الكيِّسُ مَنْ دانَ نفسَهُ وعمل لما بعدَ الموْت، والعاجزُ من أتبعَ نفسه هواها وتمنَّى على الله الأماني**».

---

[1] سورة يوسف: الآية (١٠٨).

[2] سورة الأعراف: الآية (١٨٠).

[3] سورة الأنعام: الآية (٩٠).

[4] سورة النساء: الآية (١٢٣).

- إرشاد الناس إلى خطوات الإيمان الصحيح وفق ما بيّنه رسول الله ﷺ لأصحابه الكرام أخذاً عن كتاب الله، إذ ما من امرئٍ خالطت بشاشة الإيمان قلبه إلا استقام على أمر الله وكان له رادعٌ من نفسه، وقد أشار تعالى إلى ذلك بقوله الكريم:

﴿ . . وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ . . ﴾[1].

- توقير رسول الله ﷺ وتعظيمه وبيان شأنه العالي عند الله ثمَّ الإرشاد إلى طريق محبته ﷺ، وبيان ما تثمره محبة تلك النفس الزكية الطاهرة من إقبال بصحبتها على الله واصطباغ النفس المؤمنة المستشفعة بها بكمالٍ من الله تأسياً بقوله تعالى:

﴿ . . فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[2].

كان عمراً غالياً ثميناً قضاه هذا الإنسان الطاهر بالجهاد والرغبة في التقرُّب من الله.. وبهذا القرب نال ما نال من درجات وكمال.. وحقَّق ما حقَّق من أمجاد وأعمال مشحونة بالجهاد الإنساني المقدَّس.. وبالتضحيات الإنسانية الكبرى.. حتى كانت حياته مثلاً أعلى لسلوكٍ أسمى من أجل نصرة الحق.. ببطولات لا مثيل لها هزمت الباطل وجعلته زهوقاً.

لقد رهن حياته الثمينة بأجمعها لخدمة أخيه الإنسان.. يُسابق عجلة الأيام في جريها ويُضاهي الشمس بنورها.. وقد تحوَّل على يديه ليل الشام إلى نهار لما يسطع عليها من أنوار أعماله وبركات تضحياته حتى كان يواصل الليل بالنهار متجاوزاً عن راحته ولو لم يطرق النوم له جفناً عدة ليال متواليات باستثناء غفوات وهو يحاول ويُجاهد في سبيل إنقاذ أخيه الإنسان من مستنقعات الحزن والآلام غير مبالٍ بما يعترضه من أخطار الموت أو الإعدام ولا بما يتكبده في سبيل الله من مال أو تنازلات.. وكثيراً ما كان يبقى خاوي الوفاض على الرغم من سابق غناه المادي.. وهنا فلا غرابة ولا غرور أن يفتح الله عليه بليلة مباركة ذلك الفتح المبين حتى يُشاهد ملكوت الإله ويعرج بنفسه في تلك العوالم القدسية العليّة المحمَّدية التي هيَّأ الله له والتي حصل عليها بصدقه ومجهوده وتضحياته.. كذلك فكل من جاهد لأجلها وصدق في حبِّه وطلبه لله وللرسول ﷺ فالباب مفتوح له ولكل سالك مريد صادق.

[1] سورة التغابن: الآية (١١).

[2] سورة الأعراف: الآية (١٥٧).

فعلى هذا المنوال الرائع قضى حياته الغالية الزاخرة بالمعرفة بالله التي لا يطمئن القلب إلاَّ بها ولا تسعد البشرية إلاَّ إذا حصلت عليها.. فكان السراج الذي يُضيء للأجيال طريقها إلى السعادة بكتاب الله والنبراس الذي يهدي البشرية إلى ما تصبو إليه من الكمال والسعادة والفضيلة والحياة الطيبة من الله إلى أن التحق بالرفيق الأعلى في غرَّة شهر ربيع الآخر عام ١٣٨٤ هـ، ووُري جثمانه الطاهر الشريف بمقبرة نبي الله "ذي الكفل" في حي الصالحية.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[١].

تقـديم

المربّي الأستاذ

عبد القادر يحيى الشهير بالديراني

[١] سورة فصلت: الآية (٣٣).



ذاك الزمان ومنذ أكثر من مئة عام عاش الناس حياة البساطة سعداء.. بيوتهم عربية البناء واسعة الفناء مصنوعة من الطين "التراب" ينير غرفَها ليلاً سُرج الزيت.. فلا كهرباء آنذاك..

البساتين والأشجار تحف المنازل المزدانة باحتها بأحواض الأزهار والورود البديعة والمزروعات والتي ترفدها جداولُ رقراقة بديعة دفَّاقة تُحيي النفوس وتقرُّ بها الأعين متفرعة من الأنهار الرئيسية العذبة الشديدة الجريان.. فالخير عميم والأمطار غزيرة والأرض معطاء. ينام الناس باكراً ويستيقظون على صلاة الفجر باكراً.. فلا ضجيج لسيارات ولا دخان لمعامل ولا حوادث ومصائب السير.. فالهدوء ساري والأمان عام والناس متحابين متآلفين.. بذلك الوقت حدثت أحداث قصتنا..

* * *

كان الحاج اسماعيل يذرعُ أرض الديار جيئةً وذهاباً ينتظر بفارغ الصبر قدوم مولوده الجديد.. "والحاج اسماعيل تاجر كبير صاحب دين وأخلاق فاضلة يتمتع بسيرة حميدة.. شهم كريم شجاع".

وما هي إلاَّ ساعات قليلة حتى وَلَدَت أم سليم "زوجة الحاج اسماعيل" ولادة يسيرة.

إنه ذكرٌ...

لقد حلَّ على الدنيا وليدٌ يخجل البدر بطلعته.. جماله صاعق قلَّ مثيله وندر..

فرح الحاج اسماعيل كثيراً كثيراً عندما زفُّوا له الخبر:

لقد رزقك الله بطفل ذكر.. كالقمر.. فماذا ستسميه؟.

قال: الحمد لله.. الحمد لله.. الحمد لله.. إن شاء الله إن اسمه محمد أمين..

* * *

نشأ الصغير السيد محمد أمين في حضن أمه وتربَّى بعطف أبيه حياةً ملؤها الدلال وكثرة الخير والنعم.. فلقد أحبَّه والده كثيراً.. حتى إنه في صباح كل يومٍ وقبل مغادرته المنزل لعمله يترك مع والدة الصغير مجيدياً كاملاً، أي ما يعادل نصف ليرة ذهبية.. قائلاً:

خذي يا أم سليم هذا المجيدي (مصروف الجيب) خرجية الصغير لهذا اليوم.. أعطه إيَّاه عندما يخرج لِلَّعب في الحي.. فتتناوله وتُخبئه..

ولما يحين موعد خروج الغلام البطل يَحضر لوالدته ويمدُّ يده لها بدون أي كلام فتخرج المجيدي وتضعه في يده الحُلوة الصغيرة ثم تنحني فتقبِّله وتوصيه بالحرص على نفسه لكي لا يؤذى أو يُجرح.. أو..

أما هو فينطلق من بعد نواله (الخرجية) إلى رفاقه الصغار أمثاله فيرحبون به أشدَّ الترحاب.. كيف لا وهو زعيمهم الكريم وقائدهم العبقري الذكي..

ينظر السيد محمد أمين إلى الفقراء منهم فيشعر برحمة تتدفق في قلبه عليهم.. يرى ما هم بحاجة له.. وما يتطلبونه ويشتريه لهم وآخرين يعطيهم قطعاً صغيرة نقدية.. وهكذا يصرف معظم (خرجِيَّته) اليومية هذه على رفاقه وأصدقائه.. نِعْمَ الصديق والرفيق الرحيم الكريم..

لا يعود للبيت إلاَّ وقد خوى جيبه من النقود بعد أن أنفقها كلها أو معظمها عليهم. وهكذا حتى أصبح عمر هذا اللطيف الكريم سبع سنوات..

* * *

وبيومٍ من الأيام عاد الحاج اسماعيل باكراً من عمله على غير عادته مريضاً يئن أنيناً.. ولما حضر حبيبه اللطيف ناداه فحضر ماثلاً بين يديه:

نعم يا أبتي بماذا تأمرني؟.

فقال الحاج اسماعيل: بني حبيبي.. تعالَ إليَّ، ثم نظر إليه نظرة ملؤها الحب والرحمة والحنان.. بعينين ملأتهما الدموع، فضمَّ صغيره الحبيب إلى صدره ودعا ربَّه راجياً متوسِّلاً:

يا رب.. أما سليم (ابنه الثاني الشاب) فأنا ربَّيته.. وهذا (أي السيد محمد أمين) فربِّه أنت يا رب!!. أنا لم أستطع أن أربِّيه.

لقد أدرك الحاج اسماعيل أن نهاية أجله باتت قريبة.. وما هي إلاَّ فترة قليلة حتى انتقل الحاج اسماعيل إلى جوار ربِّه.. لقد مات..

غادر الحياة تاركاً وراءه اليتيم الصغير ووالدته وحيدين في المنزل بعد أن سافر الابن الأكبر سليم إثر تخرجه من الكلية الملكية العسكرية..

حزنت الأم كثيراً لفراق رب الأسرة وجلست مع يتيمها الصغير تنظر إليه بعيون تلألأت بالدموع.. دموع الحزن.. رأت صورة هذا الحزن مرتسمة في عيني صغيرها الخضراوتين الجميلتين فصَعُبَ عليها كثيراً أن تراه بهذا الحال، مع أنه لم يكن حزيناً، إذ ما كان ليدرك حجم المصاب لصغر سنِّه لكنها ظنته يُقاسي مرارة فراق المرحوم تماماً مثلها.. ولذا راحت الأم الحنون تبحث بذاكرتها عن قصة أو حكاية.. لتقصُّها على مسامع عزيزها الصغير لِتُسرِّي عن نفسه ما حسبته عنده من حزن، وهو "أي الحزن" عند نفسها على فراق المرحوم.. بحثت وبحثت في ذاكرتها.. حتى وأخيراً تذكَّرت ولكن ذكرياتها للمرحوم لم تغب عن خاطرها.. ولذا لم تتذكَّر إلاَّ حادثتين أسرَّتا المرحوم كثيراً كثيراً.. عندها أخذت الصغير إلى فراشه وجلست بجانب رأسه وراحت تسرد له الحادث الأوَّل قائلة:

بني الحبيب.. قرَّة عيني.. منذ سنينٍ سبع لما كُنْتُ حاملةً بك في الأشهر الأخيرة من حملي.. ذات مرة خرجت إلى السوق قاصدةً شراء بعض الحاجيات واللوازم.. وتابعت حديثها اللطيف الحزين تسرد الحادث..

* * *

لمّا كانت تسير في السوق لتشتري بعض الحاجيات مرَّ رجلٌ يُدعى "ابن عابدين".. إنه رجلٌ مجذوب بحبِّ الله هائمٌ مذهولٌ مأخوذٌ بمشاهدته القلبية عن تفكيره..

وابن عابدين هذا أحد المجاذيب بذاك الزمان صيته سارٍ في كل أنحاء الشام يعرفونه كباراً وصغاراً.. فبينما هو يركض وما أن أصبح بمحاذاتها حتى رفع يده بالهواء وهوى براحة يده بضربة خفيفة على ظهر هذه المرأة الحامل!. وهو يقول:

معك وليٌ كبير[1].. كبير.. كبير!!.

وانفتل عائداً مسرعاً في السوق من حيث أتى وما يزال صدى صوته يتكرَّر:

كبير.. كبير.. كبير!!.

تابعت الأم حديثها: وابن عابدين هذا يا بني مجذوب معروف عند الناس أنَّ ما يقوله يتحقَّق.. فالمَلَكُ ينطق بلسانه.. وأفعاله كلها مباركة.. ولقد سُرِرْتُ كثيراً ببشارتي بك كوليٍّ كبير.. وشاع الخبر بين نساء الحي وتناقلنه، ثم قَدِمْنَ إليَّ مهنئات. أما والدك رحمة الله عليه فلقد طار فؤاده فرحاً، إذ توسَّم فيك الخير الكبير..

* * *

كان الصغير أمين بفراشه، يستمع في صمتٍ وتفهُّم ذكي، وهو ينظر بعينيه الجميلتين إلى أمِّه الحبيبة سعيداً بحديثها الهادئ العذب اللطيف... ألا تذكر يا بني الحبيب ذلك اليوم.. منذ سنوات ثلاث لما خرجت من غرفة والدك.. وأيضاً تابعت الأم حديثها تسرد الحادث الثاني الذي تذكَّرته..

لقد تجلَّت في هذا الحادث بوضوح أماني بطلنا الصغير محمد أمين وأحلامه التي كانت تفوق سنه بكثير، فلقد خرج لمَّا كان عمره سنوات أربع من غرفة والده.. قد لفَّ على رأسه قطعة قماشية بيضاء جعلها كعمامة أصحاب الدين.. إذاً يتمنى أن يصبح مرشداً يرشد الناس إلى الله!!.

ولكن الأغرب من ذلك أنه قد وضع من فوق العمامة البيضاء قبعة عسكرية (قبعة أخيه سليم الذي كان

[1] **كبير**: كبير المقام عند الله.

يدرس في الكلية الملكية العسكرية).. إنها قبعة ضابط، ويركب فرساً.. كان هذا الفرس عصاً وقد وضعها بين رجليه!!. إذاً يحلم بأن يصبح ضابطاً!!.

وعندما رآه الحاضرون بهذا الشكل الغريب المثير.. التفتوا إليه بذهول، وقال له أبوه "المرحوم":

بني حبيبنا.. ولكن كيف لك أن توفِّق وتجمع اثنتين لا يمكن جمعهما سوياً..

فإمَّا مرشدٌ[١] داعٍ إلى الله، وإما ضابط.. أما الاثنتان معاً فلا تجتمعان.

لكن عيناه كانتا تبرقان ثقةً بالأمل المشرق وكأنه يرى أمامه مستقبله الإشراقي ويقول في سرِّه:

نعم سأصبح مرشداً داعياً إلى الله وضابطاً بالأمن أقيم الحق وأنصف الناس "أعطيهم حقوقهم" وأقضي على الظلم والشرور.. أقرن القول بالعمل!!.

الحاضرون استبعدوا أن يتحقَّق ذلك ولكن الأيام أثبتت صحة تنبُّئه الغيبي اللاشعوري بالمستقبل.. فعندما أَصبحَ شاباً أَصبحَ ضابطاً ثم داعياً مرشداً كبيراً.. علاَّمة جليلاً.. ذلك الولي الكبير الكبير.. حقاً ظهر أنه عبدٌ لله.. إذ أقام الحق والعدل بين الناس وقضى على الإجرام والأشرار.

تابعت الأم مسترسلة في حديثها اللطيف وهي ترسم على شفتيها ابتسامة حزينة والذكريات تمرُّ أمام عينيها فتزيدها أسىً حتى استسلم صغيرها للنوم ونام، عندها اطمأنت عليه وقامت إلى السراج لتهدِّئه فظلَّ ينبعث منه ضوءٌ خافت مُريح، بينما استمرَّ الأمير الصغير في نومه بأمان وراحة.



[١] **المرشد**: رجل دين يدلّ ويدعو الناس ليسيروا بدين الله.



سمع هذا الطفل السيد محمد أمين ذات مرة حديثاً كان يجري بين والدته وإحدى النساء التي راحت تروي لها قصة غريبة زعمت أنها تحدث في كل ليلة، وأن نساء الحي كلهنَّ قد علمن بها وتحدَّثن عنها وتناقلوها.

هل سمعت يا أم سليم عن "الجنيّة"؟!.

ماذا "الجنيّة"!!!.

نعم "الجنيّة" التي تظهر في كل يوم في الحظيرة[1].

لا والله لم أسمع عنها، ولكن من قال لك ومن أين سمعت؟.

نساء الحي كلهن قد سمعن عنها، يقولون إنها تظهر إذا ذهب أحدهم إلى هناك بعد منتصف الليل، وأنها تخرج على من يناديها ويطلبها، فيراها تحاكيه وتكلمه، ولقد قالوا أن أحدهم قد أمسك بها فراحت تتوسل إليه أن يدعها وشأنها وعندما رفض عرضت عليه أن يطلب منها ثلاث أمنيات، فإذا حققتها له يتركها تذهب وشأنها.

[1] الحظيرة: الاسطبل أو "البايكة" وكان سابقاً لكل دار حظيرة للحيوانات.

ولقد توسعت أصداء مثل هذه القصص، وانتشرت أخبارها فانشغل الناس بها حتى استحوذت على اهتمامهم وتفكيرهم، صار الكل يتحدث عنها، ومنهم من راح يختلق قصصاً وهمية ويحاول إقناع الناس أنها حدثت معه فعلاً.

ومن كثرة تردُّد أحداث هذه القصة إلى مسامع صغيرنا السيد محمد أمين الذي لم يكن قد بلغ من العمر بعد سوى ثلاث سنوات ونصف تقريباً، صدَّقها ولكن لم يشأ أن يُقرَّ بها تماماً قبل أن يتأكد بنفسه مما سمع وعلم.

* * *

فلمَّا كان الليل، خلد صغيرنا إلى سريره وتظاهر بالنوم ليُقنع أهله أنه نائم فيطمئنوا عليه، ولكن ما أن انتصف الليل، حتى غادر سريره، وتوجه ليهبط الدرج بخفة وهدوء متوجهاً إلى خارج المنزل، قاصداً تلك الحظيرة، حيث المكان الذي توجد فيه "الجنيّة".

لقد دعاه فضوله وحبه للاكتشاف إلى خوض هذه المغامرة، ليتعرَّف على "الجنيّة" عن قرب، وقد كان ينوي إذا رآها أن يمسك بها... ويشترط عليها حتى يتركها أن تجلب له ملوك الأرض كافة ليعرض عليهم دين الإسلام، وإذا رفضوا فإنه سيقطع رقابهم.

وبالفعل وصل إلى المكان المقصود، وجلس هناك ينتظر أن تحضر تلك "الجنية".

ولما تأخرت أخذ يناديها ويناجيها، ويضرب بيده الصغيرة على الأرض داعياً إياها أن تخرج وتظهر له، ولكن ما من أحد يجيب نداءه أو يرد عليه!!.

وفي الليل استفاق أبوه من النوم ليطمئن على صغيره النائم فلم يجده في فراشه فاستفاق كل من في البيت وأخذوا يبحثون عنه في كل مكان، ولم يدعوا غرفة إلا ذهبوا إليها على أمل أن يكون موجوداً فيها... لكنهم لم يعثروا له على أثر.

وبدأ القلق يدبّ إلى قلوبهم، وراح كل واحد منهم يتساءل في نفسه: أين عساه يكون يا ترى؟. لقد مضى على انتصاف الليل بعض الوقت، هذا شيء مخيف حقاً.

ولما فقدوا الأمل من العثور عليه داخل المنزل اقترح أحدهم أن دعونا نبحث في الحديقة أو ربما وجدناه في الحظيرة: إذاً هيا بنا لنرى ما إذا كان موجوداً هناك.

وخرجوا باتجاه الحظيرة مصطحبين معهم المشاعل لتضيء لهم عتمة الطريق، وما أن اقتربوا حتى سمعوا صوته الشجاع الحاد يرتد إلى مسامعهم، وهو يقول:

أيتها "الجنية": لما لا تجيبيني؟. هيا... أنا أناديك وأدعوك لمَ لا تردِّين عليّ؟.

أسرعوا باتجاه الصوت، وإذا به جالس هناك على الأرض، وهو يردد هذه الكلمات ولا ينفك يضرب على الأرض بقوة طالباً إياها بإلحاح وجرأة خفقت لها قلوبهم إكباراً، وتهافتوا عليه... ماذا تفعل يا صغيري؟. وأي شيء هذا الذي أتى بك إلى هنا في هذا الوقت المتأخر من الليل؟.

فردَّ عليهم: أريد مقابلة "الجنيّة" التي تتحدثون عنها...

هيا... هيا بنا يا بني نعود إلى البيت ودعك من هذا الأمر، أنت ما زلت صغيراً وما زالت هذه الأشياء بعيدة عنك وخارجة عن اهتمامك. (لكنهم في نفوسهم هزؤوا من تصديقهم لمثل هذه القصص وأنَّبهم ضميرهم، فهذه خرافات).

لقد خافَ أهلُه عليه وقالوا على مسمعٍ منه "وهو يسمع" فيما بينهم:

إنَّ حيّةً كبيرة مُرعبة ترقدُ على معلفِ الخيلِ وهي تعضُّ من يجلس هناك وتقتله، فذهب معهم مرغماً، لكن ذلك الأمر لا يزال يشغله ويؤرقه ويهمه أن يتأكد من صحته.

* * *

وفي اليوم التالي، وتحت ستار الليل عاد إلى محاولة جديدة، وفي قلبه تصميم ألا يدع هذا الأمر يمر عابراً دون أن يكون قد كوّن فكرة منطقية عنه لا يصادرها أدنى شك والتحقيق بالعمل عين اليقين.

وبالفعل، توجه إلى المكان ذاته وفعل ما فعله بالأمس، فلم تحصل له أية نتيجة تثبت صحة ما يقولون سوى صمت وسكون لا يتخلله إلا بعض الأصوات الاعتيادية، صرصر من هنا، وكلب من هناك، أما "الجنية" فلا أصل لها ولا وجود.

وهنا عرف أن أحاديث النساء عن هذا الأمر إن هي إلا كذباً فليس لها بالواقع أية صلة، وتوطَّد يقينه بكذب هذه القصة عندما أعاد الكرَّة في الليلة الثالثة وذهب إلى هناك في نفس الوقت وللهدف ذاته.

وقد قرَّر بعد هذه القصة أن لا يصدِّق شيئاً مما يسمعه أو مما يُقال له مهما كان هذا الأمر، وأياً كان دون أن يتأكد بذاته من صحة ما يُقال له، ودون أن يسعى إلى خوض التجربة، حتى يعود بالنتيجة الأكيدة التي يرتاح لها ويطمئن لها قلبه.





كان السيد محمد أمين منذ طفولته مولعاً بركوب الخيل، ولقد خاف عليه أبوه من السقوط من على ظهر الفرس لأن عمره لم يتجاوز الخمس سنوات إذ ذاك، فجلب سايساً للخيل لأجل هذا الأمر وأعطاه تعليمات بأن لا يسمح لولده بأخذ الفرس.

جاء الطفل الذكي وأخذ يسامر السايس بأحاديثه ويتظاهر بالنعاس ويتثاءب أمامه كي ينام السايس حتى نام فأخذ المفاتيح منه خلسةً وفتح باب الإسطبل، ولئلا يصحو السايس على صوت حوافر الفرس أثناء خروجها من الإسطبل ربط حوافر الفرس الأربعة بقماش وأخرجها دون أن يُشعر السايس بها وانطلق يسابق الريح بعد أن امتطاها من على ظهر جدار منخفض.

وبعد فترة من الزمن قضاها بالمطاردة رجع وأدخلها إلى الإسطبل بنفس الطريقة التي أخرجها بها ثم أغلق بابه وأعاد المفاتيح إلى حزام السايس وكأن شيئاً لم يكن.

أفاق السايس على أصوات غريبة داخل الإسطبل فلما فتحه فوجئ بالفرس يتصبب منها العرق ففهم أنه أخرجها عندها تسلل رعب قاتل إلى أعماقه وتصبب العرق غزيراً من جبهته وذلك عندما رأى أن الفرس على وشك الولادة وهي بهذه الحالة من الإنهاك، أي إن ولادتها غير طبيعية.

اشتدّ به الذعر خوفاً من والد الطفل وتوبيخه له كيف سمح لابنه الطفل بأخذ الفرس منه وهو الناضج الكبير!.

فعلاً تعسَّرت ولادة الفرس حيث ظهر قسم من الجنين وتوقفت عملية الولادة بسبب النصب من المطاردة، ولشدّة خوفه همَّ بشدِّ الجنين بدون وعي لإخراجه من بطن الفرس "وفي ذلك قتلها وقتل جنينها"، فصاح به الطفل أن توقفْ، ثم جلب بعض الثياب البالية وجعلها على شكل حبل وربط طرفها الأول بالجنين والطرف الآخر ربط به حجراً ودلاَّه باتجاه الأرض، حيث ساعد هذا الثقل البسيط الجنين على الهبوط الطبيعي من دون أن تتأثر الفرس أو يتأثر الجنين وبذلك ولدت الفرس ولادة طبيعية.

* * *

وعندما خاف والد السيد محمد أمين عليه من ركوب الخيل وكان آنذاك قد بلغ السادسة من عمره، أوصى السايس الذي كان يعمل عنده بعدم السماح لطفله الصغير بركوب الخيل فما كان من هذا الطفل النابغة إلاَّ أن ذهب إلى المكان الذي كان أهل ذلك الزمان يسرجون فيه خيلهم مُصطحباً معه كلبه الضخم المطيع ليسرجه كما تُسرج الخيل.

وعندما طلب من السرَّاج أن يسرج له الكلب ضحك السرَّاج وقال له:

يا بني إن هذا كلباً وليس فرساً حتى أسرجه!.

فرد عليه: أولست تريد أجراً على هذا!.

ودفع له الأجر الوافر، عندها سرج له كلبه كما تُسرج الخيل.

وهكذا استطاع هذا الصغير السيد محمد أمين أن يجعل من الكلب السريع حصاناً ألَّفه للركوب وامتطاه وسابق به عنان الريح، فسبق الأصايل الضامرة مما أوغر صدر الرجال، فضربوا الكلب المذكور بعد فترة من الزمن ببندقية صيد محشوة بالبارود على عينيه فأعموه.





ولج السيد محمد أمين باب الدار ووقف خلفه وهو يمسك "العشرة بيشلي"، رنا إليه قلبُه ثم قذفه في الهواء ثم تلقَّاه ووضعه في جيبه...

لقد أدرك شيئاً وقرَّر أمراً؟؟؟.

كان في السابعة من العمر بُرعماً يتفتَّح، يفيضُ حيويَّة ويقطر البشْر من وجنتيه، ترتسم على مُحيَّاه مخايل الرجولة وتسمه النبالة بميْسَمِها، وتطلُّ من عينيه نظرة تستشرف المستقبل وتحكي قصة الماضي، يموج الشذى في حركاته ويتألَّق الذكاء من لمحاته، تكلِّله الطهارة يتوِّجُه الشرف، تراه بين أقرانه علَماً لا يملُّ الخفق أبداً.

كان والده رجلاً صالحاً عُرِف بأمانته وحسن خلقه، امتهن التجارة، ونظراً لما تحلَّى به من محامد جمَّة ذاع صيته واشتهرت تجارته حتى غدا من أكابر التجار وفتح الله عليه باب الرزق فانسال عليه من كل حدبٍ وصوب.

لقد اعتاد ومع مولد كل صباح أن يترك للسيد محمد أمين مع والدته "الخرجية" مصروف الجيب "مجيدي كامل" وقت كان فيه كل مجيديْن بليرة ذهبية يأخذه ويمضي إلى حيث ينتظره الرفاق فينفق على هذا ويشتري لهذا ويعطي هذا حتى يغمر الكلَّ عطاؤُه ويطالُ الكلَّ نواله، وكيف لا وهو الزعيم وهو القائد

يبرُّهم ويؤدِّبهم، يحنو عليهم ويمدُّ يد العون لهم، والويل ثم الويل لمن ينحرف عن جادَّة الفضيلة أو يزاور عن ناموس الأخلاق.

* * *

امتدَّت يد المنون إلى والده ذلك الرجل الطيب الطاهر وأغمض الموت عينيه وواراه التراب، حزنت زوجته عليه كثيراً، وجلست هي وابن الأعوام السبعة تذرف الدمع مهطالاً وتئن أنيناً يقطِّع نياطَ القلوب.

قذىً بعينـك أم بالعين عـــوّارُ أم ذرفت إذ خلتْ من أهلها الدار

لقد هزَّها المصاب وآلمها هذا الغلام إذ ظنَّت أنه يقدُّ الحزن معها على عمود البيت ولم تدرِ أنه لم يغزُ الحزن على والده قلبه، لقد رأت صورة حزنها في مُحيّاه لكنه كان ينظر إلى أمه باستغراب ودهشة.

* * *

في اليوم التالي وعندما أطلَّت غُرَّةُ الصباح أقبل إلى والدته وكعادته مدَّ يده لتضع فيها "الخرجية" مصروف الجيب اليومي تشاغلت عنه قليلاً غير أنه بقي واقفاً ينتظر، فما كان منها إلا أن مدَّت يداً متردِّدة إلى صدرها وتلوَّت وانثنت إلى أن اعتصرت "عشرة بيشلات[1]" ناولته إيَّاها بعد أن تصبَّب العرق منها.

تناوله وظلٌّ من الغرابة يكسو وجهه...

لماذا عشرة بيشلي وأين البقية؟. أين المجيدي؟. عجباً لماذا؟.

لكنه أخذه ومضى.

وما أن تخطَّى عتبة الدار حتى لفَّته سحابةٌ من التفكير العميق وغزا هذا الكيان الواسع والنفْسَ اللطيفة تأمُّلٌ صارم، لقد قال لنفسه:

إن كان من يمدُّ البيت ويزوِّده بما يحتاج إليه ويفرد له يداً سخية قد غادر مسرح الحياة ذاك كان يعمل ويجتهد ويكدح ليؤمِّن لأسرته العيش الرغيد، أما هذه المسكينة فمن أين لها بالمال وهي امرأة لا تستطيع الخروج من البيت فكيف بالعمل، ناهيك عن أن المرأة مقترةٌ بطبعها.

[1] ملاحظة: "**المجيدي والبيشلي**" عملة نقدية من العملات التركية سابقاً.

نظر إليه ثم قذفه في الهواء ثم تلقاه ووضعه في جيبه، عضَّ على شفتيه ومضى حتى اختفى خلف الزقاق.

لقد كان ذاك "العشرة بيشلي" آخر عهد لما يأخذه من أمه.

لقد تجاهلتْ في اليوم التالي حاجته إلى "الخرجية"، ومضى اليوم الثالث والرابع ومرَّ الأسبوع، قالت له:

أي بني ألا تريد خرجية؟.

أجابها: أمي الحبيبة هذه "العشرة بيشلي" ما زالت معي لم أصرفها وعندما أصرفها سأطلب منك ما أحتاج إليه.

سُرَّت الأم كثيراً فقد أذهب عن كاهلها ما كانت تحسبه لهذا الموقف من عناء، لكن هذا الإنسان القانع النبيل سكت على المعاناة وصبر على القلَّة، وما أصعبها وما أقساها فهو الذي كان يصرف على أولاد الحي قاطبة ناهيك عن أنه زعيمهم يخرج خاوي الوفاض إليهم!.

والكل يرقب هِباته وأُعطياته يقرؤها في العيون وقد تُفصح الألسنة عنها!.

بقيت "العشرة بيشلي" في جيبه حتى بلغ سنَّهُ الثامنة عشر، لقد أمضى أحد عشر عاماً في التقشف والحرمان صابراً محتسباً والكلُّ من حوله يتقلَّبون في النعمة.





حدثت هذه القصة في أحد بساتين الهامة "وهو منتزهٌ جميلٌ في إحدى روابي وادي بردى بغوطة دمشق الغربية"..حيث الطقس جميل والأغصان متمايلة تميس مع النسيم العليل والشمس مبتسمةٌ تنير الوجود وتَرْقُبُ السيد الصغير الموهوب وهو على صهوة حصانه المحبوب يدوس "ينهب" الأرض التي اكتست بثوبها العشبي الأخضر الجميل:

فبعد أن رحل والد الصغير عن الحياة وكان لا يزال البطل في سن الطفولة يرتع ولم يتجاوز السابعة من عمره، لم يبقَ في البيت إلاَّ هو وأمه الحنون بعد سفر أخيه الكبير سليم..

أما فرس الأب فما زالت بالحظيرة، فلقد غاب عنها فارسها إلى الأبد.. إلاَّ أن الفارس الصغير لم يغب عنها، فعندما كان الوالد على قيد الحياة كان لا يستطيع ركوبها إلاَّ خفية أو بتدبير حيلة ذكية.. والآن وبعد موت والده بقيت أمه ذات القلب الحنون والعواطف الرقيقة فلم يعد يحتاج لكثير من التفكير، بل بقليل من التدبير.. يأتي لوالدته فيستعطفها بكلماته الرقيقة تارة ويُلِحُّ عليها برجائه الملح تارةً أخرى وهذا ما يدفعها في أغلب الأحيان لِتمنحهُ مفتاح الحظيرة، وتسمح له بإخراج الفرس.. عندها يا لعظيم فرحته وبالغ سروره وسعادته التي تطغى على والدته فتسعدها، ولكن للأسف فقلبها يبقى في أشدِّ الخوف والحذر عليه.. فهو ما يزال صغير السن ولذا كانت تخاف عليه أن يسقط من على ظهر الأصيلة، وإن حدث

ذلك "لا سمح الله" حتماً سيدفع الثمن من صحته وعافيته وهذا ما لا تطيقه ولا يمكن لها أن تتصوَّره.. ولذا فأحياناً لا تسمح له بإخراج الفرس رغم أنه سيغضب وسيحزن.. ويمضي وقتاً طويلاً لا يلعب ولا يتكلَّم وحالُه هذا يُقطِّع قلبها حزناً وألماً عليه أيضاً.. وتبقى بين نارين، فإن لم تعطه الفرس ستحزن لحزنه الشديد، وإن أعطته الفرس فستبقى بغاية الخوف والحذر الشديد عليه، وستضطر للخروج معه لتراقبه عندما يكون ببستانهما الكبير "بالهامة بوادي بردى الجميل".

* * *

ذات مرة بينما كان يمتطي صهوة الفرس ويسابق بها الريح العاصف في البستان بنسمة لطيفة منعشة تحفُّهما الأشجار وهو بغاية السرور والنشوة يشعر بأن الدنيا لا تسعه والأم بين الحذر والخوف وبين الفرحة بفرحة الفارس الصغير.. وفجأة حدث ويا لهول ما حدث..

كان البطل الصغير مسرعاً يُطارد بالفرس كالبرق الخاطف كعادته فلا يجاريه أمهر الفرسان الكبار مرَّ تحت شجرة كبيرة فروعها متشعبةٌ وممتدةٌ.. هنالك اعترض الفارسَ الصغيرَ أحدُ أغصانها "فروعها" وهو ما يزال بأقصى سرعته فاصطدم بالغصن بشكل عرضاني "أفقي" ببطنه بغتة وخطفه من على ظهر فرسه.

عندما رأت الأم هذا المنظر المريع كادت تغيب عن وعيها وما استطاعت إحتمال ما لمحته ببصرها، إذ عَصَرَ التشاؤم قلبها الحنون مما سيصير إليه مصير ابنها الحبيب فوضعت يديها على عينيها لا تريد رؤية هذه الكارثة الكبرى وجلست على الأرض عندما لم تعد تحملها قدماها ثم خفضت رأسها لا تريد أن ترى هلاك ابنها وفلذة كبدها.

لحظاتٌ عصيبةٌ أليمةٌ، وهول كبير انتابها.. فلقد أيقنت بنهاية صغيرها الحبيب وهلاكه حينما صدم الغصن بطنه معترضاً اندفاعه على ظهر فرسه التي تابعت اندفاعها جارية لمسافة أمتار توقفت بعدها عن الجري لفقدانها فارسها.

أما هو فدار بجسمه حول الغصن دورة كاملة فامتصَّ بذلك قوة الضربة التي تلقاها فلقد حوَّل قوة الصدمة الناتجة عن سرعة إنطلاقه بفرسه إلى حركة دورانية حول الغصن بعد أن أمسكه بيديه مرتفعاً بقدميه للأعلى هابطاً برأسه ثم بالعكس، فدار بذلك دورة كاملة شاقولية حول هذا الغصن وبذلك امتصَّ قوة الصدمة بالدوران وتلافى ما كان سينتج عنها من أذىً بالغٍ خطير.

ثم سقط إلى الأرض على رجليه القويتين واقفاً (كان حقّاً مرن الجسم قوي البنية)، ثم انطلق راكضاً إلى فرسه التي توقفت على بعد عدة أمتار للأمام وقفز قفزة استوى بها على ظهرها فانطلقت به ثانيةً تسابق الريح العاصف..

كل ذلك حدث خلال لحظات لا أكثر كانت خلالها أمُّه مغمضة العينين من الأسى والحسرات لجليل مصابها.

ولما انطلقت به الفرس ثانية تابع بها ـ وكأن شيئاً لم يكن ـ متَّجهاً نحو والدته المسكينة التي ما تزال غائبة عن وجودها فيداها على عينيها ورأسها متدلٍّ.. تحسُّ أن الأرض زلزلت تحت قدميها، بتلك الأثناء وصل الفارس الصغير السيد محمد أمين وهو ممتطٍ فرسه لقربها.. وعندما شعرت بحركة الفرس رفعت رأسها وأنزلت يديها عن عينيها وقد ملأتهما دموع الحزن العظيم فتفاجأت بما أرتها عيناها، فالفارس الصغير ما يزال على فرسه!!.

هنالك سألها السيد محمد أمين: أمي.. ما بِكِ يا أمي؟.

شكَّت بما تراه وتسمعه لكنها قالت بصوتٍ خافتٍ حزين:

لا شيء يا بني.. لا شيء.. وأخذت تفرك عينيها غير مصدِّقة ما تراه.. أهي بحلم من أحلام اليقظة؟!. فولدها الحبيب يركب الفرس سليماً معافى.. وكأنَّ شيئاً لم يحدث مما رأته قبل قليل!!.

ثم قالت ثانية والذهول قد سيطر على كلماتها: لا.. لا شيء يا بني.. لا شيء.

وكذَّبت ما أرتها عيونها: فلا حادث جرى ولا سواه والأمور والحمد لله طبيعية على خير ما يرام.. فهذا ابنها معافى سليم يمتطي فرسه أمامها وهو بأشدِّ قواه وصحته، فهل تكذِّب رؤياها له الآن!!. طبعاً لا، فهو أمامها يخاطبها وتخاطبه..

ولما اطمأنَّ البطل الصغير على والدته وعَلِمَ أنها كذَّبت عينيها وبدت الراحة على وجهها والسعادة تتدفق إليها شيئاً فشيئاً حتى غمرتها لأن الحادث الذي رأته قبل قليل إن هو إلاَّ سرابٌ وخِداع بَصرٍ وكابوس نهارٍ وانقضى، هذا ما ظنَّته وكذَّبت ما أرتها عيناها وعادت لها البسمة ثانية عندها تركها ابنها الرحيم وانطلق بفرسه ثانية وهو يعرف تماماً ما حصل ومرَّ بها من موقف عسير شديد. فمن شدّة رحمته بها وهو يعلم

مدى حُبِّها له وشديد خوفها وحرصها عليه، لذا لم يُشعرها بشيءٍ مما حدث حقيقةً له وتركها تُكذِّب رؤيتها حتى لا تتألَّم وتعيش في قلقٍ دائمٍ عليه.

فيا له من غلامٍ يتمتَّع بذكاءٍ خارق وبديهيةٍ حاضرةٍ وحضورِ قلبٍ راسخٍ رسوخَ الجبالِ، وتصرُّفٍ ذكيٍّ حذق، بل رحمةً بأمِّه وحناناً، "لأنه يعلم رحمتها به" تركها تظنُّ خداع البصر لكيلا تتألم.

أكبِر به من غلام حُرٍّ عليمٍ.. رحيمٍ.. بارٍّ بوالدته.. ومثلُه فلتكن الغلمان..





كان السيد محمد أمين في التاسعة من عمره يقطن في حي الورد[1] يتيماً مع والدته وذات يوم وأثناء مروره بالغرفة لفت سمعه حوارٌ بين أمه وجارتها أن بائع الخضار في الحي أخذ يتعرَّض بالكلام الرذيل والمنافي للحشمة والأخلاق لإحدى النساء وهي تمرُّ من الطريق الكائن أمام الدكان المجبرة للسير عليه فيُسمعها من تفاهات الكلام متعدّياً على حرمتها، ويتمادى في الطلب.

فأخذ بعض القرارات تجاه هذا الموضوع ممَّا تقتضيه الشجاعة والشرف...

(لا بدَّ لي أن أتأكَّد أولاًبنفسي من هذا الكلام، وإن كان صحيحاً فالويل لك أيُّها الخضري).

وذهب في نفس اليوم يراقب ذلك البائع وبقي على هذا المنوال والمراقبة لمدة أسبوع وذات يوم وبالفعل جاءت تلك المرأة مساءً مارَّة بجانب ذلك البائع (وهي مجبرة على المرور من ذاك الطريق لأنَّه الطريق الوحيد المؤدي لبيتها).

بدأ الرجل فاقد الشرف بتوجيه كلماته المنحطّة التي تعبِّر عما في نفسه من سفالات إلى تلك المرأة المسكينة.

---

[1] **حي الورد**: حي تابع لسوق ساروجة يقطع به كبار مسؤولي الأتراك، ولذلك كانت سوق ساروجة تعتبر استانبول الصغيرة بعهد الأتراك.

عندها تأكَّد مما سمع وانطلق كالبرق إلى بيته وعاد والعصا معه.

اقترب من بائع الخضار الذي توقف ظانّاً أنه سيشتري منه، فبادره السيد محمد أمين قائلاً:

يا فاقد الشرف والعرض والمروءة والأخلاق كيف تجرؤ على التهجُّم على عرض امرأة طاهرة شريفة أيها الوحش البشري.. تبّاً لك.. يا وقح.

ثم ضرب الفانوس بعصاه، وأخذ يدوس بكلتا قدميه على فَرْش العنب الفاخر، والاجاص النادر المثال.

صُعق الرجل وراح يصرخ: ماذا تفعل... ماذا تفعل؟!.

وأقبل نحوه فما كان من الثائر للحق إلاَّ أن فاجأه بالعصا على رأسه ووجهه وانهال عليه ضرباً مبرحاً حتى نال منه ما نال من التعب والألم فأدمى وجهه، وبسرعة انقضاضه وحركاته النشيطة المتلاحقة لم يمكِّنه من الدفاع عن نفسه، بل صعقه بالمفاجأة وأذهله بالمباغتة.

والبائع هذا هو شيخ شباب الحي وكانت السهرات تنعقد يومياً عنده مع التُّبَّع من الشبَّان.

تناول البائع صندوقاً خشبياً وضرب به الغلام لكنه راح عن طريقه ولم يصبه، عندها قام الغلام والعصا معه فأشبعه بها ضرباً فأذهله وطاش صوابه، واتَّجه بعدها كالبرق إلى بيته، يكلِّل هامته النصر والفخار بانتصار الحق وإزهاق الباطل.

سكت البائع عن ذلك الفصل المؤلم على مضض ؛ لأن هناك فارقاً كبيراً بالسن بينه وبين هذا الغلام الشريف. ولأنه إن تكلَّم فسيُحْتَقر لأن غلاماً صغيراً بطش به، وهو الذي يتفاخر بعزمه وجبروته وهذا الصغير هدَّه هدّاً وهزمه أبشع هزيمة!.

* * *

وراح البائع "شيخ شباب الحي" يجمع أولاد الحي ويعطيهم تعليماته وإكراماته وأُعطياته ويغريهم بضرب الصبي الزعيم الشريف الذي سيطر بحكم شجاعته على أولاد الحي بأكمله كبيرهم وصغيرهم فأخذوا يحسبون له ألف حساب.

لكن البائع تكفَّل النتائج وضمنهم ليلتفوا جمعاً مع بعضهم ضده. وفعلاً حشدوا له حشداً كبيراً مسلحاً بالعصيِّ في الطريق المؤدي لبيته، ووقفوا ينتظرونه حتى عاد وهو يمشي مشيته الجريئة المعروفة التي تحيِّر العقول بما امتازت به من خفّة ورشاقة وإباء، ثبات الخطى النابعة عن شرف وسمو نفسه وطهارتها.

حتى اقترب من حارته فشاهد جمهور الأولاد (إذ كان عددهم حوالي العشرين ولداً) ورأى في أعينهم الشر لائحاً وتقطر منها الكراهية والمكيدة ففهم الأمر وانقضَّ كالأسد راكضاً باتجاه "القمِّيم" أي مكان نفايات موقد الحمَّام، فظنُّوا أنه سيضربهم بالحجارة فأحدقوا بأعينهم على يديه كي يحتموا من الحجارة فرمى ما بيديه من رماد على أعين القريبين منه فأعمت أبصارهم هنيهةً، وانقض كالأسد باتجاه أحدهم وأخذ منه عصاه وانهال عليهم بالضرب ففروا أمامه هاربين تجاه حانوت الخضري الخبيث.

وأخذ يعدو وراءهم كالأسد حتى أخرجهم من الحي مهزومين مذعورين وعاد إلى بيته سالماً محقِّقاً النصر في كلتا المعركتين مُنفِّذاً أمر الإله في تأديب العاصي والرذيل وإقامة الحدِّ عليه.





لقد عفى الزمان على العفَّة وطلَّق الناس الآداب وشيَّعوا الشرف فدفنوه وراحوا يبحثون عن سبل لتحقيق شهواتهم الرخيصة فسخَّروا ما أعدَّه الله لهم ولرقيِّهم في الدار الآخرة بغية متاعٍ زائلٍ وعَرَضٍ قريبٍ زاهقٍ ماضٍ منقضٍ يعقبه الألم.

زخرفوا الأرض وزيَّنوا النساء وودَّعوا الفضائل وحلَّت محلها الرذائل ذلك حال أهل هذا الزمان، "**زمان كأهله وأهله كما ترى**".

لقد غفلوا بسبب عدم تفكيرهم عن حقيقة هامَّة هي أن هذه الشهوات التي ثبَّتها الله لهم على صفحات النفوس وأوجدها لا من أجل استهلاكها عبثاً فضياع قيمتها للذَّة عارضة يعقبها الألم وإنما من أجل أن يرْقوا بها وذلك بتركها لمرضاة الله بالحرام فيمنحهم الله تعالى إياها بالحلال وبالجنات غداً[1].

فقد وعد الله خلقه إذا نَهوا النفس عن الهوى جنَّات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[2].

---

[1] انظر بحث (أثر الشهوة في رقي النفس) في كتاب عصمة الأنبياء للعلاّمة محمد أمين شيخو قدّس سرّه.

[2] سورة النازعات: الآية (٤٠-٤١).

فقبل سبعين سنة خلت لم تكن الأوضاع كما ترى الآن من تدَهْورٍ وانحطاط في القِيَم فقد كان الناس متمسِّكين بالشرائع والدين ظاهرياً في المنزل والشارع حتى شمل صدقهم ومحبتهم في تطبيق ظاهر شرع الله باقي الأديان من يهود ومسيحيين، فالحجاب مطبَّق من قبل الجميع ولا سفور ولا فسوق ولا خروج عن شرع الله تعالى.

وهذه القصة تكشف لنا عن نموذج رائع لمجريات الأمور بذاك العهد... والحقبة من تاريخنا.

وهاك عمل آخر جسَّد فيه هذا الإنسان السيد محمد أمين الغيرة والحميَّة الإسلامية فتجلّى فيها بأجلى معانيها واكتسح قوى الشرِّ من نفوسٍ أسعر الشيطان لظاها فأطفأها.

* * *

فحين أنهى السيد محمد أمين ذو التاسعة من العمر لعبه مع أقرانه في الحي، عاد لمنزله وسار معه رفاقه يتحادثون معه وهم بغاية السرور حتى وصلوا للطريق الفرعي الذي يؤدي لمنزله "مقابل حمَّام الورد" بحيِّه حي سوق ساروجة بدمشق..

وفي الطريق وبالقرب من أحد الأبواب أحسَّ بفتح هذا الباب فتحاً بسيطاً لتظهر منه فتاة في الثانية عشرة من عمرها حاسرةً عن رأسها كاشفة وجهها الصبوح تبحث عن أخيها الصغير خارج المنزل، عندها غلت في صدره مراجل الغيرة والشهامة والشرف، إذ لم يكن هذا الكشف موجوداً في مجتمع نهايات القرن التاسع عشر المحافظ على الشعارات الإسلامية، فما كان منه وقد شاهد هذا المشهد إلاَّ أن حمل حجراً كبيراً وضربها به على رأسها فأغلقت الباب بسرعة لعلمها أنها هي المقصودة حتماً لتلك المخالفة التي ارتكبتها، فأصاب الحجر الباب فانشقَّ بقوة صدمة الحجر، وتابع الغلام الطاهر الشريف المسير إلى بيته بعد أن دبَّ الرعب بقلب تلك الفتاة التي كان ذلك لها رادعاً عن العودة لمثل هذا الخرق والانتهاك للحرمات.

وحين عاد صاحب البيت على صهوة حصانه وكان من شجعان الحي وشاهد باب بيته المكسور وأخبره صبية الحي أن غلامنا السيد محمد أمين شاهد ابنته تمدُّ رأسها فضربها وأصاب الباب، على الفور ربط فرسه بحلقة بابه المعدَّة لربط زمام الخيل وانطلق إلى دار غلامنا السيد محمد أمين.

وشاءت الأقدار أن يفتح له الباب غلامنا الطاهر نفسه السيد محمد أمين فاحتضنه وقبَّله في جبينه قائلاً:

"سلمت يداك يا شبل الحي ولكن لمَ لمْ تصبها وتكسر رأسها"!.

* * *

نعم لقد بارك هذا العمل.. وحين غادر متَّجهاً إلى المقهى الذي اعتاد رجال الحي على ارتيادها ليبحثوا بأمورهم، دخلها ثم صعد إلى مكان مرتفع وأعلن بصوت مسموع:

"الحمد لله يا رجال الحي نحن ما نزال بخير فأولادنا إذا غبنا تحمي أعراضنا".

ثم سرد لهم ما حدث بإكبار.

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن همُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا



هذه إحدى قصص السيد محمد أمين التي تبيِّن طرفاً من بعض صفاته الرائعة عندما بلغ اثني عشر ربيعاً.

دعاه أقرانه الصبية للذهاب إلى حلبة الصراع لمشاهدة بعض العروض في الصراع التي تقام فيها وأغروه بجمال البطولات ومتعتها.

ولما دخلوا المكان وكانت قد انتهت جولة المصارعة بين الكبار جاء دور الصغار من سن /١٥/ عاماً فما دون، وكعادتهم بذاك الزمان.

صعد المتباري الأول إلى الحلبة وكان يحسد السيد محمد أمين على زعامته لكافة أولاد الحي.

ولما لم يصعدْ خصمه صاح الحكمُ أين خصمك؟.

فأشار إلى إنساننا قائلاً: ذاك خصمي، مُشيراً إلى السيد محمد أمين، يريد بذلك أن يكسر شوكته بأن يتغلّب عليه ويذله أمام أعين جميع الأولاد وبالتالي تتغير نظرتهم إليه ويخسر مكانته المرهوبة في قلوبهم.

ظنَّ أن خسارة الغلام المرهوب ستكون على يده بسبب فارق السن بينهما "حوالي ثلاث سنين" وإتقانه فنون الصراع وإنساننا لا يتقنها ولا يعرفها.

هنا أدرك إنساننا مطلب وقصد هذا الصراع، ولكن المشكلة إن لم يصعد الحلبة سيعتبرون ذلك منه جبناً، وإن صعد الحلبة فهو لا يجيد فنون المصارعة أبداً.

ولكنه خلال لحظات وضع خطّة متناسبة مع الوضع وصعد إلى الحلبة واقترب الحكم وتصافح المتبارزان وتماسكا بالأيدي ليصرع القوي الأضعف منه فاغتنم فرصة تقاربهما وهمس في أذن خصمه الباغي:

"إن خرجنا من جولة الصراع متعادلين فلك مني مجيديين"، أي بمقدار ليرة ذهبية، فسال لعاب خصمه الذي كان أجيراً لبائع خضار، وخار عزمه أمام إغراء المال ونسي حب التعالي والإذلال.

وكان الخصم يعرف صِدْقَ إنساننا وأمانته لذلك صدَّق ما سمع واستجاب له. فاسترخى وتظاهر بالصراع الصوري ليكسب المال فاغتنم إنسانُنا السيد محمد أمين الفرصة ووضع رِجْلَه أمام رجلي خصمه الباغي الذي تعرقل ووقع أرضاً وخسر الجولة وانتصر الصغير بذكائه وحسن تخلُّصه على من حاول إذلاله والاعتداء عليه دون حق ﴿ . .وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ. . ﴾[1]. وعلى الباغي تدور الدوائر، إذ مني بالهزيمة وبذا فَقَدَ الغنيمة، أي المجيديين التي لو تعادلا لربحها.

وخرج بطلُنا من المباراة مرفوع الرأس موفور الكرامة وقد زاده الله رفعة شأن على شأنه العالي وقد صدق من قال:

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحل الثاني

عندها قرَّر السيد محمد أمين ألاَّ يدخل حلبة صراع للّهو الفارغ بعدها أبداً.



[1] سورة فاطر: الآية (٤٣).



كان السيد محمد أمين يعيش ووالدته مع خاله الذي أتى إلى دارهم بعد وفاة والده، وها هو الخال يصغي لأقاويل زوجته وثرثرتها طالبة الانتقال إلى الغرفة العلوية الواسعة الأرجاء ذات نوافذ النور المتدفق عليها، التي يقيم بها الطفل الصغير ووالدته.

وبالفعل لقد نقل الخال أثاث الغرفة للأسفل لغرفة صغيرة منزوية في الدار لا تصلح للسكن لأن الشمس لا تدخلها والرطوبة تقتلها. وها هو أثاث وأمتعة الطفل والأم قد أصبحا في هذه الغرفة المهجورة.

وعندما عاد السيد محمد أمين (الذي يبلغ من العمر اثني عشر ربيعاً) للبيت ورأى ما رأى من حال والدته المكسورة الجناح والخاطر وما فعله الأخ الظالم معها، خطرت له فكرة أكنَّها بنفسه ليُصلح هذا الحال ويضع للظالم حدّاً.

وفي سكون المساء وهدوئه وبينما الخال جالس بأرض فناء الدار خلف "النرجيلة" ينفثها بطرب، وإذ بالغلام المقدام يدخل من باب الدار جارّاً الفرس ومحدثاً ضوضاء وأصوات مزعجة مرتفعة ناتجة عن ارتطام حوافر الفرس على بلاط الدار فخرج الخال بسرعة غاضباً يريد أن يعرف من الذي يقوم بهذا العمل لكي يؤنبه ويزجره بل ويضربه، فرأى ابن أخته!. قال له غاضباً والسخط والشرر يضطرم في عينيه:

أَفَرَس وتُدخلها الدار!. أعدها إلى مكانها. (قال ذلك بنبرة عالية متعجرفة تغلي بمراجل الغضب).

فردَّ الغلام الأبي بصوت كالرعد القاصف وبنظرات حادَّة مشيراً إلى الغرفة المهجورة:

الأصيلة هنا سوف تنام.

هنالك صُعِقَ الخال ولم يعرف ما الذي جرى له فهو يعرفه الطفل الوديع الجميل ذا الشعر السبل الأشقر والعيون الخضراء الجميلة... وهذه هي المرة الأولى التي يراه بموقف كهذا.

فلقد رأى بوجهه غضباً صارخاً ونظرات حادة نفذت لأعماقه فخفق قلبه وبدا رعب غريب رهيب يتسلل لأعماقه انقلب لفزع هائل عجيب هيمنَ عليه فلو حيِّزت له الدنيا بأسرها لتنازل عنها ليزول عنه ما ألمَّ به.. أمر غريب لم يدرِ كنهه.

وببساطة واستسلام خضع للحق وصرَّح بأنه سيعيد أخته لغرفتها، أمام تلك العزيمة الصادقة في طلب الحق وتقويم الخلل عاد إلى نفسه متراجعاً عن فعلته وظلمه وأرجع الأمتعة والأثاث للغرفة الواسعة الأرجاء المشرقة بالضياء والعليلة الهواء مرغماً.

وبالفعل كان مدهوشاً من هذا الطفل حتى إنه تحدَّث لبعض الأقارب عنه بأنه قد فوجئ بهذا المنظر المرعب المخيف فهو يعرفه الطفل الناعم اللطيف الجميل لكن مشهده بلحظة المصادمة كان أكبر من أن يدرك كنهه:

هيبة مقرونة بعظمة تهدُّ الجبال هدّاً..

ما سرُّه؟. ما حقيقته؟. لا يدري، لا بل لا يجرؤ على ذكراه.. اكتنفه ذعر مريع من مرآه حتى أحسَّ أنه ليس ابن أخته الذي يعرفه.

هذا هو الشعور الطاغي الذي هدَّ طغيانه وجبروته.

* * *

المغزى من إدخاله الحصان إلى الغرفة، ولسان الحال يقول:

"يا خال لقد فقدت إنسانيتك ورحمتك على مذبح شهواتك حتى جعلت من أختك وابنها بنظرك بهائم أسكنتهم إسطبلاً فنحن إنسان والإسطبل للحيوان".

فلما تصادم الحق الذي بنفسه بالباطل الذي بنفس خاله بطش صدقه للحق بباطل خاله فأزهقه، وأعاده لصوابه وللحق ولم يجرؤ على التمادي الأرعن بعدها أبداً.

❁ ❁ ❁



قصتنا هذه حدثت بأحد شهور رمضان المبارك حيث يصوم الناس سعداء مسرورين لما ينالونه من لذة ونعيم لشعورهم بالقرب من الله لأنهم أرضوه بتأديتهم لهذه الفريضة الإلهية.. ولما يحين موعد الإفطار توضع موائد الطعام الشهي بعبق روائحها الطيِّبة الزكية وينتظر الصائمون وهم بشوق أذان المغرب، فما أن يؤذِّن المؤذِّن حتى يُسمُّون بالله ويبدأون الطعام..

وهذه الواقعة ستصور لنا جانباً مضيئاً عظيماً من حياة ذاك العهد، العصر الذي سبقنا ومن حياة السيد محمد أمين وقد أصبح بسنِّ السادسة عشر من عمره، فتىً يتألَّق ذكاءً وإدراكاً.. فتوةً وشباباً متفوِّقاً على كافة أقرانه.. لا يسير بالأكثرية كما تسير أكثرية الناس بالتقليد الأعمى، بل يريد أن يتمتَّع بما وهبه الله من ملكات ويكتشف بذاته ويتأكَّد من صحة كل ما يسمعه ويمس حياته ليتيقَّن من صحته قبل أن يتبنَّاه ويتكلَّم فيه.

لقد شاع بين الناس وسرى وصف ليلة القدر تلك الليلة المباركة التي تحدث في شهر رمضان وبآخر عشرِ ليالٍ منه، ذكرها الله تعالى بالقرآن الكريم وحضَّ الناس عليها لنوالها كمكافأة للصائمين المستحق منهم، وذلك حسب جدِّه ومدى طاعته لربِّه فغالوا بوصفها.. يظنُّون الظُّنون ويتخيلون التخيُّلات فتصوَّروا بأن الله تعالى ينزل في هذه الليلة عن عرشه من السماء السابعة إلى السماء الدنيا، وبلحظة هبوطه جلَّ جلاله

واستقراره في السماء الدنيا ولشدة نوره تعالى تضيء السماء كاملة على الأرض وتشعُّ نوراً كنور القمر وهو بدر.. وبهذه اللحظة العظيمة تستطيع أن تطلب أيها الإنسان وتتمنَّى ما تشاء فأنت تطلب من قريب مجيب (جلَّ جلاله)، إذ صار بالسماء الدنيا يسمع نداءك وطلبك وأنت ما عليك إلاَّ الطلب، فطلبك مستجاب.

وزعموا قائلين مدعِّمين ظنونهم هذه برواية أن جدَّ "بيت العظم" (العائلة المترعة بالغنى في دمشق) رأى هذه الليلة (**ليلة القدر**) فدعا الله طالباً مالاً وبنين وعزّاً لا يميل.. وقد تحقَّق له ذلك وها هي عائلة بيت العظم ما تزال غنية لِمَا ترك لهم جدُّهم من ثروة طائلة كان قد رُزقها بعد دعائه إثر مشاهدته لليلة القدر..

وهكذا فقد ذهب كل واحد منهم يتكلَّم ويذكر ما يعرفه أو ما سمعه أو ما يعتقد أنه حصل معه أو مع فلان من الناس في هذه الليلة (**ليلة القدر**) حتى أصبح الكلام عنها كثيراً جدّاً يبلغ الخيال واللامعقول.

أمَّا الفتى الحر السيد محمد أمين فقد سمع هذا الحديث قبل شهر رمضان وسُرَّ كثيراً بذلك وراح يحدِّث نفسه ويرسم أحلامه العذبة وأمانيه العظيمة في سماء ليلة القدر هذه قائلاً:

يا لكبير سعادتي، يا لعظيم روائع ما سيتحقَّق لي ولبني الإنسان أجمع، حقّاً سأكون سعيداً جداً إن تحقَّق أملي وطموحي في هذه الحياة بالذي سأطلبه من ربِّي في ليلة القدر.

وما هي إلاَّ أيام معدودة ويحلُّ رمضان يحملُ معه ليلة القدر فأدعو ربِّي ليحقِّق لي هدفي ومبتغاي في حياتي..

وهكذا قرَّر السيد محمد أمين أن يُراقب الليالي العشر الأخيرة من شهر رمضان بهمَّةٍ عالية وصدقٍ عظيم دون أدنى كسل أو ملل حتى يشهد ما وصفوا له من ليلة القدر ويدعو ربَّه فيحقِّق مبتغاه.. فهو أول من صدر للتحقيق العلمي العصري الحديث والتجربة العملية الواقعية الرائدة، بهذه القضية المهمّة.

ولكن أيُّ مبتغىً هذا المبتغى!. وأي هدفٍ وطموح هذا الطموح!.

إنه ليس للمال ولا للجاه.. لا المنصب ولا البنين، ليس ممَّا في الدنيا من نعيمٍ وزينة، إنَّما هو طلب إنساني عظيم بما يفيض به الحب السامي ويتناثر من ثنايا قلبه فيتناثر على بني الإنسان..

* * *

ذهب السيد محمد أمين إلى صاحبه وبلهفةٍ واهتمام بالغ قال:

صديقي أما سمعت عما سمعته أنا؟.

قال صديقه: خيراً يا سيد أمين.. ماذا سمعت، أخبرني؟.

بدأ السيد محمد أمين يشرح له بشوق وتأثُّر عظيم ما كان قد سمعه عن ليلة القدر وما يزعمه الناس فيها وكيف يحقِّق الإنسان فيها أمنياته الثلاث بدعائه إلى الله حينما يهبط من السماء السابعة إلى السماء الدنيا فتتنوَّر وتُضيء بحلوله جلَّ جلاله فيها.

ردَّ الصديق: أحقّاً ما تقول يا أمين؟.

قال السيد محمد أمين: هذا ما سمعته بأذنيَّ من الناس، ومتى حضر موعد الليالي العشر الأخيرة من رمضان سأراقب هذه الليلة وأطلب أمنيتي من الله، إن كان ما سمعته صحيحاً.

قال الصديق: وما هي أمنيتك يا صديقي؟.

قال الفتى أمين: أمنيتي.. أمنيتي أن أرى ليلة القدر وأطلب من الله أن يجمع لي ملوك الأرض لأعرض عليهم دين الإسلام، فإن أسلموا سينتشر دين الحق في بقاع الأرض كاملةً فيسود الحب والأمان، فكل بني الإنسان أخوة أحباب، سعادة وسلام لا شقاء بعدها ولا دمار، لا قتل ولا سلب ولا نهب، أما إن لم يُسلموا فسأقطع رقابهم جميعاً.. ومن بعدها سأبحث عن طريقة ثانية لنشر الإسلام والسلام بين الناس جميعاً.

ردَّ الصديق قائلاً: مثلك سأنتظر ليلة القدر هذه لعلَّه يتحقَّق أملي وطلبي.

قال السيد محمد أمين: وما هو طلبك أنت يا صديقي؟.

ردَّ الصديق ؛ وبدا كأنه يحلم بطلبه قد تحقَّق، إذ قال بصوت هادئ ممدود:

سأطلب مالاً.. سأطلب بنين وأطلب عزّاً لا يميل، سأصبح ذا مال كثير وجاه واسع.. سأملُك ملكاً كما ملك الأغنياء الأثرياء وهذه فرصتي ولن أفوِّتها.

* * *

لقد كان الفرق شاسعاً بين طلبيهما، فأين الثرى من الثريا، طلبُ السيد محمد أمين طلبٌ إنسانيٌ عظيم يُخلِّد طالبه بجنان الخلد الأبدية ويعيش حياة السعادة دنيا وآخرة، أما طلب صديقه فأناني دنيوي منقضٍ زائل.. مهما امتدَّ لا يمتدُّ معه أكثر من بضع سنين ثم ينتهي بالموت والرحيل عن هذه الدنيا الفانية.

وهكذا.. فقد اتفق الفتيان على مراقبة هذه الليلة وترصُّدها ليطلب كلٌّ منهما مطلبه واتفقا أن تكون مراقبتهما جماعية حتى إذا غفل أحدهما أو أخذته غفوة من النوم فيوقظه الثاني لكي لا تفوتهما هذه الليلة فيخسرا هذه الفرصة الثمينة.

بدأ شهر رمضان وتوالت الأيام والليالي والسيد محمد أمين وصديقه يعدانها بفارغ الصبر وبدقَّة حتى انقضت العشرون ليلةً الأولى.

ولما بدأت الليالي العشر الأخيرة وبحلول ليلة الواحد والعشرين من رمضان وقبل الإفطار أسرع الفتى أمين وهو بغاية الحيوية والنشاط، يزداد شوقه لهذه الليالي.. ويعظم، فلقد آن الأوان لينال عظيم طموحه ومناه.

أسرع لصديقه يذكِّره قائلاً: اليوم.. اليوم ومن بعد الإفطار مباشرة نصعد معاً إلى سطح دارنا ونبدأ مراقبتنا بدءاً من هذه الليلة.

ولقد سمعت أن موعد حدوثها من بعد أذان العشاء حتى أذان الفجر ولكن وللحيطة سنراقبها من بعد الإفطار حتى شروق ضوء الصباح.

ولما حان موعد الإفطار وأذَّن المؤذن لصلاة المغرب أفطرا سوياً ثم صعدا مع ظهور أول نجمة في السماء، لسطح البيت.

كان الجو لطيفاً والسماء صافية والسكون مخيِّماً على الأرجاء..

يحلُّ الليل رويداً رويداً فيمتزج سواده بلون الشفق البديع في جهة الغروب فيبدي للعيان لوناً ساحراً جذَّاباً..

هناك وعلى سطح البيت استلقى كل واحد منهما على ظهره ووجهه للسماء بجوار بعضهما حتى يشعر أحدهما بالآخر إذا نام فيوقظه.. ومضيا يراقبان السماء بدون أي كلام.. صمتٌ وسكون تامان.. عيونٌ مفتوحة على أشدها تحدِّق إلى السماء الصافية حيث الليل يحلُّ شيئاً فشيئاً والنور يغادر رويداً رويداً والسيد

محمد أمين يراقب اللحظة التي يحلُّ بها الله في السماء الدنيا وهو يحلم بانتشار الإسلام وقد حلَّ بكل بقاع الأرض، أما صديقه فكان يحلم بالمال والبنين.

* * *

مضت الساعات والليل قد حلَّ بأشدِّ ظلامه وما يزالا على وضعيهما..

فالفتى أمين يراقب يقظاً لم يزغ بصره عن السماء ولو لفترة قصيرة.. كله صدقٌ وإصرارٌ في الوصول بالأصول لغايته السامية، فالغفلة يمكن أن تقابلها خسارة عظيمة إذا حدثت أثناء ليلة القدر ويتأخَّر تحقيق طموحه سنةً كاملة..

فلا للنوم ولا للخمول، حتى اقتربت الشمس من البزوغ وانتشر ضوء النهار في السماء وحلَّقت الطيور فرحةً مغرِّدةً بحلول نهار جديد واتَّجهت العصافير تبحث عن أرزاقها مزقزقةً.. عندها قال السيد محمد أمين:

لقد انقضت أولى الليالي وحلَّ النهار ولم تحدث ليلة القدر فلعلَّها تحدث الليلة القادمة إن شاء الله.

وأعادا ذلك ليلة إثر ليلة حتى انقضت تسع ليالٍ من الليالي العشر الأخيرة.. ولم يتحقَّق شيءٌ من الوصف الذي سمعوه لها..

ولما شارفت الليلة العاشرة والأخيرة أقبل السيد محمد أمين على صديقه وقد لوَّن وجهه صدقٌ غريبٌ عجيبٌ وإصرارٌ عظيمٌ على تحقيق مبتغاه وقال مخاطباً صديقه بصوتٍ مصبوغ بجدية:

بهذه الليلة حتماً ستظهر ليلة القدر وسيتحقَّق مطلبي.. ثم استلقى على ظهره واستلقى صديقه بجانبه وتابع الفتى المشرق بالأمل ينظر بصحوةٍ ونشاط واهتمام عظيم أكبر من كل ليلة مضت..

ولكن ويا للأسف فلقد اقترب الفجر ولم يحدث شيئاً، وعندما أشرقت الشمس وتعالت أصوات تكبيرات العيد نهض السيد محمد أمين وقد أدرك أن كل ما سمعه عن ليلة القدر من وصف لا أساس له من الصحة، فهذا الزعم الذي يزعمه الناس عن ليلة القدر وكيفية حدوثها والاستفادة منها بالدعاء فيها ليس بصحيح أبداً.. أبداً.

ثم التفت إلى صاحبه بنظرات مزروعة بالأمل والطموح وقال:

يا صاحبي إن ليلة القدر حتماً بغير هذا الوصف وحتماً هنالك طريقة أخرى لنوالها وهي تختلف تماماً عمَّا سمعناه وبإذن الله لا بد أن أقطفها.

* * *

فإلى أية منزلة سمت به الحرية بالرأي منذ نعومة أظافره وتفتُّحه على هذه الحياة!. وإلى أية مكانةٍ أوصله صدقه العجيب لينطلق ويُبحر باحثاً في عالم الحقيقة متحرِّراً من أيَّة أفكار ومعتقدات جامدة لا أساس لها فاستطاع بمغامراته الذكية الرائعة ردَّ الأقاويل الكاذبة والبدع الخرافية.

تُرى ما أثمن معدنه السامي الذي يدفعه لإعطاء التفكير حقَّه والخوض في ميادين اكتشاف الحقيقة ذلك الفتى المفكِّر الحر الذي لم يخضع للمعتقدات الجامدة التي يمكن أن تحط من شأن الإنسان (الكائن المفكِّر) وتقلِّل من إنسانيته بإهماله لتفكيره وهو الجوهرة الثمينة التي أيَّده الله بها ليُميِّز به النافع من الضار والصحيح من الخطأ ويسلك السبيل القويم!.

فأجدر بالإنسان أن يتحقَّق مما يسمعه من الناس قبل أن يتبنَّاه فيه.. فإن كان صحيحاً سار فيه ودلَّ الناس إليه ﴿ . .إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾[1] بعد أن تحقَّق من صحته بتجربته العملية الواقعية، أما إن لم يكن ما سمعه صحيحاً ولا حقيقة لوجوده فليضرب به عرض الحائط ويتبرأ.

قال الرسول العربي ﷺ: «**نحن أمة أمية نؤمن بما نرى ونشهد**» أي نكتشف الحقيقة بما نرى بأمِّ أعيننا لنشهدها بقلوبنا وبصائرنا.



---

[1] سورة الإسراء: الآية (٣٦).



أخي القارئ في قصتنا هذه من صفحات المجد الخالد سنعود للوراء قليلاً، حيث السيد محمد أمين وقد أنهى دراسته في كلية عنبر وتخرَّج حديثاً كضابط أمن، هنالك كُلِّف بأوّل مهمة رسمية في مواجهة الشر والإجرام... هل سينجح؟. هل سينتصر الخير ويندحر الشرّ؟.

لنتابع ونعيش مع السيد محمد أمين ساعاتٍ عاشها وبأخطار فادحة كيف واجهها!.

* * *

عاش في منطقة الأكراد "الجبلية" بدمشق أمة من الأكراد كثير منهم كانوا متكاتفين متضامنين ولكن مع من؟. ضدَّ من؟. متكاتفين متضامنين مع زعيم كبير مجرم جبَّار فهو الشجاع بنظرهم، وهو الذي يستحق التقدير، لذا كانوا ينصرونه دوماً ضد كل محاولات الدولة العثمانية للقضاء على هذا المجرم والإجرام هناك.

المنطقة جبلية ومخابئ ومغاور الجبل وتضاريسه معروفة لديهم شبراً بشبر فالمنطقة منطقتهم، وقد اعتادوا على الحياة الجبلية وقساوتها، أما فِرَقُ الجيش التي تُرسِلها الدولة العثمانية للقضاءِ على هذا المجرِم فهم يجهلون المنطقة تماماً ولا يعرفون تضاريسها ومخابئها ومغاورها وكوامنها، وكذا ليسوا معتادين على قساوة الجبال من صعود وهبوط مثلهم و... و... والتعامل مع المنطقة، لذلك كانوا يفشلون ويخسرون أمام هذا المجرم خصوصاً وأن جماعته تهب وتحت إمرته دائماً لنصرته.

وتوالت الأيام وعلا المجرم وازدادت شروره وإجرامه كثيراً ووقفت الدولة العثمانية محتارة أمام هذه المنطقة وهذا المجرم الخطير حتى راح قائد الجيش العثماني في سوريا يضرب أخماسه بأسداسه يفكِّر بحلٍ لهذا الأمر، كيف وسمعته وسمعة دولته باتت في خطر، فهل قائد جيش الأتراك في سوريا وبجيوشه الكبيرة وضباطه الكثيرين لا يستطيع القضاء على هذا المجرم!!.

وفكَّر كثيراً بالأمر... وفكَّر... وفكَّر.. إلى أن طرقت خاطره فِكْرَةٌ:

نعم ولِمَ لا ألجأ لذلك الضابط الفتى المتفوّق على أقرانه بالكلية الحربية الملكية، فوالله هو المناسب لهذا المجرم وأظنّه يستطيع حلَّ هذه المشكلة.

لقد رأى هذا القائد في الطالب الضابط العربي السيد محمد أمين وقبل تخرُّجه من كلية "عنبر" فنوناً في التخطيط وحسن التصرُّف وألواناً من الشجاعة والبطولات وإبداعاً في التفكير والتدبير.

أرسل في طلبه فوراً...

حضر الضابط الشاب بوجه نضرٍ تشعُّ منه الحياة والأمل، أدى التحية لقائده، ثم سأل: ما الأمر يا سيادة القومندان؟.

فأجاب القائد: اجلس أيها الضابط الأبيّ... (جلس).

تابع القائد حديثه: أما سمعت أيها الضابط بمجرم الأكراد، بل بمنطقة الأكراد وما تسببه من إزعاجات "وشوشرة" ومن إجرام وفوضى؟. طبعاً السبب هو رأس الأفعى ذاك المجرم الزعيم الذي قتل عشرات الرجال فرمَّل نساءَهم ويتَّم أطفالهم، ولا تزال جميع محاولاتنا للقضاء عليه فاشلة ونريد الخلاص منه مهما كلَّفنا الأمر حيّاً أو ميتاً لا يهم، المهم التخلُّص منه ومن شروره. وأنا كقائد جيش أطرح عليك هذه المهمة واضعاً تحت إمرتك العدد الذي ترغب به من الجنود، بل "والطابور" الفرقة التي ترغب بها من الجيش، المهم أن تخلِّصنا منه حياً أو ميتاً، فما رأيك أيها الضابط؟.

ردَّ الضابط السيد محمد أمين: دعني أفكِّر بالأمر يا سيادة القومندان، أعطني مهلة.

ردَّ القومندان: لك ما تريد.

خرج ضابطنا مفكِّراً بما طُرِحَ عليه يتفحَّصه ملياً، فهل يجوز قتل هذا المجرم أم لا؟.

هل هذا العمل يُرضي الله؟!.

إنه مجرم وقتل عشرات الرجال... وسلب... ونهب... فهل يُقتل في شرع الله؟. لأذهب إلى السادة العلماء أسألهم عن رأيهم في هذه القضية.

* * *

اتجه إلى علماء الدين وأخبرهم:

يا أيها الشيخ ذاك المجرم بجبل الأكراد قتل عشرات الرجال فيتَّم أطفالهم ورمَّل نساءَهم ولا يزال يمتد بِشروره، فهل يجوز قتله وهل يرضى الله هذا العمل؟.

ردَّ الشيخ: يا بني، إن كان قد قتل شخصاً واحداً بدون حق فيجوز قتله، قال تعالى: ﴿ . .النَّفْسَ بِالنَّفْسِ . . ﴾[1]. وأنت تقول أنه قتل العشرات و... فهذا قتله حلال ويؤجر ويثاب قاتله.

وكذا اتجه إلى عالم ثانٍ وثالث... فلقي نفس الجواب، عندها صمَّم:

إذاً يجوز قتله "قتله حلال" بل ولي أجر وثواب كبير من الله على قتله...

إذاً فالمهمة مهمتي وسأخلِّص الناس من شروره وإجرامه بإذن الله تعالى...

واتجه مباشرة إلى قائد الجيش ليخبره: سيادة القومندان، أنا موافق وجاهز لتنفيذ هذه المهمة.

سُرَّ قائد الجيش كثيراً بهذه الموافقة وقال: لك ما تشاء "أيها الضابط الشهم" من عناصر الشرطة والجيش، والكل تحت إمرتك ورهن إشارتك وتخطيطك.

ردَّ الضابط الشجاع: سيادة القومندان، أريد ثمانية عناصر من الرجال فقط أختارهم بنفسي.

دُهِشَ القومندان واستغرب ما سمع وأجاب: أيها الضابط إن مجموعات كبيرة من الجيش منظَّمة مدرَّبة ومجهَّزة بالأسلحة على أتمِّ وجه لم تستطع عدة مرات وبمحاولات عديدة باءت كلها بالفشل وعادت، وأنت تقول الآن: ثمانية رجال فقط!.

[1] سورة المائدة: الآية (٤٥).

إعلم أيها الضابط: أنك ستواجه المنطقة كاملة ولن تواجه فقط مجرماً واحداً، بل إن معظم سكان المنطقة وبأسلحتهم يقفون لجانب المجرم الزعيم ممن هم على شاكلته، قلت لك مسبقاً خذ ما تريد من الرجال.

ردَّ الضابط: سيادة القومندان أريد ثمانية رجال فقط لا غير واترك الأمر لي.

اضطر القومندان مع هذا الإصرار للموافقة على طلب الضابط خوفاً من تغيير رأيه وتراجعه عن المهمة قائلاً:

افعل ما تشاء وتصرف بما تريد فالخَيَارُ لك، وذلك معناه الانتحار، ولكن أنت وشأنك!. وبقي متعجباً.

* * *

ذهب الضابط إلى مقرِّ الرجال "جنود الجيش" جَالَ بنظره العناصر، ثم اختار سبعة جنود أقوياء تبدو على وجوههم الشجاعة لا يتكلمون إلاَّ اللغة التركية حصراً ولا يتقنون شيئاً من اللغة العربية مطلقاً.

أما الثامن فاختاره كدليل ليدلّهم على بيت المجرم "فهو يعرف المنطقة تماماً ويعرف بيت المجرم الذي كان فوق كل بيوت المنطقة بأعلى الجبل"، وهذا الدليل اختاره الضابط لأنه لا يجيد إلا اللغة العربية ولا يعرف عن اللغة التركية شيئاً. فيا ترى لماذا اختار السبعة يتكلَّمون باللغة التركية فقط والدليل يتكلَّم بالعربية فقط؟.

لقد اختار ضابطنا هذا الاختيار بعد تفكيره الملي بأمر المجرم وكيفية الانتصار عليه. فضابطنا السيد محمد أمين يعرف أن صِيتَ هذا المجرم وخبره منتشر في البلاد وذكر اسمه يُدِبُّ الرعب في قلوب الرجال، فخوفاً من أن يسمع هؤلاء الرجال السبعة كلمات الدليل عندما سيدلّ الضابط على بيت المجرم أو على المجرم بحدِّ ذاته فيسيطر الرعب عليهم ويجبِّنون، فإن حصل هذا . لا سمح الله . فإنَّهم سيفشلون في القضاء عليه والخلاص من شروره، فلذلك اختارهم لا يعرفون إلا التركية والدليل بالعكس لا يعرف إلا العربية فلا يفهمون على الدليل ولا الدليل بمستطيع أن يفهمهم.

وبهذه الطريقة ضَمِنَ الضابط تنفيذ الجنود السبعة لهذه المهمة بثبات وشجاعة وبمعنويات قوية فلا خذلان ولا فشل إن شاء الله تعالى.

وبعد أن اختار الضابط رجاله وفي الوقت المعين جمعهم وانطلق بهم كلٌ يمتطي صهوة حصانه يسيرون وراء قائدهم بشجاعة وقوة، وكان الوقت بعد منتصف الليل، حيث تبدو نجوم السماء ظاهرة بوضوح وما من أحد يسير في الشوارع فالكل نيام إلاَّ ضابطنا المغوار وجنوده الشجعان يسيرون وراءه ترقبهم نجوم السماء إلى أن وصلوا إلى مقام "الست حفيظة" الواقع في وسط ساحة "الميسات" بدمشق حالياً، وكانت المنطقة كلها زروع وبساتين غنَّاء.

بذاك الزمان كان هناك مخفر مهجور للشرطة "الدرك"، دخل الضابط وجنوده والدليل إلى المخفر وقد شَعَرَ أنه بحاجة لينام قليلاً قبل تنفيذ هذه المهمة الأولى بعد تخرُّجه كضابط، فلقد أمضى يوماً مُجهداً بالتفكير والتدبير لأمر هذا المجرم، فأوصى عنصر حرس المخفر بأن يوقظه عند أذان الفجر وذهب لينام.

وأثناء نومه شاهد حلماً...

شاهد نفسه في عراك قوي شاق مع المجرم وأخيراً استطاع بأن يطرح ذلك الشرير أرضاً وارتمى فوقه بقوة اندفاع كبيرة، وبالفعل فلقد صحا ضابطنا على نفسه عندما اصطدم بالأرض هاوياً من سريره المرتفع، نظر حوله فرأى الحارس داخلاً الغرفة يريد إيقاظه، فنهض واقفاً مستبشراً بالنصر.

لقد أدرك من هذه الرؤيا أن الله سينصره على المجرم، نعم، إن هذه الرؤيا بشارة من الله بنصره على المجرم الشرير.

* * *

وعلى الفور وبقوة كبيرة ومعنويات عالية جبَّارة جمع رِجالهُ الأقوياء الأشاوس وامتطى كل واحد منهم صهوة حصانه، وانطلقوا مع قائدهم متفائلين بتفاؤله بقوة وعزيمة صادقة.

صعدوا الجبل وراء قائدهم والدليل قاصدين بيت المجرم وعلى مقربة من بيت المجرم كان الظلام قد اختلط بنور الصباح وانكشفت المعالم، فأصبحت واضحة... سمع المجرم أصوات حوافر الخيل وضجيجهم... إنه إنذار خطر...

دبَّ الرعب بقلبه وعلى الفور خرج من غرفته بسرعة كبيرة راكضاً باتجاه جدار جيرانه، هنالك وما إن أصبح فوق الجدار يبغي الفرار حتى أصبح واضحاً للدليل "إنه هو المجرم بحدِّ ذاته" فأشار للضابط الشجاع باتجاه المجرم (قاصداً أن هذا هو)، هنالك صاح الضابط "باللغة التركية" بجنوده:

نار... نار... (مشيراً باتجاه المجرم).

وبلمح البصر كان الرجال السبعة قد أطلقوا النار على المجرم فسقط على أرض الطريق عكس الجهة التي تسلق منها الجدار مقتولاً يتخبَّط بدمه.

أجل، المجرم مات وحلَّت به الآفات.

وبسرعة البرق أخرج الضابط مديته (سكينه) وقفز كالأسد من صهوة حصانه راكضاً باتجاه المجرم فقطع رأسه وعلَّقه على زنَّاره ثم صاح "باللغة التركية":

هيا بنا يا رجال، لنصعد لقمَّة الجبل بسرعة، سارعوا للنجاة بأرواحنا قبل الفوات.

* * *

كان طريق الصعود عبارة عن ممرٍّ جبلي ضيِّق متعرج وعر وهو مسيل يشقُّ عُباب الجبل، وبهذه الأثناء شعر سكان المنطقة أعوان المجرم بالأمر، إذ سمعوا أزيز الرصاص فخرجوا مسرعين مدجَّجين بأسلحتهم، رأى بعضهم المجرم الزعيم فاقد الرأس فأخبروا الآخرين بالأمر:

لقد قُتل الزعيم، لقد مات.. إنه جسد بلا رأس هيا لنثأر له ولنذيقهم الويلات، هيا هيا... وخرجوا صعوداً.

لقد هبَّت المنطقة بأسرها تقريباً لتثأر لزعيمها... ومَثَلِها الأعلى، ولحقوا بالضابط ورجاله الذين أصبحوا بعيدين عنهم.

تابع ضابطنا السيد محمد أمين وجنوده صعود الجبل إلى أن وصلوا لمنطقة متعرِّجة لم تعد الخيل تستطيع صعودها... هنالك صاح الضابط المُلهم:

هيا يا رجال اتركوا الخيل ولنركض صاعدين باتجاه القمة "قمة الجبل".

أما سكان منطقة جبل الأكراد الموالين للزعيم المجرم المقتول فقد أحاطوا بالقمة المنبسطة التي صعدوا إليها من كافة جهاتها، إحاطة السوار بالمعصم.

"بذلك الزمان كانت البندقية لا تتسع إلاَّ لطلقة واحدة ووضْع الأخرى وتجهيزها للإطلاق بعد إطلاق الأولى يستغرق وقتاً من الجندي المطْلِق".

* * *

الآن أصبح وضع الضابط وجنوده حرجاً خطيراً، وما هي إلاَّ لحظات حتى ينهال الرصاص عليهم من الأطراف كافة، حيث سكان المنطقة صاعدين وراء قتلة زعيمهم، فلذلك لجأ ضابطنا لخطة ذكية لفتح ثغرة للنجاة من الحصار فأمر جنوده بأن يطبِّقوا لعبة الأطفال المعروفة **(قطف الرمانة)**[1] بأن يستلقوا وهم منبطحون، وخلال استلقائهم منبطحين يلقِّمون السلاح للإطلاق أثناء إطلاق العدو رصاصهم ويركض الأخير بعد إطلاقه النار مع الرفاق وإسكات نار العدو ويقفز فوق جميع الجنود المنبطحين أثناء فترة السكون وتلقيم السلاح من قبل العدو، ثم يأخذ وضعية الانبطاح بآخر الجميع باتجاه الانسحاب، وأثناء انبطاحه يضع الطلقة الأخرى هو وجميع الرفاق ويهيء البندقية للإطلاق، يكون خلال ذلك الجندي الأخير فيهم من اتجاه مساكن العدو جاهزاً للإطلاق فيطلق رصاصته مع الرفاق ثم يركض قافزاً فوق الجميع لينبطح بآخرهم ويهيء بندقيته للإطلاق أثناء إطلاق العدو للرصاص فتنتقل المجموعة كلّها باتجاه حي الصالحية، وهكذا تُكَرَّر هذه العملية وإن شئت فقل: لعبة الانبطاح وما يسمِّيها أهل الشام **(قطف الرمانة)** من قِبَل الجميع حتى يصلوا منسحبين إلى مكان الأمان الذي هو منطقة الصالحية التي تلي منطقة الأكراد، وبذلك يكون هذا الضابط ببعض الوقت أو الزمن قد أمَّن سرعة الحركة بالانسحاب بعيداً عن منطقة الأكراد وكذا شاغَلَ العدو بإطلاق العيارات النارية على الأعداء فشكَّل بذلك تغطية نارية تضمن سلامة جميع أفراده أثناء التنقُّل[2].

طبَّق الجنود خطة الانسحاب الذكية بدقة ومهارة وسرعة كبيرة ولم يهدأ إطلاق النار من الجانبين حتى وصل ضابطنا وجنوده منسحبين إلى منطقة الصالحية فانفتحت ثغرة تعادل ربع الإحاطة الدائرية حولهم نجوا بها عند منحدر الجبل السفلي.

---

[1] **قطف الرمانة**: تُعرف في مصر باسم "حطة نطة" ، وهي لعبة شعبية واسعة الانتشار تجري في المدن والقرى والساحات العامة في البلدان العربية، وفي مصر خاصة، وليس لها ملعب محدَّد أو مقاييس، ولا تحتاج إلى حكَّام أو مباريات رسمية، يكفي أن يتَّصف اللاعبون بحد معيَّن من الأخلاق والجدية حتى تسير اللعبة. أما طريقة اللعب فتقوم على القفز من فوق الظهر، ولا تتقيد بعدد محدود من اللاعبين، ويفضَّل أن يكون العدد سبعة، يبدأ اللعب فيها بالإقتراع لانتقاء النازل أي الذي يحني ظهره أولاً، فيقف هذا في أول الملعب ويضع يديه على ركبتيه، ويحني ظهره، ويأتي أول لاعب وهو عادة رئيس الفريق ويقفز من فوق ظهره، ثم يبتعد القافز بعد ذلك نحو المترين عن النازل وينحني أيضاً وفق الطريقة التي انحنى بها النازل فيأتي اللاعب الثاني ويقفز من فوق الأول، ثم من فوق الثاني، ثم يبتعد عن الثاني ويأخذ مكانه في الانحناء. وهكذا كل من اللاعبين يقوم بالدور نفسه. إن هذه اللعبة حلقة متصلة، ويظل الأولاد يلعبونها إلى ما شاؤوا من الوقت. هذا ويلعبها الأولاد وحتى الرجال لقطع مسافاتٍ على طريق النزهة مشياً فلا يشعرون بمسافة الطريق. وقد أجرى ضابطنا الملهم هذه اللعبة للنجاة وهم بحالة انبطاح لكيلا يقتلهم رصاص العدو.

[2] انظر المخطط القتالي رقم (١-٢-٣) لهذه المعركة الجبارة في نهاية القصة.

كانت دمشق قد استيقظت على أصوات أزيز الرصاص وسمع القومندان ما سمعه أهل الشام من لعلعة الرصاص، وفوراً جهَّز جيشاً لمساعدة الضابط وخرج به للنجدة إلاّ أن الضابط كان قد وصل لمنطقة الصالحية في دمشق ولم يستطع الأكراد التقدُّم، إذ ليست لهم سيطرة وسطو بهذه المنطقة، وعندما شاهدوا وصول جيش القومندان لمؤازرة الضابط الشجاع قاتل بطلهم، فرُّوا إلى منطقتهم مخذولين خاسرين حزينين لفقدانهم المجرم الزعيم ولفشلهم الذريع، إذ لم يحققوا أية نتيجة تطفئ شيئاً من حقدهم ونار ثأرهم.

كان النصر والظفر حليف الضابط، ولم يصب أحدٌ من رجاله بأذى، لقد حفِظَهم الله بنية قائدهم الضابط العالية وخطّته العظيمة.

هدأت الأمور وانتهت الأزمة... هنالك تقدَّم الضابط الشجاع السيد محمد أمين هابطاً الجبل نحو قائد الجيش "القومندان" وعند اللقاء حيَّاه، ثم رمى برأس المجرم عند أقدام قائد الجيش وهو مرفوع الرأس.

وللغرابة ردَّ القومندان ببرودة لم تكن متوقَّعة قائلاً:

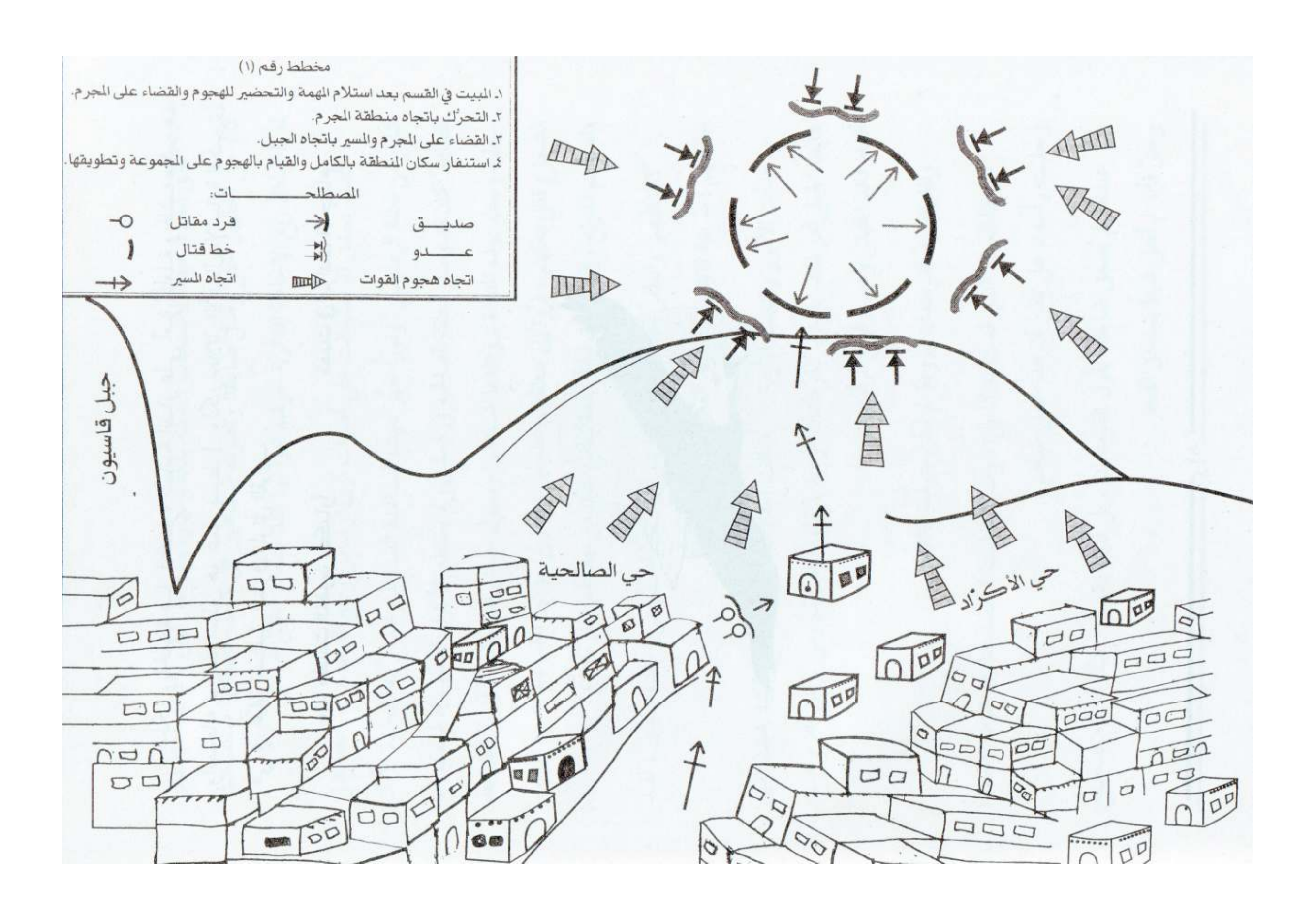
ما هذا العمل الذي قمت به؟. بل، وماذا فعلت؟. لقد قَتَلْتَ مجرماً واحداً وجلبت رأسه، هل تظن أن هذا عمل ضخم!.

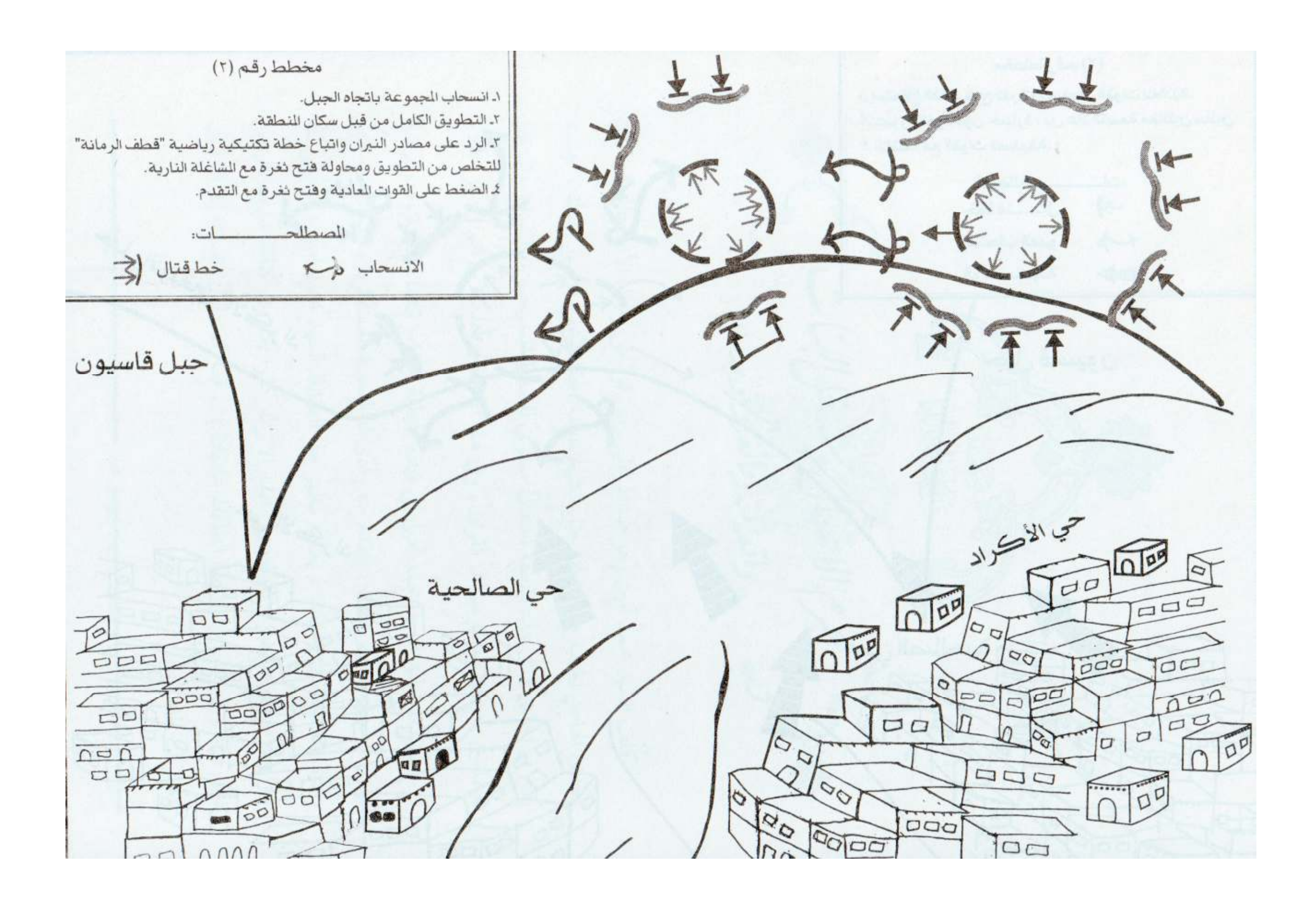
عندها لم يُصعق ضابطنا بقول القومندان، بل قال بنفسه: هذا كلام صحيحٌ وحقٌ فأنا لم أفعل شيئاً يستحق الفخر.

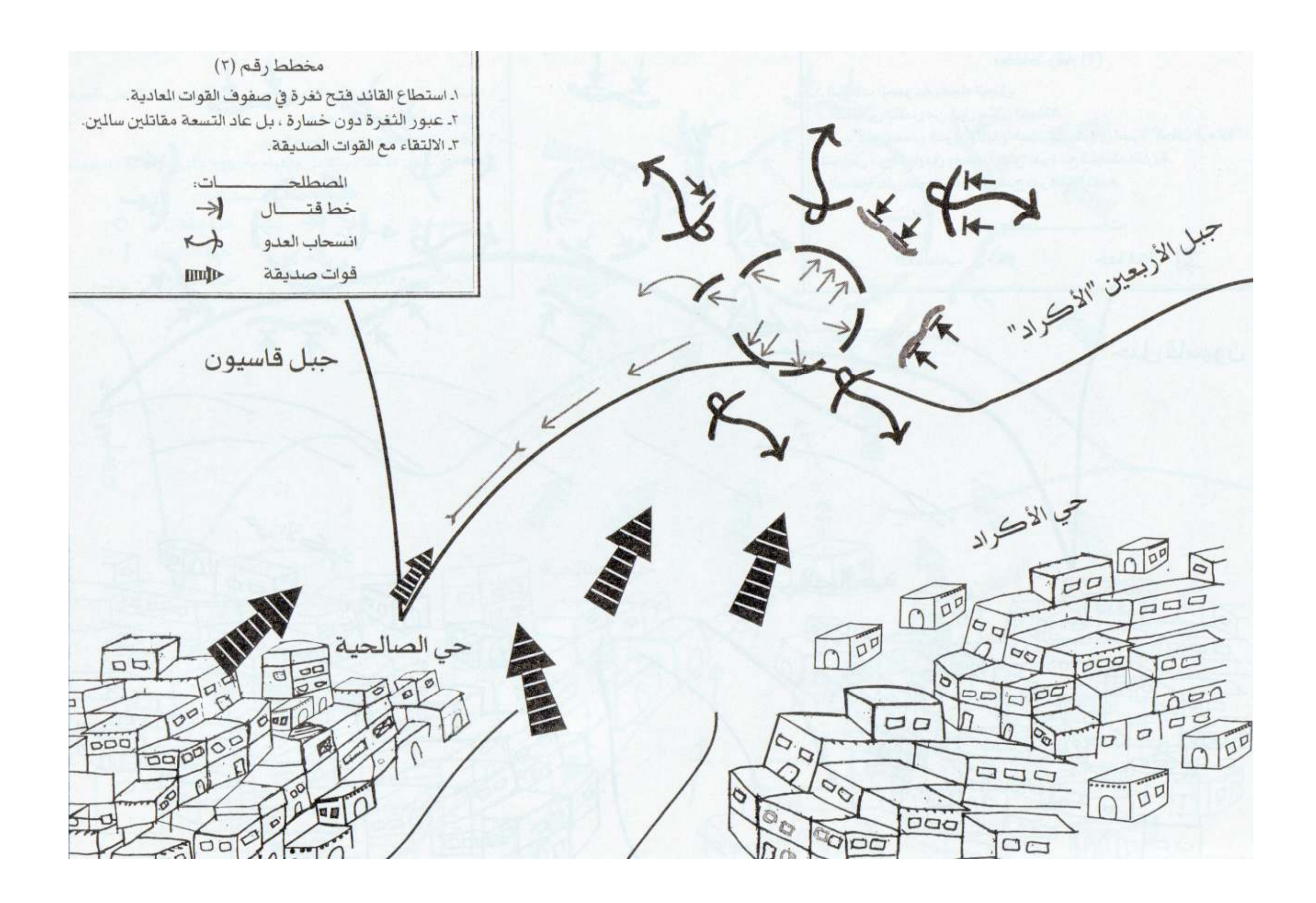
ولكن وبالحقيقة هل انتصاره بثمانية أنفار على أمةٍ كاملة وبطشه بكبيرهم وانسحابه بمن معه سالمين هو عمل بسيط!. ولكن جلائل الأعمال الإنسانية الكبرى هي في غَيَابة المستقبل المشرق المونق القريب.

وإذا كانت النفوس كباراً ... تعبت في مرادها الأجسام




مخطط رقم (١)
١- المبيت في القسم بعد استلام المهمة والتحضير للهجوم والقضاء على المجرم.
٢- التحرُّك باتجاه منطقة المجرم.
٣- القضاء على المجرم والمسير باتجاه الجبل.
٤- استنفار سكان المنطقة بالكامل والقيام بالهجوم على المجموعة وتطويقها.
المصطلحات:
صديق
فرد مقاتل
عدو
خط قتال
اتجاه هجوم القوات
اتجاه المسير
جبل قاسيون
حي الصالحية
حي الأكراد


مخطط رقم (٢)
١- انسحاب المجموعة باتجاه الجبل.
٢- التطويق الكامل من قبل سكان المنطقة.
٣- الرد على مصادر النيران واتباع خطة تكتيكية رياضية "قطف الرمانة" للتخلص من التطويق ومحاولة فتح ثغرة مع الشاغلة النارية.
٤- الضغط على القوات العادية وفتح ثغرة مع التقدم.
المصطلحات:
الانسحاب
خط قتال
جبل قاسيون
حي الصالحية
حي الأكراد


مخطط رقم (٣)
١. استطاع القائد فتح ثغرة في صفوف القوات المعادية.
٢. عبور الثغرة دون خسارة ، بل عاد التسعة مقاتلين سالمين.
٣. الالتقاء مع القوات الصديقة.
المصطلحـــــات:
خط قتـــال
انسحاب العدو
قوات صديقة
جبل قاسيون
جبل الأربعين "الأكراد"
حي الصالحية
حي الأكراد





كُلِّف السيد محمد أمين وهو ضابط على رأس قوة من رجال الأمن بالذهاب إلى إحدى المناطق الجبلية من مناطق جبل الشيخ بمهمة الحفاظ على الأمن هناك، حيث يُقام في إحدى قرى هذه المنطقة احتفالٌ سنويٌ للسادة المسيحيين والدروز والزوار المسلمين يؤم إليه معظم سكان القرى، وفي هذا الاحتفال تحدث جرائم في كل عام.

وعندما انطلق السيد محمد أمين إلى قيادة المنطقة خرج قائد المنطقة وهو برتبة قيادية لتوجيهه لتنفيذ مهمته، فتقدم منه وأدّى له التحية العسكرية وقدَّم نفسه إليه وكانت المفاجأة بأن القائد لم يعجبه مظهر هذا الضابط السيد محمد أمين، إذ ليس له شوارب مفتولة عريضة وكبيرة (وفي عهد الأتراك كانوا يعتبرون كثافة شارب الرجل دليل قوته ورجولته وشاربا هذا الضابط عاديان).. فما كان قولُ القائد إلاّ أن قال بتعجرف ظاهر:

هل أرسلوا لي بنات!...

فغضب الضابط النزيه وأدار عنان جواده باحتقار ودون أداء تحيّة لهذا القائد وتوجّه على صهوة حصانه لتنفيذ مهمته.

* * *

وفي الغد بدأ الاحتفال واختلط الحابل بالنابل وإذ بأحد الأشخاص وكان مخموراً يتقدّم من شخص آخر ويوجِّه له طعنةً قويّة بخنجر فيرديه قتيلاً.

وعلى الفور أصدر الضابط أوامره إلى رجال الأمن للقبض على هذا المجرم، لأن الحشد من ازدحام البشر كان يحول بين ضابطنا وبينه فطلب مؤازرةَ رجال الأمن.

فأجابوه بتراخٍ واضح: "سيدي هذا لا نستطيع القبض عليه، إنه زعيم المنطقة كلِّها وقبْضنا عليه يعني أن سكان المنطقة سيقضون علينا جميعاً".

فَهِمَ عندها أن هؤلاء مرتشون من هذا الزعيم، وأثناء الكلام بينه وبينهم كاد المجرم أن يختفي في زحام الاحتفال.

حاول القبض عليه دون معونة من هؤلاء المرتشين، ولكنه لم يعثر له على أثر في خِضَمِّ الزحام والحشود البشرية الكثيفة التي حالت بينه وبين المجرم فثارت ثائرته وغلت براكين الغضب في صدره فانطلق إلى المخفر "قسم الشرطة" ودخل الغرفة المخصَّصة له وأقفل بابها وكلمات القائد المتعجرف المغرور بالمظاهر الخدّاعة ترن في مسامعه..

هل أرسلوا لي بنات!...

* * *

ضاقت به الأرض بما رحبت وضاقت عليه نفسه لِتقاعُسِ رجال الأمن وقول القائد، فأطبق وجهَه على الأرض بوضْعٍ كوضع السجود وهو مصعوق والألم يعصر نفسه فمضى النهار وتبعه الليل وهو على وضعه المؤلم حتى ضحى اليوم التالي فانقضّ كالأسد الهصور لمكان الاحتفال ولحسن الحظ جمعه الله بمجرم الأمس، ويا للغرابة لقد فاجأ المجرم بالابتسام والتسليم، سلام الأصدقاء والمحبين فظنَّها الخبيث أن الأمور حسب ما يشتهي وأن هذا الضابط أيضاً يبغي الرشوة كمرؤوسيه وبالتالي سيتم التغاضي عن جريمته النكراء.

وقدَّم له الضابط لفافة تبغ فأخذها ذلك الزعيم المجرم بكل سرور وازدادت الابتسامات بينهما، وأشعلها الضابط الشهم له ولاحظ ذلك معظم رجال الزعيم مما بعث الاطمئنان في نفوسهم وأن الأمور تسير على ما يرام.

وضع ضابطنا يده بيد الزعيم المجرم وجرّه لأحد الأزقة المنحدرة للقرية ضاحكاً مبتعداً به عن مكان الاحتفال وقد ظنَّ الزعيم المجرم أن الضابط يريد الانفراد به ليساومه على الرشوة فأطاعه عن طيب خاطر، وما أن تواريا عن الأنظار حتى ثنى يد المجرم على يده الأخرى وكبّله بالقيد وساقه إلى المخفر ذليلاً.

وعلى الفور أصدر أوامره لرجال الأمن بتجهيز عربة الخيول بأقصى سرعة وبهذه الأثناء شاع خبر القبض عليه فسبقه رجال الزعيم المجرم ليقطعوا عليهم الطريق وينقذوا زعيمهم، وفعلاً تمّ تجهيز العربة بمنتهى السرعة ووُضع المجرم بها وانطلقت العربة بالسرعة القصوى تخبُّ الأرض خبّاً متّجهة إلى قيادة المنطقة، ترافقها مفرزة قوية من الدرك.

وصلت العربة الآن إلى ممر جبلي ضيق وإجباري، فأصبح الطريق مسدوداً نظراً لوجود نيران مشتعلة شكَّلت حاجزاً نارياً لا يمكن للعربة اجتيازها، أشعلها أعوان المجرم لسد الطريق وإنقاذ زعيمهم بقوة السلاح.

وهنا أمر الضابط السيد محمد أمين رجاله بمشاغلة الذين يُطلقون النار للتغطية بمبادلة إطلاق النار الغزيرة عليهم بالمثْل. وأخذ الزعيم من العربة وحمله على الحصان الذي يمتطيه كما يحمل كيساً من القمح أو الشعير على الراحلة وانطلق به قافزاً بفرسه مُجتازاً حاجز النيران ولم يُصب بالعيارات النارية.

واستمر بانطلاقه السريع إلى قيادة المنطقة، ولمّا وصلها وجد أن القائد قد جهَّز قوةً بقيادته للذهاب إلى المنطقة لمؤازرة ضابطنا ورجالِهِ هناك بعد أن وصلت الأخبار بالهاتف عن القبض على الزعيم القاتل.

وقبل أن يتفوه القائد بأية كلمة أخرج الضابط السيد محمد أمين إحدى قدميه من الركابِ وركل المجرم بها فوقع عند قدمي القائد قائلاً:

هذا شغل البنات!.

حقّاً، أبت النفوس الأبيَّةُ إلاَّ أن تتجلّى بأجلى معانيها...





نُقل الضابط السيد محمد أمين من مكان عمله إلى منطقة الزبداني، حيث عُيّن مدير ناحية فيها.

وفي اليوم الموعود لاستلام مهام عمله الجديد اصطحب اثنين من عناصر الشرطة (الدرك) ليرشداه إلى مكان مخفر الديماس لقضاء ليلة فيها ثم الانطلاق لمركز قيادته.

سار الركبُ حتى وصل منطقةَ الديماس فمرُّوا بأرض مزروعة بالبطيخ، وإذ بأحد العنصرين يقدّم لضابطنا شطراً من بطيخة، فتوقف وسألهما عن صاحب الأرض وهل يسمح بهذا حتى يكون على بيّنة من أمره، فأخبره أحدُهما بأن هذه الأرض ملْك له. عندها اطمأنَّ وأكل من البطيخة.

وبعد هذه الوقفة البسيطة قرَّر السيد محمد أمين متابعة السير لكن الشرطيان طلبا السماح معتذرين عن متابعة السير معه وقالا له:

سيدي: لقد أصبح المخفر قريباً من هنا فهو وراء تلك الهضبة فهل تسمح لنا بالذهاب إلى بيوتنا وأشارا إلى هضبة تبعد حوالي /٢٠٠٠/ متراً "وعلى المبدأ العامي أطعم الفم تستحي العين".

قَبِل طلبهما وتابع المسير وحيداً بالاتِّجاه المشار إليه حتى وصل الهضبة، لكنه لم يجد القسم خلفها، وهنا أخذ ظلام الليل يغشي وجه الأرض آخذاً بالتزايد شيئاً فشيئاً حتى خيَّم على كل الأرجاء.

وفي تلك الأثناء وبينما هو جادٌّ في البحث وإذ به يُفاجَأ بضبع كبير الحجم مخيف المنظر يتطاير الشرر من عينيه، أطلق صرخة قوية دوت لها الروابي والآكام يريد بها أن يهيمن عليه ويزرع الرعب بقلبه حتى يستسلم بين يديه فيصبح لقمة سائغة وفريسة سهلة بعد سيطرة الجبن عليه، لكن ضابطنا السيد محمد أمين لم يتسرَّع ولم يتصرَّف بانفعال رغم أن بحوزته مسدساً ملقَّماً وبندقية جاهزة ولم يفكِّر باستعمال إحداهما، ذلك لأن ظلمة الليل الشديد لا تسمح بتصويب دقيق، وإن أيَّ خطأ أو إصابة بمكان غير قاتل فيُجرح تجعل من الضبع وحشاً كاسراً إذا استدمى، وبالتالي يصبح ضابطنا عرضةً لهجوم خطير من هذا الوحش وخصوصاً أن البنادق في ذلك الزمان لم تكن لتستوعب أكثر من طلقة واحدة، ووضْع طلقة أخرى يحتاج لوقت فيتعرَّض لخطر الوحش المجروح الكاسر، فما كان من ضابطنا إلا أن جلس على مسافة قصيرة من هذا الضبع الذي كان يحدق بضابطنا بعيون تطلق الشرر والغيظ والقهر، فبادله بنظرات تدلُّ على الثقة والثبات في هذا الموقف العصيب، فبدلاً من أن يملأ الخوف والرعب قلبه ثبَّت الله الشجاعة في قلبه وغمره بالأنس والسعادة والسرور تملأُ جوانحه.

وبالفعل وضع بندقيته المحشوة الجاهزة للإطلاق على حضنه متربِّصاً وأخرج من جيبه حافظة التبغ وصنع لنفسه لفافة تبغ وبدأ بتدخينها بشغف ولذة، وما كان من الضبع إلا أن نهض بقوة متوثباً للهجوم وأطلق صرخة كزئير الأسد دوَّت لرجعها أعالي الهضاب، فما كان ردُّ فعل ضابطنا إلاَّ أن صرخ به بكلمة:

"ورصاص"...

يا للغرابة!. لقد هدأ الضبع المفترس وأقعى على قدميه ويديه ساكناً هادئاً سكوناً غريباً وعيناه تلمعان وتحدقان في ظلام الليل الرهيب.

لقد كان ضخماً كبير الرأس شديد المراس، وبحجم الحمار.

سكن لفترة تقارب النصف ساعة وأنفاسه النجسة تنطلق من منخريْه الضخمين كفحيح الأفاعي، ثم وفجأةً وبدون سابق توقُّع قفز بعنف على قدميه متوثباً للهجوم وأطلق صوتاً كالزئير متهيئاً للانقضاض المريع، لكن ضابطنا بطمأنينة وبصوت كقصف الرعد أجابه بلفظة "ورصاص"، فسكن وهدأ وأقعى متربعاً على أربع، بينما تابع ضابطنا نفث لفافته بهناء وحبور وبغاية البسط والسرور.

وظلّ الحال كذلك: الضبع يصرخ مدوِّياً والضابط يجيبه بكلمة كقذيفة قتالية: "ورصاص" حتى أخذ الصبح بالتنفس، وبدأ نوره يبزغ شيئاً فشيئاً وحتى بدا وكأن كل شيء قد أصبح واضحاً للعيان في تلك القمم الجبلية الشاهقة الرائعة.

وهنا نظر الضابط السيد محمد أمين فرأى كوم حجارة مرتفعاً سرعان ما قفز إليه واعتلاه وصوَّب ببندقيته باتجاه الضبع الذي كان يتقدَّم منطلقاً للانقضاض عليه، عندها أطلق النار على جبهته وظنَّ أنه حقَّق هدفه، وعلى الفور صرخ الضبع صرخة مؤلمة مزقت سكون المنطقة وتجاوبت لأصدائها النجود والوديان وكأنها رعد قاصف أو دويُّ قصف هائل، ثم استدار وانطلق هارباً لا يلوي على شيء، هيّأ بندقيته ثانيةً للإطلاق، وفي هذه الأثناء سمع ضابطنا وقع أقدام وضجيج رجال فالتفت، فرأى بعض رجالٍ مسلَّحين ببنادق مشْهرة، فإذا بهم رجال شرطة من المخفر الذي كان تحت الهضبة مباشرةً من جهة غير التي بحث عن المخفر منها.

أدُّوا له التحية وعجبوا لمرآه على تخم الهضبة والبندقية بيده ودخان الإطلاق يتصاعد في الجو، فسألوه عما جرى:

فقصَّ عليهم ما جرى معه طيلة الليل، عندها أخبروه بأن هذا الضبع قد أرعب وأعجز سكان المنطقة كلَّها، وأنه قد افترس اثنين من أهالي قرية الديماس المجاورة.

ثم تتبَّعَ عناصرُ الشرطة آثار الدم فوجدوا الضبع قد ارتمى على الأرض جثة هامدة لا حياة فيها أسفل المنحدر.

وهكذا حقَّق الله على يد ضابطنا السيد محمد أمين أوَّلَ عمل أمني في هذه المنطقة في الساعات الأولى من حضوره فأراح أهلها من هذا الوحش الخطير.

* * *

وسبب سرد هذه القصة المطربة الغريبة:

أن ضابطنا في أحد الأيام كان واقفاً مع ثلاثة أشخاص يتسامرون قرب أقفاص سيرك لحديقة حيوان متنقلة بدمشق، وإذ بأسد أو نمر يزعَقُ زعقة بزئير قوي فيحسُّ بالذعر يسري في أعصابه والفزع يغمر فؤاده

ويرجف له قلبه وتختلج له كافَّةُ أعصابه من فرع رأسه إلى راحة قدميه فلا تكاد رجلاه تحملاه، وارتجف جسده.

هنالك التفت إلى صحبه ليرى هل شاهدوا ما حدث له، فرآهم مشغولين بالحديث، عندها عجب كيف أن الله ثبَّته ذلك الثبات العجيب لليلة كاملة مع ضبع مفترس ووضع في قلبه الشجاعة والأمان والبسط والسرور، وهنا وفي وسط المدينة الصاخبة والنساء والأطفال يتفرَّجون على أقفاص الحيوانات يرتعب هذا الرعب ويحلُّ به الفزع.

إذاً فالشجاعة والخوف بيد الله يبثُّها كيف يشاء ولمن يشاء ولا قوة ولا حول إلا به تعالى، ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾[1]... فهو تعالى ربُّ المشاعر كلّها.



[1] سورة النجم: الآية (٤٩).



كان عصراً ذهبياً رائعاً أدهش العالَم حينما فتح العثمانيون بلاداً شاسعة وواسعة وقادوا بالعدل والرحمة تحت لوائهم لواءَ الحق شعوباً مختلفة الألوان والأجناس وذلك عندما أقاموا حدود الله وشرعه وتعاليمه بين الناس بأن طبّقوا القرآن الكريم، فانتشر الأمان وسادَ الاطمئنان وعمَّ الرضى والمحبة والإخاء بين البشر ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى.

ولكن وفي الفترة الأخيرة من حكمهم حيث إنهم استبدلوا حكم وقوانين الإله بقوانين البشر منذ عهد السلطان سليمان القانوني، بدأت هذه المنارة بالنوصان ومن ثم الانطفاء.

في آخر عهدهم أخذت الفوضى تشيع، وسادَ التذمر وطغت السرقة والإجرام في البلاد والعباد.

* * *

وها هي منطقة من مناطق حكمهم يسود فيها الإجرام والقتل والسرقة أصبحت وكأنها صحراء مقفرة بعد أن كانت جنَّة غنّاء... ألا وهي منطقة الزبداني الحدودية مع لبنان... انتشر فيها الإجرام والمجرمون بشكل لا يُوصف وكان على رأسهم مجرم عاتٍ. حاولت الدولة العثمانية مراراً القضاء عليهم بإرسال طوابير عسكرية لكنها كانت تبوء بالفشل والسبب في ذلك كان يعود لمجاورة هذه المنطقة للبنان حيث إن المجرمين

كانوا يهربون إلى منطقة الموارنة بلبنان. وكان هناك قوانين دولية تمنع التدخل والملاحقة ضمن دولة محميَّة من الأوروبيين.

وبعد هذا العجز والفشل الواضح عادوا بمحاولات جديدة سعياً للخلاص من هؤلاء المجرمين الذين جلبوا القلاقل والبلبلة للدولة بأسرها... "فعادوا كما اعتادوا" إلى هذا الضابط السيد محمد أمين وأرسلوه كمدير ناحية منطقة الزبداني حيث الإجرام والمجرمون وذلك لما شاهدوه من بسالته الخارقة وما لمسوه من شجاعته النادرة المثال، وحكمته الرائعة بتصريف الأمور على أتمِّ وجوهها.

ولدى استلامه مهامَّ وظيفته في مركزه الجديد، أخذ يتعرَّف على أحوال المنطقة فعلم أنَّ هناك مجرماً يتزعَّم حوالي سبعين مجرماً، فأصدر أوامره لرجال الأمن بالقبض على هذا المجرم ومن ثمَّ الآخرين. فكان جوابهم:

الدولة عاجزة عن القيام بهذا العمل وتريدنا أن نقوم به!.

وهنا فهم أن رجال الأمن جبناء ولن يستطيعوا تنفيذ المهمة. فقال لهم:

إذا كان الأمر كذلك فاذهبوا إلى بيوتكم بإجازات مفتوحة إلى حين أستدعيكم وستصل رواتبكم لكم، وفعلاً أجاز رجال الأمن إجازة مفتوحة لأجَلٍ غير مسمّى وكان يمنحهم رواتبهم الشهرية. لكن ما هو البديل؟.

لقد جاء بجماعة من المجرمين كان قد تمكَّن من القبض عليهم وتأديبهم، ثم أطلق سراحهم بعد خضوعهم وإعلانهم توبتهم وجعلهم رجال أمن من قبله وفرض الأتاوة على المنطقة ليمنح هؤلاء رواتبهم.

بعد فترة أعطاهم أيضاً أوامر بالقبض على المجرم وجماعته... فاصفرت وجوههم وحلَّ الرعب بهم، وقالوا كذلك لا نستطيع. وهؤلاء المجرمون يعرفون كبيرهم ويهابونه فتركهم وشأنهم وامتطى صهوة حصانه وانطلق وحيداً فريداً إلى بلدة سرغايا مقر المجرم الأكبر حتى وصل بساتين القرية فربط فرسه بشجرة وخلع رُتَبه ووضعها في جيبه ودخل بصفة جندي عسكري على القرية لا برُتَبِهِ كضابط حتى دلف المقهى التي اعتاد المجرم الزعيم ارتيادها، لكنه منذ دخوله ألقى نظرة سريعة في المقهى فشاهد المجرم على كرسي مرتفع كالعرش وأعوانه الباقين تحته على طاولاتهم وكلّهم مدجَّجون بالسلاح.

نعم دخل المقهى فلم يعبأ بوجوده أحد، إذ إنه كان وحيداً بصفة رجل أمن عادي "دركي" وربما ظنّوه أنه مُرسل بإحدى التبليغات أو الأمور العادية لصاحب المقهى.

سار باتجاه صاحب المقهى وعلى القرب منه يجلس المجرم الكبير، فما كان منه إلاَّ أن انقضَّ عليه من الخلف بلمح البصر كالأسد وحضنه مباشرة بيده واليد الأخرى فيها مسدسه وهو ملقّم، صوَّبه مُلْصِقاً إيَّاه بظهر المجرم وباتجاه القلب قائلاً:

حذارِ أن تتحرك، فأية حركة تكلِّفك حياتك، وإني لقاتلُكَ ولأُقتل بعدها.

سرت في نفس المجرم رهبة كبيرة عجيبة انقلبت إلى ذعر ورعب قاتل وسرت قشعريرة تبعها عرق بارد غمر جسمه، هنالك انحلَّت فرائص هذا المجرم واستسلم، وحوله سبعون مجرماً هم رهن إشارته وقد سددوا أسلحتهم على جسم الضابط وعلى رأسه ولكن لا يستطيعون الإطلاق فأية رصاصة يقابلها قتل زعيمهم حالاً، وزعيمهم قيمته عندهم أغلى بكثير من شرطي أمن "دركي". ولكن ما هو الحل؟.

أنا قاتلك ولو قتلت: أو امشِ معي..

* * *

كلمة صدرت من ضابطنا السيد محمد أمين فلقد قالها كلمةً من قلب لا يتزعزع، جبل راسخ شامخ بالحق وإصرار على نصرة الحق أينما كان ولو أطبق عليه أهل الثقلين، حتى ولو استشهد ولو هلك دونه.

نعم قالها بكل قوَّة ورباطة جأش وإباء "أنا قاتلك ولو قُتلت: أو امشِ معي".

وهنا خيَّم الصمت فجأة وبدأت لغة النفوس تتكلَّم، لكن المجرم أيقن بالموت المحتَّم إذا بدر منه أي تصرُّف لأن الكلام الصادر عن القلب يدخل القلب، فأمره بالسير أو الموت، وتبلبل الجمْع وانتظروا إشارة من سيِّدهم المنهار قلبه تجاه صدْق ضابطنا السيد محمد أمين والذي خاطبهم بقوله المفاجئ:

حدسي أنه قاتلي فدعوه وشأنه ولننظر ماذا يريد.

وبدأ بالخروج من المقهى وتابعا السير والموكب خلفهم مشهري الأسلحة بانتظار أمر سيدهم المجرم، حتى وصلا مكان الفرس... عندها طلب منه أن يأمر المجرمين بالرجوع... فالتفت إليهم وقال:

هذا الرجل لا شك قاتلي فاذهبوا ودبِّروا أمري مع الدولة، أما هذا فلا جدوى معه، أنقذوني عن طريق آخر.

فعاد المجرمون على أعقابهم خاسئين مكرهين. وبعد انصرافهم وبلمح البصر وضع الضابط مسدسه في خصره بعد أن أخرج القيد وقيّد المجرم من كلتا يديه وأركبه على فرسه وامتطى ظهرها خلفه وعاد تحفُّه الجلالة والمهابة والنصر، ضارباً بذلك أروع الأمثلة لكل شهم وبطل ومغوار، حتى وصل القسم فأنزل المجرم وقاده وهو مكبَّل حتى وصلا الباب حيث رجاله جلوس في أمان واطمئنان فصُعقوا من هذا المشهد. لِمَا رأوه..

هل يعقل هذا!.

كيف استطاع هذا الضابط إحضار كبير المجرمين موجوداً؟.

أهم في حقيقة أم حلُم وأخذوا يفركون أعينهم غير مصدِّقين ما يروْنه بأمِّ أعينهم.

* * *

ومنذ تلك الفترة نظروا إليه نظرة إعجاب وتقدير وأصبحوا رهن إشارته (قلباً وقالباً، أي بقلوبهم وأرواحهم)، وفيما بعد استطاع أن يقضي على الإجرام بواسطة المجرمين الذين غدوا رجال الأمن في المنطقة.

وقد اعتاد بعدها كلَّما أراد القبض على مجرم فارٍّ لائذٍ بمغاور الجبال وهمَّ بملاحقته بأن يُقسم عليه رجالُه الجدُد من الدرك (والذين كانوا مجرمين وتابوا) بأن يبقى هو ليقوموا هم بجلب المجرم، وكانوا يضعون له الفواكه من تفاحٍ زبدانيٍ وعنبٍ على طاولة ويتركونه وينطلقون كالصواعق فيُحضروا المجرم الفارّ من الكهوف الجبلية بعد بضع ساعات موجوداً مقيَّداً.

فلم تمضِ فترة الإصلاحات الأمنية على أيدي هؤلاء الأشاوس من الرجال الأشداء حتى حلَّ الأمن والأمان في منطقة الزبداني بأسرها سهولها وجبالها، بلدانها وحقولها وبدأت الحياة تعود إلى مجراها الطبيعي والناس يخرجون إلى بساتينهم وأعمالهم واستصلاح أراضيهم آمنين مطمئنين بعد أن كانت خاوية على عروشها. وبعد فترة من الزمن أصبحت المنطقة جنة غناء كما كانت في سابق عهدها وبدأت المواسم والغلال والأثمار تعمّ أسواق دمشق كما عمَّت خيراتها وثمارها على المنطقة.

وهنا شُده الوالي والمسؤولون بهذا التبديل الجذري الكبير فأرسل قائد الجيش والأمن ليستطلع الخبر ويجتلي وجه الحقيقة، فقام بزيارة مفاجئة للمنطقة حيث الضابط وجنوده "المجرمون التائبون الأنصار"، واجتمع بالضابط على انفراد وعلم بخططه وكيف أحال رجال الأمن إلى دوُرهم يقبضون رواتبهم وأن هؤلاء الرجال

الأشاوس الذين تشعُّ على وجوههم مظاهر الشجاعة والبسالة إن هم إلاّ مجرمون عريقون بالإجرام: قد تابوا وأنابوا للحق على يديه وهم الآن يصلُّون ويحفظون أرواح الناس بيد من فولاذ وأن رواتبهم لا تكلِّف الخزينة شيئاً.

تركه وشأنه وعاد وقد سيطر الإعجاب بعبقرية هذا الإنسان على قلبه ومشاعره حامداً مُثنياً عليه عظيم الثناء.

* * *

وهكذا دانت له المنطقة بأسرها وحلَّ الأمان والاطمئنان والحياة والحركة من جديد ورفلوا بالحرية والسعادة والرضى على حساب أَمْنِه وراحته وحياته وهكذا كان دائماً. والعزة لله ولرسوله ولمن أيَّد الحق ونصره من المؤمنين.





لقد سمع السيد محمد أمين عندما كان ضابطاً في الجيش التركي أن ضابطاً ألمانياً ماهراً بالرمي الغريزي باستطاعته أن يصيب أي هدف بدقَّةٍ وإتقان بشكل غريزي دون تصويب أو تسديد، وهو يقوم بعرض مهاراته في قطاعات الجيش التركي، حين كانت تركيا حليفة ألمانيا بالحرب العظمى الأولى. وقد ذاع صيته وأبدى الناس وخاصّة الضباطُ منهم إعجابهم به، وحيث إن لهذا الضابط السيد محمد أمين خبرة في هذا المضمار فقد كان يعلم أنه من المستحيل أن يكون الرمي الغريزي دون تسديد دقيقٍ أو تصويب مجدي بهذه الدقّة وإلى هذا الحد.

لكنه عندما رأى هذا الاهتمام الكبير والتقدير البالغ لهذا الرامي الألماني النازي والإعجاب البالغ به بالرغم من أن نفسه خبيثة منحطة كلها شهوات ورذيلة. عندها ثارت غيرة الضابط السيد محمد أمين على دينه وأبناء قومه، فقرر الذهاب لملاقاة ذلك الرامي الألماني وتحويل أنظار وقلوب الناس عنه وتفنيد ألاعيبه.

كان ضابطنا السيد محمد أمين قد أمضى شطراً كبيراً من حياته في ملاحقة المجرمين وقاطعي الطرق وهذا الأمر يتطلَّبُ خفَّة ودقَّة فائقة في التصويب لأن أي غلطة قد تكلِّفه حياة، فكان سبَّاقاً مجلِّياً في مضمار التصويب الدقيق بالمسدس وماهراً بالإصابة لطول المراس وكثرة التمرن على هذا النوع من الرماية.

وعندما وصل إلى مكان العرض حيث الرامي الألماني ومجموعة من الضباط

تحدى الرامي الألماني وأعلمه بأنه مستعد للنزال. وقال له:

ارمِ أنت أولاً، ورمى الضابط الألماني وفي هذه الأثناء التجأ السيد محمد أمين إلى الله فلاحظ طريقة الرمي التي يقوم بها هذا الألماني، واكتشف أنه يقوم بالتسديد الخاطف أثناء الرمي ولكن بسرعة كبيرة لا تبدو للعيان لكثرة ممارسته لهذه الرماية حتى ظهرت وكأنها رمي غريزي وهذا يتطلّب تدريباً طويلاً ومستمراً.

لقد أدرك الضابط الفطن بلحظات ما تعلّمه هذا الألماني بسنين وبتدريب طويل شاق... حتى إن هذه الرماية السريعة بالتسديد الخاطف الغير ملحوظ أصبحت عقلاً في نفسه.

قال الضابط السيد محمد أمين هذا شيء بسيط بالنسبة لنا، ثم أخرج مسدسه ورمى على الهدف وفعل كما يفعل الألماني.

يا للعجب لقد حدثت المعجزة، فمن أول مرة حقَّق هدفه المطلوب وكانت الإصابة أدقّ من إصابة الرامي الألماني فقال له الألماني: كرِّر.

فأعادها ثلاثاً، فصُعِق الضابط الألماني من هذا الموقف وحُطِّم كِبره فحزم أمتعته وعاد إلى بلاده يجرُّ أذيال خيبته ومرير هزيمته، وقَطَع الجولة التي كان سيقوم بها إلى بقية الدول الإسلامية والعربية.

حقّاً لقد كان النصر حليف الضابط المسلم العربي الغيور الذي سعى لإنقاذ إخوته ونصرتهم وتحويلهم عن ذلك الأخطبوط المستعمر الماكر.

«والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه».

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ . . ﴾[1].



[1] سورة إبراهيم: الآية (٤٦).



كان السيد محمد أمين في الجيش التركي برتبة ضابط في الشرطة عندما قدم قائد الجيش والدرك العام التركي وأوكل له مهمة قيادة استعراض عسكري بمجموعات من فرق الجيش أمام المسؤول "المفتش العام لجيوش الامبراطورية" المبعوث من قِبَل الصدر الأعظم وعدد من كبار الضباط الألمان المعروفين آنذاك بتفوقهم وخبرتهم العسكرية العظيمة أمام العالم وهذا ليس من اختصاصه، فكان ردُّه محطَّ استغراب للقائد العام التركي: كيف لم يخْطر هذا الوضع الصحيح على باله، لكنَّ إعجابه به أنساه أن اختصاصه أمنيٌ لا عسكري.

هذه ليست مهمتي، إذ ليس لي خبرة بها فاختصاصي بالشرطة وليس بالجيش ومهمة كهذه تحتاج أيضاً إلى عدة أشهر من التدريب فكيف يُطلب مني القيام بها فوراً وهي ليست من اختصاصي ولم أتلقَّ أية دورات أو حتى دراسات على هذا النوع من المهمَّات العسكرية!. (فهو لا يُقدم على أمر مقدَّر عليه الفشل).

ولكن لما عُرِف عنه من شجاعة وقدرات عظيمة وموضع ثقة كلِّية من قبل قادته ولنجاحاته الباهرة دوماً بكل ما أُوكل إليه من مهمات جسيمة أصرّ هذا القائد على تكليفه وأخبره أن تلك المهمة الكبرى التي تقيِّم سمعة الجيش التركي في سوريا قد تمَّ التوقيع عليها باسمه من قبل الوالي[1].

---

(1) الوالي بمثابة رئيس جمهورية.

لم يعد هناك مجال للاستئناف والتراجع. وهنا وبنظرة بعيدة المدى وحيث إن المهمة قد أصبحت باسمه ولا مجال أمام القائد العام للنكوص فقد قبلها وتوكَّل على الله الفعَّال الذي بيده مقاليد كل شيء.

وفي صبيحة اليوم التالي جهَّز السيد محمد أمين نفسَه وامتطى صهوة جواده واتّجه إلى ساحة العرض العسكري وقد حضر الموكب المنتظر كلٌّ من "الوالي والمفتش والخبراء الضباط الألمان وحشدٌ من المسؤولين والقائد العام للجيش التركي وضباطه".

وتمَّ تواجدهم في الساحة المطلوبة وأخذوا أماكنهم على المنصَّة، وها هو الضابط السيد محمد أمين يمتطي جواده ويتقدَّم الساحة على رأس مجموعة من فرق الفرسان المسلَّحة، وعند دخوله الساحة واعتلائه المنصّة القيادية الخاصة به أمسك البوق العسكري وبدأ بإصدار الإيعازات العسكرية لمجموعة الفرق الذين اتَّجهوا إليه بكلِّيتهم لتنفيذ العرض المهيب.

* * *

وفعلاً بدأ الاستعراض وبدأت الحركات والعروض العسكرية لكل فرقة بالقيام بعروض رائعة مدهشة على وتيرة إيقاعية متناسقة متكاملة بتجاوب فذٍّ غريب وكأنهم أوتار آلة موسيقية بيد بارعة لم يشهد مثيلها تاريخ الأمم من قبل، وبأرتال منسَّقة وحركات متقنة إلى درجة الإبداع.

وفعلاً لو أنه كان هناك أكبر مختصٍّ في تدريبات الاستعراض على رأس فرقة وكان قد سبقها تدريبات عدَّة أشهر لما تمكَّن من تقديم غيض من فيض من هذه العروض الرائعة التي أشدهت الخبراء الألمان وأخذ الإعجاب والدهشة يستحوذان على مشاعرهم جميعاً فصُعقوا من جدَّة وروعة ما رأوا، ثم وعوا لأنفسهم وبدأوا بتسجيل القسم الأخير من تلك الحركات والعروض التي قُدِّمت من الضابط الناجح السيد محمد أمين وفرقه، لكن العرض والاستعراض كان قد انتهى.

ورغم كل هذه العروض التي ما شهدت هذه الساحة ولا المشاهدين ولا حتى الخبراء العسكريين الألمان مثيلاً لها لاحظ السيد محمد أمين أن المفتش المسؤول لم يكترث لهذه العروض ولم يعرها أي انتباه، بل ظلَّ مُتعالٍ غير مُبالٍ.

عندها ثَبَتَ لدى ضابطنا أن ذلك المفتش لم يكن هذا اختصاصه وليس لديه معرفة بتلك الأمور العسكرية، إذ كان مبعوثاً بالوساطة لكونه من أقرباء السلطان "فلا يعرف الفضل إلاَّ ذووه"... فأراد

ضابطنا السيد محمد أمين أن يخفض من تكبُّر وتعجرف هذا الجاهل المتكبِّر بغير الحق فالتجأ لربِّه وأجال فكره وقرر خطَّة عظيمة أظهرها لحيِّز الوجود عند انتهاء العرض وتقديم نفسه له: فقد بدأ عرض الختام لنهاية هذا الاستعراض بأن أطلق العنان لفرسه السبَّاقة حتى دار بها حول الساحة بسرعة رهيبة ثم انقضَّ وبنفس السرعة باتجاه مستقيم إلى المنصَّة، حيث وقف المفتش المسؤول لردِّ تحيته العسكرية وتقديم العرض له.

زادت سرعة الفرس ونقصت المسافة بينها وبين المفتش العام، وانقضاض الحصان يتزايد والمسافة تتلاشى حتى أحسَّ المفتش العام أن زمام الفرس قد أفلت من يد صاحبها وأنها ستدهمه وتقضي عليه، وتراقصَ خطرُ الموت الداهم أمام عينيه فتراجع للوراء لتفادي الفرس التي كانت لا تزال منقضّةً بشكل مرعب. وبتراجعه للخلف تعثَّرت قدماه بالمنصَّة فوقع مستلقياً على ظهره يرتعد فزعاً، لكن الفارس قام بلعبته البهلوانية والتي يعرفها جيداً رؤساؤه فلم يبالوا ولم يتحركوا فيتراجعوا كما تراجع المفتش المغرور، إذ قام فارسنا السيد محمد أمين بهمز فرسه همزة قوية أسالت قطرة دم من بطنها (كانت الهمزة أقوى من همزات لعبته البهلوانية العادية بسبب خطورة الموقف وضرورة نجاح التأديب والردع لهذا الأحمق الجاهل بالأمور العسكرية) فتوقفت عن العدو السريع بمسافة أمتار قليلة توقُّفاً تاماً، أما الضابط الفارس فبقوة اندفاع سرعتها الهائلة وكان قد أفلت نفسه من على ظهرها ارتفع في الهواء من فوق رأسها هابطاً للأرض على رجليه الفولاذيتين ومؤدِّياً التحيةَ العسكرية للمفتش العام المستلقي على ظهره والذي نهض وقد تكلل بعار الخجل ينفض كبره وصلَفه بالذلِّ والهوان.

حقّاً لقد كان درساً قاسياً، بل عبرة لكل متعجرف جاهل جبّار.

نعم لقد غضَّ من كبرياء الجاهل بحركته العظيمة بعد إشعاره إياه بخطر الموت، وتمَّ الانتصار وكسب مجالاً جديداً في إثبات جدارته وشجاعته وعدم تعرُّفه على الاستحقار والإذلال، كل ذلك لأن الله حليفه ولأنه دوماً مع الله ومن اعتزَّ بغير الله ذلَّ.





لقد أحلَّ جمال باشا السفاح الرعب في قلوب الناس بعصره لشدة قسوته وجبروته وكان يعمل بكدٍّ لاستلام زمام الأمور بهذه البقعة من العالم والانفصال عن تركيا آنذاك ولم يتراجع بحياته قط عن قرار أصدره لدرجة أنه في أحد الأيام أصدر حكمه على أحد الأشخاص المرموقين بعصره مع ابنه بالإعدام وتشفَّعت بهما أغلب دول العالم ورؤسائها فلم يقبل التراجع عن قراره ولشدة الضغوطات السياسية والدولية عليه قبِلَ أخيراً أن يُعدم واحد منهما الابن أو الأب، وأخيراً تمَّ إعدام الابن.

* * *

كان أغلب الضباط الأتراك يحسدون ذلك الضابط العربي السيد محمد أمين على منصبه وقدراته الفائقة في القضاء على الإجرام والمجرمين وحنكته الكبرى في ضبط الأمور بحيث إنه لم يفشل بأية مهمّة قط كُلِّف بها طوال حياته فنال إعجاب قائد الجيش ومعظم الضباط القادة الأتراك.

وكان من عادة الأتراك أن ينفوا كل الضباط العرب إلى سيراميك بتركيا (بعهد التتريك)، وعندما استلم السفاح قطاعاً من الدول العربية لا سيما بلاد الشام، ولدى وصوله إلى السرايا في دمشق أخبره المغرضون بوجود ضابط "عربي" في دمشق ما يزال على رأس عمله إلى الآن.

فوجئ السفاح بالأمر وقال: أنا موجود، ولا يزال ضابط عربي هنا إلى الآن!. فأصدر أوامره بالحال بنفي ذلك الضابط العربي إلى سيراميك.

عَلِمَ ضابطنا بالأمر وأدرك النتائج مباشرة وأخبر والدته بالأمر لتهيِّء له أمتعة السفر وأصبح ينتظر تنفيذ القرار.

وفي اليوم التالي ذهب إلى مركز عمله، ولدى دخوله السرايا شاهد القائد العام للجيش مقطباً وجهه وساخطاً، فحيَّاه فلم يرد التحية وكان وجهه متجهماً فانكسر خاطر ضابطنا السيد محمد أمين وتذكَّر المثل "إذا وقعت البقرة كثرت سكاكينها"، فجلس وراء مكتبه بائساً يفكِّر بالأمر ولم يصْحُ لنفسه إلاَّ على صوت أحد العناصر يخبره بأن القائد العام للجيش عقدَ اجتماعاً مع الضباط فذهب إلى ساحة الاجتماع متأخِّراً ووقف في آخر الصف.

كان قائد الجيش قد أنهى محاضرته وحديثه قبل انضمام السيد محمد أمين إلى الصف فسمع القومندان يُصدر أوامره للضباط بالمسير، فساروا وسار السيد محمد أمين بآخرهم بسبب تأخُّره وهو لا يدري شيئاً عن الاجتماع وسببه ولا إلى أين المسير ولم يعرف أن الاجتماع كان من أجله وبسببه.

لقد جمع قائد الجيش التركي الضباط ليبحث أمر نفي ذلك الضابط العربي السيد محمد أمين قائلاً لهم:

إذا كان هذا الضابط العربي الذي خدمنا خدمات جليلة والذي لم نكلِّفه بمهمة عسيرة جداً إلاَّ ونفَّذها بالتمام والكمال لنا، ونحن ندرك عجزنا على أن نقوم بعمل واحد من أعماله الجليلة، فإن كان جزاء من يخدم دولتنا بعد أن ضحّى بكل غالٍ وثمين تجاهنا يلقى هذا الجزاء والمصير وإنكار الجميل فماذا سنلاقي نحن ولم نعمل شيئاً من جليل الخدمات التي قدَّمها هذا الضابط. ما سيكون مصيرنا؟.

لذا عقدت هذا الاجتماع ولنقدِّم إلى جمال باشا استقالة جماعية أو يتراجع جمال باشا عن قراره بالنفي... فما رأيكم؟.

وافق كافَّة الضباط بما فيهم الساخطين الحسَّاد الذين لم يبقَ أمامهم إلاّ الموافقة لكون قائدهم موافقاً مع أغلبية الضباط.

وفعلاً وبعد أن وصلوا إلى مقر السفاح صعد القائد العام للجيش التركي وقدَّم إليه معروض استقالة جماعيَّة لكافة الضباط بما فيهم القائد العام نفسه ليوافق على استقالتهم.

فوجئ السفاح بذلك مفاجأة كبرى، إذ لم يتوقع بحياته أبداً أن يقوم كافة ضباطه بالتمرُّد عليه (الكل يعرف من هو السفاح)، ومن أجل من؟. من أجل ضابط عربي!. اهتزَّ كيانه واصفرّ وجهه ولكنه حَسَبَ العواقب، إذ إن القائد بضباطه وجنوده ومن دونهم كيف يسود؟.

وأجاب السفاح قائد جيشه: أنتم جميعاً تريدون تقديم استقالاتكم من أجل ضابط عربي واجتمعتم لهذا الأمر؟.

فأجابه قائد الجيش: نعم. إذا كان هذا الضابط الذي خدم دولتنا بأجلِّ الخدمات وأخلص لنا أكثر من أن نخلص لأنفسنا يُفْعَلُ به هكذا فنحن أيضاً سيأتي يوم يُفعل بنا مثله، لذا ومن الأفضل لنا أن نذهب وبشرف إلى بيوتنا قبل ذلك اليوم.

عندها تراجع جمال باشا عن قراره مُرغماً، حيث إنه كان يخطِّط لإجراء انقلاب على الحكومة التركية واستلام زمام السلطة في هذه البقعة الكبرى من الامبراطورية التركية.

ثم خاطبه قائلاً: إذا كان هذا طلبكم جميعاً لإبقاء الضابط العربي فأنا معكم موافق على إبقائه ولا أخالفكم ما دام هذا رأيكم فهو رأيي.

ردَّ جمال باشا السفاح طلب الاستقالة الجماعية. ثم نزل برفقة القائد العام للجيش إلى الضباط المصطفين أمام مقرّه وأخذ يتجوَّل بين الأرتال وكان ذا نظرة ثاقبة لا يستطيع أعتى الرجال مواجهتها بنظره، حتى وصل إلى ذلك الضابط العربي السيد محمد أمين فعرفه دون أن يدلَّه عليه أحد فحيَّاه الضابط الأبيّ بالتحية العسكرية، بينما ضغط جمال باشا على زر بزَّة ضابطنا العسكرية الذي على صدره بيده وأخذ يدير الزر بشدة مع الضغط على الصدر، بحيث إن الضابط العربي السيد محمد أمين أحسَّ أن أضلاع صدره تكاد تتكسر، عندها قال له السفاح بصوت أجش:

"أبو شام" لقد نلت اليوم شرفاً عظيماً.

أجابه ضابطنا: ذلك بفضلكم.

فأجابه السفاح: لا... بل بعملك.

وعاد ضابطنا العربي إلى مزاولة عمله سيِّداً على الجميع وكان ذلك أوَّل قرار يتراجع عنه السفاح بحياته كلِّها.

* * *

قال تعالى: ﴿ . . وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[1].

قال رسول الله ﷺ: «**واعلم أن الخلق لو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلاَّ بشيء قد كتبه الله عليك**». فاكتب بنفسك الخير تلقَ الخير.

هذا الضابط العربي السيد محمد أمين لم ينصر في حياته إلاَّ الحق وأهله وحرباً على الشر وأهله، وإن تنصروا الله ينصركم. فكيف لا ينصره الله؟.

وبعد ذلك أخذ جمال باشا كلما التقى بالسيد محمد أمين في السرايا يبادره بالتحية ويبتسم له قبل أن يحيِّيه هو، بقوله:

مرحباً أبو شام فتزداد هيبة ضابطنا في قلوب الضباط الآخرين لأن الذي يحييه هو دكتاتور البلاد. ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً ﴾[2].

❁ ❁ ❁

[1] سورة الحج: الآية (٤٠).

[2] سورة الفتح: الآية (٣).



كان السيد محمد أمين ذات يوم يسير وأخوه الجنرال سليم بك في استانبول عاصمة تركية... وإذ بامرأة تمرُّ بجانبهما وتقول:

"تفو" عليكم يا عرب أنتم لا توفون بالعهد...

بُهت الجنرال سليم وقال لأخيه الضابط الشريف: أليست هذه أخت جمال باشا... فهل تقصدنا بكلماتها هذه... ولماذا؟!.

عندها ابتسم السيد محمد أمين ابتسامة لطيفة وقال: نعم يا أخي فهي تقصدني.

قال الجنرال سليم: ولماذا؟.

قال الضابط: اسمع يا أخي سأقص عليك ما سبب هذه الكلمات.

وقصَّ له ما جرى معه عندما كلَّفه جمال باشا السفاح (والي الشام) بمهمة...

فلقد قدِمَت شقيقة جمال باشا السفاح وابنتها في زيارة إلى الشام حيث إقامة الوالي جمال باشا السفاح... قدمتا من استنبول "بلدهما" وفي نهاية الزيارة، طبعاً ستعود الأم وابنتها إلى بلدهما "استنبول" وبالقطار وهذه الرحلة طويلة نوعاً ما...

أمر جمال باشا بتجهيز طاقم السفر اللازم من طباخين وخدم وحرّاس و... وتمَّ ذلك له ولكن بقي عليه اختيار الضابط القائد المناسب الموثوق به ليقود الرحلة...

وقع اختياره من بين ضباطه على الضابط العربي الشريف السيد محمد أمين وأوكل إليه المهمة بعد أن وقَّعها باسمه... المهمة أصبحت مهمته وليس بالإمكان التبرُّؤ منها... فهذا الوالي وما عُرِف عنه أن كلمته لا يمكن أن تصبح اثنتين، فمستحيل أن يتراجع عن قرار أصدره... حتى إن قتل حشد من الناس ولأتفه الأسباب لا يعني لديه إلاَّ كقتل مجموعة من الذباب أو ما شابهها...

* * *

وفي اليوم المحدَّد للسفر، قَدِمَ ضابطنا فاستلم مهمته...

كانت الرحلة جاهزة للانطلاق بكل عددها وعناصرها... اتَّجه ضابطنا القائد إلى محطة القطار... صعد القطار... أطلق القطار صافرته ثم دارت عجلاته وسار حتى غاب عن الأنظار.

الضابط القائد... قائد الرحلة في القطار يشرف على كل صغيرة وكبيرة، فلم يترك أمراً يمرُّ حتى تفحَّصه، وبخبرته الرائعة أصدر أوامره فيه... ثم أشرف على أمور المطبخ يراقب النظافة... نظافة الطعام... يراقب الطباخين والخدم... ولا يسمح بأي خلل أو تقصير.

إنه قائد مدرك حجم هذه المسؤولية وما وراءها من عقاب إن لم ينل رضا الاثنتين... فرِضاهما يعني رضاء جمال باشا السفاح...

كان يراقب الوضع ويقود الرحلة بأفضل ما يمكن... فجمال باشا ما أسهل أن يُنزل العقاب بأيٍ كان ولأي تقصير، وهو بطبيعته لا يقبل التقصير ولا الإهمال أبداً.

سارت الأمور على ما يرام داخل القطار... وضابطنا الشريف يقوم بمهامه، ولكنه لا يجالس الاثنتين ولا يبادلهن الحديث أبداً... بل لا يدخل المكان الذي هنَّ فيه... فهذا ما يقتضيه شرفه وطهارته وكماله.

كان مفصولاً عنهنَّ انفصالاً تاماً ولكنه يؤدي واجباته كقائد رحلة على أتمِّ وجه.

توالت الساعات على القطار الذي يطوي المسافات طيّاً... يجتاز البلاد عبر الطبيعة الجميلة والطقس المعتدل إلى أن مرَّ بإحدى المناطق وكانت كالحديقة الغنَّاء ذات خضرة وجمال، أزهارها ملونة أريجها يعبق

المسك... وألحان عصافيرها وطيورها جذَّابة... لقد حازت هذه المنطقة إعجاب البنت قبل أمها وطاب لهنَّ المقام لفترةٍ وجيزةٍ كنزهةٍ قصيرة، فطلبتا أن تكون الاستراحة بهذه المنطقة ولمدة معينة.

وحسب الطلب نزل الركب بعد أن أُوقف القطار بهذه المنطقة، وبنوا الخيام: خيمة الأم وابنتها... خِيَمُ الدرك والخدم... خَيمة ضابطنا القائد السيد محمد أمين... وسارت الأوضاع بهدوء ونظام.

ولا يزال ضابطنا يؤدي مهامه بعيداً يتحاشى اللقاء بالأم وابنتها إلا بالضرورة الماسَّة... إلى أن بلغه نبأ غضب الأم عليه!.

كانت مفاجأة صاعقة له... ولكن الأمر يحتاج لتدارك لأنها إذا بقيت على غضبها فعند وصولهن طبعاً ستخُطُّ الأم تقرير الرحلة وما واجهها فيها من مَسارٍّ ومحاسن أو انزعاجات ومساوئ، وكذا يحمل هذا التقرير تقديرهن لقائد الرحلة هل أدَّى مهامه على أتمِّ وجه، هل كان حريصاً على راحتهن... هل... هل.

هذا التقرير الذي ستخطه الأم عند الوصول يحدِّد مصير ضابطنا "قائد الرحلة" فإما أن ينال رضى جمال باشا أو العكس وبالتالي سيلاقي عقابه بأمر يصدره السفاح وما دام الأمر من السفاح فهو مرٌ وقاسي... ألا إنه دون ريب الحكم بالإعدام.

كان هذا الضابط الفطن مُدرك لكل هذه الأمور ولذلك عليه أن يتدارك الموقف، فانطلق لتوِّه بسرعة إليهن... وفهم من الأم سبب غضبها... لقد كان السبب عدم جلوسه معهن وتحاشيه الحديث واللقاء بهن!.

لقد كان ضابطنا قد شغف ابنتها حبّاً به لجمال مظهره بعينيه الخضراوتين الطاهرتين وطلعته البهية، ففُتِنتْ به فتوناً وأثارت والدتها عليه وألهبت مشاعرها ضده لتجذبه إليهن فثارت ثائرة أمها.

عندها وبحكمة ضابطنا ودرايته اتَّجه لأمها بالتدبير التالي:

أيتها السيدة نحن العرب من عاداتنا إذا خطب أحدنا فتاة فتقاليدنا تقضي ألا يرى الرجل خطيبته حتى ليلة الزفاف، يجب أن تحجب عنه لليلة الزفاف وطيلة فترة الخطوبة لا يراها، على مبدأ كل ممنوع مرغوب ليشتد الشوق ويُبنى مركب الزوجية على المحبة القوية عند اللقاء الزوجي.

وما أن سمعت الابنة وأمها هذا التعليل وبأنه سيخطبها ويتزوجها حتى طغى الفرح والسرور فأطفأ لهيب غضبهن، بل انقلب السخط رضى والجفاء وفاء والبعد قرباً... فكانت فرحتهنَّ غامرة بالخطيب الجديد الضابط الفتَّان... ذلك القائد الرائع السيد محمد أمين.

وفي ذلك اليوم وما أن حلَّ الليل بسكونه وخلد الجميع للنوم حتى انطلقت الفتاة التركية (والمعروف عن الأتراك أنهنَّ ذواتُ بشرة بيضاء لضعف شمس بلادهن الباردة إضافة إلى أنها كانت ذات قسط من الجمال والحسن عظيم وجمعت الغنى والجاه فربت على الرفاه وكثرة النعم) إلى خيمة القائد تخطو على الأرض على رؤوس أصابعها بين الخيام لكي لا يستيقظ أحدٌ من العناصر فيدري بأمرها...

كانت تسير وتسبقها رائحة عطرها الملكي الشذي عابقاً بالهواء العليل الرخيم... إلى أن دخلت الخيمة "خيمة الضابط" وسبقتها رائحة عطرها النفاذ...

لقد أحسَّ ضابطنا بحركات على باب خيمته واستنشق عبير العطر... عطرها الساحر... أدرك الأمر فالتفت باتجاه الباب شاهدها على مقربة من السرير وبسرعة ألقت بنفسها عليه فوق السرير، فما كان من ذلك الضابط الطاهر الشريف إلا أن ألقى بنفسه من الطرف الآخر من السرير إلى الأرض واستبقها باب الخيمة.

عندها قفزت من السرير الخاوي وتبِعته من حيث رمى بنفسه باتجاه الباب وركضت وراءه بعد أن خرج من خيمته فهرب منها بين خيام الدرك.

وصل خيمة بعيدة دخلها وأيقظ الجندي من نومه العميق معرِّفاً إياه بنفسه وأمره أن ينام في خيمة أخرى.

هي... هي يا جندي استيقظ... فاستيقظ الدركي مذهولاً لا يعرف ما الذي حدث ويحدث... إنَّ قائده يُوقظه... وبذاته وفي هذا الوقت المتأخر من الليل!.

قال القائد: اذهب أيها "الدركي" وابحث عن مأوى آخر لك... هيا بسرعة وما أن فارق "الدركي" فراشه حتى اندسَّ القائد بفراش الدركي وغطَّى رأسه متخفِّياً.

هنالك استنشق رائحة الفراش الكريهة العفنة ممزوجة مع رائحة تبغ متخمر رديء فكانت أبشع رائحة شمَّها بحياته... كاد يتقيّأ... كاد يختنق... لكنه صبر ونفسه تقول: إنَّ هذه الرائحة الكريهة وهذا الفراش الوسخ أحبُّ إليَّ مما تدعوني إليه تلك الفتاة... وهكذا أمضى ليلته...

* * *

وفي صباح اليوم التالي كان الغضب في صدر الابنة قد بلغ ذروته، لكن ضابطنا لجأ لأسلوب آخر أطفأ به غضبها وأمها التي غضبت لغضبها... إذ شاركهنَّ لعب الورق "الشدَّة" وبمجالستهن وحفاظاً على التقاليد العربية وأملاً بالزواج السريع رضين منه وغدا الصهر المحبوب على قلبهما.

ولعدة مرات أعاد مشاركته لهنّ اللعب، كان يجلس معهن وكله حياءٌ فلا ينظر لجمال خطيبته فكانت تزداد به هياماً وتغلي مراجل الحب بقلبها لحيائه... كانت الفتاة تنظر إليه فتراه يزداد حياءً بوسامة فريدة... فتلتهب شوقاً ليوم عرسها القادم.

وما أسعد الأم بخطيب ابنتها فهو ضابط ليس ككل الضباط، بل فخر الضباط... وسيم لطيف... وذو حياء عظيم.

وهكذا استمرت الرحلة إلى أن وصلوا استنبول، هنالك بادرت الأم الراضية عن خطيب ابنتها عظيم الرضا... فخطَّت تقرير الرحلة الرائع ووقَّعته وسلَّمته لضابطنا قائد الرحلة.

كان تقريراً يحوي عظيم الثناء والامتنان على "صهرها" قائد الرحلة "الضابط الشريف السيد محمد أمين".

وما أن استلم ضابطنا التقرير حتى انطلق لزيارة أخيه الجنرال سليم المقيم هناك في استانبول عاصمة تركيا ونسي أمرهن كله.

وتابع ضابطنا حديثه لأخيه: أرأيت يا أخي هذه المرأة التي مرَّت بجانبنا وقالت لنا "تفو عليكم يا عرب أنتم لا توفون بالعهد"... إن سبب غضبها أني لم أتزوج بابنتها، ابنة أخت جمال باشا السفاح بعد أن حصلت على تقرير الثناء منها ونجوت من كيدها... وهكذا يا أخي غادرتهنَّ حامداً الله الذي خلَّصني من هذه الورطة على خير نجاح.

ردَّ الأخ سليم بك وهو مذهول وبأشدّ الاستغراب قائلاً: ابنة أخت جمال باشا وتقدِّم نفسها لك فترفضها...

آه يا أخي آه كيف ذلك!. ترفضها!. ألا تعرف أن جمال باشا هو الوالي...

وَألاَ تعرف أنه يسعى الآن للانفصال بولايته عن السلطة العثمانية... أي سيصبح ملكاً على سوريا ولبنان والعراق والحجاز واليمن... هكذا ترفض السلطة، ترفض التقرُّب لجمال باشا السفاح... ترفض من يتمناها الجميع...

ترفض السلطة والحكم على هذه البلاد!.

ترفض العز والجاه!!! آه... آه يا أخي...

أليست من أجمل فتيات استنبول فكيف لا ترضاها!.

ردَّ الضابط الشريف: اسمع يا أخي... لا يهمني الجمال والمنصب والجاه... أنت تعلم أن تلك الفتاة... وإن كنت لا تعلم فأُعلمك بأنها تكشف عن وجهها أمام الخدم والحشم والدرك المخصَّصين لخدمتها فيراها الرجال... وهذا لا يناسبني، فأنا بغنى عنها وعن الجاه والعز والسلطان الذي أجنيه من ورائها... الشرف والعفاف هو الذي يهمني.

هنالك صمت الأخ الجنرال سليم مصعوقاً بشرف هذا الأخ الغيور على عرضه فلا يرضى الاقتران إلاَّ بزوجة طاهرة عفيفة شريفة لم تطأها أو تدُسها عين بالحرام.

لقد أعظمَ وأكْبرَ طهارة ونُبل مقصد أخيه الذي مثَّل الطهارة بأسمى معانيها وضحَّى لأجلها بالصبا والجمال، بالجاه والعز الدنيوي الفاني وبالغنى بأمِّ الدنيا بغية رضاء الله.

قال الجنرال سليم: حقّاً إن قصة يوسف النبي ﷺ في عصره تتكرَّر إذن في هذا العصر والتاريخ يكرِّر نفسه.





في يوم من الأيام "أثناء خدمته في الجيش التركي" دعاه قائد الجيش التركي للشهادة على أحد الرجال الأرمن أمام المحكمة في اليوم التالي وقال له: ما عليك إلاَّ أن تقول هذه الكلمات:

"لقد رأيته في المحلِّ العمومي. وهذه شهادتك فحسب".

فأجاب ضابطنا السيد محمد أمين وعلى الفور كما اعتاد: حاضر سيادة القومندان، حيث إنه اعتاد على أن لا يرفض له أمراً. وانطلق خارج المكتب.

ولكن وبنفس اللحظة حدَّثته نفسه أي محل؟. أنا لا أعرف المحل العمومي كما لا يجوز شهادة الزور وإيقاع بريء بدون حق.

فتراجع بالحال ودلف ثانيةً وردَّ على القائد العام: لكنني لا أعرف أين ذلك المحل العمومي ومحل ماذا؟.

فأجابه القائد العام: ما عليك من ذلك فالأمور كلها مدبَّرة في المحكمة ومع القضاة.

نعم إنه إثر مغادرته غرفة القيادة وتمعُّنه بجوهر القضية وأن الأمر يتعلَّق بتدمير إنسان أيّاً كان بشهادة زور عاد إلى القائد العام يُفاجئه بردٍّ قطعي عندما قال: رافض.

فقال القائد العام مصعوقاً بتعجب: رافض؟.

الضابط الأمين: نعم رافض... رافض....

كان دائماً يقول: نعم حاضر... أما الآن يقولها: "رافض"!.

إذن: انصرفْ... هذا ما قاله القائد وقد تميَّز غيظاً وغضباً.

* * *

ذهب إلى البيت وهو يتوقَّع كل النتائج المترتِّبة على هذا الرفض للأمر العسكري الجائر الظالم. وأخبر والدته بالأمر وقال لها: احزمي أمتعتي يا أماه فقد تحتَّم النفي بحقي وأنا الآن بحكم المنفي من البلاد.

فقد كان الضابط العربي الوحيد المتواجد في السرايا بعد أن نفى الأتراك كافة الضباط العرب إلى "سيراميك" بتركيا.

حاولت والدته وبشتى الوسائل أن تثنيه عن رفضه لشهادة الزور ومن جملة ما تذرَّعت به قولها: "يا بني هذا كافر مشرك فلم لا تشهد ضدَّه، هم أوقعوه لا أنت، أليس ذلك بأفضل من النفي".

فأجابها السيد محمد أمين: ولكن يا والدتي لم أره فكيف أشهد ضده؟. والنبي الكريم ﷺ يقول: «**من آذى ذمّياً فقد آذاني**».

كان الكثير من الضباط الأتراك يحسدونه على منصبه ومكانته المرموقة في قلوب القادة ومن بينهم معاونه في المنصب وهو ضابط تركي فقد انتهز الفرصة وأدلى بتلك الشهادة أمام المحكمة ضدَّ ذلك الرجل بكل خيَلاء وسرور بعد أن طلب منه القائد العام ذلك... وبذا حظي برضى قائد الجيش التركي.

وشهادته الزور كانت فرصته لينال منصبه إثر رفض ضابطنا لشهادة الزور.

ولهذا فقد استلم شاهد الزور هذا منصب ضابطنا السيد محمد أمين وضابطنا ينتظر قرار النفي، ولكن ﴿ . . وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً . . ﴾[1]. إذ لم تمضِ أيام قليلة حتى ضُبط ذلك الشاهد للزور بجرم خيانة كبيرة لقادته، وبما أنه خان من قبلُ ربَّه وخان ضميره فلا يُستبعد أن يخون من أحسن إليه.

* * *

[1] سورة الطلاق: الآية (٢).

وفي اليوم التالي حضر ضابطنا إلى عمله والحزن يكسو وجهه، وبعد دخوله المكتب بقليل دخل القائد عليه وأمره: (**أصلان**) اقبض على هذا الخائن وألقه في السجن "مُشيراً إلى ذلك الضابط التركي شاهد الزور".

ولكن ضابطنا ظنَّ أنها تمثيلية ولعبة من الإثنين ضدَّه يريدان بها أن يستهزءا به ويسخرا منه قبل أن يُنفى. ولكن ماذا يستطيع أن يفعل، عليه أن ينفِّذ الأمر.

توجَّه إلى الضابط التركي وقال له: هيا تفضل معي وسار معه بلطف لكنه شاهد القائد العام ينقضُّ غاضباً على الضابط التركي من الخلف وهو يصيح:

ليس هكذا يُساق المجرم ثم وجَّه ضربةً شديدةً مفاجئةً على ظهر الضابط التركي من الخلف فوقع على وجهه عندها صاح القائد:

هكذا يُساق المجرم إلى السجن.. خذه موجوداً أنت لست مثله، أنت ضابط شريف. عندها أيقن ضابطنا السيد محمد أمين أن المسألة جدّ وليست بتمثيلية من أجل التهكُّم به.

عاد لاستلام منصبه كما كان بعد أن كسب تقدير ومحبة رؤسائه لإنسانيته السامية: فمن أجل أخيه الإنسان وليكن أرمنياً أو مسلماً، ضحّى بكل غال وثمين.

ومثل ضابطنا الشريف كمثل من قال ﷺ بحقِّه:

«**من أسخط الناس برضا الله كفاه الله مؤنة الناس**».

ومثل الضابط التركي الخائن لإنسانيته ولرضاء أسياده كما قال ﷺ:

«**من أرضى الناس بسخط الله وكَّله الله إلى الناس**».





كان إنساننا السيد محمد أمين يسير والمختار، يرافقه الدركي المخلص "أبو محمد" عائدين بعد إنجاز إحدى المهام القانونية، وبينما هم مارّين بمحاذاة بستان السيد "طالب عرفة" وكان يجري إلى جواره نهر تورا أحد فروع نهر بردى وتقوم عليه مطحنة "أبو محمود"[1].

لقد كان هذا البستان كبيراً يحوي بداخله بستاناً صغيراً زُرعت فيه أندر وأغلى النباتات والأزهار، وبذلت له أروع ما تكون العناية، حتى إن البستان الكبير المحيط به كان له درءاً وسوراً يحميه من عبث العابثين.

فجأة توقف الضابط السيد محمد أمين وأصاخ السمع... لقد طرقت أذنيه أصواتُ غناءٍ وموسيقى وضحكاتٍ صاخبة وصرخات مجون وعبث!!!.

احمرَّ وجهُه غضباً والتمعت في عينيه بوارق الغيرة وخفق فؤاده ألماً، هتف قائلاً:

إنه "**شكار**"...

نظر يمنةً ويسرةً فإذا به يرى بين دوابِّ القوم حميراً تكاد تبلغ في حجمها مبلغ البغال وهي ما تشتهر به منطقة "حلبون".

---

[1] مكان ملعب الفيحاء بجانب الميسات.

لقد أدرك أن "توْليفة" كبيرة من المجرمين قد تنادوا من كل حدب وصوب وهم الآن مجتمعون حول مائدةٍ للفجور والفساد والعبث تُدار عليهم كؤوس الخنا والمجون وغرَّهم عديدُهم فضربوا بالكتمان عرض الحائط.

التفت إلى المختار قائلاً: سألقي القبض عليهم جميعاً.

ارتعدت فرائصُ المختار وامتقع وجهه حتى حاكت صفرته الأموات وتمتم:

ربَّاه.. كيف يكون له ذلك وهو وحيدٌ فريد وهم كثر ومسلَّحون ومن دهاقنة الإجرام وعتاة القتلة!. وأيقن بالموت المحتم.

* * *

اتَّجه ضابطنا إلى الباب... فصادف شاباً في الثامنة عشر من عمره يخرج منه، وبسرعة البرق كانت يد السيد محمد أمين تهوي على وجهه بصفعتين قويتين فارتمى على الأرض، انقضَّ عليه وأمسك بتلابيبه وصرخ به: ماذا يوجد هنا؟.

فصعقته المفاجأة وانطلق لسانُه ينطق دون وعي: إنه "شكار" يا سيدي.

سأله: وكم عددهم؟.

قال: إنهم بين الستين والسبعين مجرماً يا سيدي!. فأطلقه وسرعان ما أسلم لرجليه العنانَ حتى غاب عن العيان.

عبس وارتسم على مُحياه أبلغ آيات الإصرار والتصميم وغرق للحظةٍ في سحابة من التأمُّل والتفكير العميق، وما هي إلاَّ برهة حتى علت شفتيه ابتسامةٌ تكشفت عنها معا لم الظفر، لقد ارتسم في مخيلته المخطط.

ضابطنا: أبو محمد كيف أنت والإيعازات العسكرية؟.

أبو محمد: كما تريد وتشتهي يا سيدي، فإطلاق الإيعازات هوايتي.

ضابطنا: الحمد لله، إذاً تصوَّر أن لديك ثلاثة طوابير عسكرية وأنك تُصدر لها إيعازات التحرُّك بحيث تُوحي لمن يسمع بأن البستان تطوّقه العساكر من كلِّ جهاته، وإياك أن تبدأ قبل أن تتوقف أصوات الضوضاء والصخب نهائياً. مفهوم؟.

أمرك سيدي.

* * *

كان أبو محمد "دركياً" شرطياً قد اكتسب الشجاعة والإقدام من صحبته الطويلة ومحبّته لقائده، وكان يملك صوتاً جهورياً قوياً إذا طرق أذن النائم فإنه يهب من فوره كالملسوع.

ولج الضابط إلى البستان واتجه إلى مكان المجرمين بخطىً ثابتةٍ وأقدام راسخة، وفجأة رأى صاحب البستان يحمل صينية تنوء بالفاكهة والمشروبات والمكسّرات يقصد بها المدعوين، وقبل أن يفيق الرجل من هول المفاجأة كان الضابط السيد محمد أمين قد عاجله بلطْمةٍ قوية على وجهه أطاشت دماغه وصرخ به أين "الشكار"؟. كل هذا جرى مع أن صوت المجرمين وضجيجهم يكشف مكانهم بوضوح.

لم ينتظر الرد، وبذلك أفسح له المجال للذهاب لإعلام المجرمين بقدومه ذلك أن ضابطنا أسرع بالاتجاه الذي أتى منه صاحب البستان أي عكس اتّجاه الشكار ليمكّنه من إبلاغهم بأن رجال الأمن تُداهم المكان.

لقد أفضى الاتجاه الذي سار فيه الضابط إلى غرفة لمّا فتحها شاهد أكداس الفاكهة وأكياس المكسرات وزجاجات الشرابات والشراب، وأمُّ صاحب البستان وأبوه يقومان بتنسيقها على أطباق تمهيداً لتقديمها للمجرمين.

انفتل وعاد كالبرق الخاطف باتجاه بستان الزهور حيث المجرمون يأكلون ويشربون، يطربون ويغنون.

كان الطريق إليه مُنحدراً، أسرع فوجد صاحب البستان في أعلاه ما يزال يحمل السفرة وقد بلَّغ المجرمين بقدوم الأمن، فما كان منه إلا أن وجَّه له ركلةً قوية طرحته على وجهه هبوطاً وأطاحت بالسفرة شذَر مذَر فتكسر الزجاج وتناثرت المشروبات والمكسّرات وحدث من جراء ذلك ضجيج ساد معه سكون رهيب وصمت عجيب صعقَ المجرمين فالتفتوا جميعاً.

لقد عرفوه إنه "أصلان" كان مسدسُه في يده ونظراتهُ الناريَّة تُرسل الرعدة والرعب في فؤاد أعتى الرجال.

صمتٌ مطبق، سكون مشحون بالقلق، هدوء يُنذر بالعاصفة، هنا انطلق صوتٌ اهتزت جنباتُ البستان من قوّته، صوت مُجَلْجِلٌ زرع الهلع وحصد الطمأنينة، إنه صوت أبو محمد يوزِّع طوابيره "الخيالية" حول البستان.

انتهز الضابط هذه الفرصة، فرصة الروْع والخوف والوهم وتوجَّه إلى المجرمين قائلاً:

هذا القومندان "قائد الجيش والدرك" قد جاء بذاته في ركابه ثلاثة طوابير من العساكر مدججين بأحدث الأسلحة الحربية وكله إصرار وتصميمٌ على إحراق البستان بمن فيه ومن يفرّ من النار فلن يسلم من بنادق الجنود، لكني رجوته لكم وأخذت منه موثقاً أنَّ من يستسلمْ منكم فسيظفر بالنجاة ويحوز السلامة فالوقت يمرُّ وليس أمامكم سوى التسليم أو الحرق أو القتل فاختاروا؟.

بالحقيقة لقد انهارت معنوياتهم وأحسُّوا أن الشرك الذي نُصب لهم مُحكم، وفجأة بادر أحدهم وهرع إلى الضابط وارتمى على قدميه مقبِّلاً متوسلاً والدموع تنفر من عينيه بصوت متهدِّج... والسبب أن عليه إجرام وأحكام فإن قبض عليه فسجنه طويل.

أرجوك أبو فتحي "وهو لقب ضابطنا السيد محمد أمين"... إني أستجير بك وأحتمي بحماك... عندي أولاد، وها أنذا استسلم وألقى سلاحه.

كما أن هذا المجرم لا يزال يذكر طعم السوط الذي ذاقه منذ أيام قلائل من يد ضابطنا السيد محمد أمين حتى إن آثاره لم تختفِ بعد.

لقد كانت دموع هذا المجرم تقطع نياط القلوب وتوسلاته تزرع الخوْر في أقسى النفوس... لقد حلَّ الوهن فيهم وأصاب العطب قلوبهم فتقاطروا واحداً إثر الآخر يجبِّن بعضهم بعضاً إلى الضابط يُعلنون له استسلامهم ويؤكِّدون على ذلك بإلقاء أسلحتهم جانباً وهم يطلبون الرحمة والعفو، هنا نادى بأعلى صوته القوي:

سيادة القومندان "قائد الجيش"... لقد أعلن الجميع استسلامهم وهم يطلبون العطف والرحمة، لذا أرجو أن تُرسل لي نفراً واحداً فقط: "أبو محمد" فَهُمْ مستسلمون ولا داعي للحرق والنار.

هنالك هرول أبو محمد مسرعاً وما هي إلا لحظات حتى كان يقف بين يدي الضابط يضرب برجْلِهِ بقوة وعنف قتالي مؤدياً التحية العسكرية: حاضر سيدي!.

ضابطنا: هيا اجمع الأسلحة بسرعة وضعها في خُرْجِ الدابّة، ثم انظر إلى تلك الحبال المربوطة بين الأشجار هات منها كمية كافية لتقييدهم جميعاً، وليساعدك المختار وصاحب البستان.

أمرك سيدي.

وما هي سوى لحظات حتى كان الضابط والمختار وأبو محمد وصاحب البستان يشتركون جميعاً في شد وثاق المجرمين المستسلمين.

لقد كان المشهد رائعاً حقّاً... فكل مجرم غُلَّت يداه خلف ظهره وعُلِّق بمن يليه من أقرانه فكانوا سلسلة طويلة من البهائم لا ينقصها سوى صبي صغير ليجرَّها، هنا صرخ الضابط آمراً... هيا اخلعوا نعالكم.

وأنت أيها البستاني اجمعها وضعها في خرج الدابة الآخر، وما هي غير ثوان حتى امتثل الجميع لأمره صاغرين.

هنا التفت فرأى امرأة يهودية عاهرةً كانت تشاركهم حفل الخنا بالغناء والطرب والعزف على العود، إذ لا بد للداخل في عالم الدناءة والحقارة والقذر "عالم الشياطين" من وسيلة تنقله إليه والمرأة الفاجرة هي المركبُ والدليل ومثيلاتُها هنَّ حبائل الشيطان.

كانت المرأة ترتجف هلعاً وترتعد خوفاً ودمعها الغزير ينسكب من عينيها.

صرخ بها: وأنتِ هيَّا اركبي على الحمار.

فأسرعت لتنفيذ أمره وهمَّت بالركوب فقال لها: لا بل تركبين بالمقلوب وجهُك إلى الخلف: ناولها الطبلة.

سألها: هل تحفظين أغنية "**يا مبهدل يا أبو رنِّه**"؟.

كانت تلك الأغنية شائعة بين الناس وتُغنَّى لمن يُراد إذلاله وتحقيره والنيل منه،

قالت له: أمر... أمرك نعم... نعم.

فأمرها أن تضرب على الطبلة وتغنِّيها وصاح بالمجرمين آمراً أن ردِّدوا خلفها.

لقد تمكَّن من السيطرة على الجميع وفرض عليهم جواً لوَّنه الخوف والرعب، امتزج معه التوسُّلُ والرجاء... وأخيراً:

خرج الرَكْبُ من البستان: إنه منظر مدهش كل الدهشة غريب كل الغرابة... امرأة عجوز تمتطي حماراً بشكلٍ مقلوب مثير ورتْل طويل من الرجال المسلسلين يسيرون خلف الحمار حفاةً وهم مرغمون على أن يردِّدوا بصوت واحد ما تغنِّيه عليهم تلك المرأة الفاجرة، "حتى أن الخبيثة لم تعد تملك نفسها من الضحك عليهم".

إنها صورة يهوى الفنان رسمها ويبرع كل البراعة في تلوينها وإبراز ما فيها من مفاتن بأسلوبٍ جمالي نادر المثال حتى إن المراقب كان يلحظ الناس والنظارة فاغري الأفواه مأخوذين مشدوهين!. ولهم الحق فلم يشهدوا قط جيشاً عَرَمْرَماً من المجرمين يُقاد بهذه الصورة المزْرية، إنَّ أحدهم كان بمفرده يثير الرعب والفزع في حي كامل فكيف بكل هؤلاء مجتمعين يسوقهم شخص واحد ومرافقه!.

لقد كانت صاعقة عظيمة وأمراً يستعصي على الإدراك عندما اكتشف المجرمون أن اثنين فقط تمكّنا من القبض عليهم جميعاً، فلا قومندان ولا طوابير ولا قوّات!. لقد طغى الحنق والغيظ على نفوسهم حتى انطلق صوت أحدهم ليترجم ثورة الحقد التي تغلي في نفوسهم:

أفهل نحن قطط، فقط اثنان يقبضون علينا جميعاً؟.

فأجابه الضابط: بل أنتم كلاب، وأرسل سوطه يقرقع على جسده.

لقد أمر الضابط الدركي أبو محمد أن يسير في مؤخرة الركب وأهاب به أن يُطلق الرصاص فوراً على من يخل بالنظام وعند أية محاولة للفرار.

* * *

وهكذا جاب الركبُ أهمَّ شوارع منطقتي الأكراد والصالحية الرئيسية بدمشق وكانوا كلما مروا على دركي من رجال الأمن يضمه ضابطنا إليه ليساعده في حفظ النظام وضبط الأمور حتى وصلوا في الختام إلى مقامهم (إلى السجن).

ظلَّ هذا المنظر محفوراً في ذاكرة الناس أمداً طويلاً ولم يزل كبار السن منهم يتندرون به في أمسيات سمرهم وفي أنديتهم ويسردوه على مسامعنا ليكون لنا أمثولة نستقي منها ملاحم العظمة والإكبار والتقدير.





استدعاه القومندان بالهاتف وما هي إلاَّ برهة حتى دلف الباب رجل مديد القامة نوعاً ما، ترتسم على محيّاه مخايل الجد والإصرار ببزته العسكرية الأنيقة تلتمع على كتفيه أربع نجوم يخطو كأنما وقع قدميه دقات ساعة إلى أن وقف قبالة هاتفه وأمسك بالسماعة، وحيّا القائد بعزم وشمم، وردَّ القائد التحية وابتدره قائلاً:

أود السُكنى إلى جوارك في الحي الذي فيه تقطن، فابحث لي عن بيت مناسب.

لم يكن ضابطنا السيد محمد أمين يتوقَّع مثل هذا الطلب بتاتاً...

لقد فوجئ تماماً... إذ رأى في ذلك الطلب مشكلة حقيقية، تصوَّر جهد الأيام السالفة يتقوَّض أمامه...

لقد دار في خلده كيف كانت المنطقة تعجُّ بالفساد والإجرام والفوضى... وكيف غدت الآن يرفرف على ربوعها طائر الأمن والسلام.

لقد كان المرء بالسابق لا يأمن على نفسه بعد غروب الشمس مطلقاً، فهو إما مقتول أو مسلوب..

أما الآن فلو أن امرأة تحمل على رأسها مكتلاً مملوءاً ذهباً تمشي به في منتصف الليل لما اعترض طريقها أحد، إذ بذل في سبيل تحقيق ذلك الكثير من الجهد والعظيم من التعب، فلم يكن يغمض له جفن إلا فيما ندر، وكان في كل واقعة يقتحم الخطر غير هيَّاب ولا وجِل، إذ كان باستمرار يحمل دمه على كفّه في مقارعة الأشرار وأساطين الإجرام، وأخيراً استطاع أن يجني ثمرة أتعابه.

أما في تلك اللحظة التي طلب فيها قائده منه ذلك الطلب فلقد رأى بفكره الثاقب وبصيرته النفَّاذة منطقة عمله عادت سيرتها الأولى فغلى الدم في عروقه وأحسّ كأنما الأرض تزلزلت تحت قدميه، حتماً إنه بيت للبغاء والفسق.

هل يضيع هذا الصرح الذي بناه... هل يهوي ذلك البنيان الشامخ؟.

لحظات مؤلمة عصيبة... ألا إنها الكارثة، كل ذلك مرَّ على مخيلة السيد محمد أمين، ولكنه كان كالطود رسوخاً لا يبالي بالرياح العاصفة.

ردَّ على قائده بعد أن أظهر الغبطة والفرح:

سيادة القومندان: تعلمون أن منطقة عملي تزدحم بالفقراء والمساكين وهؤلاء لا يكادون يبلغون سدَّ أودهم، فكيف ببناء بيت يؤجّرونه، وحتى إن وُجد فلا أظن أنه يناسب مقامكم العالي.

لكن القائد أصرَّ على طلبه بالرغم من كل ما بيَّنه له، فما كان من هذا الضابط إلاَّ أن قال: أمرك سيادة القومندان، سأعمل ما بوسعي لأحقِّق لك طلبك.

* * *

وبعد مضي عدة أيام سأله قائده: عمَّا إذا كان قد عثر على البيت المطلوب.

فأجابه بدِعة ولطف: إنه لم يعثر عليه بعد.

وفي صبيحة يوم آخر هاتفه القومندان بطلبه، ولمَّا رفع السماعة سمع نبرات الغضب بادية على تهدجات صوته الساخط سخطاً كبيراً، إذ قال:

لقد بلغني أنه يوجد في منطقتك في الحي بيت خالي يوفي بغرضي منه، وهو معدّ للإيجار. وأمره بالذهاب فوراً إلى صاحب هذا البيت للاتفاق معه على كل شيء.

لقد كان ذلك بوشاية ممَّن أكل الحسد قلبه وأعمى الحقد بصيرته، إذ وجدها فرصة ليقطع حبل الثقة والاحترام بين ضابطنا محمد أمين وقائده المُعجَب بباهر أعماله.

فما كان منه إلا أن سارع إلى العنوان الذي وضعه القائد، فوجد الوصف مطابقاً للحقيقة والبيت مُهيَّأً لاستقبال مستأجر جديد.

انفتل بسرعة البرق وجرى يبحث عمَّن يشغل هذا البيت حتى عثر على بغيته بمساعدة المختار وبعض محلات آجار العقارات. وما هي إلا فترة وجيزة حتى كان إنساننا المخلص يساهم بنفسه مع النازل الجديد في نقل أمتعته وترتيبها في أرجاء المنزل بنفسه، وحين نفض يديه من تركيب الستائر كان كل شيء قد أصبح على ما يرام.

سارع بالعودة إلى قائده ليزجي له بالهاتف أن هناك من سبقه إلى استئجار المنزل وهو الآن للأسف عامر بالسكَّان، فشكره على جهده وطلب منه مواصلة البحث عن بيت سواه.

لم يكتفِ حسَّاده بالوشاية السابقة، بل إنهم أحاطوه علماً بأنه أسكن بيديه مستأجراً وساعده في تركيب الستائر بيده على سبيل السرعة لكي يفشل استئجاره للبيت.

دُهش القائد وتملكته الحيرة وارتسم في مخيلته تساؤل سرعان ما جرى على لسانه:

ألا تريدني أن أقطن في منطقتك؟.

انتصب السيد محمد أمين وردَّ في إباء وشمم: سيادة القومندان، إذا كنت مصراً على هذا الأمر فأهيب بك أن تصدر أمراً بنقلي من هذه المنطقة أولاً.

اتسعت حدقتا القائد دهشةً وانطلقت من فمه كلمة "لماذا" كالرصاصة.

أجاب الضابط الغيور: تعلم أيها القائد "يا سيادة القومندان" ومنذ أول لحظة تسلَّمت فيها هذه المنطقة كيف أسمعت حوافر خيل جنود الأمن صمّ الجبال، وردَّدت وقع أقدامهم واسع الوديان حتى لم يبقَ من الأرض موطن قدم يستعتبنا، وكيف تحوّل ليل أيامنا نهاراً، حتى لقد ودَّع الكرى مقلنا، وكم كنا من الموت قاب قوسين أو أدنى وكم وكم... فاستؤصلت شأفة الفساد والإجرام من هذه المنطقة وطُبِّق النظام بدقة، فتدفق الدم في شرايين العدالة وجرى نهر الطمأنينة في الربوع، حتى نام الناس لأول مرة ومنذ عهد بعيد قريري العيون خلواً من كل هاجس أو خاطر مؤرق.

فإذا قطنتم سيادتكم في حيّنا فسوف يردُ عليك عليّةُ القوم ضيوفاً وسوف يزورك كبار المسؤولين، وقد تبرز من بعضهم شذوذات أخلاقية وتصرُّفات تُخل بالأمن وتشرخ النظام ساعتئذٍ سأكون في موقف لا أحسد عليه مطلقاً فلا أستطيع قمعها والقضاء عليها أو الضرب على أيدي مرتكبيها إكراماً لكم.

وإذا ضربت عنها صفحاً ضاعت هيبتي كممثل للعدالة والقانون بين أبناء الحي لأنني وكما يُقال: أسدٌ عليهم ونعامة على غيرهم، فيختلط الحابل بالنابل وتحلُّ الفوضى محلَّ النظام، كما يحلُّ الفساد والإجرام، فنعود من حيث بدأنا، أما إذا نُقلت من المنطقة رُفعت المسؤولية عن كاهلي وأكون قد أدَّيت واجبي.

أمام هذا المنطق الصاعق والجرأة المدهشة وهذا الحس الإنساني العميق وهذا الحرص الراقي على القيم لم يبقَ لقائد الجيش ما يستر طلبه. لقد وجد نفسه تقول:

لم أعد أرغب بالسكن عندك ولتبقَ مكانك ولتهنك الحظوة فامضِ فيما أنت ماض من حفظ الأمن والشرف ورعاية شؤون الأمة... فما أخفى لسانه ما طوت جوانحه من إعجاب بجليل أعمال هذا الإنسان ونبل مقاصده وسموّ نفسه وعزَّتها.

"**من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ولم يخشوا في الحق لومة لائم**".





قال رسول الله ﷺ:

«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى».

فانوِ النيَّة الحسنة كي توفَّق إلى كل حسن وطيب وتنلْ سعادة الدارين.

* * *

دخلت امرأة عجوز بيت الباشا التركي بدمشق تعمل بمثابة امرأة غسَّالة لقاء أجر معلوم، وهكذا كانت العادة بالنسبة للحكّام والأغنياء بأن يستخدموا ذوات الحاجة للعمل في هذا المجال.

وفي إحدى المرَّات كانت هذه المرأة العجوز تقوم بواجبها وعملها في بيت الباشا التركي، فجلست إلى جانبها زوجة الباشا تريد أن تتسلّى معها وتبادلها الحديث، إلاّ أن المرأة العجوز كانت تغسل والدموع تنساب من عينيها بغزارة، فسألتها زوجة الباشا عن سبب بكائها الشديد، فبدأت تمسح دموعها وتقصُّ لزوجة الباشا عن ألمها وحزنها، قالت:

مات زوجي منذ أمد بعيد وخلَّف لي ولداً وحيداً فبتُّ أحيطه بأروع ما تكون الرعاية وأُغدق عليه أعظم ما يكون من حنان، وقلبي عليه يوماً بعد يوم، وتمرُّ الأيام والسنون ويكبر الأمل أن يكون عوناً لي في كبري وسنداً ومعيناً لي في هذه الحياة.

وما أن أصبح شاباً يافعاً في نضرة شبابه وحين شمْتُ الخيرَ من لَمحَاته وآنستُ من حَدَبِه عليَّ وعطفه آية الرشد طوَاهُ الردى عني بأشنع ميْتةٍ وقتله الظالمون، فبقيت وحيدة فريدة اجتر همي وألوك عجزي أشكو شيخوختي وهذا ما دفعني إلى العمل لأسدَّ رمقي في هذه الحياة، إذ لا مُعين لي إلا الله، ومسحت دموع الحزن والحسرة وهي تتنهد هذه الثكلى المسكينة بحرقة.

نعم، لقد بكت فأبكت زوجة السلطان والي الشام التي كفكفت دموعها وسألتها: من هم القتلة؟.

فقالت: لم يُعرفوا... وأُرسلت عدّة دوريات للتحري في هذا الموضوع ولكن دون جدوى وهُدر دم ابني ولم أُعوَّض بفدية لعدم عثورهم على القاتل الجاني وتركوني بعجزي أعمل للقمة العيْش.

هنالك انطلقت زوجة الباشا إلى زوجها مباشرة تخبره بقصة هذه المرأة العجوز، ولشدة تأثُّرها كانت تقصُّ القصة للباشا وهي تبكي فتأثَّر الباشا بالغ التأثُّر واتصل مباشرة بقائد الجيش والدرك العام آمراً إياه بالمثول بين يديه حالاً.

* * *

وعند حضوره خاطبه بغضب: أين رجالك رجال الأمن، ما هذا التهاون والتقاعس والإهمال، أجريمة وفي قرية صغرى وتمضي أشهر ستة ولا يُكتشف الجاني القاتل؟. بئس الرجال رجال الأمن المتقاعسين، وطلب منه أن يذهب للتحرّي في هذا الموضوع، وشدَّد وألحّ بغضب لكشف الجريمة مهما كلَّف ذلك من جهود، فحيَّاه وخرج مفكِّراً:

ما هو السبيل؟. لقد اختفت آثار الجريمة منذ ستة أشهر، وذهبتْ عدَّة دوريات من رجال الأمن للتحقيق والتحرّي ولكن لا جدوى.

وهنا تذكّر القائد العام ضابطنا المجرّب السيد محمد أمين وأنهم اعتادوا أن يلتجئوا إليه أثناء الشدائد والمحن فتنحلُّ على يديه العُقد وتنكشف الجرائم ويبطش بالشر وأهله وهو "بعون الله" لا يؤمن بالمستحيل. فاتَّصل به مباشرة للحضور وكان يوم جمعة أي يوم راحته، فجاء فوراً يستطلع الخبر. فأخبره قائد الجيش بما حدثَ، وأن الباشا طلب التحرِّي عن هذه الجريمة مباشرة.

فقال له: سيادة القومندان، هذا يوم راحتي. وإذا كان بالإمكان تأجيل هذا الموضوع للغد.

ذلك لأن ضابطنا كان قد نوى أن يصلِّي هذا اليوم صلاة الجمعة في الجامع، لكن قائد الجيش رفض ذلك وطلب منه الذهاب وفوراً بأن يأخذ معه ما يشاء من رجال الأمن، وزوَّده بمهمة رسمية بأن يجعل الكلَّ تحت إمرته وأن يتعاونوا معه حتى ولو كانوا أعلى منه بالرتبة.

فأجابه: حاضر، وحيَّاه وخرج متَّجهاً إلى القسم عن كره وعدم الرضا لأنه نوى الصلاة لأول مرة وسيضيِّع وقت الصلاة... صلاة الجمعة.

اكتفى بسبعة من رجال الأمن ودليلٍ واتَّجه بهم إلى قرية "كفر سوسة" قرب مدينة دمشق، حيث الجريمة الغامضة.

وفي الطريق طلب من الدليل أن يخبره عند وصولهم لحدود بساتين البلدة، وأثناء الطريق أطرق رأسه مفكِّراً بالحل واستعان بالله بصدق وتصميم.

* * *

وعند وصولهم حدود بساتين البلدة أخبره الدليل بأنهم قد وصلوا إلى حدود القرية. فطلب منهم أن يتوزَّعوا على كلِّ الجهات والطرق المؤدِّية إلى البلدة، وأن يقودوا معهم كلَّ من يشاهدوه في الطرقات والبساتين من الناس إلى ساحة البلدة.

ولدى وصولهم البلدة عليهم أن يتعاونوا مع رجال الأمن الموجودين في البلدة ويجمعوا أهالي البلدة كلّها من دُورهم في الساحة العامة، وأن يُحضروا كلَّ الرجال الذين تتراوح أعمارهم بين /١٦-٧٠/ سنة.

وفعلاً، قام رجال الأمن بمهمتهم على أتم وجه وجمعوا الناس جميعاً في ساحة البلدة، وعندما وصل ضابطنا السيد محمد أمين إلى ساحة البلدة أخبرهم بأنه قادم لاكتشاف جريمة الشاب المغدور ابن المرأة العجوز وذكر اسمه بعد أن جمع الناس كلَّهم بالمقهى بعد إخراج الكراسي والطاولات وطلب شيخ البلد "الإمام" والمختار والأعضاء الاثنين للبلدة، كما طلب من أصحاب أربع محلات مواجهة للمقهى بأن يفتحوا محلاتهم ويرجعوا للمقهى وقوفاً، وأجلس شيخ البلد والمختار والأعضاء كل واحد منهم على الكرسي وراء طاولة البائع صاحب الحانوت، وحمل كرسياً من كراسي المقهى بعنف وعصبية وبسرعة وضعه أمام شيخ البلد وجلس عليه وظهره إلى أهالي البلد وراح يُحدِّق عينيه متفرِّساً بعيون الشيخ متأملاً والشيخ ينظر إليه بفزع بانتظار الكلام، لكنه لم يسأل ولم يتكلم بأية كلمة فصُعق الشيخ من هذا المشهد، واستمر هكذا

حتى مضى من الوقت خمس دقائق، ثم حمل كرسيه وبسرعة وضعه أمام المختار وكأنه توصَّل لنتيجة وراح ينظر إليه ملياً والمختار ينتظر السؤال وقد سُمِّرت عينا المختار بعيني الضابط فزِعاً مرعوباً ولا سؤال، لكنه فعل كما فعل مع سابقه حتى مضى من الوقت أيضاً خمس دقائق، ثم حمل كرسيه بسرعة ووضعه أمام العضو الأول وفعل معه تماماً كما فعل مع سابقيه... حتى مضى من الوقت خمس دقائق، ثم حمل كرسيه أخيراً ووضعه أمام العضو الثاني وجلس عليه وأهالي البلد ينظرون إلى هذه المشاهد، وهم يظنون أن الأحاديث تدور بينهما، إلا أن ضابطنا السيد محمد أمين تصرّف مع العضو الثاني تماماً كما تصرّف مع أسلافه... تحديق بالعينين بلا كلام، حتى مضى من الوقت خمس دقائق، ثم قام بسرعة وبعنف وهيجان ملتفتاً إلى أهالي البلد وفجأة صرخ بصوت كالزئير:

اخرج "كشفتك"، وإذا بصوت شاب يقول: أنا سيدي؟.

فابتعد عنه الناس مباشرة، قال له: نعم أنت أيها الخبيث اخرج.

فانكشف الناس عن الشاب، وما أن خرج حتى قاده رجال الشرطة إلى أحد الدكاكين الأربعة المفتوحة وألقوه أرضاً بناء على أمر ضابطنا المقدام ووضعوا حبل "الفلقة" في رجليه ورفعوهما.

حمل ضابطنا السيد محمد أمين سوطه وبدأ بضرب هذا الشاب ضرباً مبرحاً حتى بلغت خمسين جلدة، عندها أيقن الشاب بالموت. فقال له ضابطنا:

اعترف بالحقيقة وإلاَّ ستموت تحت السوط، فصاح الشاب مترجياً: سيدي والله لم أقتله أنا، بل قتله ابن المختار.

فنادى ضابطنا على ابن المختار.

فأجابوه: بأن ابن المختار في مثل هذا الوقت يكون نائماً، لأنه يسهر الليل كله بشرب بنت الحان "الخمر".

فأرسل رجال الأمن إلى بيت المختار لإحضاره، وفعلاً وجدوه نائماً في فراشه، فأجلسوه وساقوه مقيداً إلى ساحة البلد حيث ضابطنا وأهالي البلد جميعاً، فرأى ابن المختار هذا المشهد والشاهد عليه وشاهد ثان سيحضر للشهادة ضده، وأنه لا مجال للإنكار، فاعترف بالحقيقة، بأنهم كانوا جالسين بأحد البساتين ومعهم شاب ثالث من قرية داريا يتسامرون ويشربون الخمر، وإذا بالشاب ابن المرأة العجوز قادم على دابته

قرب البستان، فبدأ ابن المختار يسمعه من الكلمات النابية، وحيث إنه سكران وفاقد وعيه لم يكتفِ بذلك، بل قام واستل خنجره وطعن الشاب في ظهره فأرداه قتيلاً وعاد يتابع جلسته مع رفاقه مسروراً مخموراً وكأنه قتل فأراً، أوكأنَّ شيئاً لم يكن.

هنا قيَّده ضابطُنا وساقه معه إلى قائد الجيش ومعه رفيقه كشاهد، وأرسل دورية من رجال الأمن ليأتوا بالشاهد الثاني من قرية داريا ويلحقوا بهم على جناح السرعة.

وعند وصوله إلى قائد الجيش سلَّمه المجرم ومعه شاهد ضدَّه وأعلمه بأن الشاهد الثاني سيصل بعد قليل، وهنا بدأت علائم الفرح الصاعق والسرور الكبير يظهران على وجه قائد الجيش، حيث تمّت المهمَّة واكتشفت الجريمة خلال ساعتين ونصف تقريباً، ولفرحته الغامرة استعجل وانطلق مباشرة يبشِّر الباشا بما حدث، وأن المجرم قد كُشف.

وهنا كانت المفاجأة المذهلة كبيرة لقائد الجيش عندما أجابه الباشا جريمة تُخفى منذ شهور وكأن شيئاً لم يحدث، والآن وخلال ساعتين ونصف تظهر الجريمة، لا شك أنكم كنتم ترتشون من المختار وتتسترون عليه حتى ضغطت عليكم، أهكذا تهدرون حقوق الناس في سبيل المال بئس رجال الأمن أنتم تهدرون حقوق الناس لأطماعكم الزائلة، أغرب عن وجهي.

هنا طاش صواب القائد العام للجيش وقوّات الأمن "الشرطة" وأصبح في حيرة تامة وضياع فما ظنَّها بشارة وظفر انقلبت عليه جرماً واتهاماً وقال:

سيدي.. لن تقتنع مني ولن تصدِّقني ولكن لي طلب واحد، وهو أن تسمع قصة اكتشاف الجريمة من الضابط الذي اكتشفها.

فأجابه: أحضره، ولكن بلهجة عدم الاكتراث والامتهان.

فحيَّاه وخرج متجهِّماً إلى ضابطنا السيد محمد أمين يخبره بالذي حدث مع الباشا، وبأنه طلب منه أن يحضر ليُسمعه تفصيلات اكتشاف الجريمة، وسأله: أتستطيع مقابلته وشرح تفاصيل كشفك الجريمة؟.

فأجابه بجرأة وشجاعة ولا مبالاة: نعم، ولِمَ لا؟.

فعادا إلى الباشا وعندما بدأ ضابطنا السيد محمد أمين بسرد حديثه للباشا عن الخطط والأساليب التي اتبعها أثناء كشف الجريمة كان الباشا غير مكترث ولا مهتم بحديثه، ولكن عندما وصف له كيف أنه جمع أهل البلد في الساحة العامة وأحضر الشيخ والمختار والأعضاء وماذا تصرَّف معهم، بدأ الباشا يُصغي وينتبه للحديث، وضابطنا يتابع حديثه حتى أصبح الباشا كتلةً من الإصغاء والاهتمام البالغ، وهكذا استمرَّ إلى نهاية الوصف.

هنا التفت إليه الباشا مقدِّراً ومعظماً وسأله: من أين جئت بهذه الخطة العظيمة!.

مضيفاً القول: أنا درست في ألمانيا في علم الجرائم واكتشاف المجرمين ولكني لم أسمع قط بمثل هذه الخطة الإبداعية بعالم الجريمة والمجرمين.

فأجابه ضابطنا: "من هنا" مشيراً إلى رأسه، أي بالتفكير.

فقال الباشا: فعلاً هذه الخطَّة لا تكون أبداً إلا بالتفكير ولا تصدر من الكتب.

وهنا زاد الباشا في تقديره لهذا الضابط وأصبح لديه من المقربين، فحيّاه ضابطنا السيد محمد أمين وخرج مع قائد جيشه منتصراً مرفوع الرأس، كما أن الغمامة السوداء التي حلَّت بقائد الجيش زالت وزاد في قربه من الباشا أيضاً.

* * *

وحيث إن ضابطنا كان قد نوى أن يصلِّي الجمعة لهذا اليوم فقد قام بتنفيذ مهمته وقام بما قام به قبل موعد صلاة الجمعة، فذهب مباشرة إلى الصلاة.

وهذه أفعاله سبحانه وتعالى دائماً يفتح المجال وييسر الطريق لكل إنسان ينوي التقرُّب إليه بالصلاة ويضحِّي من أجل راحة الناس وسعادتهم.





قال رسول الله ﷺ: **«منْ رأى منكم مُنكراً فلْيغيرهُ بيدِه، فإنْ لم يستطع فبلسانهِ، فإنْ لم يستطع فبقلبهِ وذلكَ أضعف الإيمان»**.

* * *

ذات يوم جاء بعض الدرك وأخبروا رئيس قسم حي الصالحية، أي ضابطنا السيد محمد أمين بأنهم رأوا ضابطاً تركياً برتبة ملازم أول سكراناً معربداً يتمايل في طرقات الصالحية يتحرَّش بالنساء ويضرب من يعارضه بوحشية واضعاً مسدسيه على جنبيه.

فما كان من ذلك الضابط السيد محمد أمين إلاّ أن أمر الدرك بإحضار ذلك السكران العربيد إلى المخفر (القسم)، ولو اضطروا لاستخدام القوة.

وبالفعل تمَّ التنفيذ فأُحضِر الضابط السكران المعربد وهو يهدِّد ويرعد، وقام الضابط السيد محمد أمين وعلى الفور غير مبالٍ بقانون البشر تجاه قانون مسيِّر البشر قانون الله ليُقيم الحدَّ عليه، فضربه ضرباً شديداً تأديباً له دون أن يترك أي أثر على جسمه وشدّه وربطه بعمود وسط قسم الأمن وكان يشبعه ضرباً كلما ثار للباطل وأطلق العنان للتهديد والوعيد والشتائم "لكونه من الطبقة الحاكمة إذ ذاك" حتى يخمد، وكلما عاد لثورة الباطل عاد لتأديبه وردعه حتى خمد باطله واستكان.

* * *

وفي الصباح جلب له طعام الإفطار بعد أن فكَّ وثاقه المشدود به إلى ذاك العمود طيلة الليلة، فرفض الأكل.

فردَّ عليه الضابط "المتحلي بأمر الله": إن كنت تريد الخروج بسلام عليك أن تأكل أو سأعود لإهانتك يا مُهان، فعد عن باطلك واجنح إلى السلام وتقبّل الإكرام.

وبالفعل أكل ذلك الضابط التركي الطعام والغيظ يكاد يقتله، ثم أطلق سراحه وأخرجه من القسم فاتَّجه على الفور إلى قادته وأعلمهم بأَمرِ ضربه وإهانته من قبل ضابط عربي وهو الضابط التركي الحاكم.

ولكن الضابط السيد محمد أمين توقَّع ذلك كلَّه وأخذ بالأسباب فأوصى كافة رجال الأمن لديه أن ينكروا أمر الضرب الذي قام به تجاه التركي متى سُئِلوا، ورتَّب خطَّة.

وبالفعل قَدِم قائد الجيش التركي بنفسه للتحقيق بهذا الأمر الخطير الخارق للقوانين العسكرية، فبالعرف العسكري لا يجوز ضرب ضابط مهما كانت الأسباب لاسيما من ضباط الحكم إذ ذاك.

وعند وصول المحقِّق الكبير وقيامه بالتحقيق الدقيق مع رجال أمن القسم، أنكر الأفراد جميعاً شكوى الضابط التركي من أنه أُهين وضُرب، وأثبتوا فقط أنهم ربطوه إلى عمود القسم، إذ كان سكراناً يعربد ويضرب كل من يتقرب منه، فأوثقوه حتى يصحو من سكرته، فلما صحى في الصباح أكرمه رئيس القسم وسامره وآكَلَه وطيَّب خاطره. هذه كانت شهادة الجميع مع رئيسهم "ضابطنا السيد محمد أمين".

وبعد التحقيق اقتنع بكذب الضابط التركي المشتكي، بعدها قام ضابطنا العربي الحكيم بإكرام القائد فجلب له الطعام الفاخر... وتناولا فطورهما وهما يتسامران بطرب وهناء.

عند ذلك قال ضابطنا السيد محمد أمين للقائد وكان محبوباً لديه مقرَّباً إلى قلبه:

أتحبُّ بأن أُخبرك بوجه من الحقيقة السافرة حبّياً أم قانونياً عسكرياً؟.

فتساءل القائد العام: ما هو الحبّي، وما هو القانوني العسكري؟.

أجابه: القانوني العسكري: إنّا وجدنا الضابط التركي مخموراً سكراناً يضرب الناس ويعتدي ويتحرَّش بالأعراض، فقبضنا عليه فضرَبْنَا بشراسة مما اضطرنا إلى ربطه بعمود القسم حتى يصحو، ثم أكرمناه وانصرف.

قال القائد العام للجيش التركي: نِعِمَ التصرُّف تصرّفكم الحكيم الذي تستحقون عليه ثناءنا. والآن ما الأمر الحبِّي؟.

أجابه ضابطنا: الحبّي: أننا وجدناه يتحرّش بالنساء ويضرب الناس وهو مخمور، فلما قاوم القبض عليه وحاول الضرب بعنف، أمسكنا بتلابيبه وألقينا به أرضاً وجلدناه وأدَّبناه حتى تراجع عن جبروته الأعمى وشرِّه، ثم ثار وشتم فأوسعناه ضرباً وربطناه بالعمود حتى الصباح، عندها ارتدع عن طغيانه وكنَّ واستكان، فأكرمناه وأطعمناه فاستسلم صابراً متظاهراً بالعودة إلى الرشد ولكن على مضض.

ثار القائد العام وهبَّ واقفاً وزأر: أضربتم ضابطاً تركياً؟.

أجابه الضابط: كلاّ سيادة القومندان، أبداً لم يضربه ولم يهنه أحد، بل ربطناه لأنه لم يكن بوعيه بسبب شربه الخمر بإفراط يضرب ويشتم، فلما صحا أكرمناه وأطعمناه ولم نقم إلا بتدابير وقائية لحفظه والعناية به.

القائد العام وقد هدأ روعه وسكنت نفسه وجلس: ولكن ألم تقل لي بأنك ضربته وأهنته؟.

أجاب ضابطنا: كلاّ، إن ذلك الإخبار كان حبِّياً، فمن محبَّتي لك قلت ما قلت، أما لما ثرت أخبرتك بالواقع القانوني العسكري.

عندها ابتسم القائد الكبير بعد تأمّل وقال: فهمت الآن: وأجيبك قانونياً: أنكم فعلتم واجبكم على الوجه الأتم، ربطتموه اتقاء شرِّ سكره، فلما صحا أكرمتموه ولكم ثناؤنا. وغمز بعينه رامزاً عن تفهّمه للأمر وانحيازه للحق ولو على قومه الحكَّام.

* * *

أما ذاك الخبيث الشرير فلقي جزاءه ولن يجرؤ على إفساد منطقتك المطهَّرة بأعمالك وإنجازاتك الكبرى بعد هذا الدرس الصارم أبداً. ثم غادره وهو يغالب ابتساماته وسروره القلبي وذهب قرير العين راضياً.

﴿ . .إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[1].

❁ ❁ ❁

[1] سورة محمد: الآية (٧).



خلق الله تعالى الإنسان وجاء به لهذه الدنيا ليسعده ويفيض عليه من برّه وكرمه دنيا آخرة، لكن الإنسان لمَّا جاء وأُعطي اختياره حاد عن طريق سعادته وكسْبه وراح يرتع ويتمتع في شهواته البهيمية الرخيصة، ولذلك ومن رحمته تعالى لم يترك هذا الغافل المتأمِّل بالزائل يضيع كرامته وكسبه على أرض المذلة والخسران وسفْح وجوده العظيم، وليفيق من سباته العميق ويعود لطريق سعادته الحقيقية ومكاسبه اليقينية التي لا نضوب لها ممن لا يضل ولا ينسى.

وهنا بدأ الله تعالى يرسل لهذا الإنسان من الإكرام والعطاء تارةً، ومن الفقر والجوع والحرمان تارةً، ومن الأمراض والشدائد والمصائب تارة أخرى، كل ذلك ليعود هذا الإنسان لجادة الصواب وليسير في طريق سعادته وكسبه.

* * *

وأمامنا حادثة وقعت بأواخر عهد الأتراك في بلادنا عندما سلَّط الله تعالى الجراد على مزارع وزروع الناس بسبب إعراضهم عن منهج الله، حتى لم يبقَ عود أخضر في البلاد.

فلقد هجمت أسراب الجراد بأعداد كبيرة جداً، ولكثافته كان يشكل سحابة تحجب نور الشمس أثناء طيرانه وانتقاله من مكان لآخر، فبدأ يأكل الأخضر واليابس "حتى التهم لحاء الشجر"، ونتيجة لذلك

حدثت مجاعة كبيرة في البلاد بسبب فقدان المحاصيل والمواسم الزراعية. هذا وسُمِّيت تلك الفترة العصلَّة القاسية بزمن "**سفر برّ**"، إذ كانوا يُزجّون بالمعركة ضدّ الحلفاء بالحرب العظمى برّاً حتى ترعة السويس.

وخلال هذه الفترة جاء أحد المزارعين بقرية "داريا" قرب مدينة دمشق إلى السرايا يشكو مزارعاً في بلدته أن بحوزته نوعاً من المبيدات القاضية على الجراد قضاءً مبرماً ولم يعطِ منه أحداً، أو يُعلم الدولة لتأمينه للمزارعين، ودليله على ذلك بستانه الأخضر وأشجاره المونقة الوارفة الظلال، والتي لم يقربها الجراد: فهي ذات أثمار متدلية وفيرة وأعناب غاية في الجودة وطيِّب المذاق.

وهنا امتطى ضابطنا السيد محمد أمين صهوة حصانه وتبعه عدد من الشرطة "الدرك" للتحقيق بهذا الموضوع والتأكُّد من صحة أقوال هذا المزارع، وانطلقوا مع الواشي إلى مكان البستان، وعند وصوله رأى الأشجار الخضراء والأثمار اليانعة تماماً، كما وُصفت له، فطلب صاحب البستان، وحين حضر ثار عليه والسوط في يده يبغي ضربه الضرب المبرح، قائلاً له:

لماذا تكتم هذا الدواء المبيد للحشرات عن المزارعين كما لم تُعلم الدولة كي تؤمِّنه للمزارعين، فقط يهمُّك أمر نفسك أيها الأناني وعلى البشر الهلاك!. يا ويلك غداً بين يدي الله.

فأجابه قائلاً: سيدي الدواء الذي استعمله كلّهم يعرفونه ولا يستعملونه، بل يرفضونه بازدراء.. وكانت جمهرة من أهالي القرية ووجهائها قد تجمَّعت، فنظر إليهم ضابطُنا، وإذا بهم قد طأطأوا رؤوسهم ولم ينبسوا ببنت شفة خجلين مذلولين، عندها خفض سوْطه وقال له: ما هو هذا الدواء؟.

فأجابه المزارع: الزكاة . سيدي، إني أتصدَّق بعشْر محصولي سنوياً طوال حياتي فحفظه الله لي، فقال له ضابطنا: ماذا تقول؟.

فكرّر: الزكاة، سيدي.

وهنا خاطب صاحب البستان قائلاً: وهل يفهم الجراد ويميِّز بين بستان مزكّى وآخر غير مزكّى؟.

فأجابه: جرِّب، وألقِ الجراد على الزرع.

عندها قفز ضابطنا من صهوة حصانه إلى الأرض بهمّة ونشاط وجمع بكلتا يديه جمعاً كبيراً من الجراد من الأرض، وألقاه في البستان، وإذا بالجراد يرتطم بأرض البستان وزرعه قافزاً بجناحه مرتداً القهقرى خارج

البستان ولم تبقَ جرادة واحدة في البستان، بل كان الجراد يرتطم ويعود إلى مكانه دون أن يقضم ورقة من البستان، فكرّر ذلك ثلاث مرات، وفي كل مرة يعود الجراد من حيث أتى وكأنه اصطدم بجدار منيع أو بنار محرقة قذفت به خارج البستان.

وهنا تذكَّر ضابطنا حديث حبيبه المصطفى ﷺ: «**حصِّنوا أموالكم بالزكاة**».

لهذا أمرنا تعالى بها كي تحصل لنا ثقة برضاء الله عنا، فتتقرَّب نفوسنا زلفى بوجه أبيض بعملها من هذا الكامل العظيم وتتشرّب منه تعالى صفات الكمال ونصبح إنسانيين ونعمل الإحسان أيضاً ونعود إليه بعد هذه الحياة وهو راضٍ عنا، وندخل جناته كما وعدنا:

﴿. .ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

فهو تعالى يحثُّنا على الزكاة وأدائها لأنها تولّد الحبَّ والودَّ والعطف بين أفراد المجتمع: الفقير يحبُّ الغني لأنه سبب يسره وكفافه، والأغنياء يحبون الفقراء لأنهم قدَّموا لهم المال الغالي على نفوسهم عن رضى لإرضاء الله وأسعفوهم من شدَّتهم وسرُّوا قلوبهم بعطاءاتهم.

وهكذا سبحانه وتعالى أحكامه وقوانينه كاملة وشاملة وفيها سعادة البشرية في الدنيا والآخرة، وهي التي تجمع البشر كافة تحت لواء الإنسانية وتدفع عن المرء وعن أمواله حدثان الزمان، وبذا يصدق القول:

(المال المزكّى لا يُحرق ولا يغرق)

بل يحميه الله من غوائل الأحداث، فالكلُّ بيده تعالى.

«**ما نقص مال من صدقة**».

«**باكروا بالصدقة فإن البلاء لا يتخطَّى الصدقة**».



[1] سورة النحل: الآية (٣٢).



اضطر ضابطنا السيد محمد أمين لمغادرة داره بلباس الراحة لشراء حاجة اضطر لها أهل البيت وكان قد صرف العنصر المرافق المكلّف بخدمته، وما أن سار مسافة قصيرة عن المنزل باتجاه السمّان حتى وقع نظره على رأس المجرمين الكبار والذي كان مضرباً للأمثال بالإجرام والقوة والبطش والصلابة والجسم العملاق، إنه فعلاً مجرم لا كالمجرمين بسطوته وجبروته وبطشه، قضى على عشرات من رجال الأمن والمواطنين بطشاً وتنكيلاً، حتى إن عتاة المجرمين كانوا يحسبون له أيما حساب، بل ويخشون ذكره إلا بالإكبار والإجلال.

هذا وقد عجزت كل محاولات الدولة في إلقاء القبض عليه فذاع صيته وغدا عنترة زمانه وبطل أبطال المجرمين.

إنه "**حمو جمو**" بذاته لا سواه وبجسمه الضخم العملاق مدجَّجاً بالسلاح والعصا الغليظة المدبَّبة الرأس التي لا تفارق يده وخنجره الذي كان بطول سيف قصير.

وقع نظر هذا المجرم العاتي الجبّار على ضابطنا. وللوهلة الأولى همَّ أنْ يلوذ بالفرار منه لكونه القائد المسؤول عن الأمن وملاحقة المجرمين بالمنطقة، ولما لاحظ أنه بلباس الراحة وأعزل من السلاح والمرافقة، أقلع عن الهروب وقرّر اغتنام الفرصة، وهمَّ بمهاجمته للقضاء عليه وقتله، لقد وجدها فرصةً مواتية لذلك وربما تحدَّث بنفسه:

"إنني بهذا أخلِّص المجرمين منه، لقد لاحقنا في كل مكان وشتَّت شملنا وقضى علينا ولم يفلت منه إلا القليل وهو لا يزال يتابعنا ليقضي علينا جميعاً، ألا إنها فرصة العمر للبطش به". ولعلَّ هذا ما دار بخلد المجرم وما نوى عليه لأن أسارير وجهه المستبشرة نمَّت عن ذلك.

لكنها المفاجأة الكبيرة والرهيبة، إذ ما كان من ضابطنا إلاَّ أن قام بالانقضاض الصاعق المباغت مستفيداً من خفَّته ورشاقته مما أذهل المجرم وجعله يلجأ للعصا الغليظة رافعاً إياها دون المسدس والخنجر ولكنه عجز ولم يتمكَّن من استعمالها لأن ضابطنا كان قد قفز من على بُعْد عدة أمتار قفزةً عاليةً خاطفة على المجرم، وبضربة قوية على وجه المجرم العاتي من كفه هدَّت فرائص المجرم فخارت قواه وضاع صوابه وطاش سهمه ووقع على الأرض بجسمه الضخم وكأنه فيل هاوٍ، لقد حطَّم عنفوانه الطائش وكبرياءه الطاغي وجبروته العالي.

فلما شاهد الناس ذلك المنظر ما كادوا ليصدِّقوا ما شاهدوه بأمِّ أعينهم:

هل يعقل هذا!. إنه "**حمو جمو**" مستلقٍ على ظهره فاقداً لوعيه، حقّاً إنه أمر غريب وعجيب!. إنها معجزة العصر.. رجل أعزل من السلاح يقضي على "**حمو جمو**" وهو مدجَّج بالسلاح؟. كيف تأتّى له ذلك؟.

أسئلة دارت في مخيلة كل من شاهد الحادثة أو سمع بها!.

وعلى الفور سحبه من قدمه وساقه جرّاً على الأرض حتى وصل إلى قسم الأمن.

* * *

وهكذا كانت نهاية جبروته الإجرامي على يد هذا الضابط الشريف، فأراح بذلك الناس من بطشه وشرِّه ونصره الله عليه نصراً عزيزاً.

❁ ❁ ❁



ستدور عجلة الزمن للوراء قليلاً عائدين إلى أواخر عهد الدولة العثمانية عندما شذَّ الناس وتهاونوا في تطبيق أوامر الإله وفرائضه، عندها اقتضت حكمة الله تعالى أن يضيِّق على أولئك البشر ويبعث لهم من المصائب والشدائد علَّهم يصحوا ويعودوا لرشدهم، فعمَّت الفوضى في جهاز الحكم وبالتالي بين الرعية... تلك الفترة سُمِّيت بـ "سفر برّ"، حيث سُيِّرت الجيوش للترعة للقتال، واتَّصفت بالمجاعة الكبرى من قلة المواد الغذائية لتوالي سنوات القحط والجفاف والجراد والحرب العالمية الأولى، فعانى الناس الجوع والحرمان... لذا عمدت الدولة لاتخاذ إجراءات صارمة فأصدرت ما يُعرف بإسم القسائم: تستطيع كل أسرة أن تحصل بموجبها على كمية محدَّدة من الخبز يومياً تبعاً لعدد القسائم الممنوحة لها وتبعاً لعدد أفرادها، أي أن عدد القسائم بعدد أفراد الأسرة، وبموجب كل قسيمة عدد محدد من الخبز للأسرة "رغيفين أو ثلاثة" فقط ولا تستطيع الحصول على أكثر من مخصصاتها.

تعال أخي القارئ لنعيش في تلك الفترة قليلاً من الزمن مع السيد محمد أمين عندما تعرَّض لموقف رهيب... كيف تصدَّى لمشكلة خطيرة...لنتابع سوياً.

* * *

في أحد أحياء دمشق كان هناك فرن "مخبز" يشغله فرَّان "خبَّاز" شرير فاقد المروءة، فاقد الدين والشرف... كان هذا الطاغية يستعلي على الناس... وعلى أبناء حَيِّه فهو من عائلة غنية ذات جاه عريض ومكانة مرموقة في جهاز حكم الدولة، وهو صاحب هذا الفرن والناس كلها بحاجته... فيستغل ما هم فيه من حاجة للرغيف!. كان لا يخشى أحداً لما يلقاه من دعم عائلته وغناها، حتى ظنَّ أن كل أولئك الناس تحت إمرته لأنهم بحاجته... فهو يعطي وهو يمنع... ظنَّ أنه يستطيع النيل من الفتاة التي يرغب ونسيَ أن الله ملِك الناس، كلهم في قبضته وكلهم في يده فلا يسلِّط الظالم إلا على ظالم، ولا يطول الزاني إلا زانية على شاكلته... أما الطاهرة العفيفة مُستحيل أن يطولها، فالله قاهره لا محالة.

ذات يوم بلغته بعض الأخبار التي تناقلتها ألسنة بعض نساء الحي الغبيات وهو أن بنت "فلان" فتاة شابة لا مثيل لجمالها في الحي كله... فجمالها منقطع النظير وهي في ريعان الصبا، بلغه الخبر عن طريق عائلته "أمه أو أخته أو..".

أما هو فيعرف أن بنت فلان تأتيه يومياً لتأخذ خبز أسرتها التي لا معين لها، فأب الأسرة "والدها" رجل طاعن بالسن وعاجز وإخوتها صغار أطفال، أما أمها فقد فارقت الحياة منذ سنوات عدّة، فما من أحد يستطيع الخروج وشراء حاجات البيت إلاَّ تلك الفتاة.

طبعاً الحجاب كان مطبَّقاً على كافة النساء المسلمات بذاك العهد، فكانت تلك الفتاة تخرج فلا تُعرف أهي شابة أم عجوز.. جميلة أم قبيحة.. لا تظهر إلاَّ كقبة سوداء.

القسائم التي تقدِّمها للفرَّان بإسم "فلان" والدها، هذه الأنثى التي تأتي الفرن وتحمل قسائم "فلان" هي ابنة فلان... إذاً ها هي الفتاة التي ذاع صيت جمالها... هذا ما أدركه الفرَّان الخبيث، ثم أضمر بنفسه نيةً خبيثة.

* * *

وفي صبيحة اليوم التالي وكالعادة وبعد شروق الشمس جاءت الفتاة لفرن الحي لتأخذ مخصَّصات عائلتها اليومية من الخبز، وقفت تنتظر أمام النافذة المخصَّصة للنساء إلى أن حان دورها فمدت دفتر القسائم... نظر الفرَّان فيه... إنه بإسم "فلان" والدها... فعرفها... إنها هي... إنها الفتاة الشابة... فريسته التي نوى عليها... تجاهلها ولم يستلم الدفتر منها، فلم يسلِّمها حقَّها من الخبز... فوقفت تنتظر مستغربة هذا

التصرُّف من الفرّان ما السبب لا تدري... لكنها وقفت وغيرها يأخذ الخبز... إلى أن خلا الفرن من الناس ولم تبقَ إلا تلك المسكينة "مكسورة الجناح" بقرب النافذة الكبيرة محتارةً ما الأمر لا تدري!!!.

وقفت وكلها حياء تود لو تذهب ولكن عليها أن تأخذ الخبز لأبيها العاجز، وإخوتها الصغار ينتظرونها لطعام الإفطار فقال لها الفرّان الخبيث بعيونٍ مملوءة بالخيانة والعصيان: لن أعطيك الخبز حتى أنال منك ما أبغي...

لم تحتمل ما سمعت... صدمة مرّة قاسية صدمت قلبها الطاهر العفيف فأدارت ظهرها وأسرعت خطاها للبيت فلا خبز معها، ولكن شرفها وطهْرها يتوّجها وعند الله يرفعها... ونفسها تقول: لا وألف لا.

وهكذا باتت الفتاة الطاهرة وأهلها يعانون الجوع... ومضى اليوم وأطلَّت شمس صباح اليوم التالي وعادت الفتاة الطاهرة لتطلب حقَّها وحق أبيها وإخوتها من الخبز فعسى أن يكون ذلك الفرّان اللاإنساني قد تراجع عن إجرامه وغيِّه... ولكن يا لمصيبة تلك الطاهرة المسكينة، لقد كرَّر ذلك المجرم ما كان طلبه منها في اليوم الماضي... لقد عاد لطلب الفاحشة منها مقابل إعطائها حقّها من الخبز... رغم الجوع والحرمان تركت الفرن وغادرت بسرعة بخطاها محتقرةً ذلك الوحش المجرم... قلبها يتقطع ألماً على إخوتها وأبيها... تثور ثورة الشرف فيه على ذلك الطاغية.

عادت البيت وعيونها تملؤها الدموع...

استقبلها إخوتها فلم يجدوا خبزاً بيدها فانفجروا بكاءً وهم يتضوَّرون جوعاً... أين الخبز يا أختي... أين الخبز يا أختي.

ردَّت وهي تحتضنهم وتمسح دموعهم... أما دموعها فتجري بغزارة... أما قلت لكم يا إخوتي فالفرن ما زال معطلاً عن العمل.

ولكن ما الحل... تذهب لفرن الحي الثاني؟... لا تستطيع فقسائمها مخصَّصة بهذا الفرن والفرن الآخر لن يعطيها الخبز فمخصَّصاتها ليست من عنده، بل من فرن حيِّها... ولكن ما العمل؟...

* * *

عادت في اليوم الثالث والألم يعصر قلبها... ويا للأسف فالمجرم ما زال مصراً على إجرامه... فلقد طغت شهوته عليه فحوَّلته لوحش مفترس لا يفكِّر بالصغار الذين يكابدون الجوع... يكتب بيده مصير أسرة فقيرة للهلاك مقابل شهوته الحقيرة ووحشيته الطاغية.

تركت الفرن ورجعت في طريقها تملأ الدموع مقلتيها ورجْلاها لا تحملاها، بل تتهادى كالسكارى وما هي من السكارى ولكنه الجوع الكافر هدَّ قواها وجعلها كأنها شبح تتلاشى قواه.

كان يرقب هذا الوضع طيلة الأيام الثلاث شيخ مسن طيِّب القلب، فلقد أدرك ما في الأمر فحزَّ الألم والحزن بقلبه لوضع تلك المسكينة وأسرتها فاقترب منها وقال:

يا ابنتي اذهبي إلى رئيس قسم حيِّنا واشتكي له... فهو الذي يحلُّ لك مشكلتك ويُعيد لك حقَّك، فادخلي هذا القسم المقابل للفرن وقصِّي عليه الأمر.

كان ذاك ضابطنا السيد محمد أمين... إنه رئيس قسم الشرطة في هذا الحي.

سمعت الفتاة ما قاله الشيخ الكبير، فمشت بصعوبة وإعياء إلى القسم المواجه للفرن قاصدة الضابط الرئيس... دخلت بثياب الستر والعفاف تغطيها من رأسها لقدمها، مخفية جلال جمالها الشاحب المحتار المترع بالشرف.

طرقت باب المكتب... كان رئيس القسم في مكتبه جالساً وراء طاولته، صاح:

تفضل... ادخل... فُتح الباب بهدوء وتردُّد ودخلت تلك الفتاة بخطاً بطيئة متردِّدة من بالغ الحياء والشرف الذي بقلبها مع ضعف جسدي وانهيار ظاهر، ولكن ما تزال أصوات بكاء الصغار الجياع تدق أذنيها... وما بقي لها إلاَّ هذا الأمل الوحيد.

سارت إلى أن وقفت قبالة رئيس القسم، ولكن لم تتكلَّم بأية كلمة... صعب عليها أن تنطق بكلمة أمامه إلاَّ أن دموعها كانت تسيل بغزارة...

أحسَّ إنساننا ببكائها... فسألها ما الأمر يا أختي... تكلَّمي... ولكن لم تستطع الكلام، بل زادت بكاءً.

أدرك إنساننا كبير معاناتها فقال لها: أختي تكلَّمي ما الأمر... هيا تكلَّمي.

فاعتصرت بنفسها إلى أن استطاعت أن تبوح بكلمات ثلاث:

آه... آه.. الفرّان... لا يعطيني خبزاً..آه آه... الفاحشة...

عند ذلك فهم ضابطنا ما في الأمر فهبَّ كالإعصار، ثم اندفع كالعاصفة حاملاً سوطه بيده مردِّداً بنفسه:

هكذا إذاً أيها الفران النذل... أيها المجرم الحقير... سترى... اندفع بخطوات مسرعة تكاد لا تلامس الأرض.

وما أن وصل الفرن حتى تفرَّق الناس عن الفرن يمنة ويسرة لمنظره الغاضب وثورته الرهيبة وبسرعة انقض من فوق طاولة البيع إلى الداخل...

ذُهل الفرَّان وضاع صوابه الخاطئ فلم يدرِ بنفسه إلاَّ وهو مجرورٌ من شعر رأسه وكتفيه لخارج الفرن وفي وسط الشارع وأمام كل الناس أصبح مذلولاً محتقراً... ليس بمقدوره أن يبدي أية مقاومة تحت بطشة السيد محمد أمين الـمُحِقَّة وثورته للحق القوية، فقد طاش صوابه وخارت قواه... وفي قسم الشرطة غَضَبُ الله حلَّ عليه. انهال عليه الضابط الشريف الثائر ضرباً بيديه فارتمى أرضاً فانهال عليه ركلاً ووطءاً بقدميه، ثم ضربه بسوطه ولم يتركه حتى أضحى وكأنه جثة هامدة تسيل دماؤه من كل موضع بجسمه، وأضحى بحالة تعيسة جداً لا يُحسد عليها أبداً، لقد تضخمت قدماه من الضرب تغطيها الدماء...

لقد لقيَ قصاصه على يد الضابط الشجاع، لقي ما عانته تلك الطاهرة من آلام بقلبها وآلام إخوتها وأبيها... إذ كاد أن يهلكهم جوعاً باستغلاله وطغيانه... بوحشيته وإجرامه.

ثم أمر الضابط جنوده قائلاً:

هيا خذوه... خذوا هذا الوحش وأسعفوه لأقرب مركز طبي لإجراء اللازم له وإن مات فإلى جهنم وبئس المصير.

ثم خرج ضابطنا وما تزال لآثار ثورته الهدَّارة بقية باقية، عاد للفرن ثانية فأخذ مخصَّصات الأيام الثلاثة الماضية، ولم يكتفِ بذلك بل عيَّن لهذه الأسرة عنصراً من أشرف عناصره فكلَّفه بإيصال الخبز يومياً إلى بيتها.

لقد أحقَّ الحق بقوة وشجاعة فضرب على يد الجاني الظالم واقتصَّ منه، بل محى صورة من أبشع صور الإجرام ولم يبالِ بكل ما يمكن أن ينتج عن هذا العمل الحكيم، لم يبالِ كون هذا الفرَّان من عائلة غنية لها

مكانتها المرموقة في جهاز الحكم... لم يعبأ بما سينتج عنهم وما سيكيدون له انتقاماً منه لنصرة الفرّان، فلقد نشأت في نفسه ثورة قوية للحق... للشرف... لم تهدأ إلاَّ حتى يأخذ الحق مجراه ويضرب بشدة على يدِ الظالم الجاني.

* * *

أما ذلك الظالم الطاغي فقد لقيَ عقابه... لقيَ جزاء عمله وإجرامه بحق الفتاة الشريفة والأبرياء الصغار... فبقي طريح الفراش مدة شهرين يُعاني آلاماً مبرحة وأوجاعاً رهيبة.

والسيد محمد أمين وبترتيب الله انتدبته الحكومة التركية للسفر إلى تركيا في مهمة رسمية عاجلة فسافر، وبذلك غاب عن الأنظار بهذه المهمة ولم يستطع أحد النوال منه، بل ولا مسَّه بشرٍ، وبذلك حماه الله من كل مكيدة كانت ستُكاد له.

بقي الفرَّان يكابد آلامه... يُعاني أوجاعه... يشتعل قلبه حقداً... لا تبرح مخيلته صورة ذلك الضابط كيف أذلَّه وسط الشارع بين كل الناس وهو العزيز الوجيه... كيف ضربه في القسم حتى جعله من سكان المستشفى... كيف أحلَّ به هذه الآلام والأوجاع فيغلي قلبه حقداً... فكيف سيقتص منه ويردُّ له الصاع صاعين وكأنه يُحدِّث نفسه:

كان عليَّ أن لا أستسلم له... تحت يديه... هو رجل وأنا رجل فما الذي دهاني حتى خارت قواي... الأيام قادمة ولا بد أن أُشفى وأعود لك أيها الضابط... يا رئيس القسم... عندها سترى من الرَجُل فينا...

لم يستطع أن ينساه ولو للحظة... حتى إنه كان يحلم به في نومه.

وما إن انقضى الشهران الأليمان على هذا الحال حتى أحسَّ الفرَّان في نهايتهما ومع شفائه من آلامه وجروحه بأن قلبه أيضاً قد شُفي من إجرامه... من حقده... من باطله... راجع نفسه وناقشها فوجد أنه كان في محض الإجرام وأي عمل قاسٍ بحق الفتاة وعائلتها أقدم عليه... أي نيران كان سيجلبها لنفسه... يبكي توبة نصوحاً... فلم يعد يستطيع أن يتصوَّر ما كان غارقاً فيه من أعمال منحطَّة وعصيان... فيحمد الله أن بعث له ذلك الضابط الشريف السيد محمد أمين نبَّهه بما آلمه فخلَّصه مما هو فيه من إجرام... فصار يصلِّي... يقرأ القرآن... يعامل الناس بالإحسان وبتواضع حقيقي نابع من أعماقه التائبة

يتمنَّى أن يرى ذلك الضابط الإنسان ليقبل يديه، بل قدميه على ما فعله معه واقتصه منه، فكان سبباً في عودته لرشده وتوبته ورجوعه لله، بل كان منقذاً له من نيران الآخرة إلى جنانها ومن شقاء الدنيا إلى النعيم والسعادة بالقرب من الله.

* * *

وتمضي الأيام والشهور والسنوات وذات يوم وبينما كان ضابطنا السيد محمد أمين "وكان إذ ذاك قد أُحيل على التقاعد" يعبر أحد الطرقات وإذ بشيخ ذي هيبة ووقار ينقضُّ على تقبيل يده ودموعه تنسال بغزارة على وجنتيه المشرقتين فسحب يده بسرعة خاطفة، كان هذا الشيخ الوقور جالساً على كرسي أمام باب داره بعد صلاة العصر (كعادة أهل الشام قديماً) يقرأ القرآن عندما شاهد ضابطنا الذي لم يتذكره.

رفع هذا الشيخ وجهه وبعيون تملؤها الدموع نظر بإنساننا وقال:

الله... الله... ألا تذكرني يا سيدي... بالله عليك دعني أقبِّل يديك الطاهرتين السخيتين ثانية... أُقبِّل رجليك فما أنا وما فيه من نعمة وسعادة إلاَّ بعضاً مما تفضلت به علي.

إني أنا الفرَّان الذي كنت قد ضربتني فكنت سبب توبتي وأوبتي إلى الرشاد والحق، "ضَرْبُكَ أوصلني للجنة" أيها المحسن المُقاصص الرحيم، جزاك الله عني خير الجزاء أيها المنقذ الكريم.

فأعْظِمْ بهذا الإنسان الرحيم ذي القلب الكبير والذي إن ضرب امرءاً لله كان ضربه سبباً يؤدي به إلى الجنان.





لقد تقلّد ضابطنا السيد محمد أمين عدّة مناصب قيادية إبَّان حُكْم الدولة العثمانية، فها هو ذا يتسنَّم منصباً رفيع المستوى، حيث عُيِّن مديراً لسجن قلعة دمشق المركزي ورئيساً للقلعة بأسرها بما في ذلك قسم التسليح والإمداد للجيش التركي بالقلعة.

وفي هذه الأثناء كانت الحرب العالمية الأولى تشتد استعاراً لتشمل كافة أنحاء المعمورة، وبما أن الدولة العثمانية هي أحد الأطراف المتصارعة في هذه الحرب فهي تزج بجحافل المقاتلين في ساحات الوغى وخاصة على الجبهة المصرية فيما سُمِّي "بحرب الترعة" آنذاك، ضد بريطانيا العظمى في ذلك الحين، وفي سنوات قحطٍ وقُمَّلٍ وجراد وفقر وشقاق بين قياديِّ الامبراطورية التركية، فنتج عن ذلك العجز عن إمكانية تزويد المقاتلين في صفوف الدولة التركية بالمؤن والعتاد اللازم لخوض غمار مثل هذه الحرب الضروس، مما يضطر الجنود وتحت وطأة الجوع والعطش إلى التخلي عن مواقعهم القتالية والانسحاب منها إلى المكان الذي يتوفر لهم فيه الأمن والطعام والمأوى.

وهؤلاء حسب القوانين النافذة في الدولة آنذاك يُعتبرون فارّين من المعركة، وعقوبة الفرار أثناء العمليات الحربية هي الإعدام رمياً بالرصاص.

وبينما كان ضابطنا يقوم بتسيير الأعمال المنوطة به داخل القلعة من تفقُّدٍ لأقسامها وتدبيرِ شؤونها، وإذا بقافلة من الرجال يُقارب تعدادهم السبعين رجلاً يُقدَّمون له من قِبَل رئيس المفرزة المكلَّفة بحراستهم قائلاً:

هؤلاء شكَّلوا فراراً من ميدان المعركة وصدر الحكم عليهم بالموت رمياً بالرصاص وجئنا بهم إليك ليتمَّ إعدامهم في السجن كالمعتاد.

* * *

"ومن المعلوم بأن هذا الرقم لا يمثل كامل الجنود الفارين إنما هو العشر فقط لأن أعداد الفارين كانت كبيرة جداً وإعدام كامل هذه الأعداد يعني القضاء على معظم قطعات الجيش ووحداته فكان يتجزَّأُ الرقم سلفاً لعُشر المقاتلين الفارِّين ويتم إعدام العُشر ليكونون عبرة لغيرهم كي لا يعاودوا الفرار، ولكن دون جدوى".

* * *

وبعد استلامهم من قبل ضابطنا أصولاً، سأل من حوله عمّا كان يفعل الضابط الذي سبقه في شغل هذا المنصب مع أمثال هؤلاء، فأُجيب: بأنه كانت تُوضع له منصة ويشرع بشرب القهوة والمرطبات مع نرجيلة التبغ على أصوات أزيز الرصاص وتساقط هؤلاء الرجال جثثاً هامدة مضرَّجين بدمائهم بلا حراك، وهذا فعله كل يوم.

وعلى الفور اتَّخذ ضابطنا المقدام قراراً حاسماً وجريئاً بنفسه ولم يُطْلع عليه مَنْ حوله يقضي بعدم إعدام هؤلاء، وهو يعلم ما في هذه المخالفة من خطورة بالغة وكم سيكون ثمنها باهظاً، إذ ستكلِّفه حياته حتماً. إلاَّ أنه قال في سرِّه ما أنا إلا كأحدهم وما حياتي بأفضل من حياة واحد منهم فما عليَّ إلاَّ أن أقدِّمها فداءً لإنقاذهم وأُسَرهم جميعاً.

ثم أذاع بأن تنفيذ إعدامهم سيتمُّ خارج مجال السجن بل بالقلعة، وسيَّر هؤلاء المعدمين إلى القلعة، حيث قام بتجهيزهم بالسلاح والذخيرة والعتاد واللباس وأتمّ إلحاقهم بجبهات القتال بعد أن نُظِّمت بهم لوائح اسمية بجنودٍ ضُموا كرديفٍ للجيش المقاتلْ أُرسلت هذه اللوائح إلى القيادة مع لوائح الملحقين الآخرين بالجيش بشكل طبيعي عادي.

ولم ينته الأمر عند هذا الحدّ بل أصبح وفي كل يوم يفدُ إليه عدد من الرجال يتراوحون بين /٦٠-٧٠/ معدماً فيُعاملهم بما عامل به سابقيهم.

وهكذا إلى أن مضت فترة زمنية تُقارب الشهرين حيث بلغ عدد من أنقذهم بحدود /٤٠٠٠/ من المعدمين تقريباً وطبيعي أن مثل هذا الأمر لا يمكن إخفاؤه عن أنظار وأسماع السلطة العثمانية لاسيَّما إذا علمنا أن من يحسده على هذا المنصب المرموق هم كُثُر ويتمنَّوْن زواله وتحطيمه ونوال هذه الوظيفة العالية بدله.

وصل ذلك النبأ الصاعق إلى أعلى المصادر في الولاية الشامية، وفي ذات يوم وبينما كان يقوم بتنفيذ مهامه وواجباته، فإذا بقائد الجيش التركي يدخل عليه بصورة مفاجئة والغضب الشديد مرتسمٌ على قسمات وجهه ثائراً على غير عادته المألوفة، قائلاً:

"أصلان" (وتعني بالتركية الأسد، لُقِّب بذلك نتيجة لنجاحه المنقطع النظير في تنفيذ كل ما أُوكل إليه من مهام رغم جسامتها واستحالة تنفيذها من قبل غيره).

فلم يكن له بذلك سميٌ بين جميع الضباط قاطبة، فحاز على تقدير وثقة رؤسائه ومرؤوسيه على حدّ سواء مما جعلهم يطلقون عليه هذا اللقب.

وتابع قائد الجيش كلامه بمنتهى الحدَّة البالغة وبصوت متهدِّج ماذا فعلت؟. وكيف تجرؤ على مخالفة أمر الوالي؟.

إنني وفيما سبق وطيلة خدمتك العسكرية عندي أقف دائماً مدافعاً عنك بوجه أيٍّ كان، أما الآن وإزاء ما أقدمت عليه من عمل فظيع لا يمكنني الوقوف إلى جانبك أبداً لأنني إن أقدمت على مثل هذا سيكون معناه تقديم نفسي للإعدام معك، لذا وبهذا الحال لا يمكنني الدفاع عنك أبداً.

وهنا وحتى هذه اللحظة لم يكن لدى ضابطنا السيد محمد أمين أي تصوُّر أو خطة مسبقة لمواجهة مثل ذلك الموقف الحرج المرعب، ولكنه شعر كأن براكين مفاجئة تفجرت بعنف في صدره وثار ثورة جامحة وردَّ عليه قائلاً وبعنف لم يسبق له مثيل ولعلَّها المرة الأولى في حياته العسكرية التي يعلو فيها صوته فوق صوت ذلك القائد وبهذه اللهجة العاصفة قائلاً:

إذا دخل العدو الكافر بلادنا وفتكوا بنا وبأعراضنا فما ستفعلون أنتم؟. أنتم لكم بلد آخر، سيحمل كل واحد منكم محفظته ويرحل لبلده ونحن نبقى تحت نير الطاغية الكافر نذوق العذاب ألواناً... أليس كذلك يا سيادة القومندان؟.

أيَّ مصير سيء سنؤول إليه؟. إنهم حتماً سينتهكون الحرمات ويفتكون بالأعراض ويدمِّرون أقدس المقدسات دون أي وازع أخلاقي أو إنساني، وبذا سنعاني ونكابد ما لا تُعانون ولا تُكابدون لأنكم عندها ستحزمون حقائبكم وتغادرون إلى بلادكم آمنين مطمئنين، تتركوننا ومصيرنا المرعب مع هؤلاء الأعداء المحتلِّين.

وهنا ظهرت علامات الدهشة والاستغراب على وجه قائد الجيش، فأجابه بدهشة مفاجئة غامرة: وماذا تعني بهذا الكلام؟.

قال: أعني أنني الآن وضعت جيشاً قوامه /٤٠٠٠/ عنصراً يقاتلون فيقتُلون ويقتَلون فإذا قُتل فرد منهم قَتَل بالمقابل عنصراً من العدو فهذا الجيش يشكِّل الآن جبهة ضاربة لردع العدو كنتم ستقتلونهم بأيديكم بدل العدو، وهم الآن يقتُلون عدو الله وعدوكم... فلماذا تعدمونهم إذن؟.

فأجابه القومندان: لأنهم "فرار" من الخدمة العسكرية.

وهنا سأله القومندان: ولكن ما علاقة هذا الكلام بما سألتك عنه من إقدامك على الإفراج عمَّن كان سيُنفَّذ بهم حكم الإعدام.

فأجابه ضابطنا السيد محمد أمين: أكرر... إن هؤلاء الذين ترسلون بهم إليَّ ليتم تنفيذ حكم الإعدام فيهم والذي بلغ عددهم /٤٠٠٠/ مقاتل تقريباً حتى الآن. (مع التنويه بأن هذا الرقم المذكور وصل إلى هذا الحد في زمنه فقط، فما بالك بمن أُعدم على مدار عامين).

وتابع قائلاً: أما في حين الإفراج عنهم وتجهيزهم وإرسالهم إلى جبهات القتال فإنهم سيشكلون جبهة منيعة يصعب على العدو الكافر اختراقها، وعلى سبيل الافتراض لو أن كلَّ مقاتل منهم قضى على الجندي المعادي الذي يقابله لتمَّ القضاء على جيش كامل من الأعداء ولشكَّل ذلك تغييراً جذرياً وحاسماً في مجرى وسير الأعمال القتالية لصالحِكم ولصالحنا.

ثم إننا لو تقصَّينا أسباب فرار هؤلاء لوجدنا أن فرارهم ليس جُبناً أو تخاذلاً وإنما بدافع الجوع وعدم منحهم ما يستحقون من إجازات إطلاقاً رغم مكوثهم مُدداً طويلةً بعيدين عن أسرهم وذويهم، فهم يُزجُّون في أتون المعارك ولهيبها دون إمداد منكم بما يحتاجون إليه من طعام وغيره.

إذاً ما هو الذنب الذي اقترفوه ليُحكم عليهم بالإعدام؟.

أمِدُّوهم بما يحتاجون إليه وبما يقتضيه سير الأعمال القتالية ونجاحها وعلى ضوء ذلك تتم محاسبة المقصِّرين منهم والمتخاذلين.

* * *

وهنا وإزاء هذا الرد المنطقي المعقول أجال قائد الجيش "القومندان" فكره في جديَّة ومنطقية كلامه فوجده سليماً، فرجع إلى نفسه إنا لنحن الظالمون وما فعله هذا الأسد "السيد محمد أمين" إنما هو حقّاً لصالحنا وهو عين الصواب، عندها سأله السؤال التالي:

أتستطيع أن تُجيب الوالي بما أجبتني به؟.

قال ضابطنا السيد محمد أمين: نعم... ولِمَ لا!.

قال القومندان: إذن هلمَّ معي لمقابلته لنشرح له الأخطاء التي تقع دون علم جلالته.

وعند المثول أمام الوالي كرَّر أمامه ما قال بصراحة وجرأة لا تعرف الضعف غير وجلٍ ولا هيَّاب، وشرح تفاصيل ما شرحه تجاه قائد الجيش.

ولدى سماع الوالي بذلك الرقم /٤٠٠٠/ مُعدم هاله ما سمع وأدرك عندها حجم هذه الجريمة بهذا المجموع الضخم ولأن تجزيء ذلك الرقم أي ما بين /٦٠-٧٠/ معدماً يومياً لم يكن يعني شيئاً بالنسبة لهؤلاء المسؤولين، أما حاصل جمعه على مدى شهرين أو أكثر فهذه خسارة كبرى من قوَّاتهم لا مسوِّغ لخسارتها.

ومن فوره التفت الوالي إلى قائد جيشه مستفسراً عمّن أصدر مثل ذلك الأمر الأحمق المدمِّر.

فأجابه قائلاً: إنه جمال باشا "السفاح" سيدي.

وهنا استشاط هذا الوالي غضباً وقال: أنا موجود وأوامر جمال باشا لا تزال سارية المفعول ويُعمل بها في ولايتي؟!. منذ هذه اللحظة وعلى الفور يُعتبر هذا الأمر لاغياً ولا يعمل به أبداً. ووجَّه الأمر لقائد الجيش وطلب منه إلغاء أوامر الإعدام فوراً وإصدار تعميم عاجل بذلك.

"ولا يخفى علينا بأنه وكما هو معروف عن الولاة بأن الوالي الذي يلي من سبقه لا تروق له سياسته ويحاول النيل منه وخاصة إذا كان السابق هو جمال باشا الطاغية الجبَّار الذي لم يكنَّ له هذا الوالي أي تقدير أو محبة".

وهنا لم يكتف ضابطنا باستصدار ما يلغي ذلك الأمر الجائر فقط، بل توجَّه إلى الوالي بالقول:

سيادة الباشا (الوالي) إن مثل تلك الأحكام الجائرة لم تكن وقفاً على العسكريين فقط، إنما شملت المدنيين أيضاً، فهنالك أمرٌ عرفيٌّ يُساق بموجبه العديدُ من أبرياء المواطنين يومياً إلى أعواد المشانق وينفَّذ بهم حكم الإعدام أيضاً، ولو لأتفه الأسباب وذلك طبقاً للأحكام العرفية النافذة والمعمول بها.

وهنا أيضاً سأل الوالي قائد الجيش: من أصدر ذلك؟.

فأُجيب: بأنه جمال باشا أيضاً.

كذلك أصدر الوالي مرسوماً يقضي بإلغاء الأحكام السابقة، وندب ضابطنا السيد محمد أمين لتنفيذ إبطاله.

* * *

ومنذ خروج ضابطنا من مقر القيادة توجَّه فوراً بعد أن أخذ مفرزة من رجال الأمن لإزالة كافة أعواد المشانق التي كانت قد نُصبت في معظم ساحات مدينة دمشق وأحيائها وبمقتضى هذا المرسوم أيضاً أُزيلت كافة أعواد المشانق من جميع أنحاء ولاية بلاد الشام بأسرها.

وبذلك تمَّ إنقاذ آلاف المدنيين أيضاً ممَّن كانوا سيقضون نحبهم على أعواد المشانق، وزال الحيف والظلم عنهم، ولم يتمَّ أي إعدام لأي عربي بعدها وحتى زوال الامبراطورية التركية.

وهكذا وبعد أن خيَّمَ كابوسٌ من الرعب والظلم على أبناء ولاية بلاد الشام حيناً من الدهر حيث عمَّت الأحزان عوائلهم وأضحى شبحُ الموت جاثماً في بيوتهم وخطره محدقاً بهم وماثلاً أمام أبصارهم وأسماعهم

حتى قام ضابطنا بعمله الجليل هذا وهبَّ لنصرة من لا ناصر لهم ولا معين معتمداً ومتوكِّلاً على ربِّ العالمين فأيَّده الله بالنصر المبين. والخلقُ كلهم عيالُ الله وأحبُّهم إلى الله أنفعُهم لعياله.





لقد حثَّ الله سبحانه وتعالى عباده على الإيمان بلا إله إلا الله، قال تعالى:

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ. . ﴾[1].

فما هو هذا الإيمان المطلوب منا.

ليس المراد بالإيمان الذي ذكره الله تعالى في كتابه العزيز بالإيمان الذي يتناقله السامع عن محدِّثه ويتلقاه الطالب عن كتابه ومعلِّمه، ويتوارثه الولد عن أمِّه وأبيه، فهذا النوع من الإيمان لا نستطيع أن نسمِّيه إيماناً، بل هو مجرد اعتقاد وتصديق.

فالإيمان الصحيح: علم نفسي وشهود يقيني تشهده النفس ذاتها وتعقله في سرِّها، فإذا هو حقيقة مستقرة فيها تخالطها وتمازجها ولا تنفكُّ عنها...

الإيمان: شيء معنوي يسري في النفس سريان الكهرباء في الأسلاك، والماء في الأغصان والحياة في الأجساد، يُشرق في النفس فيشعُّ فيها النور والعلم والحياة، تدلُّك عليه الصفات الحسنة والمعاملة الطيبة والأخلاق الكريمة والأعمال الصالحة ويشعر به المرء في صميمه فيطمئن بالاً وترتاح إليه نفسه وتنقشع

[1] سورة محمد: الآية (١٩).

أمامه الشكوك والشُبه وتنمحي به الظلمات... الإيمان بحث ذاتي وتمحيص مرفق بالنظر بالآيات الكونية إثر التفكُّر بالموت والخشية منه، عندها تتوصَّل النفس للوجود الإلهي وتعقل طرفاً من نوره تعالى وكمالاته، كما بحث سيدنا إبراهيم ﷺ.

فإذا لم يؤمن الإنسان هذا الإيمان فسوف يموِّه على نفسه ويوهمها وسيسير بالأماني والظنون وسيحتال على نفسه وعلى غيره ويدَّعي بأن الحيَلَ التي يحتالها على الله تعالى شرعية، وما يخدعون إلاَّ أنفسهم ومن هم على شاكلتهم والسبب في ذلك كله، ما قاله تعالى: ﴿ ..ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾[1].

لم يفكِّروا بالكون ولم يعظِّموا الله تعالى، فإن لم تفكِّر بالكون وببدايتك ونهايتك فلن تسير بالحق مهما سمعت من بيان ومنطق: فهؤلاء بنوا إسرائيل عندما لم يؤمنوا هذا الإيمان ولم يقدِّروا رسولهم أخذوا يعملون حيلاً شرعية.

ففي يوم السبت يوم الانقطاع عن العمل يفتحون الحُفر فتدخل لها الحيتان، ويوم الأحد يصطادونها، ولو آمنوا بلا إله إلا الله لرأوه قريباً رقيباً شهيداً عليهم ولما فعلوا ذلك، قال تعالى: ﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾[2].

حيث إن نفوسهم خبيثة ابتلاهم الله بهذا ليُخرج ما فيهم، كذلك كل إنسان لا يؤمن من ذاته بذاته هذا الإيمان فسيفعل مثلما فعلوا.

والذين مكروا هذا المكر من بني إسرائيل مُسخوا قردة وخنازير، ثم بعد ثلاثة أيام ماتوا، وكذلك الذين يسلكون مثل هذه المسالك فسيلقون المهالك فهم في أعمالهم يشبهون صفات القردة والخنازير والحيات عافانا الله منها.

---

[1] سورة الأعراف: الآية (١٤٦).

[2] سورة الأعراف: الآية (١٦٣).

فمن وقائع ذلك الإنسان الطاهر السيد محمد أمين... يتبيَّن لنا بمثال عملي ما كنا أسلفناه.

* * *

توفيت قريبة ثريّة من أقرباء السيد محمد أمين وكانت قد أوصت وصيَّها السيد أمين بذاته لثقتها بأمانته بالتصدُّق بمبلغ كبير من أموالها، قربات عند الله ورسوله ﷺ كصدقة عن روحها الطاهرة.

فقرَّر الذهاب إلى أحد رجال الدين ليدفع له تلك الصدقة لأنه أعرف منه بذوي الحاجة والاستحقاق.

وفعلاً ذهب ومعه كيس النقود الذهبية وطلب من رجل الدين أن يأخذا المال ويوزِّعاه على الفقراء والمحتاجين حسب معرفته، وعندما رأى ذلك الرجل ثقل كيس النقود بالأصفر الرنَّان ازدرد ريقه بصعوبة حتى صَعُبَ عليه النطق وقال بدهشة بالغة:

هل هذا كلّه ذهباً وتريد إنفاقه بكامله؟.

فأجابه: نعم ولِمَ لا؟. هيَّا بنا...

فما كان جواب مدَّعي التقوى والدين إلاَّ أن قال: ما رأيك بطريقة تنفق بها مالك هذا وبنفس الوقت يعود إليك؟. على أن تدفع مقابل ذلك عشر ليرات ورقية فقط، إذ كانت العشر ليرات تساوي ليرتان ذهبيتان إذ ذاك.

فدهش السيد محمد أمين من كلامه وسأله فرحاً مستفسراً وكيف ذلك؟.

فأجابه قائلاً: الآن أُرسل لك معْوزاً فقيراً من ذوي الحاجة فتعطيه المال وتقول له: خذ هذا المال صدقة عن روح المرحومة، فيأخذ الرجل المال ويقول: قبلته منك ووهبته إليك، وبالمقابل تدفع له الليرات العشر فيأخذ الفقير الليرات العشر ويصرفها على عياله عدة أيام "وقد كانت قيمة العملة أغلى من الآن بكثير"، وبذلك تكون قد أدّيت ما عليك من صدقة وعاد المال إليك وكسبت جزيل الأجر والثواب ولا ينقص من مالك شيء.

فدهش ذلك الإنسان الطاهر وردَّ على الرجل صاحب الحيلة الشرعية. قائلاً:

ولكن هذا الذي تحاول خداعه يا ترى هل هو حاضرٌ أم غائب؟. أي هل حضرة الله موجود مشاهد ورقيب يرانا ويرى خداعنا، أم ليس موجوداً؟.

فصُعق "رجل الدين" من تلك الإجابة ولم ينبس ببنت شفه، فاسترد الرجل الطاهر كيس المال منه، إذ لم يثق بأمانته بسبب المكر والخداع الذي دلَّه عليه.

وقرَّر توزيعه بنفسه على ذوي الحاجة والاستحقاق، وطفق يبحث عن المكان الذي يتواجد فيه هؤلاء المحتاجون، فأرشدوه إلى إحدى المناطق التي يتواجد بها أمثال هذه العائلات الفقيرة المدقعة بالفقر المستحقة حقّاً للصدقات، فوزع المال بيده على المستحقين المعوزين.

* * *

وهكذا فمن كانت غايته رضاء الله وحده فالله مؤيده ومرشده ودليله إلى سبل الصواب والحق الذي لا يُعاب، وحافظه من مكر الظلاَّم وأولاد الحرام.





قصتنا هذه حوت بصدرها عدة قصص تعرض جوانبَ مضيئة برّاقة... من حياة السيد محمد أمين... ومشاهدَ رائعةً من سلوكيته الذكية في البيت...

لنتابع هذه الحلقة مستمتعين مستفيدين سوياً برفقتكم...

* * *

إطلالـــة:

ذاك الزمان... زمان الطيب... والإنسانية وإن صحَّ لي التعبير دعوني أقول زمن الدراويش... فيه سرت تعاليم الدين الإسلامي فطبَّقها الناس رغبة ورهبة حتى ولو لم يعرفوا حكمتها، لكنهم طبَّقوها، فلا مكر وكاد ينعدم الخداع والغش وعاش الناس آمنين مطمئنين حياة البساطة والبسطاء، على مبدأ من يقول:

"من قلَّدَ عالماً لقي الله سالماً"... فلا سفور... ولا فسوق... ولا خروج عن حدود الله، بل سار الناس ضمن أوامر الله مقلّدين تقليداً.

كان بذاك الزمن رجال أطلق عليهم تسمية "المجاذيب" أولئك الذين فُقدُوا بتاتاً بهذا الزمان زمن المكر والغش... زمن الخداع والبعد عن الله: إذ كلُّ جذْب بهذا الزمان إنما هو جذب شيطاني.

* * *

عَودٌ عَلى بَدْء

بشـــــارة!!.

بينما كانت تلك المرأة تسير مثلها مثل بقية النساء في جلبابٍ أسود غطَّاها من رأسها لقدمها مرَّ بجانبها "مجذوب" في طريقها وهي حامل في أشهرها الأخيرة، فانفتل إليها ثم أردفها ضربةً... براحة يده على ظهرها وصرخ بصوت عالٍ:

معك وليٌ كبير... كبير... كبير...

وتابع ركضه مسرعاً يصيحُ بأعلى صوته وهو مشدوه من مشاهد غيبيّة هو يراها وثابر يصرخ: كبير... كبير... كبير... كبير.

سمعت نساءُ الحي بقصتها وبالبشارة... فأتينها مهنئات بهذه البشارة. إذ إن مثل هذا "المجذوب" وكان يُدعى ابن عابدين لا يكذب، بل إن الملَكَ ينطقُ بلسانه. كل الناس يعرفون ذلك ومؤمنون به. "وهذا ما سبق عَرضُه بالتفصيل".

وما أن هلَّ شهرها التاسع حتى وضعته... غلاماً زكياً.. جماله فتَّان لا مثيل له.. ذلك اليوم كان مولد العلاَّمة الكبير السيد محمد أمين الإنسان الطاهر.

ذكـاء أم إلهـام:

نشأ الطفل في أحضان أمه وأبيه، وكانت تصدر عنه تصرُّفات عجيبة مدهشة، فهو يتألَّق حيويَّةً ونشاطاً ويفيض خفةً وذكاء... حديثه... لطيف جميل جذَّاب حتى إنه وذات مرة بهذا الحديث اللطيف وبحركاته الذكية الحلوة أنام سايس الخيل ليُخرج الفرس الممنوع من ركوبها من قبل والده، إذ لا يزال في السن صغيراً... تعرفون قصته هذه.

وبسنٍ أصغر ذهب للإسطبل ليلاً ليجتمع بالجنِّيةِ التي سمع بها ويطرح عليها أمنيته... تعرفون ماذا كانت أمنيته؟. كان سيفرض على الجنيةِ أن تجمع له ملوك الأرض ليطرح عليهم الإسلام!!.

احتار والده بأمره فأي طفل هذا الطفل؟!. فازداد حباً وهياماً به وكذلك والدته.

* * *

خرج ذات يوم من غرفة والده بمنظر عجيب لفتَ نظرَ جميع الحضور لهذا الطفل ذي السنوات الثلاث...

تُرى ماذا شاهدوا حتى التفتوا إليه بذهول واستغراب!؟.

لقد رأوْهُ وقد لفَّ على رأسه قطعة قماشٍ بيضاء فظهرت "كلَفَّةِ" علماء الدين ثم أتبع فوقها قبَّعة "عسكرية" كانت لأخيه سليم وبيده عصا...

قالوا له هذا لا يمكن أن يكون... الإثنان لا يجتمعان عالم دين وضابط، (عالم ودركي)!!.

* * *

اليتيـــــــم:

عاش الطفل الرائع يوماً بعد يوم يزدان تألُّقاً وحياة ويزداد ذكاء وعبقرية تبدو منه أمورٌ وتصرُّفات وكأنها تصدر عن رجل ناضج خبير وأمور أخرى لم تَدْر أمه سرَّها.

فبعد أن انطفأت شمعة حياة "الوالد" الرجل الطيِّب ورحل مودِّعاً الدنيا بما فيها إلى الأبد، وما هي إلا مدَّةٌ من الزمن حتى شبَّ الأخ الكبير "سليم" ورحل إلى استنبول حيث مقر عمله فتزوج هناك من ابنة وزير الخارجية للامبراطورية التركية وبقي ذاك الطفل الرائع الشاغل الوحيد لوالدته... قلبها معلَّق به فهو وحيدها الأوحد وما لها سواه في البيت... يخرج للحي يحمل بيده جنزيراً "زرد حديد" يسوق أولاد الحي أمامه صاغرين خاضعين... كالشبل بينهم بصولته وجولته يسيطر بشجاعته وذكائه عليهم أجمعين... وآخرين منهم جذبتهم إليه لطيف معاملته وعطاؤه فباتوا له مقدِّرين خاضعين...

أما الأم فتخاف عليه وتبقى مشغولة البال طيلة غيابه عن البيت. فهو اليتيم الوحيد، وما من أحد ليدافع عنه إن دخل بشجارٍ وعراك أو اعتدى عليه أحد... "هكذا ظنُّها" فهي امرأة محجَّبة بجلبابها الذي يغطِّي وجهها كمثيلاتها من نساء ذاك العصر، لذلك لا تستطيع الخروج لتدفع عنه الشرور.

ولعلَّ صدقه العظيم ما جعل منه أسداً على أقرانه "الأولاد" كافَّةً، وهذا الانشغال والخوف عليه زادها تعلُّقاً به وميلاً إليه... فما أن ينتهي من اللعب حتى يعود للبيت فيتسلق جدار المنزل الذي كان ولا زال مشيَّداً

"يحي الورد" بعلوٍّ عدة أمتار ثم ينام على ظهر الجدار المرتفع!!. فتصرخ الأم خائفة مرعوبة... أي عمل هذا يا ولدي!!. أرجوك انزل... تعالَ...

تَتَلوَّع عليه خوفاً وتزدَاد له حبّاً وروحها به تتعلَّق أكثر... فأكثر... كيف لا وبأقلِّ حركةٍ قد يهوي من هذا الارتفاع الكبير، وإن حصل هذا لا سمح الله فلا بدَّ من الموت... عندها سيتركها للوحدة الموحشة... تترجَّاه... تتوسل إليه بأن ينزل... فلا مجيب، لقد نام قرير العين... تثور ثورتها وتقول:

قال لي المجذوب بأنه سيأتيني ولي كبير... ولكني أراه بهلواناً لا وليّاً.

لقد ملأ عليها حياتها بحركاته وحيويته الفائقة التي تطفح بالبشرِ والهناء والسرور...

حقّاً لقد كان مالئ الدنيا حوله وشاغل الناس...

* * *

رضاعة وعلاقة؟.

قال تعالى: ﴿ . .وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ. . ﴾[1].

السنتين تكفي لأن يصبح جسم المولود قادراً على الاعتماد على المأكولات... فحليب هاتين السنتين فيه كافة العناصر والمركَّبات الضرورية لبناء جسم الرضيع حيث يصبح قادراً على هضم وتمثل المأكولات المناسبة له بأسنان الرضاع، ومن جهة ثانية فهاتان السنتان من الرضاعة كافية لإقامة علائق المودة والحنان بين الأم وابنها.

فبهذه المدَّة تتوثَّق الروابط النفسية... من رحمة... وحنان... ومحبة بين الطرفين وذلك ما يريده الله تعالى.

وإن رضاع ما بعد السنتين تتوقف الفائدة للتركيب الجسدي والبنيوي نوعاً ما وتنمو الروابط وعلائق المودة القلبية "بين الأم وابنها"، إذ تزداد تعلُّقاً وحبّاً به... ويزداد هو حبّاً ووفاء لها ورحمة بها... فالله تعالى وضع قانوناً عاماً مدة سنتين لجسد الابن وذلك كاف لبنائه الجسمي.

---

[1] سورة لقمان: الآية (١٤).

أما السيد محمد أمين... بما أنه اليتيم الوحيد فقد بقي يرضع من والدته حتى أصبح بسنواته الثمانيَ... كان يأتي من المدرسة فيرمي محفظته ويركض إلى والدته ليرضع ثديها... فزادت به حبّاً وهياماً... وله تعلّقاً أكثر... فأكثر...

* * *

زواج مبارك وتدبير ذكي:

وما أن شبَّ السيد محمد أمين... ورأته أمه وقد أصبح شاباً يافعاً حتى زادت به حبّاً وتعلُّقاً... فَما لها بالحياة سواه تتمنّى أن تحل بها أمراض الدنيا ولا تصيبه شوكة في قدمه.

وكأي أم وخصوصاً إن كان ابنها وحيداً تحب أن تفرح به وتُزوجه، ولا يخفى على الجميع الغيرة الطبيعية التي تنشأ بين الأم وزوجة ابنها، ولا بدَّ أن الجميع لاحظَ ذلك.

فالعادة أن تكون الأم متشوِّقة... وعندها طلب كبير ليتزوج ابنها... وخصوصاً عندما يكون الذي ستزوجه هو ابنها الفريد ووحيدها... وإن قال لها غداً يا أمي ستنشأ الخلافات والصراعات بينك وبينها، فلماذا تستعجلين هذا الأمر تقول:

أضعها في قلبي... أو... فوق رأسي... "لها صدر البيت ولي العتبة"... لا عليك أنت يا حبيبي... فلا تحسب هذا الحساب أبداً... ودعه من فكرك.

وما أن يتزوج حتى تنشأ الخلافات والصراعات "الطبيعية" وذلك ليس بيدها فهي تتمنّى أن لا يكون... ولكن لا تجد نفسها إلا معادية... وبسبب الغيرة تحمل على زوجة ابنها.

أما تأويل هذه الظاهرة فهو أن الأم تحسُّ في قرارة نفسها وتظنُّ أن ابنها فُقِدَ من يدها... فهي التي تحبّه أكثر من زوجته... وتأتي زوجته الغريبة فتسرقه منها؟!!. هذا الإحساس والشعور يُنشئ في نفسها غيرة... فعداوة للزوجة، وتقف لها كندّ دائماً بالمرصاد... وتنشأ الخلافات...

* * *

جاءت الأم لابنها الشاب السيد محمد أمين... معيلها الوحيد في الحياة... ونور عينها وقالت: يا روح قلبي... يا أملي... يا مناي... يا رجائي... أريد أن أفرح بك وأزوّجك... أريد أن أرى "كتاكيتك" صغارك قبل انتقالي من هذه الحياة الفانية.

عند ذلك... استجاب لرغبتها "فالأمر لا بدَّ منه":

أمي... لَكِ ما تريدين، فما لي بالدنيا سواك "يا حنونة قلبي".

ثم انحنى ليقبّل يدها.

فقالت له... ودموعها تنهمر كالمطر الغزير من شدة الفرح... إذ ستفرح به عمّا قريب، فخاطبته قائلةً: الله يرضى عليك يا عيوني... يا قلب أمك.

وما هي إلا مدة من الزمن حتى تمَّ الاختيار المناسب لشريكة الحياة وجرت الأمور اللازمة، ثم وبعد نهاية مراسيم الزواج المبارك أحضروا العروس وكان الزفاف... انفضَّ الأحباب والأصحاب.

ودخلت الأم (السعيدة بزواج ابنها)... غرفتها تكاد تطير فرحاً فلقد زوَّجت أملها... وحبيبها... ونور حياتها... وكانت قد أدخلت الزوجة الجديدة لغرفتها الجديدة... المفروشة بالفرش والأثاث الجديد مُباركةً لها بألطف وأعذب الكلام...

أما السيد محمد أمين ذلك الملهم الذي يطفح بشراً ويتوقَّدُ ذكاءً نيِّراً... فقد خالف العادة والقانون فلم يدخل كأي زوج جديد... على زوجته... بل ذهب لغرفة والدته... فتح الباب... ودخل لا تبدو عليه أية فرحة وسرور بهذا الزواج.

نظرت إليه والدته مستغربة مستفسرة: ابني حبيبي لماذا أتيت إلى هنا... تركت "محبوبتك" زوجتك وجئت لعندي؟. فهل تريد شيئاً؟.

قال السيد محمد أمين: لا يا أمي، ولكني أحب أن أجلس معك لا أفارقك...

ردَّت الأم: لا يا بني... هذا لا يجوز... تترك زوجتك وبهذه الليلة؟!. هيا انهض واذهب إليها...

فردَّ السيد محمد أمين: لن أذهب لها يا أمي لن أذهب... فأنا لا أريدها... رائحتها نتنة... قذرة... لا أريدها... لا أريد أحداً من هذه الدنيا سواك يا غاليتي... أريدك أنت فقط... ولا أريد بديلاً عنك...

فقالت وهي خائفة من كلام الناس: فماذا سيتكلَّم عنَّا الناس؟. فهل بنات الناس لعبة نلعب بها!.

قالت والخوف قد بدا على وجهها: ابني حبيبي... يا نور عيوني قد طفح الكيل... فماذا سيتكلَّم الناس بحقِّنا إزاء هذا التصرُّف... يا ابني الله يرضى عليك اذهب لزوجتك وغداً تعال عندي...

ردَّ عليها السيد محمد أمين: لا يا أمي لن أذهب لها فأنا لا أحبُّها... لا أحبُّ بهذه الدنيا سواكِ يا أمي الحبيبة.

صمتت إذ رأت أن لا جدوى من النقاش... ثم نهضت فتناولت يده تشدُّه للأعلى... فنهض وما أن نهض حتى وضعت راحتيها على كتفيه تدفعه للباب... فقاومها مُظهراً بأنه لا يريد الخروج من غرفتها... فثابرت على دفعه وقاومها حتى أخرجته من الباب... وحاولت إغلاقه بكل ما أوتيت من قوة، أظهر بأنه لن يستسلم واستمر مقاوماً... يدفع الباب محاولاً العودة... وهكذا... وأخيراً استطاعت أن تُغلق الباب وتوصده... وبقي السيد محمد أمين على الباب... يدقُّه ويطلب راجياً بأن تفتح له الباب فأبت... عندها غادر لغرفته الجديدة...

ضابطنا الشجاع الذي هدَّ... عروش الإجرام والباطل... فصرعهم وغلبهم الواحد تلو الآخر... أمهُ تغلبه وتُخرجه خارج الغرفة!!.

بهذا التصرُّف الحكيم الذي كرَّره لعدَّة أيام متواصلة جعل أمَّه تشعر في قرارة نفسها أن ابنها لها... لم ولن تستطيع الزائرة الجديدة... "أي زوجته" أن تسرق قلبه منها... فهو لا يحب بالدنيا سوى أمه... وبذلك لم ينشأ ذلك الشعور المعاكس الطبيعي... وبالتالي لم تظهر الغيرة... ولا الخلافات...

* * *

جانب اللوازم والألبسة:

ومرَّت الأيام وانقضت بتخطيط ذكي لكل شاردة وواردة ليتحاشى أي موقف لا تُحمد عقباه بين أمّه وزوجته... لإدراكه الحقّ بأن ما وراء الشجار إلا التعاسة... والكآبة... والأحزان وبالوفاق والمحبة أمان... وسعادة... واطمئنان... والسيد محمد أمين لا يحب الشقاء لأحد، بل يريد الكل أن يرفل بثياب السعادة... والهناء.

ولكي يزيد من هذه المحبّة التي أنشأها بتخطيطه المحكم وتدبيره العبقري... ولكي لا تتخللها الغيرة، غيرة أمه "الطبيعية" عليه من زوجته فتفسدها... شرع إلى تنفيذ مخطّطه الرئيسي الثاني فبادر إلى السوق واشترى لأمه من جميل الألبسة واللوازم وغيرها وعاد بحقيبة من هذه المشتريات... فدخل البيت على حين غفلة من أهله ودخل إلى غرفة والدته ليتحفها بما اشترى لها من هدايا... سُرَّت الأم كثيراً... كثيراً وطارت حبّاً وفرحاً بما قدَّم لها... وعلمت كم هي غالية على قلب ابنها الحبيب...

ولكن وبعد لحظات وما أن صحت من سعادتها وفرحتها حتى سألته:

ابني... وزوجتك أَمَا اشتريت لها؟.

ردَّ السيد محمد أمين عليها: أمي... غاليتي... حبيبتي المهم أنت يا أغلى الغوالي... وأعز أم في الدنيا، أمَّا هي... فأنا لا أحبّها رائحتها مقرفة فهي وشأنها.

وما أن خرج من غرفة أمّه حتى أسرع لزوجته ليعطيها نقوداً قائلاً لها:

خذي هذه النقود وأوصي والدتك لتشتري لك ما يلزم من أغراض ولوازم...

عندها... طار قلبها فرحاً وسروراً بما قدَّم لها وباهتمامه البالغ بها... فهذا ما تريده... إذ أمها هي التي ستشتري لها لوازمها.

وفي اليوم الثاني خرجت الأم... من غرفتها تراقب الوضع... فلم تلاحظ على زوجة ابنها أية قطعة جديدة من ثياب "أرواب" أو غيرها... حتى إنَّ حذاءها لم يتغيَّر فهو القديم ولا جديد... على الساحة أبداً... فمضى اليومان والثلاثة وما من جديد... عندها أدركت الأم بأنه لم يشترِ لزوجته شيئاً... فثارت عاطفتها وشعرت برحمة كبيرة في قلبها على تلك المسكينة المظلومة "زوجة ابنها".

قالت بنفسها: أنا أنعم بكل جديد وجميل؟. وتلك المسكينة ما تزال بالقديم ولا قطعة لباس جديدة!. ولا غيرها... مسكينة.

عندها أسرعت لابنها السيد محمد أمين حزينة وقلبها ممتلئٌ بالحبِّ والحزنِ على زوجته، ثم قالت: يا ابني هذه ابنة الناس فلا يجوز لك أن تتصرَّف معها هكذا تحرمها من كل جديد... لا... لا... لا يا ولدي الغالي... الله يرضى عليك اشتري لها ما يلزمها...

ردَّ عليها السيد محمد أمين بلطف: المهم أنت يا ست الحبايب... يا أمي الغالية فدعيها وهي وشأنها... فهي لا تستحق شيئاً، أنا لا أحبها رائحتها مقرفة...

فسألته: إذن لِمَ تزوجتها؟. فلم يُجِبْ.

ولم تمضِ إلاَّ أيامٌ قلائل... حتى ذهبت الزوجة إلى بيت أهلها وأوصت أمها لتشتري لها ما يلزمها من ألبسة وأغراض... وأعطتها المال.

هنالك وعدتها أمها بأنها ستأتيها بما ستشتريه غداً بعد العصر.

عادت الزوجة لبيتها بعد أن أنهت زيارتها لأمها... سألها إنساننا الرحيم السيد محمد أمين: هل أوصيت أمك باللوازم... والأغراض؟.

قالت: نعم...

قال: ومتى ستحضرهنَّ لك؟.

قالت: غداً بعد العصر.

وفي اليوم الثاني وقبل الموعد بقليل دَخَلَ السيد محمد أمين لغرفة والدته... فجلس معها... وما هي إلاَّ برهة من الزمن حتى قُرِع الباب... فقال لوالدته:

تُرى... من على الباب؟.

نهضت الأم قائلةً: سأذهب وأستطلع... أما الزوجة فخرجت مُسرعة لمعرفتها بقدوم أمّها الآن... فهذا موعدهن.

فتحت الباب واستقبلت أمَّها التي تحمل صرَّةً كبيرة من الأغراض... وعندما أطلَّت الوالدة من شرفة الدور الثاني المطلَّة على أرضِ الديار العربي... فشاهدت زوجة ابنها وأمها التي تحمل لها صرَّة كبيرة من اللوازم من الثياب... عندها عادت لابنها "الذي يعرف من أتى"، وقالت له:

إنها امرأة عمِّك... وقد أحضرت لابنتها صُرّةً من الثياب الضرورية... وضمناً كانت فرحة لأن ذلك يوفِّر المال على ابنها.

هنالك وما أن سمع ذلك حتى انتفض منزعجاً غاضباً لهذا الأمر قائلاً:

هل نحن بحاجتهم حتى يُحضروا لنا ذلك!. وهمَّ غاضباً يريد النزول لهن ليُوبِّخهنَّ على هذا العمل ويكيل لهم الشتائم ويطردها من البيت... فأمسكتْه... ممانعةً قائلةً:

بنيَّ أنت لا تحضر لها لوازمها، وفوق كل ذلك لا تريدهم أن يأتوا لها بلوازمها وأغراضها... فهل هذا معقول منك يا بني!؟.

عندها هدأت ثورته وعاد ليجلس غاضباً.

* * *

لقد أصبحت أمُّه من أشدِّ المناصرين والمحبِّين لزوجته المظلومة بنظرها وبما أثار بقلبها من رحمة وعطف وحنان بتصرُّفاته الإنسانية الذكية هذه والتي كرَّرها مراراً بوجوه مختلفة... وبذلك لم يسمح للغيرة بالنشوء، بل أنشأ علائق رحمة ومحبة، وحنان... انعكست بأفضل معاملة عاملتها لزوجة ابنها التي رأت ذلك... وشعرت بعظيم لطفها ومحبتها لها فبادلتها بمعاملة راقية لطيفة طافحة بالحبِّ... وبهذا كانت تزداد علاقة المحبة والتآلف والتراحم بين الاثنتين فلا تظهر إلاَّ علاقة أم بابنتها الوحيدة...

* * *

من جهـــة الطعـــام:

ذات يوم ذهب للسوق وأحضر /٢/كغ لحمة مشوية ثم قسمها قسمين... كيلو غلَّفه بمفرده لأمِّه والباقي على صينيةٍ مزدان بالمقبلات واللبن يحمله خادم المطعم الصغير.

دخل المنزل وقت الغداء... فأمُّه بغرفتها "وقت الظهيرة" وزوجتُه بغرفتها فأعطى زوجته حصَّتها. وقال لها:

أحضري بعض النواشف من زيتون وزعتر وزيت وما شابهه مما في البيت وضعيه تحت السرير... فإن شعرتِ بقدوم والدتي فأخفي اللحمة والمقبّلات واللبن تحت السرير، واسحبي المائدة البسيطة "من زيتون وغيره..." وأظهري لها بأنك تأكلين هذه المأكولات البسيطة...

أجابت زوجته: كما تريد، أيها العزيز.

ثم دخل غرفة والدته فسلَّم عليها وقبَّل يدها وقال لها: هيا يا أمي لنأكل معاً... فقد أحضرت لك لحمةً مشوية ومقبِّلات.

نهضت الأم فرأت مائدة شهية وجلسا على الطعام لكنها تذكَّرتْ قائلة: أينَ زوجتك يا ولدي ألا تناديها لتُشاركنا هي وابنها الصغير!.

فردَّ السيد محمد أمين: دعيها وشأنها يا أمي فالمهم أنت...

ردَّت: ولكن يا بني ماذا ستأكل هي...

قال السيد محمد أمين: لتأكل ما تشاء من البيت وما فيه...

قالت الأم: لا يا بني لا يجوز أن تعمل هكذا بِبنت الناس... فما أجاب، بل أكلا سوياً... ثم تركته ونهضت ذاهبةً لغرفة زوجة ابنها... وما أن شعرت الزوجة بقدوم والدة زوجها... حتى دفعت بصينية اللحمة تحت السرير وسحبت المائدة البسيطة لتأكل منها...

فتحت الأم الباب ونظرت فرأت تلك "المسكينة"... تأكل الزيت والزيتون... عندها ثارت مشاعر الرحمة بقلبها... والعطف... فأغلقت الباب بهدوء عائدة... حزينة... متألمة لوضع هذه المسكينة... فهل هذا يجوز أن آكل اللحمة المشوية من تلك السفرة الفاخرة... بما فيها من فواكه ومقبِّلات... وتلك الكنة المسكينة مقتصرة على الزعتر والزيت والزيتون!.

قالت لابنها: لا يجوز هذا يا ولدي... والله لا يجوز أن تحرم زوجتك المسكينة... قالتها وقد فاض قلبها بمشاعر كبيرة من الرحمة والحب لزوجة ابنها التي أصبحت بمثابة ابنتها الوحيدة بفضل تدبيرات ابنها الحكيم ذي القلب الرحيم السيد محمد أمين.

هنا زاد يقينها أن ابنها لم تسرق زوجته قلبه منها فهو لأمه... ولا يحبُّ سواها... بل إنه لشدة محبته لها يحرم زوجته ويظلمها... وحسْبُها أن هذا لا يجوز... فتثور مدافعة عنها بمواقع كثيرة وعديدة... وهذا دائماً ما يفعله السيد محمد أمين بتدبيراته الإنسانية.

وهذا غيض من فيض من أمثالِ ذلك التصرُّف الرائع ذي النتائج المدهشة... حتى جعل العلاقة بين الاثنتين علاقة أم بابنتها، وعلاقة ابنة بأمِّها... فسادت المحبة والرحمة بينهن... وظهرت بمعاملة لطيفة ودِّية راقية بين الاثنتين وعاشتا متآلفتين بغاية السعادة لا ينغِّص حياتهنَّ منغِّص... فلا خلاف ولا نزاع... إلا ذاك النزاع الذي وقع من قبل ولم يتكرَّر:

* * *

في إحدى المرّات تدخَّلت الوالدة المسنَّة في أمور لا تعنيها... هذا لا يجوز... وذاك لا يجوز... ثم أفرطت بالتدخُّل، أما الزوجة المسكينة فصبرت وصبرت... حتى ضاقت ذرعاً بصبرها... لقد "طفح الكيل" ولم تعد تحتمل من امرأة عمّها تدخُّلها فردَّت عليها محاولة ثنيها عن تدخلها:

مالَكِ ومالي يا حماتي... اتركيني وشأني أرجوك... من أجل الله اتركيني... ومن كلمة لأخرى زادت الأمور حدّةً والمشكلة عقدةً... رجل البيت غائب فما يزال بدوامه اليومي وما من أحد يحول بين الطرفين ويقضي أو يمنع تضخُّم هذا الخلاف المشؤوم...

وأخذت المشكلة تتضخَّم أكثر فأكثر إلى أن وصل الأمر إلى السبِّ والشتم.

لقد بدأت الحماةُ تسبُّ وتشتم زوجةَ ابنها... يا إلهي... يا إلهي هذا أمر لا يُطاق... لم تعد الزوجة تحتمل ذلك الوضع بتاتاً.

عند هذا الحد اندلعت ثورتها وانفجرت براكين غضبها وكوامن صبرها وردَّت على حماتها بكلمات سبٍّ وشتائم كبيرة... فكبُر على حماتها الأمر هكذا إذاً إنها تردُّ عليَّ وتشتمني... أنا حماتها الكبيرة وتشتمني!!.

زادت الشتائم والمسبَّات بين الطرفين وتصاعدت حدة الخصومة إلى الأوج فقد وصلتا لحدٍّ أُفلت فيه زمام نفسيهما وانفجرت ثورة غضبهما على أشدها، فما عادتا وفَّرتا أي كلمة سبابٍ وشتيمة رديئة إلا ونعتت بها كل واحدة منهما الأخرى... وما بقي إلاَّ الاشتباك.

إنها المرة الأولى والأخيرة التي يصل بهما الأمر لهذا الحدّ!!.

عندها وفي ذروة الخلاف وأوْجِ الشتائم والسُبَابْ وصل السيد محمد أمين البيت عائداً من دوامه...

فتح الباب وما أن وضع رجله داخل عتبة الديار حتى ويا لهوْل ما استقبلت به أذناه من كلام وصراخ لم يعهده قط منهما... إنها شتائم!!. وبكل أنواعها وأقساها!!.

نظر فرأى أمَّه وزوجته وقد فلتت زمام الأمور لديهما فوقفتا لبعضهما بالمرصاد كل منهما تردُّ الصاع صاعيْن للأخرى بثورة وعصبية استوقفت التفكير وأطاحت بالقيَمِ والمبادئ والمعايير!!.

هاله ما سمع بأذنه ورأى بعينه فوقف للحظات متحيّراً لهذا المشهد الغريب الذي ما عهده من قبل، خلال ذلك ومن بعض كلمات الاتهام وإلقاء الذنب التي سمعها من الطرفين أدرك حقيقة الأمر... فالاعتداء قد بدر من والدته والذّنب في هذا الخلاف هو ذَنبُها ولكنها تبقى والدته ولا يستطيع أن يوجه لها أي كلمة إدانةٍ واتّهام وهي كبيرة بالسنّ، بل يستحيل ذلك.

أما زوجته فلقد ضاقت ذرعاً بواقع الاعتداء هذا وأحسَّت بظلم كبير وأنه اعتداء واضح، عندها لم تعد تحتمل ذلك وفجرت بحق أمّه للمرة الأولى، ولذا لا يستطيع أيضاً أن يظلمها فوق ظلمها ويؤنّبها أو يزجرها ويردعها أمام أمه.

وما هي إلاَّ لحظات قضاها حتى وبنباهته المعهودة وعبقريته الرائعة وصل لحلٍ سريع... كانت الخصومة لا تزال قائمة على أشدِّها فانقضَّ باتجاه زوجته وبسرعة كبيرة حملها قسراً وجرى بها إلى غرفته... دخل باب الغرفة فوضعها على السرير، ثم أوصد الباب. كان لا يزال بلباسه العسكري الكامل والسوط بيده.

عندما أصبحت داخل الغرفة صمتت ولكنها ما تزال بثورة غضب كبيرة وعصبية شديدة. نظر إليها قائلاً: أضرب ضربة واحدة بهذا السوط... وبالمقابل لك ليرة ذهبية...

ولكن أنَّى لها أن تقبل، فما فجرت بحقّ حماتها ذاك الانفجار وردَّت لها الصاع صاعاً إلا لإحساسها بظلم وتعدٍّ كبير من قبل حماتها ذاك الذي أفقدها السيطرة على نفسها الثائرة، فقابلت حماتها بما قابلتها به... والآن وفوق كل ذلك يريد منها أن تصرخ على أنها تلقت جلدةً كعقابٍ وهي المظلومة، لذلك رفضت هذا العرض، فما تعانيه من إحساس بالظلم ومن غضب وأحزان لا يزيله الذهب بنظرها.

زاد عرضه وقال: خذي ليرتين ذهبيتين مقابل ضربتين... ها... فما رأيك؟.

وكذا بقيت مصرَّة على رفضها لهذا العرض... عند ذلك وبدرايته وحكمته الرائعة قال مهدِّداً... طيِّب... إن لم ترضِ بما أقول فسأعمل بأهلك مثلما تعملين بأمي.

عندما سمعت ذلك التهديد... أهلي... يعمل بهم مثلما عملتُ بأمِّه!!. لانت خائفة وتراجعت عن رفضها مُعلنة قبولها بسرعة:

موافقة... موافقة ولكن هل تمنحني الليرتين الذهبيتين؟.

أجاب بالإيجاب: نعم.

حمل السوط وبكل ما أوتي من قوة ضرب على السرير فصدر صوت جَلْدٍ قوي دوى صداه في البيت كله.

سمعت الوالدة صوت السوط... تبعه صوت الزوجة... كان صوتُ متألِّمة حقيقي، لقد أفرَغت بهذا الصوت شحنةً كبيرة من ثورة غضب قوية وحزن وانزعاج شديد معنوي ذلك الذي كان يقطِّع نفسها ألماً والآن وجدت تفريغاً وتصريفاً لما يؤلم نفسها بهذا الصوت فصدر صوتٌ ربما لو كان ناشئاً عن ألمِ تلقي سوطٍ حقيقي لا ألم إحساس بالظلم والأحزان... لكان أخفّ ولكان صدى وقعه بالآذان أخف بكثير.

سمعت الأم صوت سوط الجلد القوي فوضعت يدها على فمها مُستغربة أشدَّ الاستغراب مذهولة وقد ارتسم على وجهها تساؤلٌ قويٌّ: أَمعقول أن يعملها؟. (أي أَمعقول أن يضربها بالسوط؟!.).

فجاء الجواب بنفس اللحظة وذلك عندما تبعه صوت المقهورة المؤثر القوي ذاك الذي صرخته الزوجة: يا للهول!!. يا للهول!!. لقد ضربها إذاً... بالسوط!!.

يا إلهي... يا إلهي... إنها كارثة وقد تحقَّقت... أَوَصل به الأمر ليضربها!!.

آه... ليت لساني قُطِع قبل أن أكلِّمها أي كلمة وعتاب... ليت... ليت... وزعقت صارخةً: لا يا بني.. هذه بنت الناس لا يجوز أن تُضرب.

(فالمعروف قديماً بالشام أنه لا يجوز ضرب الزوجة أبداً مهما كانت الأسباب.. فهذه شريكة حياة... فإن لم يتم الاتفاق بين الطرفين فالطلاق لا الضرب... فالضرب للحيوان لا للإنسان، وهذه الزوجة إنسانة لا تُضرب "كان هذا بقاموس أهل الشام القُدامى" والذي يضرب زوجته سوف يُضرَّس بأنياب ويوطأ بميسم فكل الناس ستكرهه وتتكلَّم عنه بأذم الصفات وأشنعها ويصبح مُحتقراً من قبل الجميع)، فركضت مسرعة تناديه مكرِّرة:

يا بني توقف، فابنة الناس لا تُضرب... هذا لا يجوز... بنت الناس لا تُضرب.

ركضت وهي تكاد لا ترى طريقها إلى باب الغرفة الموصد وبطريقها طرق مسامعها صوت السوط الثاني الذي تبعه صوت الزوجة المكبوتة، وكان لا يقلُّ عن الصوت الأول قوةً وتأثيراً، فلقد خرج من قلبٍ تنفَّس عما كان فيه...

عندها لم تعد تحتمل ما تسمع... يا إلهي... يا إلهي أَوَصل به الحد أيضاً ليضربها ثانيةً... ماذا سيقول الناس... نَسيتْ كلَّ خصام حدث منذ لحظات وباتت تريد تخليص الزوجة المسكينة من يد ابنها الظالم بنظرها لزوجته وتخليصه ممَّا سيجرّه لنفسه بفعله هذا... أهكذا يضربها... يضرب زوجته!!. وبالتالي سيشوّه سمعته... كيف سيواجه الناس!!.

وصلت الباب باندفاعها لتتدارك الموقف وكانت عندما سمعت بقرقعة صوت السوط على جسد كنَّتها "كما تصوَّرت" قد أطلقت من فمها دعوة على ابنها، عندها فتح الباب بقوة وانزعاج وخرج من الغرفة بسرعة شديدة كالأسد المزمجر حاملاً بيده السوط وترك لها المجال لتواسي زوجته وخرج من الدار.

دخلت أمه إلى الزوجة المسكينة التي انفجرت بكاءً زفرت به الآلام والأحزان التي كانت مشحونة بقلبها...

أقبلت حماتها عليها مُسرعة وبقلب حنون رحيم تحاول إرضاءها بألطف الكلام وأعذبه... يا ابنتي هذا لا يفكِّر... فتحمَّليه... يا ابنتي حقّك عليّ فأنا المخطئة بحقِّك أنا... سامحيني... ثم ضمتها إليها تحنو عليها وتواسيها بأرق الكلام وأحسنه.

كانت الزوجة لا تزال تبكي وتبكي، تسمع كلمات حماتها اللطيفة فينشفي قلبها لانكسارها ولانتصارها عليها بالتمثيل:

يا ابنتي لا تؤاخذيه... مخطئ... وصارت تسعى لإرضائها بكل أسلوب لين بأعذب الكلام وأحلاه خشية أن تذهب لأهلها فتقصَّ عليهم ما جرى من ضرب زوجها لها، وبالتالي ينتشر هذا الخبر بين الناس وتتشوه سمعة ابنها المعروف بصلاحه وطيب صيته العطر وسمعته العالية...

ولمدة طويلة من الزمن بقيت بجانبها تواسيها... تلاطفها... تحنو عليها...

أما السيد محمد أمين فكان قد خرج من البيت مباشرة وعلى ثقة تامة بالله بأن نتائج خطّته هذه ستتمُّ على خير ما يرام...

وبالفعل فقد مسحت وأزالت تلك الكلمات اللطيفة الرقيقة مع الدموع السخية التي ذرفتها "الزوجة" كل حزن وألم وأدركت أنها ساعة غضب ومرت... والحمد لله... فقد عادت الأمور لمجاريها الوديَّة وتدفقت الحياة ثانية بالمحبة بين الاثنتين بعد هذا التوادد والملاطفة.

عاد السيد محمد أمين من بعد عصر ذلك اليوم فوجد أنهما أصبحتا وكما يُقال: "كالسمن على العسل" فحمد الله كثيراً، أما أمه فكانت تنظر إليه نظرات حادة... لعلَّها نظرات تأنيب على ما فعل!!.

ولقد أدركت من بعد ذلك أن ابنها رجل قاسي على زوجته وظالم لها... فهو لا يُطعمها مثلما يُطعم أمه فدائماً يفضّل أمّه بألذ الطعام وأشهاه، أما تلك المسكينة فبعيدة كل البعد عن ذلك الدلال!!. وكذا يشتري لأمه أجود وأفخر الألبسة، أما هي فمحرومة ولولا أهلها لكانت بحالةٍ يُرثَى لحالتها!!.

فهل هو زوج يحب زوجته ويودُّها!!. وفوق كل ذلك يصل الحد بمعاملته ليضربها وبالسوط!!. فأيّ ظلم وقسوة تلك التي يُعاملها بها... إنه حقّاً لا يحبّها مُطلقاً... وكأنَّ والدته أجبرته بها كزوجة عندما اختارتها له؟!. فهذه بنت الناس ومن الواجب عليه أن يُعاملها المعاملة الحسنى الجيدة... ولكن؟!.

كل تلك النتائج والتساؤلات اكتشفتها وأدركتها تماماً وأدركت أيضاً أنها إن لم تقم دائماً بمناصرة تلك المسكينة (زوجة ابنها) ودعمها والدفاع عنها فستلقى ظُلماً كبيراً من زوجها الذي يحبّ والدته فقط ولا يحبّها.

وبذلك صارت دائماً تحاول تحصيل جميع حقوق هذه الزوجة من ابنها وتساندها دائماً وتحنو عليها ودائماً تقف معها موقف المدافع، وإن رأت منها أخطاءً صدرت فتعفو عنها صفحاً: مسكينة فوق ما هي فيه من ظلم ومعاناة تحاسبها على أخطائها؟!. لا... لن تحاسبها أبداً...

وبذلك سادت المحبة بين الطرفين وأصبحتا كالأم وابنتها تماماً... أصبحت "حماتها" عن حق "تحميها وتدافع عنها"...

وبهذه العبقرية وهذا التفكير المبدع ألَّف بين (الكنَّة والحماة) وأصبحت الأم تنادي... زوجة ابنها "يا ابنتي".... والزوجة تُنادي حماتها "يا أمي"...





ناقوس الخطر يدق فالمجرمون قد أجمعوا أمرهم وقرَّروا القضاء على ضابطنا السيد محمد أمين... فهل ستكون نهاية ضابطنا... أم أن الله سيعصمه ويحميه؟.

تابع معنا عزيزي القارئ هذه القصة المثيرة...

* * *

لقد كرَّس ضابطنا الشجاع وقته للقضاء على المجرمين وتطهير الشام منهم والخلاص من سيء أفعالهم وأعمالهم اللاإنسانية...

أقسم ذلك اليمين بينه وبين نفسه مُعاهداً ربَّه منذ أن تخرَّج من كلية عنبر العسكرية كضابط، أقسم على أن لن يهنأ له عيش ما دام الباطل يسري ويرتع فسَيُسَخِّر كل ما أُوتي في سبيل القضاء عليه ناصراً الحق مُقيماً العدل، ومضى يعمل بذلك...

كانت تلك الفترة هي عصر المجرمين والإجرام الذهبي ولا يأمن المرء على نفسه بعد غروب الشمس واختفاء النور إلاَّ أن يلزم بيته...

وما أن استلم السيد محمد أمين منصبه واستلم كافة الصلاحيات ليزاول عمله حتى هجر المنام، فكان يخرج صباحاً إلى عمله ولا يعود إلا بعد الفجر بقليل لينال قسطاً بسيطاً من النوم بعد أن أمضى سحابة نهاره

وليله بملاحقة المجرمين يقتحم عليهم مخابئهم ويدمِّر مخططاتهم، يُبطل أعمالهم الإجرامية حتى أدَّبهم ولم يبقَ منهم إلاَّ القليل /٢٠ أو ٣٠ مجرم/، كان يؤدِّبهم بنفسه، إذ وجد أنه عندما يبعثهم للسجن يلجؤون للرشاوي والوساطات والمعارف ليتم إطلاق سراحهم بالقضاء، وبالتالي يبقون على ما هم عليه من بلاء مسلّط على الناسِ وعلى أنفسهم.

وعلى سبيل المثال لا الحصر كان ينصب الكمائن على طرق المجرمين عندما يعودون مخمورين سُكارى، فيُفاجئ السكران حيث تنقضُّ عناصرهُ عليه فيرْموه أرضاً ويضعوا "الفلقةَ" يربطون بها قدَميْهِ فيجلِده حتى تسيلَ الدماءُ من قدميه، عندها يفكُّ وثاقَه ويخاطبُه: عزيزي أيها السكِّير الخبيث أرجوك أن تخْمر وتسْكر كلَّ يوم وأنا في انتظارك لأرحب بك مثل هذا الترحاب الجميل... والمجرم يتأوه ويبكي ولكن هيهات هيهات وقلَّ أن يعود. وبذلك يكون قد كفَّ أذاه عن الناس.

فهذا مثال بسيط من أساليب ضابطنا التي يتبعها مع أمثال أولئك.

نعم لقد حاصرهم بكل مكان وسدَّ عليهم الدروب واقتحم عليهم دور الفجور حتى دوَّخهم وشتَّتَ شَمْلَهم ففرَّ قسمٌ منهم إلى العراقِ وآخرون قابعونَ في السجون، وآخرونَ تائبون. عندها جمع البقيَّةُ الباقيةُ من المجرمين شتاتَ شَمْلِهِمْ ليتدارسوا أمرهم، إذ باتوا بخطرٍ عظيم يتناقشون بوضعهمُ الراهن التعيس علَّهم يجدوا حلاًّ.

وفي الاجتماع دار النقاشُ بين المجرمين: أينَ أيام مجدنا وبطولاتنا التي ما عدنا نحلم بها!. أيام كنا إذا خرج أحدُنا إلى السوق فيغلقه. كانت الناسُ تُخلي الشارع إذا رأت أحدَنا... آه على تلك الأيام... أيام عزٍّ وقوة... أما الآن أصبحنا يا رجال نريد "سلتنا بلا عنب" فهل هذا الوضع يُطاق... يا حيف على الرجال... يا حيف.

رجلٌ واحدٌ يشتِّتُ شمْلَنَا ويهدُّ قوَّتنا يكسِرُ شَوْكَتَنا لا... لا... لا نكاد نصدِّقُ ما يحدث، نريدُ حلاً لهذا الوضعِ اليومَ وقبل الغدِ، سنقتله مهما كلَّفنا الأمر ولو ذهبت منا الضحايا في سبيل الخلاص منه فلا يهم، المهم أن نتخلَّص منه ولو كلَّف ذلك قتل رجل أو اثنين أو ثلاثة وحتى أربعة، فهو واحد ونحن كثيرون فالمهم أن نحقِّقَ هدَفنا ونعود لعزِّنا ومجْدِنا أسياداً على الناس لا مَسُودين والعزَّة لنا.

توصلوا إلى هذا القرارِ منتصفَ ليلةِ انعقادِ مؤتَمَرِهم وتآمُرهم على قتل ضابطنا باني صرحِ العدالةِ والاطمئنانِ في ربوع الشام، مهبط الأنبياء ومهد الرسالات السماوية.

* * *

كان السيد محمد أمين قد عاد لبيته وأوى إلى فراشه، إذ شاهد أن الأمن والأمان مستتبّ ولا حاجة لاستنفاره كالعادة طوال الليل... فقدِ انهدَّت صروحُ المجرمينَ وسادَ الاطمئنانُ.

ولكنْ يا للغرابة... فلقدْ أحسَّ بضيقٍ شديدٍ كأن حبلاً يضيِّق الخناق على رقبته.

ضابطنا: خيراً إن شاء الله... خير!. لعلَّ هناك خطأً قد حدثَ بالقسمِ؟. عليَّ أن أذهبَ مباشرةً لأطَّلع على الأمور وأتداركَ الأخطاءَ إن وُجِدَتْ.

نهض من فراشِهِ ولبسَ بزَّتَهُ العسكرية مصطحباً سلاحَه ومشى إلى القسم مسرعاً وزوجته نائمة لم تعلم بذهابه.

وفي الطريق التقى برجلٍ مخمورٍ متثاقلٍ يرتطمُ بذي الجدارِ، ثم يصطَدِمُ بجدارٍ آخر وهو يتمايل يمنةً ويسرة ويكاد يقعُ ثم يتماسكُ متراقصاً كورقةٍ في مهبِّ الريح... إنه نفس الشخص الذي أدَّبه منذ بضعة أيام مضت... صفعةُ صفعةً أتبعها بأقوى منها حتى صحا قليلاً من سُكْرِهِ وعاد إلى صوابِهِ فوعى ما يقول، عندَها كلَّمه موبِّخاً: ألم تتبْ وتعاهدني على التوبة، أَرجعت لشربِ الخمور والسكر؟.

ثم تركه وتابع طريقه مسرعاً في مشيتهِ للقسْم ليطمَئِنَّ على الأوضاع هناك.

أما المجرمون فقد أنهوا اجتماعهم وخرجوا لتنفيذ قرارِهِم الحاسِم ولو كلَّفهم ذلك ما كلَّف من وقوع ضحايا منهم، ذلك أنه واحد وهم اثنان وعشرون، فليُقتل واحداً واثنين ونكونُ قتلناه... فبعثوا أحدَهم ليبحث عن غريمهمْ يستقصي خبَرَه أَبِالْقِسْمِ موجودٌ أم لا؟. فإن كان بالقسم هجموا عليه جميعاً وقتلوه، ولو قُتِلَ منهم البعضُ... فسيرتعُ الباقون بإجرامهمْ آمنينَ مطمئنين.

* * *

وصل مبعوثُهم إلى القسم قبل وصولِ ضابطنا "رئيس القسم"، ولما لم يجِدْهُ بالقسم رجعَ المجرم المبعوثُ لجماعتهِ وأخبرهم بأنه في بيته لا بالقسمِ.

سرُّوا كثيراً بهذه الأخبارِ، فهذا ما كانوا يتمنَّوْهُ... إذ في البيتِ أسهلُ فهو بمفردهِ وهم جماعةٌ.

وبمشيئة القدرة الإلهية انطلقوا بطريق مخالف للتي سلَكَها... ولدى وصولهم إلى بيته، هجموا جميعاً شاهرينَ أَسْلِحَتهِمْ مكشِّرينَ عن أنيابِ الشرِّ والإجرام، تطغي على وجوهِهم نواياهُمُ السوداءُ الخبيثة.

وكما سبق، بتلك الأثناءِ كان ضابطنا قد وصَل القسمَ. إنه ليس في البيت.

هجم المجرمون باتِّجاهِ بيتِ السيد محمد أمين وبمشيئةِ اللهِ أخطأوُا بابَه، فبَدلَ أن يخْلَعوا بابَه خلعوا بابَ دار جاره... وأثناءَ خلْعِهِمُ البابَ وصَلَ ذلك الرجل السكران المخمور الذي أدَّبه للتوِّ ضابطنا... هنالك ثارت ثورةُ الخمرةِ في رأسه فصاحَ بهِمْ بصوتٍ كالرعدِ:

يا كلاب.. ماذا تعملون؟. يا قليلي الشرف.. حقراء... وكال لهمُ الشتائمَ، شتائمَ السكارى فظنُّوهُ غريمَهُمُ الضابطَ الشهمَ.. تركوا البابَ وهجمُوا عليه.. ظنُّوه وفي ظلمة الليلِ رئيسَ القسمِ الذي يعرفُونَه بأنَّه قلَّما ينامُ الليلَ. إذاً هو الذي يدافعُ عن بيتهِ لا سواهُ... فلقد أصبح بين أيديهم فريسةً سهلةً... وأطلقوا عليه الرصاص فوقع مضرَّجاً بدمه، ثم أفرغوا مخازنَ مسدساتِهِمْ به: بقدميْه ورجليْه برأسِهِ وصدرِهِ، عندها أفرغُوا حقدَهم وشفُوا غليلَهم... تركوه هاربين مولينَ الأدبارَ، وأما السكران فكان مَرْمِياً على الأرض فاقد الحياة.

* * *

عاد ضابطنا بعد فترة من الزمن وذلك بعد أن زار القسم وتفقَّد أوضاعه ورأى أن الأمن مستتب... الهدوء والأمان بكل مكان، وكل الأمور تجري طبيعيَّة وعلى ما يرام... وزال ما به من همٍّ وغمٍّ وضيق كان قد أَلمَّ به... أجل رجع ففوجئ بالضجيج حول منزله يشقُّ عنانَ السماء والناس في هرج ومرج... استغرب لمشهد السكران الذي أدَّبه ملقىً على الأرض مضرجاً بالدماءِ وفاقد الحياة.

كل هذا الضجيج والأصوات من أزيز الرصاص وصراخ المجرمين وركضهم ما كانت لتوقظ زوجة السيد محمد أمين بحكمة الله، بل بقيت تغطُّ في سباتٍ عميق فلم تسمعْ ولم تَرَ.

لقد شاء الله الرحيم ذلك، فلو أنها استيقظت ولم تشاهد زوجها فيا ترى ماذا يحلُّ بها بسبب رعْبها ولهَفها عليه!.

أبتِ المشيئة الإلهيةُ إلا أن تنقذَ السيد محمد أمين ناصر الحق وتهدمَ أركان الشرِّ وأهله، وإن تنصروا الله ينصركم ويثبِّتْ أقدامكم... وردَّهم فاشلين لم ينالوا منه سوءاً وكفاه الله قتالَهم "كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ويسْعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين" ولسان حاله يقول للمجرمين:

"موتوا بغيظكم أو توبوا عن جرائمكم... وإلاَّ فالويْل للشرِّ وأهله".



لقد بُرِعت فئة من الناس بالسحرة والمشعوذين لما رأوا منهم بعض التخيلات التي أساسها والقائم بها هم شياطين الجن قال تعالى:

﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً﴾[1].

وعلى سبيل المثال أصحاب الشيش الذين يمثلون ويخدعون بعض أصحاب العقول القاصرة من الناس مظهرين بأفعالهم السحرية التخيلية أنهم من أهل الله وأنها هذه كرامات من الله لهم... وبالحقيقة هم أشد الناس بعداً وكفراً بالله وأشدهم بغضاء لله ورسوله لأنهم قارنوا عدو الله "شياطين الجن" ونزلوا لعوالمهم القذرة بنفوسهم... ولو سألهم إنسان ما هذا الفعل لقالوا: إنه برهان أمام الكفَّار ليسلموا، ولكن لنعُدْ إلى ما ذكره الرحالة ابن بطوطة[2] قائلاً في ذكر أخبار السحرة في بلاد الهند:

أنه سمع ورأى منهم العجائب، فبزيارته للهند وذات مرَّةٍ دخل على سلطان أحد البلاد في الهند وكان عنده رجلان من "الجوكيه" يلتحفون بالملاحف ويغطون رؤوسهم لأنهم ينتفونها بالرماد كما ينتف الناس إباطهم،

---

[1] سورة الجن: الآية (٦).

[2] راجع كتاب رحلة ابن بطوطة.

فأمرهم السلطان بأن يُريا ابن بطوطة العجائب، فتربع أحدهما ثم ارتفع عن الأرض حتى صار بالهواء فوق رؤوس الجالسين وهو متربع، فغمي على ابن بطوطة لأنه لم يشهد من هذه العجائب من قبل.

ولما صحى من إغمائه كان الشخص لا يزال مرتفعاً بالهواء متربعاً... وحمل الرجل الآخر نعالاً وضرب بها الأرض فصعدت إلى عنق المتربع وجعلت تضربه وهو ينزل قليلاً قليلاً حتى عاد وجلس على الأرض.

"فإذا كان أولئك عبدة البقرة والنار يفعلون هذه الأفعال التي بحقيقتها تخيلية، فالأَوْلَى أن يكون دينهم هو الدين الصحيح إن كان المقياس بهذه الأمور التي حقيقتها سحر وشعوذة".

وكما روى الرحَّالة الشهير ابن بطوطة، إذ قال:

...ثم في بلاد الصين روى لنا عن عجيبة شاهدها من أحد المشعوذين "وهو من عبيد القان[1]".. أمره الأمير بأن يُريهم العجائب فرمى بحبل طويل في الهواء فامتدَّ بنهايته حتى غاب ممتداً في السماء عن الأبصار، ثم أمر طفلاً ليصعد الحبل فصعده في الهواء حتى اختفى عن الأبصار، ثم دعاه لينزل ثلاث مرات فلم يفعل فأخذ المشعوذ سكيناً حملها بفمه وصعد الحبل المنصوب بالهواء خلف الولد حتى غاب أيضاً، ثم رمى بيد الصبي إلى الأرض ثم برجله ثم بيده الأخرى ثم... ثم برأسه.. لقد قطَّعه بالسكين ثم نزل المشعوذ للأرض وهو يلهث وثيابه ملطخة بالدم، وقبَّل الأرض بين يدي الأمير وكلَّمه بالصيني فأمر له الأمير بشيء من المال، ثم أخذ أعضاء الصبي فألصقها وركَلَه برجله فقام سوياً.

وكان هناك قاضٍ اسمه "فخر الدين" قال لابن بطوطة:

"والله ما كان من صعود ولا نزول ولا قطع عضو إنما شعوذة وخداع بصر".

قال تعالى: ﴿ . .سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾[2].

إذاً فهذه الأعجوبة أعظم من أعاجيب مُدَّعي الإسلام والإيمان "أصحاب الشيش والشعوذات.." وهي تصدر عن أناس يعبدون النار والبقر.. فهل الديانة البوذية التي ينحدر منها أولئك المشعوذون صحيحة إن كان ما يدَّعيه المشعوذون بأنهم هم من أهل الله وهذه كرامات لهم!!.

---

[1] **القان**: إحدى قبائل الصين.

[2] سورة الأعراف: الآية (١١٦).

إذاً فهذه الأمور الإسلام بريءٌ منها وبريءٌ من أصحابها أعداء الله ورسوله.

* * *

ثم لنروي ما كان يعمله بعض السحرة الروسيين في السيرك، كيف أن أحدهم يحدِّق بعيني فتاة ويُشير بأصابعه على وجهها فيُغمى عليها وتقع فيتناولها بكلتا يديه ويمدِّدها على طاولة على مرأى من الجمهور وهو على المسرح فيتمتم فترتفع الطاولة بمقدار نصف متر بالهواء، ويأخذ حبلاً ثخيناً فيربطها بالحبل ربطاً محكماً بالطاولة ثم يسكب عليها البنزين ويُشعله عن بعدٍ فتحترق الطاولة والفتاة، بعد ذلك يصفق بكلتا يديه فتخرج نفس الفتاة من باب خلفي بالمسرح لتحيي الجمهور وهي سليمة معافاة.

الكثير من الناس شاهد منذ عدة سنوات أولئك الذين كانوا يسيرون في الشوارع والأسواق ويمارسون أمام الناس ألعابهم "أبواب سيما" كيف يُخرجون من أفواههم البيض وليرات الذهب وشفرات الحلاقة والطيور و... ثم بنهاية العرض يمدُّون يدهم للناس ليعطوهم النقود لقاء عرضهم.

أما الآن لم يعد الناس يرون مثل هذه العروض في الشوارع لأن الحكومة منعتهم على اعتبارهم متسولين عندما منعت ظاهرة التسوُّل.

ثم لنذهب إلى أولئك الذين يقضون الأيام تحت الماء في بحيرةٍ ما، يجلسون أياماً أو أسابيع.. وتمَّ تصويرهم وهم تحت الماء، فهل أولئك هم بديانتهم البوذية هم أصحاب حق ودينٍ صحيح!!.

وقد راح عدد من الكُتَّاب والناس الساذجين يتناقل بعض القصص الخرافية المدسوسة والتي لا أصل لها ظانين أنهم بذلك يدعمون وينصرون الإسلام والحقيقة هي العكس تماماً.

وما هذه القصص إلاَّ دعم للسحرة والمشعوذين بأنهم يضربون أنفسهم بالسيوف والسكاكين "شيش" من أجل إثبات صحة دين الإسلام أمام غير المسلمين ولكن ما يدَّعونه كذباً فما يفعلونه كله محض خيالات شيطانية وليس له أدنى اتصال بالحقيقة والواقع ونواياهم في ذلك حقيرة لتوجيه الناس إلى نفوسهم الرذيلة الممتزجة بنفوس الشياطين المظلمة...

ولا يقبل العقل السليم بأن إنساناً يضرب ذاته بسكين ولا يؤذى، ولو كان ذلك صحيحاً لكان أسبقهم في هذا المضمار رسول الله ﷺ ولكن حاشاه من كل ما ذكر، وحتى المعجزات والآيات فآخر عهدها هو زمان سيدنا عيسى إذ يقول تعالى لرسوله الكريم محمد ﷺ:

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ . . ﴾[1].

* * *

ثم لو تتبعنا أفعال السحرة هذه وسيرتهم لوجدناها غشاً وخداعاً، كذباً ونفاقاً، قسوة قلب ومعاصٍ...

وهذه قصتنا نفي عملي لكل ما ذكر خاضها السيد محمد أمين واستنتج منها أموراً كثيرة... إنها تبين أولئك المنجمين وتبين أن البعيد عن الله لا ينتج على يديه إلاَّ الشرور والأذى.

* * *

ذات يوم وأثناء خدمة السيد محمد أمين في الأمن برتبة ضابط... بينما كان مارّاً بأحد الشوارع يلبس بزّته العسكرية الأنيقة يظهر بصورةٍ لائقة يتهادى بخطواته الواثقة على سحب من الهيبة واللطف والوقار لم يُر مثلها.. فجأةً لفت انتباهه حشد من الناس كانوا قد التفوا مجتمعين.. تُرى على ماذا اجتمعوا؟. وما حسبهم؟. عندما اتجه إليهم.. ولما صار على مقربةٍ منهم توقف إلى جانب شخص ثم قال له:

أنت أيها الرجل أخبرني ما هناك... مابال هؤلاء البشر قد التموا والتفوا؟. حول ماذا التفوا؟. ردَّ الرجل وماتزال آثار الدهشة بادية عليه: سيدي..سيدي.. هناك رجل يعمل العجائب.. أتصدق يا سيدي أنه يحمل الأفاعي والعقارب بين يديه ولا تلدغه.. وها هو يحمل عقرباً كبيراً في راحة كفه.

تركه السيد محمد أمين قائلاً: لا بأس..لا بأس.. اندفع في ازدحام الناس يشق طريقه إلى المنتصف

ولما رآه الناس عرفوه بأنه الضابط الشريف الشجاع السيد محمد أمين... عندها فسحوا له ممرَّاً ضيِّقاً ليمر إلى حيث يشاء، تابع طريقه إلى أن وصل منتصف الجمع فرآه، رأى رجلاً يقف في المنتصف وقد التفّ حوله الناس مذهولين مدهوشين بما يشاهدونه من غير المألوف والمعهود، نظر إليه السيد محمد أمين فرأى براحة كفه عقرباً كبيراً.

---

[1] سورة الإسراء: الآية (٥٩).

تقدَّم منه ووقف إلى جانبه ثم نظر في يده... وهو يعلم تماماً أنه لا يمكن لإنسان أن يحمل عقرباً دون أن يلدغه، إلاَّ أن يكون هناك سرٌّ في العقرب ذاته لا الشخص، ثم قال مخاطباً الرجل "المدعي أنه يعمل العجائب":

أنت أيها الرجل كيف تحمل هذا العقرب دون أن يلدغك؟.

قال الرجل بثقة وافتخار: سيدي أنا ابن جدّ، أنا رفاعي... إنني منسوب للرفاعي "**الشيخ أحمد الرفاعي**".

قال السيد محمد أمين "وهو مدرك تماماً أن السر بالعقرب وكل ما سمعه تفاهات أقوال لا أصل لها، فالله لا تهمه الأنساب وحتى لو كان الرفاعي بذاته فهو لايعمل هذا العمل وهو بريءٌ من كل ما نُسِب إليه من أمور لا يقبل بها المنطق والتفكير السليم".

ضع العقرب بيدي، ومدَّ السيد محمد أمين يده باسطاً راحة كفه، فوجئ الرجل واتسعت حدقتاه قائلاً: لا... لا ياسيدي فإنها تلدغك...

قال السيد محمد أمين: وأنا ابن جدٍّ أيضاً أيها الرجل فضع العقرب بكفي...

هناك مدَّ الرجل يده مرغماً إلى جوار كف السيد محمد أمين ووضع العقرب بيده.. نظر السيد محمد أمين إلى العقرب الذي استقرَّ في راحة كفه وما توقعه رآه ووجده تماماً...

لقد لاحظ أنه بدون الإبرة السامة فلقد نزع هذا الرجل إبرة العقرب "نهاية ذيله" بأداةٍ وبقي العقرب بدون سلاح ولو حاول أن يلدغ غريمه فلا يمكن له ذلك.

* * *

وهاك تجربة ثانية خاض غمارها السيد محمد أمين...

كان السيد محمد أمين ممدَّداً على فراشه يئن أناتٍ خافتة... وبين الحين والآخر يشهق شهيقاً عميقاً...

ثم يسكن تنفسه لفترة من الزمن... لقد كست وجهه ولوَّنته حمرةٌ قانئة شديدة وسالت من جبينه قطرات من العرق بلَّلت وسادته، إنه مصاب بالحمى لدرجةٍ وصلت به إلى مرحلة لم يعد يعي ما حوله... غائباً عن وجوده...

كانت الغرفة التي رقد فيها متوسطة المساحة، استقرَّ في جانبها الأيمن سريره، أَمَّا من الجانب الآخر خزانة متوسطة الحجم... وفي أحد زوايا الغرفة استندت سجادةٌ من النوع العجمي "التبريزي" فخمةٌ ثمينةٌ للغاية، إنها ما تزال بِلَفَّتِها فلقد اشتراها السيد محمد أمين منذ أيامٍ قليلةٍ مضت قبل أن يسقط طريح الفراش لهذه الحمى الشديدة التي أصابته.

كان قد مضى يومان.. ثلاثة.. عندما صحى السيد الفاضل لما حوله بعد أن انخفضت درجة حرارته وعادت حمرة وجهه طبيعية... وبدأ تناول الطعام اليسير إلى حدٍ ما، لقد بَرُؤَ من الحمى ولكن ما تزال آثار هذه الوعكة الصحية بادية عليه...

مضى يومٌ آخر ومستوى التحسن كان قد ارتفع وأمكن للسيد محمد أمين أن يجلس ويمشي... يمارس حياته الاعتيادية.

بعد أيامٍ قليلة وبينما هو جالس على سريره يتناول طعام الفطور الخفيف... لفت انتباهه عدم وجود السجادة الجديدة في زاوية الغرفة التي كانت هناك قبل مرضه ولكن أين هي يا ترى؟. تُراها زوجته الطاهرة أنزلتها وفرشتها بأرض إحدى الغرف؟. وإلاَّ فأين ستكون ذهبت؟.

بعد أن انتهى من افطاره نهض واقفاً ثم حمل مائدته الصغيرة ونزل إلى المطبخ... كانت زوجته ماتزال تُعنى بنظافة المطبخ.. ناولها المائدة الصغيرة ثم سألها قائلاً:

"أم فتحي" أين وضعت السجادة الجديدة؟.

ردَّت بدهشة: أَوَ ليست في زاوية غرفتك؟.

قال باستغراب: لا... إنها غير موجودة في الغرفة.

قالت: آخر ما أعلمه عنها أنها عندك في الغرفة.

قال: هذا صحيح إني أتذكر أنها كانت في الغرفة وذلك قبل مرضي ولكني الآن لم أجدها، تُرى أين هي؟.

وأخذ هو وزوجته يفتشان عن السجادة في كل أنحاء المنزل... ولكن للأسف دون جدوى.

إذاً فالسجادة قد سُرِقت.. ولكن كيف؟. ومن هذا الذي ذهبت به جرأته ليَسرِقَ سجادة مدير القلعة والسجن!.

من وسط غرفته؟. لبس السيد محمد أمين بزّته وهو مشغول البال ثم خرج مسرعاً إلى مقر عمله في القلعة.. وهناك عاد إلى جداول كان قد نظمها بأسماء المجرمين وأصحاب الأسبقيات وأحضر كل من شكَّ به وحقق مع الجميع ولكن لم تُسفِر التحقيقات عن أيِّ نتيجة توخاها، كان السيد محمد أمين يزداد انشغالاً واهتماماً بهذه القضية... فهو لم تعد لِتَهُمّهُ السجادة بحد ذاتها إنما أصبح موضع اهتمامه أن كيف استطاع اللص دخول منزله وسرقة السجادة دون أن يشعر به أحد.

لقد أتعبته هذه القضية ولكن دون وصولٍ لنتيجة تُرجى...

* * *

وذات يومٍ ذكر له أحدهم أنه باستطاعته أن يكشف اللص باستخدام المندل... ردَّ السيد محمد أمين وكيف ذلك؟.

قال الرجل: يا سيادة الضابط ما عليك إلاَّ أن تذهب لصاحب المندل وهو عن طريق تسخير المندل لهذا الأمر يكشف السارق وحتى كيف استطاع أن ينفذ السرقة.

هنالك طلب السيد محمد أمين من هذا الشخص أن يدله على صاحب المندل وذهبا سوياً إليه وهنالك دخل السيد محمد أمين وقصّ لصاحب المندل القصة... وأخبره صاحب المندل بألاَّ يهتم فمشكلته محلولة ثمّ نادى ولداً يلعب في أرض الدار فحضر إليه... قال له "صاحب المندل": هيا اجلس على المندل...

جلس الولد مكبّاً وجهه على وعاءٍ مملوءٍ بالماء ينظر إلى الماء، ثم عمد صاحب المندل إلى قطعةٍ من القماش فغطى بها رأس الصغير والوعاء، وجلس بجانبه يتمتم بكلمات غير مفهومة مبهمة:

هَري... بَري... اظهري... جاي... ماي...

كان قد مضى من الوقت لحظات عندما انقطع الرجل عن تمتمته ثُمَ سأل الولد:

ماذا ترى الآن؟.

أجاب: إني أرى سوق الحميدية.. وبدأ الولد يقصُّ واصفاً رؤياه... وها قد خرجت من سوق الحميدية وإني أرى الآن.. ها قد وصلت إلى زقاق يؤدي إلى مقام... وهاهو المقام "السيدة جابية".

وها هو سوق الصوف.. ثم هذا زقاق يبدأ من سوق الصوف ممتدّاً... ومن هذا الزقاق إلى زقاقٍ آخر يضمُّ بجهته اليسرى عدداً من المنازل ذات أبواب خشبية، أحد هذه الأبواب (السادس) هو باب خوخة[1].

وتابع الولد واصفاً رؤياه على صفحة الماء إن هذا الباب يُغْلَقُ على دارٍ عربية واسعة الفناء بأرض هذه الدار بئر معطلة قديمة يقع إلى يمين الباب يليه درجٌ قديم يصعد إلى غرفة كبيرة علوية وضمن هذه الغرفة صندوق خشبي كبير مرصَّعٌ ومزيَّن بأصدافٍ بيضاء.. وها هي... ها هي سجادة ملفوفةٌ جديدة تبرق بمظهرها بريقاً يدل على جدَّتِها.

قال صاحب المندل وماذا بعد ترى ياولد... هل ترى شيئاً آخر؟.

قال الولد: لا.. الآن لا أرى إلاَّ السجادة التي في قلب الصندوق... الآن لا أرى شيئاً.

لما استقرت رؤيا الولد على السجادة... رفع صاحب المندل الغطاء عن رأس الولد...

عندها قال السيد محمد أمين بسرورٍ ودهشة: إذاً هي سجادتي المسروقة ضمن هذا الصندوق...

قال صاحب المندل: نعم... نعم... إنها هي.

هناك نهض السيد محمد أمين متفائلاً بما سمع وهَمَسَ لصاحب المندل: هيا... هاتِ الولد والمندل وامشِ معي لنذهب إلى الموقع المحدَّد.

نهض الجميع واتجهوا.. مشوا بنفس المخطط السابق لرؤياه بالمندل من منطقة لأخرى من زقاق لآخر حتى وصلوا الزقاق المقصود.. وهناك فيه بدت الأبواب وكان الباب (السادس) هو باب خوخة...

إذاً فكل ما رآه الولد صحيحاً وهذا المندل لا يكذب، أرسل في طلب مختار الحي وأمره أن يفتش المنزل وحصراً الصندوق في داخل الغرفة.

بتلك الأثناء كان مختار الحي له الكبير من الصلاحيات مع أهل الحي وعموماً معظم أهالي الحي يحبونه فهو كالأب الرحيم بأبناء الحي كافة.

---

[1] **باب خوخة**: كلمة خوخة تطلق قديماً على الباب الكبير المعدّ للحيوانات الكبيرة كالجمال والأبقار والذي يتوسطه بابٌ صغيرٌ لدخول الأشخاص.

حضر المختار عند السيد محمد أمين واتجهوا جميعاً إلى المنزل.. وهناك أمام باب المنزل وقف الجَمْعُ المؤلَّفُ من السيد محمد أمين واثنين من عناصر الأمن والمختار وصاحب المندل والولد... طرق المختار باب الدار "باب خوخة" وكان يقف إلى يمين الباب مجاوراً ضابطنا السيد محمد أمين.

ردَّت امرأة من خلف الباب بعد أن فتحته قليلاً وهي واقفةٌ خلفه وإلى اليمين قليلاً كي لا يراها أحد "زمن ستر": من الطارق؟.

فأجابها: أنا المختار "أبو فلان"... يا ابنتي نريد أن ندخل فخذوا لنا طريقاً.

بتلك الأثناء وقع نظر السيد محمد أمين من خلال شقِّ الباب على البئر الواقعة إلى يمين الباب ولما رأى البئر تأكد من أنه نفس المنزل الذي رآه الولد في المندل بادر السيد محمد أمين "خوفاً من أن تُغلِق المرأة الباب ولا تفتحه إن علمت بقدوم ضابط وعنصريْ أمن لتفتيش المنزل" إلى وضع قدمه بين أسفل الباب المفتوح قليلاً وبين عتبته، بينما تابع المختار حديثه مع المرأة فاستترت المرأة فيما بعد في إحدى الغرف مع باقي نساء البيت، هناك انتظر المختار لحظات ثم دخل هو ومن معه...

كان السيد محمد أمين يزداد لهفةً ليرى بقية التفاصيل التي رآها الولد في المندل فما أن دلف الباب حتى أسرع باتجاه البئر ونظر إلى الأمام فرأى الدرج الخشبي القديم... إنه درجٌ بنفس الموقع الموصوف، قديمٌ بنفس الصفات التي وصفها المندل.

تتبعه المختار وبقية الجمع مسرعين لا يدرون ما دافع هذه السرعة إلاَّ مماشاة مع مايريده ضابطنا السيد محمد أمين، أما ضابطنا فكان يزداد يقيناً بصدق المندل وكشفه العظيم كلما رأى على الواقع تفاصيل ما وصفه المندل... دخلوا الغرفة فوجدوا فيها صندوق الصدف مغلقاً.

ذهب المختار إلى المكان الذي فيه نساء البيت ثم نادى من أمام الباب: نريد أن نفتح صندوق الصدف فهل من مانع أو أشياء لايجب أن نراها؟.

قالت المرأة: لا.. لا فالصندوق على حسابكم فما فيه إلاَّ بعض الألبسة الشتوية، ثم شقَّت باب غرفَتِهِنَّ قليلاً ورمت من داخله بمفتاحٍ كبير قائلة: هاك مفتاحه.

مشى المختار خطواتٍ قليلة إلى الأمام ثم انحنى إلى الأرض فالتقط المفتاح وعاد إلى الغرفة ليفتح الصندوق ولما رفع غطاءه صُعق صاحب المندل للأسف فقد أسفر الصندوق على بعض الألبسة وليس هناك ثمة

سجادة، فلقد خابت رؤيا الولد في المندل لم يكن يتوقَّع السيد محمد أمين ما رآه الآن بعد ما توافقت كلُّ صفات الواقع السابقة مع ما شاهده الولد تماماً... فكيف حدث هذا الآن والسجادة غير موجودة؟.

هناك التفت إلى صاحب المندل قائلاً: هيا... هيا بسرعة استخدم مندلك واعرف لي أين ذهبت السجادة...

أسرع صاحب المندل ونفذ الأمر فكبَّ الولد على المندل وبدأ بقراءاته السحرية ثم سأل الولد: والآن ماذا ترى؟.

قال الولد: إنني أرى سوق الحميدية...

أردف صاحب المندل: وما بعد، تابع الولد واصفاً رؤياه إنني أرى متجراً كبيراً ضخماً مليئاً بشتى أنواع السجاد الجديد... لقد ملأ السجاد كافة أنحاء المحل صفّاً صفّاً بجانب بعضه البعض على طول الجدران.

قال صاحب المندل: وهل ترى شيئاً غيره؟.

ردَّ: لا... إنه متجر السجاد فقط.

لما سمع ذلك الضابط محمد أمين أبحر على متن أفكاره يستقصي بعض النتائج، ثم استقرت به أفكاره على نتيجةٍ قائلاً للمختار: وهل صاحب هذا المنزل تاجر سجاد؟.

قال المختار: والله يا سيدي لست أذكر... ولكن انتظر قليلاً.

نزل المختار مسرعاً إلى النسوة ونادى من أمام الباب المغلق: وماذا يعمل رب هذا المنزل... أَهُوَ تاجر سجاد؟.

قالت إحداهن: نعم... إنه كذلك ومتجره بسوق الحميدية.

عاد المختار يحمل تصديق ظنِّ الضابط محمد أمين... لقد أدرك الضابط حقيقة الأمر بتفاصيله...

أدرك تماماً سر تاجر السجاد هذا، إنه يبيع السجاد ويرسل من يتتبَّع المشتري ليعرف منزله تماماً وفي نفس الليلة أو متى سنحت الفرصة يقوم رجال التاجر اللصوص بسرقتها وإعادتها للمحل.

نظر المختار إلى السيد محمد أمين وقد غرق بأفكاره ولَونُ الجديَّة يصبغ شكله وأقواله ثم قال: وماذا ستعمل الآن يا سيدي، التفت الضابط ببطء إلى المختار بعد أن قَطَعَ سلسلة أفكاره وقال بصوتٍ ممدود الآن... الآن...

ثم انطلق مسرعاً آمراً عنصريه وبقية الجمع: هيا هيا اتبعونِ بسرعة... نزل الدرج بسرعة ومن خلفه العنصرين يركضان ثم المختار.. ثم صاحب المندل يحمل مندله بعد أن فرَّغه من الماء...

مشى السيد محمد أمين من زقاق إلى آخر حتى وصل سوق الحميدية فقصد أكبر متجر للسجاد... والذي منه اشترى السجادة ولما وصل كان المتجر تماماً كما وصفه الولد إذاً إنه متجر صاحب المنزل.

وها هو صاحب المنزل والمتجر يجلس على كرسيِّه خلف طاولة كبيرة.. يشرب فنجاناً من الشاي الأخضر ولما رأى الضابط محمد أمين ومن ورائه الآخَرِين نهض مسرعاً واتجه إلى السيد محمد أمين فبادره ضابطنا قائلاً بانزعاج:

أهكذا تعمل؟. أهذا يجوز؟. تبيع سجادك للمشتري ثم تبعث من يسرقه من منزل المشتري... أهذه التجارة الحلال؟. أيُّ تجارة هذه التجارة أيها الرجل؟. لماذا سرقت سجادتي بعد أن بعتني إياها؟.

تلعثم التاجر واعترته صفرةٌ كصفرة الموت ثم قال باضطرابٍ وصعوبة: أنا؟. لا.. لا ياسيدي فأنا لم أسرق شيئاً.. أنا لا أسرق.

ردّ السيد محمد أمين بقوةٍ: بل سرقت... سرقتها... سجادتي، وهذا المندل يشهد، هل تكذِّب المندل؟.!.

لم يكن بوسع التاجر إلاَّ أن يُقسم بالله نافياً عنه هذا الفعل الشنيع...

ولكنّ السيد محمد أمين كان متأكداً بأنّ هذا التاجر لصٌّ كبير لأنّ المندل أكّد ذلك فهل رؤيا الولد وكشفه السرقة عبثاً؟. هل يكذب ما رآه الولد بأمِّ عينه؟. إنّ هذا التاجر حتماً هو السارق وإلاَّ أنَّى للولد أن يراه ويكشفه هو لاسواه؟.

صرخ ضابطنا بعنصريْه: هيا ألقياه أرضاً ثم مد يده على سوطه فحمله متأهباً ليضرب كبير التجار ويؤدبه على أعماله اللاأخلاقية هذه...

خلال لحظات كان التاجر الكبير ملقى على الأرض مرفوع الرجلين.

بتلك الأثناء وقبل أن يمتد السوط ليصل إلى قدميْه دخل فوجٌ من التجار كانوا قد سمعوا أصواتاً وضجيجاً فقدموا مسرعين ليروا ما هناك ولَمَّا رأوا كبيرهم ملقى على الأرض اعترتهم بالغ الدهشة ونطقوا بفمٍ واحد: ما الأمر... ما الأمر يا سيدي؟.

هناك نزلت يد السيد محمد أمين بعد أن ارتفعت حاملةً السوط عادت دون أن يضرب التاجر والتفت إليهم قائلاً: إنه سارق لقد باعني سجادة وما هي إلاَّ أيامٌ قليلة حتى عاد وسرقها.

قال التجار: والآن يا سيدي ما تريد؟. تريد سجادة بدلها... خذ أية سجادة تريد وأخل سبيل التاجر.. عندها تركه العنصران فنهض التاجر ينفض الغبار عن ملابسه.

لم يكن يتوقَّع مثل هذا المصير أبداً فلقد استطاع المندل كشفه وأحاط السيد محمد أمين خبراً.

مشى السيد محمد أمين بين السجاد فبصُر بسجادة تماماً مثل سجادته المفقودة ولربما هي فأمر العنصران بحملها.. حملها العنصران ثم خرج من المتجر ومن ورائه صاحب المندل والمختار.

كان ضابطنا السيد محمد أمين يتمنَّى أن يُحصِّل حقوق كل الناس من هذا التاجر السارق ويكتب ضبطاً في هذه الواقعة ولكن الحكومة لا تقبل بالمندل كشاهد عيان ولذا فما بيده حيلة إلاَّ أن يحصِّل حقَّه، وها قد حصَّله ولم تعد نفس التاجر تتجرأ على أن تسوِّل له دخول منزل السيد محمد أمين.

خارج المتجر ارتسم بالغ السرور على وجه ضابطنا... كان مسروراً بما حقَّق المندل من نتائج مستحيلة التحقيق بدونه، حتى إنه طلب من صاحبه أن يُعلِّمه كيف يستخدمه في كشف المجرمين واللصوص وكان ردُّ صاحب المندل: لك ما تريد يا سيدي وتابعا السير جنباً إلى جنب، خلال ذلك كان صاحب المندل يعلِّم السيد محمد أمين أصول استخدام المندل والكلمات التي يجب أن يحفظها أثناء استخدامه للمندل.

ثم أعطاه المندل وقال: هو لك وأنا آتي بغيره.

ودَّعه السيد محمد أمين وافترقا، ثم تابع ضابطنا مسيره إلى منزله ومن خلفه عنصران يحملان السجادة...

* * *

مَرَّت الأيام والشهور ثم السنة والسنتان، وذات يوم طلب أحد السجناء مقابلة مدير سجن القلعة السيد محمد أمين يخبره قائلاً بصوته الأجش:

سيدي... سيدي... أريد أن أخبرك بقصةٍ جرت منذ سنتين...

إنَّ فلاناً المجرم... سرق سجادة من منزلك منذ سنتين... نزل على بيتك وسرقها...

دُهِش السيد محمد أمين مما يسمع وقال باهتمام بالغ: أَوَأَنت متأكد مما تقول؟.

قال: والله يا سيدي لا أقول إلا الحق، وعلامة ذلك أنَّك كنت مريضاً غائباً عن وعيك من شديد الحمى.

ذاك المجرم الكبير كان صديقاً لهذا المجرم المخبر بالقصة وأسرَّ له سرَّه ولما نشأ بينهما خلافٌ حادٌ جاء الأخير يخبر عنه لمدير السجن السيد محمد أمين.

لقد أدهش ذلك الخبر السيد محمد أمين وفاجأه مفاجأة كبيرة، فهل كان المندل كاذباً؟. ولكن كيف ذلك؟. كيف رأى الولد كل ما رآه؟. وتطابق كل هذا مع الواقع، والآن تخرج النتيجة خاطئة... هل يعقل؟. لكن هذا ما حدث.

أحضر السيد محمد أمين المجرم المتهم بالسرقة وحقَّق معه: أنت منذ سنتين سرقت سجادة من بيتي.

ردَّ المجرم بذهول: "فكيف استطاع معرفته بعد طول هذه المدة"... لا يا سيدي هذا لم يحدث.

قال السيد محمد أمين: اعترف... فأنت السارق... وعندي شهود على ذلك وعندما لم يعترف أمر السيد محمد أمين بإلقائه أرضاً ثم انصبَّ عليه بخمسين جلدة من سوطه دونما رأفة مهدِّداً إيّاه بأن هذا نصيبه اليومي فطوراً وغداء وعشاء، وأنه سيسجنه في سجن السجن "السيلول" تحت الأرض حتى يعترف بالحقيقة، عندها صرخ متوسِّلاً بأنه سيعترف بالحقيقة.

عفَّ عنه الضابط محمد أمين وتركه العناصر فنهض وجلس مكسور الشوكة، ثم تكلَّم بهدوء: صحيح ذلك يا سيدي فمنذ سنتين مضتا سرقت سجادة من بيتك.

قال السيد محمد أمين: وكيف تمَّ ذلك؟.

تابع قائلاً: بينما كنت في منزلي داهمتني دورية مؤلفة من عدد من العناصر "الدرك" وبسرعة قفزت على السطح ثم ركضت من سطح لآخر هرباً من دوريتك يا سيدي، هكذا حتى وصلت لسطح قربه شجرة ليمون امتدت مرتفعة حتى طالته، فَنَزَلْتُ على هذه الشجرة أكتوي بآلام أشواكها إلى أن صرت قبالة نافذة مفتوحة، نظرت منها للداخل فرأيت شخصاً نائماً، ولذا قفزت من الشجرة إلى النافذة وتسللت بهدوء منها

لداخل الغرفة وما يزال النائم نائماً فبادرت بالمشي على رؤوس أصابعي... وإذ به أنت يا سيدي فخفق قلبي في بداية الأمر خوفاً، لكني تمالكت نفسي لما رأيت وجهك بلون أحمر قانئاً... لقد كنت تعاني من حمى غيَّبتك عن وجودك... إذاً الدورية التي كانت تلاحقني كانت بدونك.

نظرت إلى وسادتك فلمحت تحت طرفها قبضةً لمسدسٍ وبسرعة مددت يدي إليه وانتشلته ثمّ لقّمته وسددت على رأسك وأطلقت فلم يطلق!. حاولت ثانيةً وثالثةً الإطلاق ولكن دون جدوى "لقد تعطلت حركة سير الإطلاق فيه"... نظرت في الغرفة فرأيت سجادة جديدة ملفوفة فحملتها وخرجت وما أن وصلت الشارع حتى صرخت سجاد سجاد "إنني بائع سجاد" ولما ابتعدت عن منزلك وبلغت الحقول أخرجت المسدس وأطلقت ومن أول محاولة خرج المقذوف، لقد تم الإطلاق!!.

لقد أطلق المسدس مباشرة، غريب ذلك يا سيدي لم أدرِ لِمَ لَمْ يطلق عندما حاولت الإطلاق عليك، وفي الخارج ومن أول محاولة أطلق!!.

"كان منزل السيد محمد أمين عربي البناء بدورين علوي وأرضي في منطقة المهاجرين الجبلية وبما أنها جبلية مائلة كان الدور العلوي ينفتح مباشرة على الشارع بباب الدار الرئيسي أما الطابق الأرضي فهو أدنى من الشارع، ولذا يؤدي إليه درج نازل من بعد الباب الرئيسي، فاللص نزل على غرفة الضابط محمد أمين العلوية، ولما خَرجَ، خَرج مباشرة من الغرفة إلى باب الدار دون أن يشعر بتسلُّله أحدٌ في المنزل".

الآن... الآن لقد تذكَّر السيد محمد أمين سرّاً وهو اختفاء المسدس لكنه لم يكن يتوقَّع أنه اختفى بنفس الوقت الذي اختفت فيه السجادة بل وبما أن مستودع الأسلحة والذخيرة تحت مسؤوليته فهو يختار ما يريد لنفسه من قطع السلاح، ولذا لمَّا فقد المسدس ظنَّ أنه أخذه للتبديل ونسيه في القلعة، نسي أن يأخذ البديل، ليس أكثر، ولكن الآن ظهر له أين فُقد مسدسه.

قال السيد محمد أمين: وأين السجادة الآن؟. ردَّ المجرم عند أختي في قرية "دوما".

هناك أخذه ضابطنا وانطلقوا إلى أخته ووجدوا السجادة ملفوفة لم تُفردْ بعد... لم تتجرَّأ على فرشها خوفاً من أن يغضب عليها ذات يومٍ فيطلب السجادة وعندما يجدها ممدودة متسخة يضرب أخته، ولذا لم تفرشها، بل تركتها لحين الطلب.

حمل العناصر السجادة وعادوا بها لمنزل السيد محمد أمين، وأحيل المجرم لمحاكمة ثانية وهو في سجن القلعة بعد أن سلَّم المسدس لصاحبه أيضاً ريثما يتم الحكم عليه.

لقد كَذَبَ المندل وصاحبه... فمن صدَّق منجِّماً فقد كذَّب الأنبياء.

عاد السيد محمد أمين مباشرة باهتمامٍ عظيم فدعا بعض تجار سوق الحميدية إلى طعام الغداء ومن جملتهم تاجر السجاد الكبير، وأكَّد على بقية التجار المدعوين بإحضار تاجر السجاد على الغداء.

حان وقت الغداء فحضر التجار ومعهم كبير تجار السجاد... رحَّب بهم أشد الترحاب وأجلسهم... ثم ومن مبدأ العدالة القائمة عليه نفسه الشريفة جلس على الأرض ورفع قدميه على الكرسي ولف رجليه بالفلقة ورمى بالسوط لتاجر السجاد وقال:

هيا قم واضربني، فأنت رجل بريء... وأنا اتهمتك ظلماً... فلقد ظهرت براءتك وظهر كذب المندل وصاحبه المنجِّم.

ذُهل الحاضرون مما يرونه فالضابط محمد أمين رئيس قلعة دمشق وسجنها يستلقي أرضاً ويرفع قدميه ليضربه التاجر!. ذُهل التاجر ورفض ضربه فأجابه: إن لم تضربني فسأضربك أنا، هيا وكما أقول لك اضربني.

هناك تدخَّل التجَّار وقالوا: ولكن يا سيدي نحن نذكر تماماً أنك ألقيته أرضاً هكذا مثل وضعك الآن ولكنك لم تضربه... وها قد استلقيت أنت أرضاً فَلِمَ يضربك؟.

قال تاجر السجَّاد: هذا صحيح يا سيدي فأنت لم تضربني، وأنا لن أضربك.

هنالك نهض السيد محمد أمين واعتذر مجدَّداً من تاجر السجاد وأعلن براءته أمام جميع الحضور... أكل الجميع طعام الغداء بهناء وسرور وخرجوا بعد أن أعطاه ثمن السجادة التي أخذها من المحل منذ سنتين وانطلقوا جميعاً فرحين مسرورين راضين بما فيهم تاجر السجاد الكبير.

لقد أدرك السيد محمد أمين من بعد ذلك الحادث أن كل ما يعتمد على الشعوذة والسحر إن هو إلاَّ محض خيال وخداع بصر كاذب وإنه دجل لا أساس له من الحقيقة والصحة بل هو من وحي الشيطان الرجيم عدو الإنسان ومستحيل أن يصدر من أولئك المشعوذين وإخوانهم الشياطين إلاَّ الضرر والشرور، إلاَّ التفرقة والبغضاء، يلقونها بين الناس باتهام الأبرياء، دجَلاً وظلماً وعدواناً.



جلس أحد البشوات "أثناء الحكم التركي للبلاد" بعد أن التف حوله عدد من وجوه الحُكم يستمعون إليه بإصغاء ومتعة بينما تابع حديثه قاصّاً لهم أحداث حادث جَرى معه في اليوم الماضي...

قال: يا شباب... البارحة ثارت ثائرتي وغلت براكين غضبي بشكل كبير لا يُوصف... هل تعرفون لماذا؟.

لقد وضعتُ على سطح بيتي حمامة وبتُّ أرعاها... أربِّيها لا يوماً ولا يومين، بل عدّة شهور أصعد يومياً إليها أُمتِّع ناظري بجمالها، تسلب قلبي بمشيتها عندما تتبختر يمنة ويسرة، وغدا قلبي معلَّقاً بها وللأسف الشديد فالبارحة قَدِمَ قط "ابن حرام" إلى البيت فأكلها... ولقد أمسكته بالجرم المشهود... ها... ها ها... وكان انتقامي منه رهيباً... رهيباً...

لقد أطفأ هذا الانتقام شيئاً من نار حقدي وغضبي... هل تعرفون كيف انتقمت منه؟.

ها... ها... ها "ضحك"... لقد أمسكته وربطت رأسه بحبل...

تعرفون ماذا؟. ها... ها ها... لقد نفَّذت به حكم الإعدام شنقاً إلى شجرة في البيت علَّقته بها.

هنالك ضحك الجميع وبدأوا يعلِّقون بعض التعليقات السخيفة... كان يسمع هذا الحديث السيد محمد أمين "أصلان" ويبدو بعينيه حزن وتأثُّر قوي بما يسمع...

ثم قطع حفل التهريج هذا صوته القوي قائلاً:

يا سيادة الباشا... يا سيادة الباشا... إن هذا القط الذي شنقته روحٌ... كائن حي... مخلوق فيه حياة... إحساس... يشعر... يتألم... وقد قتلتَه أنت... قتلت نفساً بعملك هذا وعن سابق إصرار وتعمُّد، أما بالنسبة لكونه قد أكل حمامتك فهذا الأمر عادي طبيعي... فهذه سنَّة الكون، وكل مربِّي الحمام يحتاطون فيضعون حمامهم بمعزل عن وصول القطط إليه... والقط وظيفته الصيْد، صيْد الفئران والطيور التي انتهى أجلها... هذه فطرته... فما عملك هذا إلاَّ خطأ وعليك أن تتوب وتدفع كفَّارة كدليل على صدق توبتك... عندها يقبل الله توبتك ويمحو عنك ما استحققت من قصاص، وإلاَّ فأخشى عليك لا سمح الله أن تتعرَّض لما فعلت بذاك القط "فكما تدينوا تدانوا"... وما أقوله لك جدٌّ... صدِّقني...

سمع الباشا تلك الكلمات المؤثِّرة الحزينة فتأثَّر بها آنياً وأحسَّ بالخوف يتسلل لأعماقه... فازدرد ريقه وعدَّل جلسته على الكرسي ثم قال:

"أصلان" إن كان كلامك صحيحاً ولا بد... فأنا لا أُعدم شنقاً، إنما أُعْدَمُ رمياً بالرصاص، فأنا عسكري وكما تعلم فبالقانون إعدام العساكر يتمُّ بالرصاص لا شنقاً.

ردَّ الضابط السيد محمد أمين: ولكن يا حضرة الباشا القائد عدالة الله سارية في الوجودِ ويده مهيْمنةٌ على الجميع فوق الكل وحُكمه فوق كل الأحكام.

صفن القائد هنيهةً ثم انفجر بضحكةٍ قوية... ها ها ها... وقال وهو يفتِّل شواربهُ: عزيزي "أصلان" ضخَّمت الأمر كثيراً وأعطيته فوق حقّه وحجمه... ها ها ها... فهذا القط مسخَّر لنا لخدمتنا نفعل به ما نشاء وما تفضَّلت به وقلتَه يا "أصلان" لا يكون أبداً... ولن يكون... ها ها ها...

ضحك وشاركه الجميع بضَحِكِهِ ؛ لقد استهزأ بقانون الله الذي هو فوق كل قانون وقلب الأمر لمزاحٍ وتهريج.

وما هي إلاَّ مدة بسيطة حتى انفضَّ المجلس وغادرت الشخصيات البارزة...

خرج ضابطنا يُساور نفسه الحزن والأسى لعدم مبالاة القائد (الباشا) بهذا التحذير... بإنذار الله له... وبالتالي فلن يتوب راجعاً إلى الله فلا بد إلاَّ وأن يُقاصَص... وهذا ما أحزن هذا الضابط الإنساني السيد محمد أمين عليه لحبِّه له.

* * *

ومضت الأيام تترى... وزالت الامبراطورية التركية...

وذات يوم أصدر الرئيس التركي "**مصطفى أتاتورك**" قانوناً (**فرمان**) يقضي بمنع لبس القبعات الحمراء (**الطرابيش الألبانية**) وكل من يُخالف هذا القانون فلا يلومَنَّ إلاَّ نفسه...

قانون غريب... عجيب ومخالفته جَدُّ قاسية... بات له جميع الناس حذرين أشدَّ الحذر ولم يعد أحدهم يتجرَّأ على لبس القبعة الحمراء (الطربوش) مهما كان هذا الزي محبّباً له (هذا الزيُّ كان سائداً بتلك الأيام).

إلاَّ أن الباشا الذي كنَّا بصدد الحديث عنه فقد بقي يلبسه هو وبعض كبار المسؤولين، إذ لا أحد يستطيع أن ينفِّذ به أي حكم، بل ولا يتجرَّأ على سؤاله مجرَّد سؤال... فهو الحاكم وهو الذي ينفِّذ بالناس الأحكام، إذ أصبح الباشا المذكور أثناء حكم مصطفى أتاتورك مُحافظاً لمدينة استانبول العاصمة إذ ذاك.

* * *

وذات مرَّة كان يسير بأحد شوارع استانبول حيث مقرّ الرئيس التركي "مُصْدِرِ القرار" وكعادته كان طربوشه فوق رأسه وهو على ثقة تامّة بأنه لا يمكن أن يتجرَّأ أحد على التفوّه معه ولو بكلمة حتى ولو كان في استانبول فهو المحافظ.. وتربطه بالرئيس علاقة مودّة وصداقة قوية قديمة... والقانون يسري على المرؤوسين.

وبينما كان يسير في إحدى الطرقات ليلاً يلبس "طربوشه" شاءت مشيئة الله وتسييره الخيِّر العادل بأن يخرج في تلك اللحظات الرئيس التركي من أحد المحلات العامَّة في الطريق نفسه تحفّه مرافقة كبيرة من الدرك.

خرج يتمايل يمنة ويسرة... ويصدر ما يشاء من أوامر بصوت مرتجٍ ممدود... لا شكّ أنه سكران، بل بأوج سكره...

نظر في الطريق فرأى شخصاً عن بعدٍ يسير بالطريق مرتدياً "طربوشه" فتوقف الرئيس مباشرة وأمعن النظر به... ثم قال بعد أن بدا الغضب بوجهه:

من ذاك الحقير الذي تجرَّأ على مخالفتي؟. هنا في العاصمة!!!.

هيا وبسرعة اعدموه... حالاً حالاً... هنا اعدموه.

انقضَّ رجال أمنه "المرافقة" ويا لهول (مصير الباشا)... فقد كان يسير بكل ثقة وعزَّة... وإذ بعدد من عناصر الأمن ينقضُّون ليلقوا القبض عليه!!. رجال أمن يقبضون على السيد المحافظ!. هذا ما لا يتوقعه أبداً... والهول الأكبر عندما عرف ماذا سينفِّذون به من حكم...

قبضوا عليه ولم يعبؤوا باحتجاجاته للتوضيح والتعريف بنفسه، بل قيَّدوه وهو يُنادي ويصرخ... دعوني... اتركوني... أيها الجبناء... ألا تعرفون من أنا... اتركوني... أنا... أنا... فلان...

لكنهم لم يلتفتوا ولم يبالوا بكلامه أبداً (فَأَمْرُهُم تَلَقَّوه وبقوة وغضب من الرئيس الأكبر حاكم البلاد كلها، ولا يتجرَّأون على الإبطاء في التنفيذ).

وانطلق أحدهم ليعود مُسرعاً وبيده حبل... لفوا بها عنقه... وعلَّقوه إلى أقرب شجرة بجنب الطريق منفِّذين به حكم الإعدام شنقاً، فما خرج صوته ثانية، بل انهالت دموعه بغزارة وحسرة... فلعلَّه تذكَّر يوم أَعْدَم القط شنقاً إلى شجرة بأرض دياره... ثم تذكَّر نصيحة الضابط "أصلان" بالتوبة ودفع الكفَّارة وكيف أخذ الأمر بالتكذيب... والتهريج والضحك... فيا ليته تاب وعاد لربِّه طالباً المغفرة وأناب... يا ليته أخذ النصيحة بجديّة لا هزلاً...

وما هي إلاَّ مدة قليلة حتى انقلب الوجه إلى زرقة شديدة الدكون وجحظت العينان وسال الزبد من فمه... ثم إثر لحظات أخرى لفظ أنفاسه مفارقاً الحياة... لقد مات...

ولما استيقظ الرئيس من سكرته... لصحوته نظر إلى المعدوم فعرفه... إنه يا للهول...لقد تندم كثيراً على فعلته هذه وبات يقول بحسرة وندم:

يا ليتني ما فعلت ذلك... آه... آه يا ليتني ما نفَّذت بصاحبي ما نفَّذت... لقد قتلته بيدي!.

ولكن ما ينفع الكلام؟.!. هل يُعيده للحياة ثانية؟.!. فقد سبق السيف العزل، لقد فعلت الخمرة ما فعلت.

وبالحقيقة، الفعَّال الحقيقي هو الله يده مُهيمنة على الجميع وكلٌّ يأخذ حقّه ويجني ثمرة عمله... وليس الله بظلاَّم للعبيد...

* * *

سمع هذا الخبر الغريب العجيب كل الضباط الذين حضروا المناقشة مع السيد محمد أمين "أصلان" بشأن القط المشنوق فكان لهم من هذا الحادث عبرة كبيرة وعرفوا تماماً أن قانون الله وحكمه فوق كل حكم وقانون...

حكم العدالة في البريّة ساري ما هـــذه الدنيا بـدار قرار





بعد أن غيَّر العثمانيون كتاب الله وتركوه واستبدلوه بقوانين وضْعية... وضعها البشر... شاء الله أن يخرجُوا "هؤلاء الأتراك" من البلاد التي حكموها، إذ أصبح بقاؤهم فيها للخراب لا للإصلاح... وبعد خروجهم من البلاد لم يعد السيد محمد أمين يشغل رتبته كضابط لزوال الدولة... لقد فَقَدَ سلطته كرئيس قسم أو كمديرٍ للقلعة وسجونها وصلاحياته في حفظ الأمن والسلام ضد المجرمين والإجرام، وأصبح مواطناً مدنياً كغيره من المواطنين العاديين بلا رتبة ولا وظيفة.

* * *

وذات يوم وبينما كان يسير في أحد شوارع دمشق لشراء بعض لوازم بيته التقى صدفةً بأحد المجرمين الحاقدين فوجدها الأخير فرصته للنيل من كرامَةِ مَنْ لاحَقَهُ في كل مكان وأدَّبه فلم يتأدَّب وضربه وسجنه... فما أن عرفه هذا المجرم حتى أفلت زمام لسانه القذر بكلمات لا تعبِّر إلاَّ على إجرامه وانحطاطه، ومن جملة ما وجَّه لهذا الإنسان الطيِّب السيد محمد أمين عبارة (وَلِّت أيَّامك يا بندورة)... مستهزئاً يريد إذلاله وإن اقتضى الأمر للشجار فلا يهم... فالضابط لم يعد ضابطاً، بل مواطناً عادياً.

أما السيد محمد أمين فقد سمع الكلمات وعرف المجرم تماماً ولكنه أسرع الخطى للسوق والعبارات البذيئة تلاحقُه حتى توارى بالزحام.

فهو باستطاعته أن ينقضَّ على المجرم... وبضربة واحدة لا أكثر يرديه كما فعل مع كبيرهِمْ "**حَمُو جَمُو**"... فهذا مجال عمله ولا أحد يستطيع أن يسبقه في فنون القتال والصراع عدا عن الشجاعة الكبيرة التي يملكها... فهو لا يهاب أحداً إلاَّ الله، ولكنه أدرك أنه إن أرداه فسيدخل السجن وإيَّاه، وهذا لا يُلائم مقامه أبداً أن يذل نفسه بدخول السجن ويساق مع المجرمين... والحشاشين... والسارقين و... و... لذلك قال لا... لن أضربه ولن أؤدِّبه الآن فلكلِّ أمر حلّ وهذا الأمر، بإذن الله، له حلّ...

وبسرعة تابع السيد محمد أمين طريقه للبيت عائداً... وفي البيت جلس وحيداً يفكِّر بالأمر ويناقشه من كل الجوانب علَّه يصل لحلٍّ قائلاً بنفسه:

إنَّ ما تعرضتُ له اليوم سوف أتعرَّضُ له مراراً عديدة... فالمجرمون كثيرون وهم مكبوتون مكسوروا الشوكة، والآن ستقوى شوكتهم ويحاولون الانتقام... أو القتل... فكَّر مليّاً بالأمر... وفكَّر... إلى أن وصل لحلٍّ كتمه بنفسه... وانطلق ثانية من البيت بنشاط الأسد حتى شاهد أحد كبار المجرمين.

وعلى الفور أسرع السيد محمد أمين تجاهه وبادره السلام والترحاب... ففوجئ المجرم وذهل وردَّ السلام باحترام وقد استولت عليه الدهشة قائلاً:

أهلاً بك يا سيدي... إذ ما يزال متأثِّراً بشخصيته المرسومة بذهنه كضابط مرهوب... يلاحقهم ويؤدِّبهم.

زادت دهشته واحترامه عندما قال له السيد محمد أمين: أين أنتم يا رجال فلقد اشتقت إليكم كثيراً... فأنا لا أستطيع أن أعيش إلاَّ بقربكم... لقد ضاقت بي الحياة مع هؤلاء القمامة "يعني الناس" كما هم بنظر المجرمين، فلقد خاطبه على حسب مفهومه وأضاف:

لا تطيب لي الحياة بدون مشاهدتكم "للمجرمين"... أريدك أن تشرِّفني غداً مع بقية رفاقك على طعام الغداء... أريدك أن تُحضر لي رفاقك الرجال الحقيقيين... لا أريد رجلاً قتل شخصاً وشخصين ويدَّعي بالمرجلة، بل من صنف الأبطال الذين قتلوا خمسة أو عشرة، نعم: أريد من الرجال الشجعان "القبضايات" أمثالك...

ردَّ المجرم وقد استولى عليه السرور والفرح بالإكرام بالطعام:

أمرك سيدي... أمرك... على رأسي (فلقد سمع بالغداء... فالأمر فيه طعام وإكرام... فطعام غداء الغد الفاخر قد تأمَّن...) ثم أتبع قائلاً:

غداً يا سيدي سآتيك مع ثلاثة... أو أربعة من الرجال "القبضايات" الذين سينالون إعجابك.

ردَّ السيد محمد أمين المفكِّر: ماذا تقول ثلاث أو أربع رجال... لا... لا...

فسأله المجرم: كم "قبضاي" تريد سيدي؟.

قال السيد محمد أمين: خمسة عشر أو أكثر: عشرين... غداً أريد أن أتشرَّف بمعيَّتك بعشرين قبضاي ضيوفاً أعزاء مُكرَمين، فأنا بشوق كبير للشباب "القبضايات".

انطلق المجرم فرحاً مسروراً يزف الخبر السار لمعظم كبار المجرمين... فهم مدعوون للغداء الفاخر غداً عند صاحبهم الكريم الوفي... وجَمَعَ عشرين مجرماً من كبار المجرمين في البلد.

* * *

وفي البيت: أعدَّ لهم السيد محمد أمين خاروفين كاملين محشيين بالرز والطيبات ومطبوخين من قبل أساطين معلمي الطبخ... وكذلك عدَّد لهم صنوف الفواكه الفاخرة... والموالح... وضع لهم كل هذه الأصناف بترتيب راقي على أرض حديقة البيت، وكذا أحضر لهم ثماني شدَّات "للَّعب" (مجموعات من أوراق اللعب)... ثم وضع كرسيّه العالي "كالعرش" خلف طاولة صغيرة في مكان مرتفع قرب جدار الغرفة... وجلس وأمامه نرجيلتهُ... التي هيأها لهذه المناسبة.

لدى قدومهم... وقد حضر الحشد الكبير من المجرمين... والذين بلغ تعدادهم العشرين... وهم بغاية السعادة والسرور.

وما أن قرعوا الباب... حتى فتح لهم واستقبلهم بحفاوة بالغة: أهلاً بكم يا رجال "يا قبضايات" في بيتكم... فلقد اشتقت إليكم كثيراً هكذا أريدكم... لا تقطعوني فأنا حياتي بدونكم لا تساوي شيئاً... ولا أستطيع العيش بدونكم.

هذه الكلمات زادت من قابليتهم على الطعام الشهي الفاخر... فالمسألة فيها خواريف... فيها فواكه... فيها ورق لعب... قضاء وقت بالمتعة والسرور... كل ذلك بلا مقابل!.

فلقد كانوا بغاية السرور... جلسوا على الطعام لا يكادون يصدِّقون ما يرون أمامهم... بل وما يذوقون بأفواههم... وهكذا حتى... شبعوا تماماً...

أما السيد محمد أمين فما يزال جالساً على كرسيّه ويدخّن نرجيلته... وما أن شبعوا حتى نهض بعضهم (فهم معتادون على الخدمة الذاتية يخدمون أنفسهم بأنفسهم)... فنظّفوا الأواني والصحون جميعها ورتّبوها بالمطبخ على أتمّ وجه ورتّبوا المطبخ وغسلوا أرضه، ثم عادوا ليجلسوا في الحديقة... وليلعبوا بالورق... وهم بغاية السعادة والنشوة... يحتسون القهوة المرّة... وهكذا إلى أن قاربت الشمس على المغيب... عند ذلك أشار لهم المجرم الذي كان سبباً في إكرامهم... علينا أن نغادر ونترك سيدنا ليرتاح.

فقاموا جميعاً واستأذنوا: بالذهاب.

فقال لهم "سيدهم" السيد محمد أمين: اسمعوا يا رجال... فأنا لا أستطيع أن أعيش بدونكم فمن ليس عنده شغل أو عمل فليأتِ للسهرة عندي "علماً أنهم كلهم لا عمل لهم سوى الإجرام"...فأنا أسهر الليل أتسلّى ولا أحبُّ أن أبقى لوحدي بدون "قبضايات"، إذ لا يطيب لي العيش دون مشاهدتكم.

أجابوا: أمرك سيدي... وخرجوا.

وهكذا كانوا يتردَّدون للسهرة عند السيد محمد أمين كل ليلة وبعدد كبير... يقضون الليل بلعب الشدّة واحتساء القهوة المرَّة.

* * *

خرج السيد محمد أمين للطريق... لأمر ما... خرج معه "مرافقة" خمسة عشر من الرجال القساة العتاة... على يمينه حوالي سبعة أو ثمانية رجال وعلى يساره سبعة أو ثمانية من الرجال الجبابرة... يتوسطهم كالقمر وهم هالته، أو الأسد وهم كأشباله... والكل خاضعون له رهناً لإشارته... لقد أعاد سلطته ونفوذه... لكن عوضاً عن رجال الأمن برجال آخرين فأصبح يُقيم بهم العدل والأمن في البلد الذي كان يُعاني أوضاعاً صعبة نتيجةً للتغيرات والاضطرابات السياسية والأمنية الكثيرة في بداية خروج الدولة التركية من البلاد ودخول الفرنسيين... فلقد فُقِدَ الأمن في تلك الفترة الزمنية وَفُقِدَ الاستقرار.

نعم شاهد أهل الحيِّ ذلك... مرافقته كبار المجرمين وهو عليهم سيداً وزعيماً، حتى إن جارتهم عبَّرت عن استغرابها وتعجُّبها بعد ذلك لزوجة السيد محمد أمين قائلة:

لقد احترنا في أمر زوجك... فتارةً مع المشايخ رجل دين (إذ إن كل أهل الدين يكنُّون له عظيم التقدير والاحترام... أما هو فكان يُكرمهم عظيم الإكرام) وتارةً مع المجرمين وهو سيِّدهم... فهل هو رجل دين أم شيخ شباب؟.!!!.

* * *

وذات يوم وكالعادة كان السيد محمد أمين يمشي ومعه مرافقته من الرجال "المجرمين" فالتقى بالمجرم الذي كال له الشتائم أولاً، وعلى الفور... انقضَّ عليه السيد محمد أمين مثل البرق مخلِّفاً رجاله وراءه بخفَّةٍ ورشاقة وسرعة... ولطمه على وجهه لطمتين... قائلاً له: لماذا شتمتني؟.

وبسرعة البرق أخرج المجرم مسدسه ولقَّمه مُشهراً إيَّاه على إنساننا المفكِّر... ولكن يا للمفاجأة فخلال لحظات لم يرَه السيد محمد أمين إلاَّ وهو مرفوعاً فوق رؤوس مجموعة الرجال ثم ملقىً على الأرض، إذ انقضوا عليه ونزعوا منه السلاح وحملوه إلى حافة النهر "نهر يزيد أحد فروع نهر بردى"... مُشهرين سكاكينهم ليذبحوه ويرموه بالنهر وكأنه شيءٌ لم يكن (فأَمْرُ ذبح شخص عندهم أمر لا قيمة له).

هنالك صرخ السيد محمد أمين قائلاً:

لا... لا يا رجال... لا أريدكم أن تنجِّسوا سكاكينكم به... بدمه القذر... اتركوه فهذا لا يستحق أن تتَّسِخَ سكاكينكُم به وبدمه...

"فإنساننا ذكي... مفكِّر... لا يريدهم أن يقتلوه، لذا خاطبهم باللغة التي يفهمونها... وعلى قدر عقولهم".

تركوه يقف متعجبين من عدم ذبحه، فما صدَّق ذاك المجرم بالنجاة، إذ وقف يرتعش كقشَّةٍ في ريح عاصف.

ثم تابع قائلاً: ولكن يا رجال أخبروا كل "القبضايات" أن هذا دمه أصبح مهدوراً... والحاضر يُعلم الغائب منكم بذلك.

فالذي يراه بعد اليوم بهذا البلد فليذبحه (فدمه مباح)... وما أن تركوه... وما كاد يصدِّق بالنجاة... حتى اختفى إلى الأبد من أرض الشام بلا رجعة.



تاب مجرم عاتٍ، وأخذ يرتاد المسجد في أحد أحياء الشام ويُصلِّي وراء إمام المسجد (الشيخ) يومياً وبكل أوقات الصلاة لا يضيِّع منها وقتاً مدة أربعين يوماً متتالياً، وكان ينهض لصلاة الفجر فيدخل المسجد قبل دخول الإمام ذاته.

ذُهِل إمام المسجد لهذا التغيير الجذري وهذه التوبة الصَادقة، فالمعروف عند المشايخ أنه "إن ثابر الإنسان على صلاة الجماعة لمدة أربعين يوماً فهو من أهل الإيمان"، وإن رأيتم الرجل يرتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان.

فأي توبة عظيمة هذه التوبة التي تابها ذلك المجرم... من الإجرام... من القتل... والسلب والنهب... إلى الصلاة وبالمسجد "جماعة"وبكل الأوقات...

توبة نصوحة واستقامة عُظمى... قد سلَكَها هذا الشاب، بل فخر الشباب...

هذا ما أدركه الشيخ ولمسه من الشاب فأبدى له رائع إعجابه وسُرَّ كثيراً به وله بهذه التوبة وهذه العبادة.

المهم: ما إن انتهت الأربعون يوماً حتى بادر هذا الشاب التائب العابد إلى شيخه فطرق باب البيت... فتح له الشيخ الباب واستقبله استقبالاً خاصاً وحاراً، إذ إنه إنسان قد خرج من الضلال والإجرام إلى الهدى والهداية...

دخل البيت... وهنالك طلب يد ابنة الشيخ... يريد أن يكون صهراً للشيخ.

سُرَّ الشيخ كثيراً بطلبه وفوراً وافق حبّاً بتوثيق عرى العلاقة بينهما كي يستمر في توبته ولا يعود لضلاله... أي قَبِلَ الشيخ حبّاً بتثبيته على طريقه الجديد الذي مشى فيه ألا وهو طريق الدين والعبادة، فبهذه المصاهرة سيبقى تائباً ولربِّه عابداً... فامرأته هي ابنة الشيخ وعمه الشيخ الإمام لا سواه.

ولكن للأسف الشديد... فالنوايا كانت سيئة للغاية وكما يقول المثل (ظللت أصلي حتى حصل لي ولمَّا حصل لي بطَّلت أصلي). وبالحقيقة فإنه إنما تمسكنَ ليتمكَّن.

فابنة الشيخ ذات حسن وجمال أخّاذ... هذا الوصف تناقلته ألسنة بعض النساء الغبيَّات الجاهلات في الحي... من واحدة لأخرى حتى وصل وصفها لهذا الثعلب الماكر... هنالك دارت في مخيلته أفكار شيطانية ونوى نيَّتهُ الخبيثة، فبادر لتوبته الكاذبة الخدَّاعة ليصل لمطلبه وغايته، فما أن أصبحت تلك الفتاة "ابنة الشيخ" حلاله وفي بيته، حتى خلع قناع الصلاح والعبادة وظهر على حقيقته... مكشِّراً عن أنيابه الوحشية.

لقد انكشفت نواياه، إذ لم تمضِ إلاَّ أيام قليلة على زواجه حتى دخل وبصحبته عدد من المجرمين المنحطين ممَّن هم على شاكلته، ووضعت الخمور وظهرت طويَّته... يريد أن يتاجر بزوجته بالحرام... بما لا يُرضي الله ليكسب من ورائها الأموال...

دخل إليها يُخبرها بقدومهم!. استغربت منه هذا الإخبار... فصرَّح إنه يريد منها أن تدخل إليهم... طار صوابها ولم تعد ترى بعيونها... ماذا؟.؟.

هذا ما يريد منها!. يا للهول إنها إنسانة طاهرة عفيفة تربَّت عند رجل طاهر مستقيم... تربية طهارة وعفَّة... لقد كانت الصدمة قاسية عليها... ثم كبتتها بذكائها فإظهارها له فيه دمارها تحت براثنه الوحشيَّة.

قالت له: انتظرني لحظة، وتظاهرت بأنها ستقضي حاجة بالحمَّام فدخلته... وما إن ذهب لرفاقه حتى تسللت لغرفتها فتناولت غطاءً وفرَّت هاربة من البيت لا تكاد ترى طريقها من خوفها وعظيم صدمتها...

وصلت بيت أهلها تكاد لا تصدِّق بالنجاة من هذا الوحش... وقصت القصة لوالدها وهي تبكي فصدمته بما حدث...

لقد خاب ظنُّه ولم تصدق فراسته... ظنَّه شاباً تائباً ولربِّه عابداً فأسرع بتزويج تلك المسكينة له ليزداد صدقاً وعبادة لربِّه فلا ينكث بتوبته، وإذ تفاجأ به خبيثاً مكَّاراً.

لقد خاب ظنّه وازداد بما فعل همّه فقال لابنته بصوت حزين وعيونه تكاد تقطر دمعاً: سامحيني يا ابنتي سامحيني... الله ينتقم منه... الله يأخذ حقّنا منه.

أما المجرم فلا يوجد من يردعه ويضع له حدّاً... فما أن دخلت بيت أهلها... فَقَدَ وجودها بالبيت، إذ تأخَّرت عليهم... نادى في البيت فلا مُجيب... طار صوابه... لقد فعلتها وهربت... لكنه ظنَّ أنها لن تُفلت من قبضته، فقصد بيتها بيت عمّه وأخذ يطرق الباب طرقاً مزعجاً عرفوه فانتابهم الخوف، فلا رجل بالبيت ليُدافع عنه إلاَّ هذا الشيخ المسن المسكين.

لم يفتحوا الباب، بل أوصدوا باب الغرفة زيادة في الحيطة فانطلق صراخ المجرم المتمادي في باطله وإجرامه... كان يصرخ فيُسمع الحي صراخه:

أريد زوجتي... أريد زوجتي... أنا أقول لكم أعيدوا لي زوجتي وإلاَّ ستندمون.

وهذا فعله يومياً... يأتي فيملأ الحي صراخاً: أريد زوجتي... أريد زوجتي...

وإن التقى بعمِّه في الشارع فيا ويل عمّه، لا يترك كلمة وسخة إلاَّ وينعته بها أمام كل الناس يصيح به يهدِّد يزمجر... بأوسخ وأبشع الكلام... طالباً زوجته... حتى وصل به الأمر إلى أن يشدَّه من ذقنه...

أما الشيخ المسكين فلا يعرف كيف يتخلَّص منه؟.

كيف يهرب منه ويتوارى عن أنظاره؟.

لقد أحلَّ الرعب بالأسرة بكاملها ونغَّص عليهم حياتهم فجعلها مريرة بقسوته.

أشار البعض على الشيخ بأن يشتكي للسلطة... فاشتكى ولا جدوى حتى تدخلت الوِساطات في هذه القضية فأوصلوها إلى المندوب السامي الفرنسي في سوريا (ولكن تارك الصلاة لا خير فيه). فقال: إذا لم يكن هناك ضرب أو جرح... خروج دم، فلا نستطيع معاقبته وحسب القانون لا نستطيع أن نعمل شيئاً ضدَّه!!.

ولكن أليس ما يفعله يومياً وما نوى على فعله مع ابنة الشيخ الطاهر بحدِّ ذاته إجرام!.

ثم وللإلحاح في هذه القضية قام المندوب السامي بنفيه مدة شهر لا أكثر!. قضى مدة الشهر في لبنان!!. وهذا مدى ما سمح به القانون الفرنسي.

انقضى الشهر وعاد المجرم اللعين... عاد وقد ازداد إصراراً وعناداً... ازداد شروراً وبشاعة أضعاف ما كان عليه قبل النفي... لقد عاد للتهديد والوعيد طالباً زوجته ويومياً... بل أصبح عدّة مرات باليوم يتردَّد مجلجلاً بأعلى صوته مهدِّداً متوعِّداً... يطالب بزوجته... بصوت كالزئير...

عاشت الأسرة بقلقٍ عظيمٍ ورعب رهيب يتوقعون بين الحين والآخر أن يتسلَّق الجدارَ فيتسلَّل للبيتِ ويأخذها غصباً عنهم... يأخذها لأغراضه الحقيرة منتهكاً عرضها فاضحاً سترها مع الحقراء من أمثاله...

* * *

ومضت الأيام وما يزال المجرم على هذا المنوال مما جعل حياة هذه الأسرة جحيماً لا يُطاق بعد أن كانوا في نعيم... وما من رادع يردعه ويوقفه عند حدِّه:

وإذا ما خلا الجبان بأرضٍ   طلب الطعن وحده والنزالَ

حتى إن الشيخ لم يعد يطيق الأكل والشراب، بل كان يبكي وحيداً متوارياً عن أنظار أسرته ضارعاً لله بالخلاص من هذا اللعين الشرير:

ربَّاه... ما الحلُّ... ربَّاه قد ضاقت الدنيا بما رحُبت... والفرج منك يا رب... ربَّاه أنا ضعيف وأنت القوي فاصرفه... اصرف هذا الشرير عنّا... أبعده... خلِّصنا من كيده... بما شئت وكيف شئت.

ذاق هذا الشيخُ المسكين أياماً عصيبة مريرة حتى إنه فقد نصف وزنه، بل أكثر بهذه المحنة القاسية...

وبعد كبير المعاناة تحرَّك أحدُ أصحابه ليمدَّ يد المساعدة... فأوصل الخبر لمن سمع عنه أو لعلَّه يعرفه بشجاعته وتصديه للشرِّ وبطشه بالإجرام والمجرمين... للسيد محمد أمين الذي طمأنه قائلاً:دعوا الأمر لي... وبشَّر الشيخَ بأن الأمور محلولة إن شاء الله سأجعله يطلِّقها شاء أم أبى...

ثم دعى والدها الشيخ واثنان من إخوانه المشايخ للغداء باليوم التالي.

هنالك حدَّث الشيخ نفسه: هل معقول ذلك... هل يستطيع أن يُقنع ذلك الشرير اللعين بطلاقها وقد عجز المندوب السامي الإفرنسي عن ذلك؟.

أما السيد محمد أمين فما أن غادر صاحب الشيخ حتى اختار اثنين من أشجع رجاله "المجرمين" وأقواهم... فهو يعرف "المجرم" زوج ابنة الشيخ أثناء خدمته بالجيش كضابط... وهذا المجرم ليس من رجاله الآن لأنه ليس من وزنهم بالإجرام.

اختار الرجلين الاثنين وقال لهما: غداً تدعوان "فلاناً" إلى طعام الغداء عندي تبلغانه دعوتي وتحضران أنتما أيضاً... فهمتم ما أقول؟. ثم كشف لهم عن خطَّته ضدّه.

ردَّ الاثنان: كما تريد يا سيدنا...

* * *

وفي اليوم الثاني أقام السيد محمد أمين مأدبة سلطانية حوت أفخر وألذ الطعام والفواكه... وعند الغداء حضر الشيخ "والد الفتاة" وشيخان آخران من معارفه...

رحَّب بهم السيد محمد أمين بحفاوة واستقبلهم ضيوفاً مكرمين.

وبعد فترة ليست بالطويلة حضر المجرم "زوج ابنة الشيخ"... فما أن دخل باب الغرفة وشاهد عمّه أبا زوجته بالداخل حتى تسمَّر بالباب يريد الرجوع قائلاً:

لا أطلِّق... لن أطلِّق زوجتي... لا أطلِّق...

فقال له السيد محمد أمين: هذا معيب... فهل سألتك شيئاً من هذا القبيل حتى تقول ذلك؟. أنا دعوتك عندي.

لكن المجرم اللعين لم يقتنع بما سمع بل قال: لن أطلِّق... لن أطلِّق... وإلاَّ فوجود هذا "مُشيراً إلى عمّه والد زوجته" ما معناه؟.

فردَّ عليه ضابطنا بقوة: ألا تسمعني أنت أيها الرجل... هل قلت لك طلِّق حتى تقول ذلك؟.

قال المجرم: لا...

فقال السيد محمد أمين: إذاً لماذا تقول هذا الكلام... فالذي لا يحترم الرجال ليس منهم... هيا ادخل واجلس.

هنالك صمت ودخل وجلس قائلاً: ولكن لن أطلِّق.

وما هي إلاَّ فترة وما أن شعر السيد محمد أمين بهدوئه وانطفاء ثورته حتى قام وجلس بجانبه وفتح الحديث معه بشأن زوجته وطلاقها... ولكن للأسف كان كالصخر في تصلبه وتمسكه بباطله... مصراً على عدم الطلاق...

أغراه السيد محمد أمين بالمال كي يطلِّق فأبى... أبى أن يطلِّق تلك المسكينة الطاهرة... هنالك قالَ له بانزعاج:

إذاً هكذا الأمر... فلن تطلِّق؟.

فردَّ الخبيث المجرم: لا لن أطلِّق... أبداً.

فأشار السيد محمد أمين للمجرميْن الآخرين "رجاله" بإشارة خفيفة، كان على اتفاق مُسبق معهما على خطّة ذكية عليهما تنفيذها بإشارة من بنانه...

والآن آن الأوان لتنفيذها...

فما إن تلقيا تلك الإشارة حتى انقضّا باتجاه ذلك المجرم "الزوج"... فانتزعا منه سلاحه بالقوة، ثم أمسك كل واحد منهما كتفاً من أكتافه وكانا أقوى منه وأشجع.

حاول المقاومة فقهراه ولم يعد باستطاعته الحركة، إذ أصبح كصوص الدجاج بين أيديهما الضخمة القوية...

عندها قال المجرم: اقتلوني ولن أطلِّق. إرمِ جريمة في دارك يا بك.

فأجابه: لا لن أقتلك وتوجَّه بالأمر للرجلين قائلاً لهما:

هيا "سخِّموه" (أي عرُّوه من ثيابه أمام الحضور، فبقانُون المجرمين ومما يعتبرونه أشد عار وأكبر نقيصة ومذلة أن يُعرَّى أحدهم أمام الآخرين، فالذبح والقتل أهون عليه من تنفيذ هذه الكلمة "التسخيم")...

عندما سمع المجرم هذه الكلمة طاش صوابه وتحطَّمت صلابته وجبروته وانقهر وذل ذلاًّ ما بعده ذل وصرخ:

يا سيدي دخيلك... أنا داخل عليك... أنا بعرضك يا سيدي.

ردَّ عليه السيد محمد أمين: أنت ما عندك عرض يا قليل الشرف... وبدأ المجرمان بمحاولة تعريته، فصرخ المجرم وكأن الدنيا أطبقت على صدره:

دخيلك "رح طلِّقها"... فهي طالقة... طالقة... طالقة...

هنالك صاح السيد محمد أمين بالشيوخ الثلاثة الغائبين عن الوجود بذهول كبير تام... وسبب هذا الذهول والضياع أنهم عندما سمعوا بتلك الكلمة "سخِّموه"، صاحوا جميعاً: لا... لا... وصاح أبو الزوجة "عمّ المجرم": لا أريد أن يطلِّق... خلاص اتركه... فلا أريده أن يطلِّق...

فما بدر من الشيوخ كاد أن يُفشل ويخرِّب عليه خطّته الذكية الرائعة التي دبَّرها ونسجها...

عندما واجهوه بهذه المعارضة العلنية صاح ثانية للمجرمين: بعد انتهائكم منه عليكم بهؤلاء الثلاثة أيضاً مُشيراً للشيوخ...

نظر الشيوخ الثلاثة برعب وهلع للسيد محمد أمين فرأوا منظر وجهه كوجه الأسد بجدّية لا تُوصف، عندها أيقنوا بما سمعوا فانصعقوا ولم يعودوا ليعوا ويدركوا شيئاً مما يدور.

ولكن عندما قال المجرم طالقة... طالقة... طلقتها بالثلاث بلا رجعة.

أراد السيد محمد أمين أن يُسمع الشيوخ "المصعوقين" يمين الطلاق... فصاح بهم بعد أن هزَّهم بيده ليصحوا من سكرتهم وذهولهم قائلاً لهم:

اسمعوا... اسمعوا ما يقول...

عندها وعوا لكلامه، فقال له: أعد يمين الطلاق...

فقال المجرم وهو لا يصدِّق أن هل سينجو من هذا الأمر: زوجتي طالقة... طالقة... طالقة... طلقتها بالثلاث بلا رجعة، وبذلك خلعها من عصمته، وهم جميعاً على ما قال شهود.

عند ذلك توجَّه السيد محمد أمين بمنظره الذي يبعث الرعب في أعتى القلوب نحو المجرمين الآخرين قائلاً: اسمعوا ما أقول... أخبروا جميع الشباب "المجرمين" أنَّ دم هذا الكلب مُباح من الآن فصاعداً، فالذي يراه بعد اليوم فليقتله مباشرة... أطلقوا الكلب الحقير فأطلقوه... ففرَّ هارباً بروحِه "بحياته" من أرض الشام وبلا رجعة...

ثم انصرف المجرمان الآخران بعد أن استأذنا من سيِّدهم بعد الغداء... توجَّه السيد محمد أمين للشيوخ الثلاثة قائلاً:

هل صدَّقتم أني كنت سأسمح بما قلت لهما!!. إن هي إلاَّ لعبة وخطّة كي يطلِّق... فو الله لن أسمح بذلك ولو كانت بنتي زوجته... ولكن هذا المجرم الخبيث وأمثاله لا يفهمون إلا بهذه اللغة... وحتى ولو أنه لم يطلِّق فما كنت لأسمح بهذا العمل أبداً، بل أتَّبع تدبيراً آخراً وخطّة ثانية كي يطلِّق... ولكن كل ما رأيتم وسمعتم كان خطّة كي نخلِّص تلك المسكينة من براثن هذا الوحش... ألم يعجز المندوب السامي الإفرنسي عن تطليقها؟.

عند ذلك وبعدما سمعوا ما سمعوا نظر الشيوخ الثلاثة نظرة خجل مما بدر منهم وإعجاب وتقدير لهذا المفكِّر الإنساني الرحيم... وخرج الثلاثة حامدين لا يعرف والد الفتاة كيف يشكر ذلك الإنسان الرحيم ويردَّ له صنيعه، بل طلب من الله أن يجزيه عنه ما هو أهله...





هذا موقف من أحد المواقف انطلق فيه السيد محمد أمين يومئذٍ لعمل من الأعمال حبّاً بالله وبعباده.

إنها واقعة جرت له مع أخيه حين كان أخوه بضيقٍ مادي وهو جريح وفي فراشه طريح منذ عدّة أشهر، فطلب منه قبض راتبه المكسور، على هويَّته العسكرية لحلِّ ضائقته المادية.. فسارع بتلهُّف لمساعدته ولفرج كربه، فوقع بما لم يكن بالحسبان.

* * *

إثر انتهاء الحرب العالمية الأولى دفعت الدول الحليفة ضدَّ ألمانيا اليونان من أجل ضرب تركيا حليفة ألمانيا وعدوتها اللدود، وقد دعمتها بالسلاح والأعتدة الحربية من أجل تحقيق ذلك الهدف وبغية القضاء على الدولة التركية. وكانت اليونان تُعتبر قبل ذلك إحدى ممتلكات تركيا الصغرى.

فوجئت تركيا بهذا العُدوان الغيْر مُتوقَّع، وكان أخو السيد محمد أمين الجنرال "سليم بك" في مقدمة الجيش التركي هو القائد المعيَّن على إحدى الفرق العسكرية التركية الضاربة.

وقد دافع دفاعاً عنيداً وقوياً، وثبت أمام العدو وتشبَّث بالأرض بإصرار وعناد حتى دُمِّرت فرقته تقريباً وظلَّ ثابتاً وتعرض عدة مرات للموت وجرح أكثر من مرة في أرض المعركة وهو ثابت، وبذلك أنقذ الدولة التركية من الهزيمة المحقَّقة وتلقَّى الصدمة الأولى ورغم كل ما تعرَّض له ظلّ ثابتاً حتى وصول القوات التركية وزج

أرتال كبيرة من الجيش في المعركة بعد أن أوقف تقدُّم العدو. بعدها قامت القوَّات الجديدة الزاحفة بإرغام الجيش اليوناني على التراجع والهزيمة.

ولولا ثباته ومقاومته العنيدة لاستطاعت اليونان دخول العاصمة واحتلالها من هذه الثغرة. وبهذا العمل وهذا النجاح قدَّم نصراً كبيراً وأنجز عملاً جبّاراً رفع رأس تركيا وحَفِظَ لها آخر رَمقٍ من مكانتها بين الدول، بعد زوال امبراطوريتها.

هذا وبعد المعركة حصل على نقاهة مرضية في البيت لمدة ستة أشهر نتيجة للجروح التي أصيب بها أثناء المعركة.

* * *

وفي تلك الأثناء كان السيد محمد أمين في تركيا بزيارة عند أخيه الجنرال الذي قال له: أرجوك أن تذهب وتقبض لي الراتب المكسور عن عدَّة شهور بهويتي، فقد أصبحت مديوناً.

قال السيد محمد أمين: حبّاً وكرامة... ثم ذهب لاستلام الراتب على هويَّة أخيه العسكرية.

وبعد أن استلمه بدل أخيه الجنرال تعرَّض لأحد المواقف الصعبة الحرجة ووقع في ورطة رهيبة، إذ فوجئ بالحرس يقول له: سيدي الجنرال سليم بك تفضل...

وفجأة فُتح له بابان على مصراعيهما: طالبكم الصدر الأعظم، وإذ به أمام الصدر الأعظم وجهاً لوجه "والذي كان منظره يُرعب كل من رآه لمهابته وشخصيته الجبَّارة وشاربيه المفرطين بالضخامة"، فكيف به وهو أمامه يظنُّه صاحب تلك الصفة العسكرية والرتبة الكبيرة الجنرال سليم بك قائد إحدى الفرق التركية والذي حقَّق النصر على العدوان!.

بما أن الصدر الأعظم هو الحاكم الفعلي للامبراطورية التركية فقد شعر ضابطنا بالموقف الرهيب الحرج وبوضع ليس سهلاً أبداً، إذ أنَّ الصدر الأعظم ظنَّه بأنه هو القائد الجبَّار قد أتى لاستلام راتبه وكان قد أوصى محاسبة الجيش بإعلامه عن قدومه لاستلام الراتب مسبقاً، ولكن وخلال لحظات من المحاكمات الفكرية العاصفة وبقوة صاعقة وبصدق عظيم كبداهته في المواقف الصعبة انقضَّ بسرعة تجاه الصدر الأعظم مؤدياً التحية العسكرية، وقدَّم اسم أخيه القائد ورتبته العسكرية على أساس أنه هو القائد الجنرال المعنيُّ مُنقذ الدولة التركية.

ذلك الأداء القوي جعل الصدر الأعظم يندهش ويُعجَب به، إذ لم يسمح لذرّة شك "بسرعة بديهيّته وثبات جنانه وتصرّفه الرائع" تدلُّ على أنه يمثّل تلك الشخصية العسكرية الكبيرة.

هنالك قال له الصدر الأعظم: أنت يا بني قدَّمت نصراً عظيماً لتركيا ونلت شرفاً كبيراً، والآن أريد أن أسمع منك وصف المعركة البطولية التي خضتها مع العدو، ولم يكن قد سمع من أخيه الجنرال شيئاً من التفاصيل.

وبالفعل أصبح أمام موقف صعب آخر ولكن:

﴿ . .وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ﴾[1].

قال السيد محمد أمين في سرِّه: والله لا أعلم شيئاً عن المعركة إلا أخباراً بسيطةً جداً لا تفي بالمطلوب، ولكن تصوَّرت فعلاً لو كنت أنا قائداً للفرقة فماذا أعمل إذا فوجئت بهجوم!. وبدأت أتكلَّم واصفاً له معركة خيالية كيف كنت ألتفُّ على العدو مرة إثر مرة، أهجم وأنقض بألويتي القتالية صادّاً هجماته الشرسة وفرقه الكثيرة "بخططٍ وهمية أصوِّرها وأصفها له من مخيلتي وتصوُّراتي الحربية"، فكان كلما سمع عن خطة قتالية دُهشَ وصُعق لبراعة خططي وحبْكها من هجوم جانبي وصدٍّ لهجوم جبهي وإفشال كافّة محاولات الالتفاف، ثم إشغال العدو بهجمات ثانوية خلفية لقوى خفيفة حَسِبَها العدو هجمات رئيسية شتّتت قواه الضاغطة الجبهية مما أفشلت الهجوم الكاسح حتى وصلت فرق الجيش التركي النظامية فأمكن الإجهاز على قوى العدو وصدِّه.

أما الصدر الأعظم فقد عاش تماماً بجو المعركة وأصبح كتلة استماع وإعجاب، وبقيت أتكلَّمُ عن معاركي ودفاعاتي المجيدة ما يربو على الساعة وفعلاً شعر الصدر الأعظم بأنه يعيش في جو المعركة تماماً.

وبعد الانتهاء من وصف المعركة البالغ بالروعة والمفاجآت التكتيكية الحربية وقد عاد للصدر الأعظم روْعه من هول ما سمع وأثنى على هذا الإنسان عظيم الثناء وقال له:

كيف أنت الآن؟.

[1] سورة الطلاق: الآية (٢).

فردَّ بشجاعة وقوة: إنني على استعداد تام الآن أن أذهب للقتال وأخوض المعركة، فقال له الصدر الأعظم حينما شاهد معنوياته العالية:

لا.. لا.. يجب أن ترتاح حتى انتهاء النقاهة الطبية فهي من الأطباء المختصين، فعليك بإتمامها فلقد أدَّيت أعظم خدمة للوطن وأنت لدينا مكين محمود.

* * *

وبذلك انتهت المقابلة، فحيّا الصدر الأعظم بنشاط وقوة وانصرف إلى أخيه، وقصَّ عليه ما جرى معه فاصفرَّ وجه أخيه رعباً وهلعاً وبدت عليه الدهشة والخوف من النتائج، فتابع السيد محمد أمين حديثه قائلاً:

لا تخف نجحَتِ الخطة ونجح الموقف أمام الصدر الأعظم وقد تكلَّمت له بعد أن استعنت بالله تعالى عن المعركة الموهومة وعن خطط الهجوم والدفاع والكرِّ والفرِّ، بالخطط كذا وكذا..

وهنا قال له أخوه وهو مصعوق:

والله لم أنفِّذ واحداً بالمئة مما تكلَّمتَ عنه من بطولات وخطط عسكرية إبداعية.





سجى الليل فاستفاق السكون وأضاء مصباح الهدوء وكسا المدينة رداء الهيبة والوقار وغرِق الناس في سباتٍ عميق انقلب أكثر من نصف الليل...

وفجأة شرخ هذا الصمت وأذهل هذه السكينة صوت أقدام تدب على بلاط الشارع إنه وقع منتظم رتيب... توقفت الخطى...

رفع يديه وتحركت شفتاه بتمتمات استمرت هنيهة...

لقد كان يقف قبالة باب مسجد الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي، وجرياً على عادة أهل الشام فقد توقف يتلو الفاتحة له لكنه ما كاد يلفظ عبارة:

هذه الفاتحة أهبها لسلطان...

حتى لفَّته سحابة من التفكير العميق، إذ قفز إلى ذهنه تساؤل:

تُرى من أين أتته هذه السلطنة (سلطان العارفين) وكيف حاز عليها؟.

جرى فكره يقلِّب الأمر ويغربل الاحتمالات حتى لمع في خاطره ما أثلج صدره.

لقد أدرك السيد محمد أمين أن السر كان في متابعته لسيّد ولد آدم... محمداً رسول الله ﷺ.

يا خير من يمّم العافون ساحته   سعياً وفوق متون الأيْنق الرسم
و من هو الآية الكبرى لمعتبــر   ومن هو النعمة الكبرى لمغتنــم

لقد تولَّد الآن في نفسه طلب عظيم... لم يَعُزْهُ الطموح، ولم يثنه تردُّد، عندها عاهد ربّه في نفسه قائلاً:

أنا، إن شاء الله سأتابع سيدنا رسول الله محمداً ﷺ...

* * *

لقد كان ضابطنا يشغل رئيس قسم الشرطة في حي الصالحية والأكراد... وبينما هو جالس في مكتبه جلب إليه سمعُه أصوات جلبة وضوضاء وصياح، دخل بعدها الدرك يقبضون على رجل يردِّد بثقةٍ وأنفة: "**أنا لا أُضرب**".

أما هم فقالوا: لقد اعتدى على رجل وضربه ولم يكتف بذلك وإنما شتم الدولة أيضاً وهو ما يفتأ يهدِّد ويوعد ويردِّد عبارة "أنا لا أضرب".

فأجابه ضابطنا "رئيس القسم" وعلى الفور: أنت لا تُضرب!. وأنا سأضربك.

وبإشارة من بنانه... ألقاه الدرك أرضاً وسرعان ما كانت الفلقة تسوِّر رجليه، تناول السوط ورفعه بيده فوق رأسه، وما أن همَّ بجلده حتى اقتحم باب القسم وجهاء الحي وأكابره وعلى رأسهم العارف بالله إمام جامع الشيخ "محي الدين بن عربي"، الشيخ "محمد أمين خربطلي" ولسانهم وحالهم يرجو الصفح والعفو عن هذا الرجل... قائلين:

هذا الرجل لا يُضرب...

قال لهم مستغرباً: لكنه اعتدى على فلان!.

ردَّدوا جميعاً: هذا فلان المعتدى عليه معنا وقد أسقط حقّه...

فما كان منه إلاَّ أن تبسَّم قائلاً: ما دمتم سامحتموه بحقكم... وأنا كممثل للدولة أغفر له شتمه لها إكراماً لخاطركم.

خرجوا والبشْر يطفح من وجوههم... شيَّعهم إلى الباب، إلاَّ أن علامات الدهشة والاستغراب كانت واضحة على محيّاه!. متسائلاً عن سرِّ هذا الإنسان الذي يحظى بحبِّ الجميع والذي لا يُضرب!.

* * *

وفي اليوم التالي استأذن عليه رجلان تبدو عليهما مظاهر الفخامة والأبهة والأناقة ما يدل على أنهما من عليَّة القوم، بعد التحية وبأدب جم طلب إليه أحدهما أن يشرِّف الباشا بزيارته في قصره.

عرته الدهشة وتولاه الاستغراب، أيكون في منطقة عملي باشا ولا أعلم!!!.

لقد كان لقب الباشا لا يُطلق إلا على الولاة "رؤساء الجمهوريات" كوالي الشام أو العراق ولا بد أن هذا الوالي متقاعد وإلاَّ لكان قد سمع به ومع ذلك فالباشا يبدو ذا خطر عظيم وشأن كبير لأنه طلّق السياسة والحكم وهو على قمة المجد فتُرِكَ له جاهه وهيبته.

وصل الركب إلى قصر الباشا... أسواره تطاول عنان السماء يتوسطها باب كبير عليه من النقوش والزخارف ما يدهش العقول ويسلب الألباب، فُتح الباب:

ماذا؟. لقد كشف عن منظر يخلب الأرواح، يبهج العين ويسرُّ الخاطر...

ربَّاه... هل فتح باب الجنة!. ممرٌّ طويل أرضيَّته من الحجر الثمين والمصقول حتى يكاد المرء يرى رسمه على صفحتها تحفُّ به أشجار شذبت بأشكال هندسية رائعة، يغطي الممر عرائش الكرمة وقد تدلَّت عناقيدها كثريَّات الذهب... تسللت الأنظار إلى الحديقة ورود قد استلَفتْ من الشمس البهاء ينبعث منها أريج ينعش الأنوف، وفي الوسط كانت هناك بحرة واسعة تناثرت على صفحاتها نقوش وزخارف أبدعت يد الفنان صوغها وفي وسطها نوفرة يتدفق منها الماء رذاذاً يعانق الوجوه فتصحو على هذا الجمال، وعلى الأفنان أمِنت الطيور فراحت تصدحُ بألحانٍ تأخذ بمجامع القلوب.

دلف الركب المنزل فاستقبلنا بهو واسع عبقريُّ التكوين ذكي البناء، زخارفه تكاد تنطق بالفتنة والروعة، وَلَجنا إلى قاعة الاستقبال "**المَضافة**":

الضوء يتسلَّل من كل ناحية ينعكس على الأشياء فتبدو وليمة الألوان والظلال ساحرة خلاَّبة، وعلى الجوانب اصطفت المقاعد ذات الخشب الثمين المطعّمة بأحجار الزينة الملونة، وفُرشت الأرض بأنواع السجاد العجمي الوثير وازَّينت الجدران بلوحات فنية رائعة، وفي وسط القاعة كانت هناك فستقية صغيرة يتفجر الماء من وسطها يتقلَّب إلى أعمدة تعكس ألوان قوس قزح، ومن السقف تدلت الثريات الضخمة

الفخمة ذات التصاميم النادرة والكريستال النقي العزيز حتى إن المرء لا يملك حين النظر إليها إلا أن يُؤخذ مبهوراً مشدوهاً.

وفي صدر القاعة... كان هناك عرش كبير يتربَّع عليه رجل وحوله عدد من أكابر الرجال، وما أن وقعت عيناه علينا حتى هبَّ واقفاً... وأسرع نحونا وكلمات الترحيب تسبقه.

يا للمفاجأة... يا الله أهذا هو الباشا!.

إنه نفس الرجل الذي طرحه الدرك أرضاً ووضعوا الفلقة في قدميه...

إنه نفس الرجل الذي أمسك السوط ليوسعه به جلداً... إنه الباشا!.

ناداه بصوت قوي... إذاً أنت "أصلان" الذي نسمع ببطولاته وشجاعته وشرف نفسه وشهامته ولم نره... كم يسعدني أنك ضيفي...

وبلباقته المعهودة ردَّ على ترحيبه بكلمات لاقت استحسان الباشا وطيَّبت خاطره.

أجلسه الباشا إلى جنابه والحبور يأخذ منه كلَّ مأخذ...

لقد سيطر على الجو الرضا والتفاهم وكان الإعجاب والإجلال والتقدير الذي كنَّهُ الباشا في نفسه لهذا الليث الهُمام هو الذي أضفى على هذه الجلسة هذا اللون الفريد من الشاعرية الراقية.

وبينما هم كذلك دخل أحد الخدم يُعلن للباشا بأن الطعام جاهز ينتظر الآكلين.

دعا الباشا ضيفه الكبير للانتقال إلى صالة الطعام والسعادة تكاد تطفح من عينيه والبسمة لا تُفارق ثغره وشفتيه.

عبقت رائحة زكيَّة جعلت لعابهم يسيل شغفاً ومعدتهم تتلوى شوقاً وطلباً، وما أن تجاوزوا باب الغرفة حتى تبدَّت السفرة بحلَّتها المترفة وزينتها المنقطعة النظير... فمن المشوي أنواع ومن المقلي أصناف ومن السمك واللحوم حدِّث ولا حرج وكلّه مكلل بالأبخرة وتفوح من شذاه اللذة ضمن ترتيبٍ وتنسيق لا يملك الإنسان حاله إلا أن يتمنى التهام كل ما على المائدة ويذرها قاعاً صفصفاً.

لقد كان الطعام وافراً حتى إنه ليكفي أربعمائة رجل مع قلة الموجودين. ومع كلمة تفضلوا: أقبل الجميع على السفرة بعدما جُنَّ الشوق وطال الحنين فكان المظهر يدل على الجوهر حقّاً فما هذه الطعوم الزكية وما

هذا المذاق الشهي الطيب!. إن كل لقمة تنافس نظيرتها أشد المنافسة وكل صنف يغريك منه بالمزيد فتقع فريسة الحيرة والتردد.

وبعد الطعام الهنيء المريء انتقلوا إلى صالة أخرى فشخصت الأبصار وحارت العقول، فلم يكن ما يُرى إلاَّ في الخيال:

سُماط عامر بشتى أنواع الفاكهة وأجودها وأندرها، إنها لوحة مأكولة مثيرة جذَّابة، فإلى جوار الفاكهة اصطفت أنواع الحلوى الفاخرة وقد كلَّلها القطْرُ وزينتها المكسّرات ومن ثم دارت أنواع الأشربة وتمازجت الطعوم حتى لم تبقَ زيادة لمستزيد.

لقد استجلب الباشا إلى مطبخه أمهر وأشهر الطهاة بالعالم وأكثرهم ذيوعاً وشهرةً وإتقاناً، وكان يدفع لهم رواتب وأجوراً باهظة واستقدم أبرع من ينسِّق له سفرته السلطانية كل ذلك حتى يقدِّموا له أجود وأرقى وأفخر أنواع الطعام بصورة رائعة أخَّاذة، لذةً للآكلين.

عاد الجمع إلى قاعة الاستقبال تغمرهم البهجة ويطفح من وجوههم السرور.

وعندما استوى كل منهم إلى مجلسه أشار الباشا إشارة لطيفة فإذا بهؤلاء السادة والتي كانت تبدو عليهم مظاهر الأُبَّهة والفخامة قد مدَّ كل منهم يده ليتناول من طرف الأريكة التي يجلس عليها آلة موسيقية "ألا إنهم أرباب صنعة"!. فهذا تصدَّر بالناي وذاك احتضن العود والآخر شرَّع الكمان، وهذا قعدت في حجره آلة الإيقاع حتى اكتملت الجوقة، وحينما بدأ العزف بدأت القلوب تتجاوب بدقَّات النشوة حتى كاد الموجودون يغيبون عن وجودهم الجسدي ليعيشوا في عوالم النشوة الرائعة ويذوبوا في ألحانٍ ما طرقت أسماعاً إلا وشدهتها وملأتها جلالاً وهياماً وشجوناً، نعم لقد هاجت المشاعر وزاد الهيام.

كان كلٌّ منهم عبقرياً في صَدْح موسيقاه، فذّاً في تغريد ألحانه، وما هي إلا فترة وجيزة حتى بدأت لغة الموسيقى بانتصاراتها المظفَّرة على القلوب تتكلَّم مع هيام النفوس التي تشنَّفت آذانها بروائع الإيقاع.

لقد تصوَّر أن من فقد هذه الفرصة فقد فَقَدَ أغلى نعيم في حياته، ولحظة قلَّما يجود الزمان بمثلها.

وفجأة اختفى شدو الموسيقى ولكن وقعها في النفوس سيطر سارياً وعبيقها في القلوب هيمن آخذاً بمجامعها.

عند ذلك برز من الجالسين رجل خفيف الظل ظريف العبارة حلو النكتة أخذ يُطلق النكات وينتقي الطُرفَ الملَح والقصص النادرة، فتراه تارة يبكي وتارة يضحك يحرِّك يديه أو رجليه أو أذنيه حسب ما يقتضيه الحال حتى غشيَنا الضحك وتعالت أصوات قهقهتنا، ومن فرط ما ضحكنا صارت تسيل دموعنا.

لقد بدا لي أنه لو كان معنا رجل ثُكل بأمه وهو وحيدها وليس له غيرها وبثلث ساعة فقط يكون قد نسي أمَّه وما مرَّ عليه من المصائب والأحزان، لقد كان هذا المهرِّج ذا تأثير مغناطيسي على القلوب يتوجَّه لكل فردٍ منا ويمنحه ما يسره ويناسبه.

لقد بدا أن له تأثيراً سحرياً بالنفوس حتى إن الإنسان لا يجد نفسه إلا وقد انغمس في عاصفة من الضحك والحبور والبهجة والسرور وقد زال ما به من كروب وهموم.

لقد كان مجلساً حالماً تتناغم فيه الأضواء وتموج فيه روائح البخور والعطور والمسك الأزفر وخالص العنبر.

قضى ليلة كأنها ليالي الأندلس الحالمة حينما أرخى لهم زمنُ الأنس زمامه "عنان الحياة عليهم صبي"... حقّاً إنها ليلة من ليالي العمر...

ولكن عندما كان يحضر وقتُ الصلاة كان يوقف كلُّ شيء وتُقام الصلاة... ما أجمل الدين والدنيا إذا اجتمعا "**لا بارك الله في دنيا بلا دين**".

وفي هذه الغمرة لمحت عينا السيد محمد أمين الساعة فبُهت، إذ إنها كانت تُشير إلى الثانية بعد منتصف الليل... يا الله هل قضى ثماني ساعات؟. كيف مرَّ هذا الوقت الطويل قصيراً؟.

إنه لم يشعر به سوى دقائق معدودات... فلاحظ الباشا ذلك فتثاءب وكانت تلك إشارة للموجودين إيذاناً بالانصراف، فانسحبوا بأدب جمّ وإجلال بالغ، فما كان منه إلا أن هبَّ واقفاً ومدَّ للباشا يده مودِّعاً، لكن الباشا استوقفه قائلاً:

"أصلان" (باللغة التركية تعني الأسد) أنت ضيفي غداً!.

حاول التملُّص لكن الباشا قال بلهجة قاطعة: إذا لم تحضر من تلقاء نفسك فسوف أذهب إليك وأصحبك بنفسي...

عندها وعده خيراً...

* * *

منذ ذلك اليوم أصبح نديماً للباشا لا يفارقه ليلة واحدة... ومع مرور الأيام ومن جملة الأحاديث أدرك ضابطنا أن هذا الباشا طلَّق الحياة السياسية وتخلى عن منصبه بعد أن أصبحت لديه ثروة تكفيه طيلة حياته برغد وتؤمِّن له حياة مطمئنة مرفَّهة بعيداً عن حلبات السياسة وصراعاتها.

وهكذا فقد نزل عن المسرح وهو بعدُ في القمة فبقيت له مكانته وهيبته وثروته الطائلة... لقد فضَّل حياة الهدوء والدعة وحتى يتم له ما يريد أبقى لديه من كانوا من طهاة وموسيقيين وعبيد وبذلَ لهم من المال ما كانوا ينالونه إبَّان فترة حكمه.

لقد كان لديه أربع زوجات دوماً على عصمته، إذ كان يتزوج الفتاة في الثامنة عشرة من عمرها حتى إذا ما بلغت الثانية والعشرين خلَّى سبيلها وتزوج بغيرها بعد أن يوسعها غنىً، لقد كان الناس في فاقة وفقر مدقع فيا سعادة من تحظى بالزواج من الباشا، إذ سيخلِّصها من الشقاء والبؤس فضلاً عن أن خيره ونواله سيغمرها وأسرتها حتى إذا ما طلَّقها فإنها ستخرج من بيته تحمل كنزاً لا يُفنيه بذخ ولا كثرة إنفاق، كما كان في خدمته عبد أسود مديد القامة ضخم الجثة هائل المنظر يرافقه حيثما حلَّ وارتحل، كانت وظيفة هذا العبد أنه أثناء نزهة الباشا وحينما كان يلفت انتباهه منظر من مناظر الطبيعة الخلاّبة ويجذبه سحرها الأخّاذ ويأخذ رونقها وبهاؤها بمجامع قلبه ويفتتن بها لبُّه أنه يأمر سائق العربة بالوقوف فيقوم العبد الضخم بتقديم "النرجيلة" له بعد تجهيزها وهو واقف على مداس العربة باحترام والباشا جالس بمقعد العربة الوثير يدخِّن وهو يُمتع ناظريه بما أبدعته يد القدرة الإلهية من جمال وروعة وجاذبية وصفاء.

وكان حينما يعاود إلى قصره المنيف يكون بانتظاره أربعة من الرجال الأشداء وظيفتهم أن يُمسِّدوا له عضلات جسمه تمسيداً رياضياً!.

هذا هو الباشا، لقد كانت حياته مزيجاً فريداً من اللذائذ والمتع حتى كأنما الدنيا قد ملَّكته زمامها ومن جانب آخر كان العديد من الأسر الفقيرة ينتظر وبشكل يومي فائض سفرته السلطانية الفاخرة فضلاً عن أنه كان يُجري رواتبَ شهرية ثابتة لعوائل وأُسر معوزة. كان الطعام الفاخر المتوفِّر يُوزَّع يومياً على عشرات العوائل الفقيرة بشكل منظم يومي رتيب.

ناهيك عمّا كان يدفعه من زكاة وصدقات وما يقوم به من أعمال البرّ والإحسان فيَدهُ كانت مبسوطة لكل هذا على الدوام، ولم يكن يقصِّر بطقوس العبادة مطلقاً، فهو يؤدِّيها كلها بشكل كامل إلا أنه وبسبب إفراطه في السهر كانت تفوته صلاة الفجر على وقتها دوماً فيصلِّيها بعد طلوع الشمس ضحى.

* * *

سنتان انقضتا على ضابطنا والباشا على هذا المنوال الجميل: طعامٌ وشرابٌ ونغم وطُرف، وقد أرخى لهم الزمان زمامه بسْطاً وسروراً وحبوراً حتى كان ذلك اليوم!.

بينما كان ضابطنا السيد محمد أمين يجلس في مكتبه بالقسم بلغه خبر موت الباشا؟!!.

لقد وقع عليه النبأ كالصاعقة... الباشا مات!!!

صاحب القصر المنيف والجاه العريض... والخدم والحشم... والأموال والزوجات والكيف والبسط!!

يا إلهي إنه أمرٌ يعي على التصديق فمنذ ساعات ترَكهُ والدم يموج في وجنتيه ويلتمع بريق الحياة في عينيه، يشتعل حيوية ونشاطاً ويتفجر حركة وانبعاثاً يومض حديثه بالأماني العِذاب وتبرق من مخططاته الآمال الوردية والأحلام الذهبية.

لكن كيف مات الباشا؟؟؟.

أخبروه بأنه آب بعد تجواله لنزهته اليومية بعربته الفخمة، وما أن وصل القصر حتى طلب كأساً من مغلي الأزهار لدوارٍ بسيط ألمَّ برأسه وحين عادوا بالكأس وجدوه وقد أسلم روحه لبارئها.

* * *

تمَّت مراسم تشييع جثمان الباشا كالمعتاد، وسار خلف التابوت موكب مهيب كلهم يضجُّون بالبكاء ولكن بكاءهم كان بالحقيقة على الخيرات التي انقطع واردها عنهم بموت الباشا الكريم، فكان كلٌّ يبكي نفسه ويندب حظه والخيرات المقطوعة.

وبعد أن جرى الدفن أسرع ضابطنا بالعودة إلى مكتبه، أوصد خلفه الباب وجلس إلى طاولته.

لقد بدا على مُحياه أعظم ما يكون من الاهتمام وارتسمت في عينيه نظرة جدٍّ رهيب... راح يتأمَّل يسائل نفسه يفكِّر في المستقبل تصطرع في ذهنه الأفكار يفنِّدها يقلِّبها يقرنها مع الوقائع والأحداث.

لقد كان موت الباشا بدايةً لأسئلة كثيرة تقضُّ المضاجع وتذهل الكرى عن العيون:

ربَّاه... ربَّاه أهذا هو المصير؟.

أفي هذه الحفرة ينحصر المستقبل؟.

وتتصاغر الأماني وتطوش الخطط؟.

ربَّاه... ما أمرَّها من وحشة!.

ظلام كثيف مطْبق...

ألا متى ينجلي هذا الأدهم... ألا أين الأخلَّة... ألا أين الأصحاب...

ألا أين مجالس الأنس والسمر... ألا أين الأضواء والسُرج... أين القصور...

لم هذه الدنيا!. أين بريقك الخلاَّب الذي يسحر مجامع القلوب...

أين المفرّ... أين المفر!. ذاك رجع بعيد.

تـــزوّد من الدنيـــا لأنـك راحـلُ وأيقنْ بأنّ الموتَ لا شـكّ آتيـــا

أتنسى نزولَ القبر واللحد والثرى ويوماً عبوساً شابت له النواصيا

الباشا مات، السلاطين والملوك تموت، الرسل والأنبياء تموت، فهل في شك من الموت، أفلا تموت، من هرب من الموت إذا جاء مَلَك الموت؟. هل من مهرب؟.

* * *

القسم الثاني

مرَّ على وفاة الباشا أسبوع، كان ضابطنا في القسم حينما دخل رجلان يصحبهما المختار... كان أحدهما طبيباً والآخر مساعداً له يرافقهما مختار حيِّ الصالحية.

طلب منه أن يُرسل معهم بعضاً من رجاله ليرافقوهم إلى المقبرة بغية الكشف على جثة الباشا، إذ أسفرت التحقيقات التي أجرتها سلطات الأمن أن الباشا ربما مات مسموماً بناءً على شكوى قُدِّمت من أقاربه،

وهم ساعون لجمع الأدلة... وتُشير أصابع الاتِّهام إلى إحدى زوجاته التي حان موعد طلاقها وطمعاً بثروة الباشا الضخمة ربما دسَّت له السم.

فشتَّان بين ما تأخذه (ترثه) من الباشا في حال موته وما تأخذه منه عند طلاقها خصوصاً أن لا أولاد للباشا.

هنا قال ضابطنا لهم: أنا معكم ذاهب فهو صديقي الحميم.

وانطلقوا جميعهم إلى المقبرة ولما وصلوا كان الحفَّار قد أزال التراب عن حفرة الدفن وكشف عن الباب الذي كانت تسده بلاطة كبيرة، طلبوا منه رفعها، وعندما ولج ضوء الشمس إلى القبر أسفر عن مشهد مروِّع فظيع:

لقد بدا الباشا بصورة تُفزع أشجع الرجال وتُرسل القشعريرة في الأبدان وتبعث الرعدة في الأوصال. تسمّرت العيون على الفتحة واشرأبَّت الأعناق.

لقد بدا الجسد منتفخاً حتى كاد القبر يضيق به...

بطن منتفخ كالضرف، رِجْلان مشدودتان مدفوعتان على جدار القبر...

محاجر خلت من العيون...

أنفٌ مجدوع لم يبقَ من آثاره سوى فتحتان...

فم مفتوح كالمغارة واللسان قد اختفى...

جيوش جرَّارة من الديدان والحشرات تكسو جسم الباشا... إنها تُعمل أسلحتها فيه... إنها أرتال دائبة الحركة، فرقةٌ تدخل في أنفه وفوجٌ يخرج من عينيه والباشا لا حراك به... كل هؤلاء المهاجمين والباشا لا يحرِّك ساكناً!!! وفوق كل ذلك كانت تنبعث من القبر رائحةٌ شنيعة فظيعة غشيت المقبرة وحملت الموجودين على الفرار... لقد أصابهم الغثيان.

سارع الطبيب إلى توزيع قطعٍ صغيرة من القطن على الموجودين الذين وضعوها في أنوفهم ريثما ينتهون من مهمّتهم، وأخرج الطبيب مبضعاً (مشرط) وغمسه حتى اختفى نصلُه بين أمواج الديدان: كشطها يمنةً ويسرة وفي موقع معيَّن من البطن طعنه فشقَّه فانفجر مُحْدثاً صوتاً قوياً كأنما هو ضربة طبل، ثم شقَّ البطن

فخرج سائلٌ أبيض فوَّار، أخذ الطبيب منه بملعقته الطبيّة لعقةً ووضعها في علبة خاصة، أمر بعدها الحفَّار بردم القبر "ثم تبيَّن من بعد ذلك أن موته طبيعي ولا سمَّ ولا اغتيال".

وعلى جناح السرعة... عاد ضابطنا إلى مكتبه وانكبَّ على منضدته وأرسل العنان لفكره...

لقد فتحت هذه الرؤية آفاقاً فكرية جديدة وتركت في نفسه علامات استفهام عديدة وثورة عارمة قوية تجلَّت على شكل صرخة دوَّت في أعماقه.

أهكذا يكون مصيري المرعب، كلا ثم كلا لا أريد هذا المصير القذر المخيف.

وبعد وصوله إلى هذه النقطة عافت نفسه كل شيء وتخلَّت عن كل ما كان يشغل ساحتها، فقد همَّها همٌّ عظيم.

لبث ضابطنا غارقاً في هذه الدوّامة أياماً عدّة، وفجأة وإذا برجال الأمن لديه يدخلون القسم مسرعين:

سيدي... سيدي... في المقبرة سيقع أمر على جانب كبير من الخطورة يهدِّد الأمن ويحدث البلبلة في المنطقة، فالناس تماسكوا بالأيدي وهم على وشك الاشتباك بمعركة لا تُعرف لنتائجها نهاية.

هبَّ واقفاً واندفع مسرعاً وانقضَّ كالصاعقة وبقفزة واحدة تجاوز درجات القسم الخمس والسوط يقرقع في يده.. أواه لقد نسي أن يضع سيدارته "قبعته" على رأسه، أسرع خلفه رجال أمن القسم يحاولون إدراكه... دخل المقبرة شاهد الناس... صاح بصوت كالزئير جلجَلَ في أرجاء المقبرة فانتبه الناس وكفّوا عن الخصام، عمَّ الصمت وساد الهدوء.

لقد كان هناك تابوتٌ على الأرض وحوله انقسم الناس إلى فريقين، سألهم عن سبب هذا الخصام الذي كاد أن يتحوَّل إلى عراك، فهتفت جماعة من الناس لنُنزل الميت وجماعة أخرى صرخت:

لا... لن ننزله لا يجوز، ثم عادوا للتماسك بالأيدي.

هنا دوَّى صوته مرة أخرى آمراً إياهم بالتزام الصمت والهدوء، ثم أردف قائلاً:

ليتقدَّم رجلٌ منكم لأسأله عن سبب الخلاف والمشاحنة؟.

فتقدَّم إليه رجل مسنّ وقال: سيّدي، إن هذا الجثمان لرجلٍ تُوفِّي والدهُ منذ أربعين سنة خلت ويريدون الآن دفنه مع والده...

تساءل الضابط: ولكن لماذا لا، طالما أن والده قد دُفن منذ تلك المدة، فلا بدَّ وأنه قد أضحى رفاتاً؟.

هنا برز رجل طاعن في السن تبدو عليه سيما الطيبة والوقار من الفريق الآخر وقال:

إن هذا الرجل الذي ترون جثته بالنعش كان من ذوي السمعة السيِّئة والسيرة المُشينة، كان مستهتراً بالقيم والأخلاق لا يرعى ذمة ولا يصون عهداً: لم يعرف للصلاة طعماً ولم يذق حلاوة الصيام ولم يمسّ قلبه نعيم ولَّده عملُ خير أو إحسان.

إنه رجل مجرم شقي محروم، إنه لم يدع شرّاً إلاَّ اقترفه ولا إثماً إلاَّ ارتكبه.

بينما كان والده رحمه الله ورِعاً تقيّاً... سبَّاقاً إلى الخير توّاقاً لعمل المعروف والإحسان يفيض بالبشرِ وترافقه البركاتُ حيثما حلَّ وارتحل لا يفترُ عن ذكر الله، لا تحزبه شدة ولا يربكه كثرة الخصوم.

لقد كان المثال المحتذى في الكمال والإنسانية والمروءة وحبِّ الخير وإغاثة الملهوف ونصرة الضعيف والكرم.

أضاف الرجل: فكيف ندفنهما معاً يا سيدي؟.

ردَّ الضابط: لكن ما المانع أن يُدفن هذا الرجل مع رفات أبيه!.

هنا لم يعد الرجل الطاعن في السن يتمالك نفسه فانتفخت أوداجه واحمرَّ وجهُه وأرسلها كلمة تهزُّ الجبال هزّاً:

يا سيدي... ولكن والده رحمه الله لم يفنَ ولم يصبح رفاتاً... ولم يصر تراباً... إن جسده كما تركناه حينما دفناه أول مرة!!!

بانَ الغضبُ على وجه الضابط وقال:

كيف تدَّعي أنكم دفنتموه منذ أربعين سنة خلت وتقول الآن أنه لم يفنَ؟.

أتهزأ بي!. ورفع يده بالسوط عالياً وهمَّ بجلده. "إذ تذكَّر الباشا وحاله الجسدي بعد مضي أسبوع فقط".

هنالك قال الرجل وبنبرات التأثُّر والانفعال يدلُّ عليها ارتجاف صوته:

سيدي: أرجوك قبل أن تضربني انظره بنفسك، وأجهش بالبكاء فانسابت العبرات على وجنتيه واخضلَّت لحيته لما أثارته في نفسه رؤيا هذا الرجل الطاهر، وأردف وهو يُشرق بدمعه:

سيدي... تأكَّد بنفسك وتحقَّق بذاتك، وأقسم لك بأنه قد مرَّ على وفاة هذا الرجل أربعون عاماً وأنا لا زلت أذكره بشكله وحديثه وحركاته، ولولا أني شهدت دفنه أول مرّة لقلت أنه الآن قد مات.

فلم يتمالك الضابط نفسه، بل قفز إلى أرضية القبر الهاشمي البناء، هنالك أبصرَ رجلاً ممدَّداً والبسمة ظاهرة على وجهه، بل خُيِّل إليه أنه حي يتظاهر بالنوم إلا أنَّ ثمة أمر غريب لفت انتباهه وأثار اهتمامه، إذ كان الكفن بالياً، بل كان رماداً قد أفناه دوران الأيام وكرُّ الأعوام.

جلس القرفصاء، أمسك بيد الميت فإذا بها غضَّة طرية وكأن الحياة تتدفق منها، حرَّكها فاستجابت لتحريك يده، بسطها فتساقط رماد الكفن الفاني على الأرض، نظر إلى وجه هذا الميت فشاهده وكأنه وجه رجل يتظاهر بالنوم ينطق بالبشر والحبور بل وكأنه حيٌّ يطْبق جفنيه مازحاً... يا إلهي أميِّت أم حيٌّ!.

فحصه فكأنه نائم ولكن يظهر بأنه حقّاً ميت!.

عندها نهض على قدميه وأطلَّ من القبر وما تزال بذور الشك في نفسه، فصرخ بالرجل الباكي:

أيها الكاذب هل مضى على هذا الميت حين من الدهر يبلغ الأربعين سنة كما تدَّعي؟. أم أنه ميت الآن أنزلتموه في لحده وتزعم اختلاقاً هذه المدة المديدة من الأعوام!. والله لأوسعنَّك ضرباً، لأؤدبنك كيلا تعود لمثلها أبداً.

هنالك ساد صمت عميق شمل كل الجماهير المحتشدة وبدا كأن على رؤوسهم الطير.

صرخ الشاهد الطيب الطاعن في السن: سيدي إن كنت لا تصدِّقني فاسأل وجوه الحي وكبراءهم الطاعنين في السن أمثالي إن كان هذا هو الرجل الطاهر الشريف العفيف فلان الذي انتقل إلى كنفِ الرحمن الرحيم منذ أربعين عاماً، أم لا؟.

هنا أخذ الكبار من أهل الحي يجهشون بالبكاء وهم يمرون تِباعاً لمشاهدة وجه الميت المنير.

صُعق لهذه الرؤيا هذا الحشد الذاهل المنصت وقد أخذت رهبة المشهد تستولي على قلوبهم وتخشع له جلودهم وتفيض أعينهم بالدمع خشية وهيبة ولم يقطع هذا السكون الرهيب إلا صوت الرجل الطاعن في السن يصرخ:

سيدي!. انظر إلى شاهدة قبره وتاريخ إنزاله في لحده رحمه الله.

هنالك نظر ضابطنا بأمِّ عينه فشاهد ويا لعظيم ما شاهد!.

حقّاً لقد أنبأته شاهدة اللحد بصدق الرجل، وهنالك انطلق بعد أن خرج من حفرة القبر شاقاً طريقه بين هذا الحشد الخاشع وهو مذهول مصعوق مما رأى، أهذا ممكن!. أهذا صحيح؟. بلى صحيح، ولكن كيف؟.

ذاك الباشا وفي دوَّامة أسبوع واحد يغدو "فطيسة" منتنة تقشعر لهول منظره الأبدان وترتعد لنتن رائحته القلوب وهذا الإنسان الطاهر يبقى هو... هو برائحته العبقة كالمسك الأزفر، وجه مُشرق منير ينبي عن نفس مطمئنة وكأنه متظاهر بالنوم قرير العين قد نالَ رضى مولاه!.

لم يُوقظه من وادي ذهوله إلا صرخة رجل: سيدي، لكنك غادرتنا ولم تحكم وتقضِ بيننا، هل ننزله في لحد أبيه، أم لا؟.

ردَّ ضابطنا آمراً: لا... بل ادفنوه في مكان آخر.

ومضى مسترسلاً في تعجبه غارقاً في حيرته ينشد كشف سرّ الفناء وعدمه... لقد هاله ما رأى وسيطر عليه ما أيقن فشغله عمَّا سواه.

* * *

لقد كبُر السؤال ونمت الحيرة غذَّتها المقارنة بين اثنين تعرّضا لنفس الظروف وكانا تحت نفس المؤثرات، لكن اختلفت النتيجة ولم يقف الاختلاف عند شيء بسيط يمكن تجاوزه، بل كان التباين كلّياً والفرق شاسعاً، أضناه التفكير وأرّقه هذا اللغز، لقد أضحى شغله الشاغل وهمّه الذي لا يفتر ولا يغيب، فليطرق كل الأبواب وليرود كل الآفاق علَّه يظفر بما يشفي غليله ويروي ظمأه إلى الظفر بالحقيقة.

حزم حقائبه ويمَّم شطر الطب علَّه يجد في واحته ينبوعاً ثرياً يستطيع أن ينهل منه.

اجتمع إلى طبيب حاذق صادق شهير وهو كبير الأطباء في القطر أفضى إليه بما يشغل لبّه ويحيِّر فؤاده فأجابه الطبيب:

أي بني لقد عُثر على جثث كما وصفت لم تفنَ ولكن ذلك نادر وأندر من النادر، وأصدقك القول وأُلقي إليك فلذة الحقيقة:

إن العلم والطب والاكتشاف ما زال عاجزاً حتى عن الخوض في هذا الأمر فكيف باستدراك غايته، نحن يا بني في عصر التكنولوجية (في فجر العلم) لم نزل نتقرَّب من الحقيقة ولم نبلغها. ثم سأل غيره من مشاهير الأطباء فما زادوه إلا غموضاً وعجزاً... أواه... لقد خذله العلم والطب وعاد من دياره "بِخفَّيْ حُنَيْن" إلاَّ أن شوقه وشغفه لتذوُّق الحقيقة قد تعاظم ونما، فأصبح أكثر طلباً وأعظم إصراراً.

* * *

القسم الثالث

ألقى المرساة على شاطئ المشايخ ورجال الدين يحذوه الأمل وتدفعه عِذاب الأماني هل سيشرب؟. هل سيرتوي؟.

مضى إلى مجالسهم... إلى خلواتهم... إلى زواياهم لم يوفِّر منهم أحداً:

بالله عليكم كيف لا تمتد يد الفناء إليه؟. كلهم يقول:

يا بني لأنه من أهل الله... لأنه تقي، وأعماله طيِّبة صالحة.

ولكن هل تملك الديدان والحشرات والجرذان القدرة على التمييز فتدع التقي وتأكل الشقي وتميِّز أعمال هذا وأعمال ذاك؟.

تجحظ عيونهم عَجَباً وتتملَّكهم الحيرة وينتابهم التردُّد ويغرقون في بحار الدهشة، فلا يجدون مندوحةً ولا مناصاً أنجى من الفرار.

أعياه السؤال وأمضَّه كثرة تقليبه الأمر حتى كاد أن يقع فريسة للقلق والاضطراب.

التقاه رجل من معارفه فعرض له ما بداخل سريرته وشكى له ضالته فحدَّثه عن شيخ جليل، إلاَّ أن مكان إقامته متواضع ولا يليق بمقامكم العالي.

ردَّ عليه وقد غلب عليه الشوق: دلني عليه ولا تتوانَ... فإني والله لم ولن أعبأ بهذا أبداً.

فما أن قال الرجل أنه يقطن في "**حيّ الأكراد بزاوية أبي النور**" وأن اسمه الشيخ "**أمين كفتارو**" حتى هرع إلى زاويته بسرعة البرق.

تحلَّل من بزّته العسكرية وخلع عليه ثياباً مدنية وقصد المكان وما أن عثر عليه حتى طرق الباب واستأذن بالدخول.

كان يشق العتمة رفيف من ضياء شموع توزَّعت في المكان مع مصباح زيتي بسيط كشفت عن شيخ تبدو على قسمات وجهه النبالة والإخلاص يتلو حديثاً هادئ النبرات واضح المعاني يتحلَّق حوله رجال ثلاثة وقد أخذتهم قراءته وشرحه لآيات القرآن.

كانت الزاوية تنخفض عن مستوى سطح الأرض وهذا ما دعا أن يكون لها درج يُفضي إليها، كما أنها كانت محرومة من أي نافذة... فلا عجب أن الشموع كانت مضاءة بالرغم من أن الشمس كانت محلِّقة في كبد السماء.

لقد رأى مظاهر البؤس والفاقة والفقر المدقع على الرجال الثلاثة بالزاوية، إذ إن اثنين منهم كانا يعملان بتنظيف الطرقات بغية اكتساب اللقمة الحلال ويجلس الجميع على حصير قد أكل الدهر عليه وشرب وعلى جلد خروف قد تلالا مهترئاً.

كان هذا حال الشيخ الكريم وصحبه عند أول لقاء...

انتهى درسُ الشيخ واستأذن المريدون الثلاثة بالانصراف وغادروا.

هنا ابتدره الشيخ قائلاً: أي بني هل أتيت تطلب العلم أم أنت سائل؟.

ردَّ عليه: بل أنا سائل.

قال الشيخ: هات ما عندك.

فحدَّثه عمَّا شاهد ورأى من وفاة الباشا وكيف أنه وبعد أسبوع واحد فقط أصبح مرتعاً خصباً لديدان يعلم الله عديدها ناهيك عن رائحته ومنظره المريع وكيف أن الرجل الآخر قد مضى على دفنه أربعون عاماً ولا يملك المرء إلا أن يقرَّ أن هذا الرجل قد دُفن لتوِّه لطيب رائحته وسنا مُحيَّاه.

ابتسم الشيخ الطيِّب ابتسامةً حانيةً رقيقة وقال:

يا بني إن الأمر بيِّن، فأعمال الباشا هي سبب فنائه، والثاني: تقي وأعماله الرفيعة هي سبب عدم فنائه.

ردَّ الضابط: إن هذا الجواب قد سمعته كثيراً ولكن هل تدري الديدان والحشرات أن أعمال هذا صالحة فتدعه وأن أعمال ذاك طالحة فتأكله؟. علماً بأن له العديد من أعمال البرّ والإحسان؟.

سكت الشيخ هنيهة ثم قال:

يا بني... فهمت الآن قصدك... إنك تبحث عن رد منطقي مُقنع لا يقبل الجدل أو المناقشة، أي عن الحقيقة.

ردَّ الضابط: بالتأكيد يا حضرة الشيخ الفاضل.

اعتدل الشيخ في جلسته ولمعت في عينيه نظرة ملؤها الثقة والإيمان بالله وديدنها محبة رسول الله ﷺ.

أي بني... هب أنك تسير في أحد الشوارع وقد أُلقيت فيه جيفة منتنة تعج بالأوخام وتملأ رائحتها الكريهة المنتنة المكان تُراك ماذا تصنع؟.

أجاب الضابط: أسدُّ أنفي وأديرُ وجهي وأحثُّ خطاي حتى أبتعد فراراً عنها.

قال الشيخ: وإذا صادفتك في الطريق حديقةٌ غنَّاء وارفة الظلال تسبح في خمائلها الفتنة ويسكن في تنوع ورودها وأزهارها الجمال البديع، تموج بعطر شذي ينعش المهج ويحيي القلوب؟.

أجاب الضابط: أقف ممتثلاً لأمر الروعة والجمال والجلال أستنشق من أعماقي أريج الورود وشذى الأزهار وأغذي عيناي بما أبدعته يدُ القدرة الإلهية فيها من صفاء الخلْقِ ونقاوةِ التكوينِ وأرنو مسلوباً مأخوذاً بعبقرية التكوين وجمالية التشكيل.

* * *

نقف الآن قليلاً لنضيف أمثلة حتى تكون الصورة واضحة والحقيقة منشورة فنقول:

١) فلو أنَّه كان لدينا رغيفين من الخبز وضعنا أحدهما في موضع تغمره الشمس الساطعة، لا بد أنه سوف يجف وييبس ولكنه يبقى كما هو صالح للطعام إذا بُلِّل على مدى الأيام، وكذلك فالمؤمن بإيمانه وأعماله الطيِّبة وتعلّقه النفسي برسول الله ﷺ يسري لنفسه نور إلهي يرافقه بالبرزخ والآخرة، وهذا النور في عالَم الحقائق أسطع بكثير من نور الشمس المادية.

﴿ . . نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ . . ﴾[1].

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ . . ﴾[2].

وإذا وضعنا الرغيف الثاني في غرفة مظلمة رطبة لا تدلف إليها الشمس مطلقاً، لا بد وأن يطرأ عليه التحوُّل والتبدُّل نتيجة ما يصيبه من العفونة التي ستؤدي به حتماً إلى البلى والزوال.

٢) وهذا مثل آخر: طالب أعمل فكره ووضع نُصْب عينيه ما يجرُّه الفشل في نهاية العام من الخزي والعارِ فدفعته الخشية على مصيره والخوف على مستقبله من الضياع فانكبَّ على دراسته.

ولما حضر الامتحان تجاوزه بيسْر وسهولة فنالَ أعلى الدرجات وحقَّق أروع النتائج، تُرى إذا ما أخذ هذا الطالب صحيفة درجاته هل يخفيها؟.

على العكس تماماً سيرفعها على رؤوس الأشهاد كي يراها كلُّ من يعرفه فتكون مصدر فخرٍ واعتزاز له ويعود إلى أهله منتصب القامة مرفوع الهامة ليزفَّ لهم خبر نجاحه وفلاحه.. نعم لقد علّق الصحيفة في صدر البيت لتستقطب كل الأنظار إليها.

وكالطالب المجتهد تعتز نفسه وتزدهي بصحيفة نجاحه "الجلاء" كذلك المؤمن ترى نفسه بنور الله صحيفة أعماله الطيبة على جسدها الطاهر المزدان بفعل الخير والإحسان فلا تنفك عن التوجه ببصيرتها إليه، إذ يتذكَّر حسناته وطيِّب أعماله فتزدهي نفسه بإقبالها على ربِّها بما نفعت بهذا الجسد عباد الله، فبعمله الطيب يبيضّ وجهه فتُقبل نفسه على الله ومن كان دوماً مع الله فمن ضدَّه؟.

وهذا طالب أهمل فكره ومضى إلى ميادين اللهو يزجي أوقاته رخيصةً على مذبحها غير عابئ بالمستقبل ولا مبالٍ بالنتيجة، فلم ينتبه إلا والامتحان يطرق بابه فوجف قلبه وارتعدت فرائصه وخرج منه يجرُّ أذيال الخيبة والفشل المريع، تُرى إذا أخذ هذا الطالب صحيفة أعماله هل يبرزها؟.

كلا... كلا، بل سيثني صدره ويخفي أمره ويمزِّق صحيفته ويفرُّ بعاره يجرُّ أذيال خذلانه وخيبته.

---

[1] سورة التحريم: الآية (٨).

[2] سورة الحديد: الآية (٢٨).

٣) وإذا ما كانت حاجياتك وأشياؤك أمام بصرك هل يستطيع أي لص أن يسرقها أو يخفيها أو يعتدي عليها؟.

بالطبع لا طالما أنت مشرف بناظريك عليها.

هنا وفي هذه المرحلة وطالما هذه النفس المؤمنة مشرفة ببصيرتها ونورها على جسدها فلا تجرؤ نفوس الديدان أو الهوام أو الجرذان على الاقتراب من هذا الجسد الطاهر لأن نفس صاحبه مشرفة عليه دوماً لرقيه وارتقائه بسببه وكذلك الأنبياء والرسل الكرام كافة، فالله حرَّم على الأرض أكل أجسادهم المقدَّسة وكذلك شهداء الصحابة الذين أَخرجوا أمماً من الظلمات إلى النور فنجوا بهم من عذاب الدنيا ونيران الآخرة فبأعمالهم الكبرى نالوا أنواراً كالشموس غطَّت ماضيهم في الجاهلية فلا يرونها أبداً وأعمالهم وأعمال الصالحين من الأمم التي فتحوها بصحائفهم هذه تكسبهم ثقة فيقبلوا بها على خالقهم فيزدادوا نوراً، لذا تبقى أجسادهم غير قابلة للفناء، وكذلك كل إنسان بلغ سن الرشد وسلك الحق مع أهل الحق ولم يقترف سيئات ومات على هذه السيرة الطيبة فعينه لم تطرف لحرام، كذا يده لم تبطش إلاَّ بالحق، ورجله لم تمشِ لضلال فلا شيء يخجله أمام الله، بل كل فعله الطيِّب يرفعه وهذا أيضاً لا يفنى وقليل جداً من البشر من ينال هذه المرتبة، وفي زمان الفساد يكاد يكون بقاء الأجساد مستحيلاً بسبب التعرُّض للمعاصي والأخطاء، لذا فالتراب الطهور يطهِّر هذه الأجساد بالفناء.

وأما إن كان هناك رجل أعمى أو غير منتبه أو مشغول عن حاجياته وأغراضه ألا يمكن لأيٍ كان أن يسلبها منه أو يواريها عنه؟.

بالتأكيد إذ المثل العامِّي يقول: "المال الداشر يعلِّم الناس السرقة".

كذلك الإنسان يُولد طفلاً خلواً من أي شيء كالصفحة البيضاء النقية فتنمو حواسه وتكبر مداركه ويتَّسع وعيه وتتفتح له آفاق المعرفة وتنجلي أمامه الأمور شيئاً فشيئاً حتى إذا ما أتمَّ السادسة عشرة من عمره يكون قد استوى وصلب عوده ونضج ذهنهُ وبلغ الجاهزية الفكرية العُليا لأن صحته الجسدية تكون بأشد فاعلياتها وآلية الدماغ جزء من آلية الجسم فهو في أوج فاعليته وجاهزيته ونشاطه.

هنا يقف المرء على عتبةِ عهدٍ جديد، فإما أن يرتقي سلَّم السُّمو وينال مجداً تليداً، وإما أن تزل به إلى الحضيض قدمه، كل ذلك موكول أو متوقِّف أمره على سلوك هذا الإنسان وانتقائه سبل الخير مع أهل الحق أو اتِّباعه طرُق الغي مع الغاوين.

أما من سلك سُبُل الاستقامة مع أهل الحق واستنارت نفسه بنور رسول الله ﷺ السراج المنير دام له هذا النور ساطعاً على نفسه وهي ملتفتة إلى جسدها الذي هو صحيفة أعمالها الطيبة الإنسانية، فكيف لا تتمسَّك به أو تتخلى عنه وهو يعبق بالشذى ويُشرق بالعبير، إنه الحديقة الغنَّاء.

أما إذا ألقى هذا الإنسان الغاوي حبله على غاربه وأتبع نفسه هواها وعطَّل ملكاته الفكرية وطاقاته الذهنية فسينكبُّ على الدنيا الدنيّة يشرب من مستنقعها ويعبُّ من شهواتها البهيمية الرخيصة فتخلع عليه ثوب الحقارة والدناءة والوضاعة والسفالة والجبن والبخل يمتلئ بها إناؤه "والإناء ينضح بما فيه".. فتغدو أعماله ذميمة مترعة بالشرور طافحة بالأذى مليئة بالأضرار.

وهكذا حتى يأتيه هاذم اللذَّات ومُفرِّق الجماعات فيهوي في مكان سحيق أعمى في الظلمات، لقد ضلَّ السبيل، عندها يرى بنفسه تفريطه وتكون أعماله منصوبة أمام عيني بصيرته. يرى هذا الجسد صحيفة نكراء فيزداد خزيه وعاره ويشتمُّ ما ينبعث منها من نتن وروائح مقزِّزة عفنة فتشيح نفسه عن جسدها، هنا تتجلّى رحمة الله العارمة ورأفته المذهلة وحبّه العظيم لهذا الإنسان المجرم.. العاصي.. الجاحد.. العاق فيُرسل له جراثيم الأرض وحشراتها تخلِّصه وتريحه من منظره وما يُثير في نفسه من ذكريات أعماله الخبيثة والتي تسبب له الألم العظيم. نعم لقد غدت أعماله الخبيثة التي اقترفها بجسده ذات رائحة نتنة تنفر نفسه وتفرُّ منها معرضة عن جسده الذي يُذكِّره بها فيفنى.

أما الذي لم يفنَ فإن أعماله الحسنة وإحسانه تنقلب عليه نوراً "والعمل الصالح نور الحياة" وذلك عندما يبيض به وجهه تجاه خالقه بعد الموت ويُقبل على الله فتستنير النفس بنور ربِّها الذي يسري من الله تعالى عليها فعلى جسدها "كنور الشمس على رغيف الخبز" وتبقى مناظرة لجسدها الذي هو جلاء أعمالها الطيِّبة لترقى بأعمالها ويسري النور دوماً على الجسد والنفس بمراقبة دائمة لجسدها فلا تجرؤ نفس الحشرات وغيرها على الدنو من الجسد وسرقته منها وإفنائه.

لقد كان الجسد هو المطيَّة والوسيلة لمن سلك سُبُل الحق، فكيف لا تتمسك به النفس وقد سطرت عليه أعمالها الطيِّبة، وكيف تتخلَّى عنه وهو كالحديقة الفيحاء يعبق بالشذى... ويشرق بالعبير، إنه الحديقة الغنَّاء، والرجل الذي لم يفنَ ينطبق عليه هذا الكلام.

* * *

غادر ضابطنا السيد محمد أمين الشيخ مستعظماً مثال "الحديقة والجيفة" تلفُّه سحائبُ الذهول والدهشة تتفجر من فؤاده، أمواج الحبِّ الإلهي المقدَّس ينتثر من ثناياه عبق التقدير اللامحدود لهذا الإله العظيم الرحيم:

ومنذ ذاك الحين تولَّد في نفسه صدقٌ وتصميم على الوصول إلى الجناب العالي والحضرة السرمدية، فجاهدَ في الله حقَّ الجهاد وسعى إليه حقَّ السعي فأعطى للتفكير حقَّه ومكانته المرموقة فوجد نفسه تسبح في لجج الجمال والكمال والفضل الإلهي وتغرف من معينه: غرفاً جعله يحب للناس ما نالته نفسه فهداه الله سبل الإرشاد وغدا مرشداً، بل سلطان العلماء العالِمين العاملين.





ذات يوم وبينما كان إنساننا السيد محمد أمين جالساً مع أحد أصدقائه حدَّثه الصديق قائلاً: عزيزي محمد أمين، أما سمعت بصاحبك "فلان"؟.

قال السيد محمد أمين: أعرفه تماماً، ما حسبه؟.

قال الرجل: مسكين فقد تزوج منذ سنواتٍ عدّة وللآن فهو مصرٌ على طلبه، يطلب من الله أن يرزقه مولوداً ذكراً ولكن مشيئة الله اقتضت بأن يبقى بدون أولاد.

ولقد أكَّد الطبُّ عقمَه ورغم ذلك تراه دائم الطلب بإصرار وإلحاح على ربِّه... يريد مولوداً ذكراً بالتحديد.

إذن... لقد عَلِمَ السيد محمد أمين بقصة صديقه العقيم ولكنه كان يعلم عنه شهرته بالبخل الشديد.

* * *

وما هي إلاَّ أيام حتى التقى به وبدون سابق موعد... نظر إليه إنساننا فتذكَّر أنه الرجل الذي وردت قصَّته منذ أيامٍ قليلة، أمّا هذا الرجل العقيم فقد عرف نبل وطيب أخلاق إنساننا الرحيم وعرف عن حبِّه وتمسكه العظيم بأوامر ربّه، ولذلك فما أن رآه حتى أقبل عليه قائلاً بتوسلٍ وإلحاح:

يا بك... يا بك... أرجوك... أنت إنسان قريب من الله ودعوتك مستجابة فادْعُهُ لي بأن يرزقني ولداً ذكراً... أرجوك... أريد غلاماً يملأ عليَّ حياتي... تقرُّ به عيني... أرجوك... يكون لي مُعيناً وسنداً في شيخوختي...

كان يطلب ذلك ودمعته حبيسة عينيه.

ردَّ إنساننا الرحيم بلطف وحنان: أخي "فلان" ما دام هذا طلبك ومرادك فانذر لربِّك نذْراً خالصاً لوجهه الكريم، عندها انظر ألا يحقِّقه لك.

ردَّ الرجل بلهفة وشوق: صحيح ما تقول!. إن كان الأمر كذلك فمنذ الآن وأمامك أعاهد ربّي إن رزقني بمولودٍ ذكرٍ فنذراً عليَّ أن أتصدَّق بخاروفٍ، بل بخاروف معلوف.

ولقد استجاب الله لهذا الرجل وبسرعة، ودارت الأيام تلوَ الأيام وظهر الحمل واضحاً على زوجته، عندها لم يعد يتمالك نفسه... كادَ يطير فرحاً... مرحاً... عاش بقية الشهور التسعة ينتظر مولوده الجديد على أحرٍّ من الجمر وبشوق عظيم... فلقد بات في طلبه وانتظاره السنين والأعوام... والآن... الآن شارف على الحلول... انقضت الشهور التسعة ووضعت الزوجة غلاماً يتيه جمالاً وفتنة، قلَّ مثيلُ جماله ونَدَر.

كانت الفرحة كبيرة... فبعد انتظارٍ طويلٍ... بعد حرمان... شاء الله وحقَّق للزوج وزوجته طلبهما...

وباتا يرعيانه ويربيانه... يوماً إثر يومٍ... ولكن أين النذْر؟!.

ما إن رأى الأب غلامه الوسيم ذا الجمال الرائع حتى تناسى عهده مع خالقه ونسيه فلا ضحَّى بخاروف معلوف، بل ولا صوص دجاج... مسكين هذا الرجل الشحيح.

كلما توالت الأيام وترعرع الغلام بأحضان أمه وأبيه كلما زاد الأب تولُّهاً به وهياماً، وله عشقاً...

غرق بالنعمة ونسي المنعم... نسي عهده... فما وفَّى بشكره لربِّه.

* * *

عَلِمَ السيد الفاضل السيد محمد أمين بما بعث الله لهذا الشحيح... ومضت الأيام وبأحدها التقيا... فبارك له إنساننا الفاضل وهنَّأه بمولوده الجديد، ثم أراد أن يذكِّره قائلاً: عزيزي هل ذبحت الخاروف المعلوف؟.

ردَّ البخيل: لا... ولكني سأذبحه... نعم سأذبحه... لا بد إلا وأن أذبحه، ولكن بعد قليل، أي: بعد أن أطهِّره... وأفرح بطهوره...

وما هي إلاَّ مدة بسيطة حتى طهَّر الرجل وليده... ولكن للأسف لم يبرَّ بعهده مع الله، لقد رأى بذبح خاروف معلوف خسارة عُظمى وغرامة ثقيلة مع غناه فتناسى ذلك.

وبعد أيامٍ قليلة أخرى التقى ثانية بإنساننا الرحيم فقال له إنساننا السيد محمد أمين:

ها... أخبرني هل وفَّيت بعهدك وذبحت الخاروف؟.

ردَّ الرجل: يا بك... وهل ينتظر الله ذبيحتي!؟. هل هو بحاجة لها!. إنه هو الغني ولو شاء لأطعم الفقير... وما هو بحاجة لا لِي ولا لذبيحتي...

مسكين هذا البخيل فماذا يفعل بنفسه وأي عمل يعمل... ألهذا الحد وصل به جحوده وشحُّه...

ردَّ إنساننا منفعلاً ثائراً: أتحسب النكوث بالعهد هيِّن وهو عند الله عظيم!. هكذا تنقض عهدك وترجع عن نذْرك!. اسمع يا "فلان" إن لم تذبح الخاروف فو الله، والله، خمسة عشر يوماً ولن يتعدّاها وليدك ستفقده... سيموت... فأنت نذرت نذْراً وهذا الأمر جدٌّ وليس بالهزل وأنا أحذِّرك. نطق إنساننا هذه الجملة وهو بثورة غضبه.

سمع الرجل كلمات قوية كانت تحمل في طياتها رحمة كبيرة وخوفاً عليه عظيماً.. ولكن أنَّى له أن يَعِيها ويدركها... يدرك قيمتها؟. بل حتى إنه لم يعر ذلك أدنى انتباه واهتمام وأخذ يحدِّث بكلماتٍ خفيفة غير مفهومة منسحباً مغادراً ولعله يقول: من أجل خاروف؟. معقول... الله يأخذ قرَّة عيوني؟!. إنه بتمام الصحة والعافية!.

* * *

مضت أربعة عشر يوماً... يوماً بعد يوم والطفل يرفل في ريعان الصحة والحياة... يتألق نضارة وجمالاً... كالبدر... سبحان الخالق العظيم.

وأشرقت شمس اليوم الخامس عشر، وما أن قاربت الظهيرة على الحلول حتى اصفرَّ وجه الطفل وتغيَّر بشكل جذري مفاجئ... إنه أمر خطير... فمنذ ساعات كانت الحياة والنضارة تموج بوجنتيه يبتسم ابتسامات عذبة وأبواه من حوله يتمرغان به يستنشقان رائحته لا تسعهما الفرحة...

لكن الآن وللأسف فقد أصبح وجهه أصفر كالليمونة صفرة لا توحي إلا بالموت يُرافقها صراخ قوي لا يُعبِّر إلاَّ عن آلام كبيرة تعصف به...

وقف الأبوان ضائعان ولم يعد بمقدورهما فعل شيء... فلقد انتابهما ذهول كبير من روعِ هذا المشهد، وقبل وصول الطبيب بلحظات لفظ الطفل أنفاسه الأخيرة وفارق الحياة بين يدي والده الذي حرَّكه فلم يعقِّب بعينين مفتَّحتين ساكنتين ساحرتين بالفتنة وصدر لا يعلو ولا يهبط... إذاً مات...!!

هنالك انبعث من الأب صوتٌ قوي يعبِّر عن حسراتٍ كبيرة لاذعة:

مات... مات... وانفجر باكياً...

لقد تذكَّر الآن كلمات صاحبه الرحيم... تذكَّر نصيحته وحرصه فيها محذِّراً، كرَّت الأيام بذاكرته فوجدها خمسة عشر يوماً بالتمام!!.

خرج مسرعاً لا يدري إلى أين سيذهب... ولا ماذا سيعمل... مشى يمنة الطريق ويسراه كالسكران... مسكين لقد جنى على نفسه...

ساقته قدماه لأصحابه فواسوه وهدَّأوا من روعه، لكنَّ لسانه ما هدأ أبداً، بل كان يردِّد ويُعيد قائلاً: والله إنه نبي... والله إنه نبي... والله نبي، فلقد حدَّد لي خمسة عشر يوماً... ووقعت نبوءته.

أما إنساننا الرحيم السيد محمد أمين قال: "والله لقد نطقت بهذا الرقم وكنت لا أدري بماذا نطقت" فتحقَّق قولي وأنا لا أدري.





جلس على طرف الأريكة وجهه يتدفق نضارة وبهاء، وجنتاه قد اصطبغتا بلون وردي فاتن تتفصَّد من جبينه حبَّات من العرق كلما تحرك تراها كاللآلئ تتموَّج بالنور، لقد وصل للتو بعد أن قضى يوماً حافلاً بالعمل... بالتضحية... بالإيثار.

كانت شمس الظهيرة قد اشتعل أوارها وحمي وطيسها، حين يمَّم شطر البيت وجلس يخلع حذاءه الطويل "الجزمة" ليضع قدميه في الماء البارد عساه ينفض عن كاهله بعض التعب والعناء الذي ألمَّ به...

قُرِعَ الباب وإذ بصاحب قديم تغمره اللهفة وعلى شفتيه يقف الرجاء، قال له بتوسل:

يا بك، لقد شاهدت في سوق شراء الخيل أصيلة تسبي العقول ببهائها وتميس فتحيِّر الأفهام فتهفو القلوب لدلالها، وأريد منك أن تنظرها بعين خبرتك وتقيسها بميزان معرفتك، فلا أثق إلا بك كيما أشتريها!.

أما إنساننا فكان منهكاً وقد حلَّ النصب بترحاله على كافة أوصاله وأخذ الجهد منه كل مأخذ، فهل سيعتذر أو ماذا يعمل؟.

لكنه فعلُ خير وعون ومساعدة، هل يمكن أن لا يلبيها؟.

كلا وأيم الحق إنه رغم الإرهاق والإنهاك سيجيب داعي المروءة واللهفة رغم ضعف أواصر الصحبة، بل سيضحي رغم الإجهاد الجسدي ويلبي دعوة المستغيث للعون.

عاد جاهداً واتشح ثيابه العسكرية وانطلق معه ولما يزال القيظ مستَعِراً حتى وصلا إلى السوق: رآها... حقّاً إنها فرس نادرة المثال:

صدر عريض وجسم متناسق جميل وعنق طويل وقوائم مستقيمة قوية وخواصر مضمرة اعتلى السيد محمد أمين صهوتها، وما أن همزها حتى انطلقت تسابق الريح وتطوي الأرض طيّاً، وما أن شدّ زمامها حتى وكوميض البرق توقفت.

ترجّل من على ظهرها وقد ارتسمت في عينيه آيات الإعجاب والتعجب.

سأل البائع عن الثمن فأجاب: أربعين ليرة ذهبية!.

عندها التفت إلى صاحبه وهو يمحِّضه النصح قائلاً: أنصحك بعدم شرائها فلا بدَّ أن فيها عيباً خفياً حتى رضي البائع بمثل هذا الثمن البخس، فمثل هذه الأصيلة يزيد ثمنها عن مئة ليرة ذهبية.

قال للبائع: هل تضمنها إذا ما بدا لنا فيها شيء؟.

ردَّ البائع: من هنا لنهر بردى، أي لكم اختبارها الآن وبعد البيع لا أتعرَّف عليكم ولا عليها.

قال لصاحبه: أنصحك بألاَّ تشتريها، فهذه لا تقل قيمتها عن مئة ليرة ذهبية ولا بدَّ من علَّة عصفت بسعرها.

قال صاحبه بلهفة: هذا أدعى لأن تشتريها لي... أرجوك اشتريها لي على كل الوجوه فقد همت بها.. "حبُّ الشيء يعمي ويصمّ".

قال له: إني نصحتك فيما قلته وكفى.

لكنه نقد البائع الثمن والغبطة تغمره والدنيا تضيق بفرحته.

تركه الناصح الأمين وعاد إلى البيت متحيِّراً.

وما هي إلاَّ نصف ساعة حتى قُرِعَ الباب بإلحاح وظهر صاحب الفرس خلف الباب تكسو وجهه صفرة الموت، والغضب حوَّل عينيه إلى جمرتين.

كانت الفرس رائعة حقّاً إلاَّ أن الرجل بعد أن اشتراها من السوق قد امتطى ظهرها وأطلق لها العنان حتى وصل إلى طلعة الجسر الأبيض بسفح جبل قاسيون فصادف أن مرت الحافلة الكهربائية مسرعة بفرقعتها

وضجيجها، فما كان من الفرس إلاَّ أن جفلت وثارت ثائرتها واشتدّ هلعها وأطلقت صهيلاً قوياً، ثم أرسلت قائمتيها الأماميتين في الهواء مستندة على قائمتيها الخلفيتين فاستولى الرعب القاتل على الرجل وألقى بنفسه من على متن الفرس غير مصدِّق بالنجاة إلا حينما لامست قدماه الأرض، لقد عرف عيبها وسبب تدني ثمنها الآن، فإذا خافت أو استطابت يكون هكذا ردُّ فعلها، فلو قَلَبَت لقَتلَت خيَّالها.

ولما وقعت عيناه على السيد محمد أمين لدى الباب أرسلها كلمة صاعقة:

لقد غدرتني!!!

بُهت الناصح الأمين وقال: أنا!؟؟. مكانك لا تنبس ببنت شفه، تركه وولج إلى داخل المنزل، لم يكن لديه سوى أربعين ليرة ذهبية كان قد ادَّخرها، حملها وعاد مسرعاً إلى صاحبه وقال له: تفضل...

نعم لقد ضحَّى بالذهب وتغرَّم بالفرس غرامة وأخذها منه وقادها إلى الإسطبل عنده.

لم يكن بحاجة إلى هذه الفرس أبداً، إذ إن الحكومة كانت تقدِّم له الأصايل من الجياد وكذلك ما تحتاجه من السيّاس وما تأكله من العلف، إذ إنه كان ضابطاً في الدرك، ولكن حرصه الكبير على صون كرامته دَفَعَهُ لأن يضحِّي بالمال ليجبَّ المغيبة عن نفسه.

* * *

بعد العصر بقليل انطلق ضابطنا من داره يجرُّ وراءه الفرس الشَّموس يتبعه مرافقه الخاص، وفيما هو يقدح زناد أفكاره، وما هي إلاَّ هنيهة حتى أشرق وجهه فالتفت إلى مرافقه وسأله:

هل تعرف "**الشربات الحلبية**"، إنها ذات بطن منتفخ ورقبة طويلة وهي من الفخار تشبه الحوْجلة، اذهب واحضر لي أربعة منها وأنا سأسبقك إلى "**مرجة الحشيش**"[1].

تلك الآونة كان الناس أهل خير وإحسان ولما تسمهم الحضارة بوسم الشح والقسوة والأنانية، لذا فإنهم كانوا إذا ما عجزت إحدى الدواب لديهم عن العمل أو تقدَّم بها السن يُشفقون عليها ويذهبون بها إلى

[1] **مرجة الحشيش**: غربي دمشق بين نهري بردى وبانياس، والآن أُقيم عليها معرض دمشق الدولي منذ عام ١٩٥٣ ولتاريخه، وكانت سابقاً مأوى العجزة للدواب الهرمة والمكسورة تتجع فيها حتى انقضاء أجلها لديمومة عشبها وحشيشها.

مرجة الحشيش على ضفاف بردى "مكان معرض دمشق الدولي حالياً"، ففوق هذه الأرض نهر "بانياس" وتحتها نهر "بردى".

لقد كان المكان يغطيه العشب الطري طوال العام، ناهيك عن أن أهل الشام عندما كان أحدهم تصيبه ضرّاء أو تحل بساحته شدة فإنهم يأتون بمكاييل الشعير طافحة للدواب المعطوبة والهرمة صدقة لهم تدفع عنهم السوء.

كل هذا كان يكفل للدابَّة العيش الرغيد حتى توافيها المنية محفوفة بعين الرضى للرحمة الإنسانية التي تلقاها.

وكان يؤم مرجة الحشيش هذه الخيَّالة يتدربون على فنون الفروسية، فهي ميدان فسيح يجدون فيه فرصة لاكتساب المهارة والخبرة.

لمح ضابطنا مرافقه يحمل الشربات الأربع ناداه وقال له:

املأ هذه الشربات من ماء بردى حتى منتصف كلٍّ منها. فلبى مسرعاً.

أخذها ضابطنا وثبَّتها بالقرب منه على عنق الفرس، وما أن همز الفرس بالمهماز حتى انطلقت تنهب الأرض نهباً حتى لتكاد أن تطير وكلما أوغلت في المسير كلما زادت سرعتها وبدت رشاقتها.

لقد بُهت الناظرون واستولى الإعجاب عليهم فأسر قلوبهم وتعلَّقت عيونهم بالفارس والفرس وبدأت قلوبهم تخفق بالتعظيم والتقدير.

فجأة ضغطت الفرس على قدميها الخلفيتين بقوة فتوقفت بمسافة قياسية، أمسك فارسنا باللجام بقوة وتثبت على صهوتها، فصهلت بصوت عظيم وأطلقت في الهواء قائمتيها الأماميتين فطاولت السماء.

كانت هذه هي اللحظة التي ينتظرها فارسنا، أمسك برقبة إحدى الشربات وهوى بها على رأس الفرس وبين أذنيها فدوى بأذني الفرس صوت كالرعد أصم سمعها، تناثرت بعده حبَّات الماء كالمطر فنزلت الفرس بقائمتيها الأماميتين على الأرض مرعوبة.

أرخى لها الزمام فانطلقت مرة أخرى تسابق الريح، وما أن وقفت وتعالى صهيلها تبغي رفع قائمتيها عاجلها بالشربة الثانية فتابعت سيرها وخضوعها مرة أخرى ولم ترفع قائمتيها الأماميتين وأسرعت تعدو كأنما تفرُّ

من أسد، وما أن شعرت مرة ثالثة بالنشوة وطابت نفسها وهمهرت بصهيلها وحاولت الوقوف كانت الشربة الثالثة تهوي على رأسها بقرقعتها ومياهها فلا تدع لها فرصة للتمادي بعدها أبداً.

بعد ذلك ظلَّ ضابطنا يجري بها روحة وغدوة زمناً طويلاً حتى تأكَّد أنها قد برئت من عِلَّتها وزال عنها عيبها، إذ بطلت عادتها السيئة بدافع خوفها.

لقد برع السيد محمد أمين في الاستفادة من ميزان الفكر هذا فكانت النتائج باهرة ومذهلة، التفت إلى مرافقه ومنحه الشربة الرابعة وشفتاه تنفرجان عن ابتسامةٍ مبعثها الثقة بمبدع السموات والأرض الذي هداه لهذا التدبير وما كان ليهتدي لولا أن هداه الله.

* * *

بعد أيام ذهب إلى السوق بالفرس وعرضها على روَّاده، وما هي إلاَّ فترة قصيرة حتى بيعت بمئة ليرة ذهبية، فحمد الله وأثنى عليه.

وعندما التقى بصاحبه قال له: لله درُّك، سامحك الله، كيف قلت أني قد غدرتك فلقد ألهمني الله فأدركت عيبها وأصلحته وبعتها بمئة ليرة فآتاني ربحاً ستين ليرة ذهبية بأسبوع واحد. عندها اصفر وجه صاحبه مُنْكِرِ الفضل وأكل قلبه الغيظ وملأته الخسارة حسرة وندامة.





ذات يوم قَصَدَ السيدَ محمد أمين في منطقة المهاجرين بجبل قاسيون أحدُ الجزَّارين من منطقة الميدان واستأجر منه دكاناً كان يملكها وراثةً، وسبب مجيء هذا اللحام إلى هذه المنطقة وتركه منطقته السابقة هو خلاف حصل بينه وبين أهل حيِّه بالميدان.

أخذ هذا اللحام يمارس مهنته بنزاهة واستقامة عالية فكان يجلب إلى دكانه أحسنَ الذبائح من الخرفان المعلوفة والصغيرة ذات اللحم الطري الفاخر، أي التي لحمها "كالفستق" وكان يخيِّر الزبائن فيقول للمشتري مثلاً:

من أي مكان من الذبيحة تريد اللحمة؟. فيشير المشتري من الذبيحة إلى المكان الطيِّب الذي يريد أن تكون لحمته منه فيقطع له كما يشاء ويحلو له ويعطيه طلبه الغالي ويأخذ أرخص الأسعار.

حتى وإن جاءه طفل فلا يعطيه إلاَّ أفضلَ ما عنده وبأرخص ثمن.

ونتيجة لذلك ذاع صيته في الحي وأصبح الناس يقفون أمام دكانه صفاً طويلاً كلاًّ بدوره مهما كان التفاوت في المستوى الاجتماعي بينهم، ضابط كبير يقف بدوره وراء عامل أو طفل، فالعدالة المثلى رائدةُ وبذا كان يبيع عدداً من الذبائح في اليوم الواحد، وإن كان ربحه قليلاً ولكن مع حجم البيع الكبير كانت غلَّته عالية.

أما ما يتبقى من اللحوم الرديئة والشحوم فكان يبيعها آخر النهار للمزارعين الذين يمرون به بعد العصر بالجملة (مشايلة).

* * *

ذات يوم لم يرَ إنساننا السيد محمد أمين إلاَّ وجمهرة غفيرة من شباب حي الميدان يهتفون هتافات عالية يُحيُّون بها هذا اللحام قد أتوا لترضيته ومصالحته، وليأخذوه معهم بعد الاعتذار منه وتطييب خاطره.

وانطلق فريق منهم يجمع عدة العمل من الدكان والبعض الآخر حمله على الأكتاف ليعودوا به إلى حي الميدان. فصرخ اللحام قائلاً لهم: انتظروني فقط لأدفع أجرة الدكان لصاحبها.

فأجابه أحدهم: دع عنك ذلك، فأنا سأدفع لصاحب المحل ما يريد.

وفعلاً اتَّجه إلى صاحب المحل السيد محمد أمين وسأله كم تريد ودفع له الأجرة.

وهكذا عادوا بصاحبهم محمولاً على الأكتاف لما عرفوه من نزاهته وكريم أخلاقه.

ولم تمضِ إلاَّ أيام قليلة حتى جاء لحام آخر فاستأجر ذلك المحل، كان يختلف عن اللحام الأول تماماً: فقد كان غشاشاً يجلب أسوأ الذبائح إلى محله، وكان إذا جاءه طفل صغير أو خادمة صغيرة فإنه يعطيها أردأ ما عنده من اللحم، ولذلك كان يبقى طوال اليوم حتى المساء ولا يبيع إلا شقة واحدة أي نصف الذبيحة التي يجلبها. نتيجة لذلك فقد تباعد الناس عنه شيئاً فشيئاً لغشه وعدم جلبه إلاَّ الأنواع السيئة من اللحوم.

هذا ما لاحظه إنساننا صاحب الدكان فأراد وكعادته إسداء النصح لهذا الرجل لعلَّه يستقيم في تعامله مع الزبائن وبما يرضون به فينفع وينتفع ويربح.

فقال له: يا أخي لقد شَغَلَ هذا المحل قبل مجيئك إليه لحامٌ آخر كان يجلب أحسن الذبائح وأفخر اللحوم والله وفَّقه أيُّما توفيق لأمانته وحسن معاملته فكل ذبائحه تُباع خلال ساعات قليلة وربحه كان معقولاً بسيطاً ولكن ببيع الكثير كان يربح الكثير، فلماذا لا تماثله بذلك وتحذو حذوه فتعامل الناس معاملةً طيّبة ونزيهة دون تمييز وتجلب أجود أصناف اللحوم؟.

* * *

وفي صباح اليوم التالي وبينما كان إنساننا ذاهباً إلى عمله ألقى نظرة على المحل فرأى أن ذلك اللحام ولأول مرة قد أتى بذبيحة من أجود الأنواع وأحسنها لحماً فقال في نفسه: الحمد لله لقد أصغى هذا الجزَّار إلى النصيحة وعمل بها.

ولكن ما إن عاد ضابطنا السيد محمد أمين من عمله حتى كانت المفاجأة الكبرى تنتظره، فبالتفاتة منه تجاه ذاك الدكان رأى أن الذبيحة لا تزال معلقة بتمامها وكمالها لم يقربها مشترٍ واحد، فهي كما رآها صباحاً واللحام يقلِّب كفَّيه ندماً ويتميَّز غيظاً وحنقاً على ذاك الذي نصح له.

حاول الناصح الأمين المرور دون أن يُشعر به اللحام الغشاش ولكن أنّى له ذلك فقد كان يترصَّد قدومه بصبر نافذ وكانت دكانه بجانب باب دار ضابطنا، وما أن وقع بصره عليه حتى اعترضه قائلاً لائماً:

انظر ماذا حلَّ بي نتيجةً لسماع نصيحتك... انظر الخطب الفادح الذي أحللته بي!. قال ذلك بتهدُّج وسخط وهو مغيظ.

عندها ألهم الله السيد محمد أمين أن يضع يده على رأس اللحام قائلاً: استحلفك بالله ورسوله... ألم تقل في نفسك إن حالفني الربح سأستمر في هذه المسيرة الطيّبة، وإن كان عكس ذلك سأعود إلى ما قد سلف من عادتي وأجلب رديء الذبائح وأغش؟.

دُهش اللحام ساعتئذٍ وفوجئ بحدس إنساننا الصحيح فأجابه متسائلاً: يا للغرابة من قال لك ذلك!. وكيف عرفت مع أني قلته في سرِّي!.

فردَّ عليه إنساننا قائلاً: تنحَّ عن سبيلي، تريد إذاً اختبار ربّك وامتحانه تعالى؟. إن الله تعالى لا يُمتحن، بل يُطاع عندها ترى النتائج الطيبة.

قال ذلك ودخل منزله مفكِّراً في أمر ذلك اللحام الذي لن يُباع عنده شيءٌ من الذبيحة وكم ستكون خسارته كبيرة من جراء ذلك، وبعد أن تناول الطعام ونال قسطاً من الراحة أشفق عليه وعاد إليه قائلاً: احملْ ذبيحتك على دابَّةٍ واتبعني.

ذهب به إلى عدد من معارفه أصحاب المطاعم فباع كلَّ واحدٍ منهم قسماً من الذبيحة وأعيد له رأس ماله بعد أن كانت خسارته محتمة لأن الذبيحة لو بقيت عنده لفسدت وتَلِفَت نظراً لعدم وجود برادات في ذلك الزمان لحفظ المواد الغذائية.

وفي اليوم التالي وبينما كان إنساننا في طريقه إلى عمله مرَّ كعادته من أمام اللحام وإذ باللحام قد عاد إلى سيرته الأولى بجلب اللحمة الرديئة وعادت إليه زبائنه التي على شاكلته، "الطيبون للطيبين والخبيثون للخبيثين". وأبت النفوس الخبيثة إلاَّ أن تتجلَّى بخبثها وبالمثل العامي "كل حبّة مسوسة ولها كيَّال أعور".





﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾[1].

هذا هو القانون الإلهي والتشريع الرباني الذي أتى به سيدنا محمد رسول الله ﷺ ومن سبقه من الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام الموصل للسعادة... لأن هذا الرب رحيم ذو حنان لا يرضيه سوى سعادة عباده دنيا وآخرة... لكنها الشهوات البهيمية الجهنمية هي التي جعلت البشر يبتعدون عن هذه القوانين... ظانين أن قوانين شهواتهم هي الموصلة لسعادتهم... إذ لم يفكِّروا. أما من أدرك سرَّ هذه القوانين الإلهية والحكمة العظيمة منها والتي تكمن سعادة البشرية بتطبيقها فهو القريب المحبّ لربِّه وكلما ازداد المرء قرباً وحبّاً زاد فهماً وإدراكاً للمراد الإلهي من أحكامه.

وعلى سبيل الإيضاح نضرب لك مثلاً واقعياً بالقصة التالية:

* * *

[1] سورة الأحزاب: الآية (٥٩).

حُدِّدَ موعد للاجتماع بين السيد محمد أمين وبين رجل ذي مكانة اجتماعية وثقافية "دكتوراه" بزمن الكتاتيب ولا مدارس إذ ذاك، وكان الاجتماع يتعلَّق بتنصيب الأمير عبد المجيد حيدر ملكاً على سوريا الكبرى بعهد الانتداب الفرنسي عليها.

وباليوم التالي وفي الساعة المحددة حضر السيد محمد أمين إلى بيت ذلك الرجل وقرع الباب ففتحت زوجة الدكتور الباب وطلبت منه الدخول "عن طريق ابنتها" لأنها ذات جنسية فرنسية ولا تجيد اللغة العربية.

وحالما شعر أن امرأة على الباب أدار ظهره فاضطرت لإعلامه بأن زوجها اتصل منذ قليل وأخبرها بأنه سيتأخر عن الموعد /١٠/ دقائق لأمر هام عند الجنرال سراي المندوب السامي الفرنسي لسوريا.

فهبط الدرج وانتظر في الشارع قرب البيت.

حضر الدكتور واعتذر عن تأخره فأجابه إنساننا بأن التأخُّر مدة عشرة دقائق لا يُعتبر تأخُّراً إن حدث، ثم دخلا البيت وجلسا في الصالون، وقبل الحديث الذي من أجله عقد الاجتماع وإذ بزوجة الدكتور تحضر لتجلس معهما بصحبة ابنتها.

نظر السيد محمد أمين إلى زوجها الذي يعلم بأنه لا يجالس النساء فالتفت الزوج ثم أطرق رأسه ولم يجرؤ على الكلام لأنه شاهد زوجته والغضب يكسو وجهها، ابتدأت الحديث قائلةً:

بلغني عنك مسموعات عالية جداً في لبنان والآن شاهدت العكس تماماً "فهي والحالة هذه تذمه بقولها" مما اضطره لإجابتها عن طريق ابنتها.

فقال لابنتها: أرجو أن تخبري أمك بأنها "مجنونة".

وعندما أبلغتها ذلك النبأ الصاعق ثارت ثائرتها لأن حدَّة الطبع من الصفات التي يتميز بها الفرنسيون عن غيرهم ونهضت ثائرة تقول: أنا مجنونة؟.

قال لها: طبعاً... لأن من يحكم على رجل حكمين متناقضين تماماً دون معرفته والاجتماع به، أوَ ليس هذا بمجنون؟. فهل شاهدتيني قبل الآن... لتحكمي عليَّ هذين الحكمين؟.

فأجابته: بلى، لماذا لم تدخل دارنا عندما دعوتك للدخول...

ألست جميلة؟. مع أن زوجي يعلم أني من فاتنات باريس، أم هل سمعت عني بأني غير شريفة حتى إنك لم تدخل؟. فهذا زوجي أمامك اسأله هل لاحظ عليَّ شيئاً من هذا القبيل طيلة حياتي معه؟.

فأجابها إنساننا: أنا مسلم، ومن أسس شريعتنا الحنيفة أن الرجال لهم مجال والنساء لهن مجال آخر والاختلاط عندنا محرّم.

فأجابت: أنتم الإسلام قد غاليتم كثيراً مع العلم بأن اليهود أقدم منكم في الدين وكذلك فإن النصارى أقوى منكم، فمن أين أتيتم بمسألة الحجاب هذه؟.

فأجابها: وهل المسألة بالقدم أو القوة، أم بالمنطق والحجة والحق؟.

قالت: لا... بل بالحجة والبرهان.

قال: إذن، فاسمحي لي أن أبيّن لك سبب الحجاب بين الرجل والمرأة في الإسلام:

إنني حين لا أجلس مع النساء، بل اجتمع بالجنس الخشن (جنس الرجال) طوال النهار، ثم أعود من عملي إلى بيتي أرى زوجتي بنظري أجمل النساء في العالم، فتزداد محبتي لها... كما تزداد وشائج الترابط قوّة بيننا، وهذا أمر له شأنه على نشوء أولادي، أي على الصعيد الأُسري... وحين نختلط مع بعضنا علماً بأنك أنت شريفة... وأنا شريف... ولا بدَّ أن فيك محاسن ومزايا رائعة تميّزك عن زوجتي تستهويني، وعندما أعود إلى البيت أبدأ بالمقارنة بصورة لا شعورية بين ما رأيت واستحسنت من صفات كاملة فيك أفتقدها بزوجتي... فأندب حظي الأسود وأنسب الظلم لقسمتي، لماذا كانت هذه نصيبي ولم تكن تلك ذات الحسن والجمال أو الحديث ذي الجرس الموسيقي أو الأناقة وخفة الروح والجاذبية، وهذا ما يُقلّل من حبي لزوجتي فتسود الكراهية بيننا بدل المحبَّة والإلفة... فحينما تلاطفني زوجتي بكلمة "يا حبيبي" أشعر وكأنها تقول لي "ورصاص" لأن القلب قد تبدَّل، "وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه"، فالحب قد تحوَّل والنَّفس تميل مع الأجمل أو الأفتن أو الأكثر جاذبية ورقَّة، عندها يسود التنافر بدل التعاون، والظلم بدل العدل وقد تتحمل زوجتي معاملتي السيئة هذه مرة أومرتين ولكن لا بدَّ أن ينفذ صبرها وتتساءل بنفسها ما سر هذا الانقلاب العجيب الذي جعله يُعاملني هكذا بالرغم من قيامي بواجباتي نحوه ونحو أولادي وبيتي على الوجه الأكمل فتثور ثائرتها وتقابلني بالمثل، وهنا الطامة الكبرى، هنالك تتوتر العلاقة بيننا وتبدأ المشاحنات والخصومات لأتفه الأسباب لأن النفوس قد تغيَّرت... وبسبب هذا تتحوَّل الحياة إلى جحيم لا

يُطاق فيكون الطلاق الوسيلة الوحيدة للخلاص منه، ولا يحصد كلانا نتائج الطلاق السيئة فقط وإنما تنعكس أيضاً على الأولاد الذين يفقدون في لحظة من يرعاهم ويحنو عليهم، ليصبحوا مع أصدقاء السوء في الشارع "الملاذ الذي ينهلون منه ويتعلَّمون فنون الرذيلة والإجرام"، كما يحصل انشقاق بين أفراد عائلتي وعائلتها ولا يخفى ما لهذا الانحلال من أثر سيء على بناء المجتمع فيصبح المجتمع من جراء السفور والاختلاط مُهلهلاً متفكِّكاً يسهل القضاء عليه، فهذا كله إنما حصل نتيجة اختلاطنا ببعضنا البعض بالرغم من كونك أنت شريفة وأنا شريف.

هذا بالنسبة للرجل أما بالنسبة للمرأة فإنها من خلال اجتماعها برجل غريب قد تستحسن فيه صفات جيدة مثل: الحديث، المعاملة، الهيئة، المنصب.. الخ.. غير متوفرة في زوجها، ويؤدي هذا مع مرور الزمن إلى النفور من زوجها وبدء الخصومات والمشاحنات.

ثم التفت إليها السيد محمد أمين وقال:

إن شاهدت فيَّ صفات حسنة جميلة... ألا تحبين أن تكون هذه الصفات متوفرة في زوجك؟.

قالت: أريد أن يكون زوجي أحسن مخلوق في العالم.

قال: إذن.. وبفقدان هذه الصفات من زوجك فإنه سيصغر في عينك وتتضاءل قيمته في نظرك وسبب ذلك كله اختلاطك بغيره، حيث يدفعك هذا الاختلاط لاستحسان بعض الصفات في الغير والتي يفتقدها زوجك فيكون من نتيجتها الاشمئزاز والنفور بدل المحبة والسرور وتُفتقد السعادة.

* * *

فما لبثت بعد أن سمعت هذا الكلام المنطقي الذي هو بمثابة تحليل علمي لواقعنا العملي أن أقرَّت بذلك ونظرت إلى ابنتها وقالت لها:

أما الآن فأريدك أن تكوني مسلمة، ولكن كهذا الرجل لا كأبيك. فطأطأ زوجها رأسه خجلاً "لما تعرف عن سلوكه من ممارسات تتناقض مع روح الرجل المسلم".

وبعد هذا الإقرار استأذن السيد محمد أمين بالخروج والذهاب إلى بيته...

* * *

ولم تمضِ سوى أيام قليلة بعد هذا اللقاء... حتى جاء زوج هذه المرأة الفرنسية ليُعلم السيد الشريف بأن زوجته ترجو اللقاء به مرة ثانية لما وجدته فيه من صدق وواقعية ومنطقية الحديث... ويمكن أن تكون لديها رغبة حقيقية في دخول الإسلام إن اجتمع بها ثانية.

فاعتذر السيد محمد أمين قائلاً: أما اجتماعي بها في المرة الأولى فكان اضطرارياً كما كنت مضطراً للردِّ عليها فيما اتُّهمت به الإسلام من تعصُّب للحجاب.

أما الآن فأنا لا أذهب إليها بكلتا رجلي وبمحض إرادتي، ففي المرة الأولى رأيتها دون شهوة ولكن في المرة الثانية وباختياري سوف أرغب وأشتهي فأنا بشر يا أخي وبهذا أضر نفسي وهذا لا يجوز. إن كانت تريد أن تُسلم فهي وشأنها.

وبعد أقل من شهر عاد الدكتور برفقته زوجته الفرنسية التي ارتدت لباساً طويلاً وأسدلت غطاءً على شعرها إلى بيت السيد محمد أمين الذي فتح لهما الباب على غير موعد ورحَّب بهما أجمل ترحاب أمام هذا الواقع، إذ لم يسعه إلاَّ أن يأذن لهما بالدخول ومن بعد أن حدَّثته بأنها قد رأت في نومها الرسول محمداً ﷺ بنورانية وبهاء وجمال سبت عقلها وأذهلتها عن الوجود، فلقد عاشت في عوالم قدسية وغبطة علوية حتى طلَّقت نفسها دنياها وعافت شهواتها. فغدت لا تبغي حولاً عن حالها السامي.

وأضافت: ومنذ ذلك الوقت أصبحت أعيش حياة ملؤها السعادة والسرور حيث انقلب ألمي وشقائي نعيماً لا يُضاهى وما زلت أعيش هذه الحالة حتى الآن ولذلك قررت أن أُعلن إسلامي على يديك، وأسلمتْ.

فأجابها: بعد إسلامك بقي عليك أن تضعي غطاءً على وجهك لتستمري بحياتك القلبية الراقية، إذ الفتنة لا نرضى بها.

فقالت: لا أستطيع الآن أن أطبِّق هذا دفعة واحدة لأنني كنت طيلة عمري معتادة على كشف وجهي فهذا يصعب عليَّ الآن فاصبر عليَّ قليلاً.

وحالت بين لقائهما أمور سياسية عصفت بالشام ولكنه اطمأن لصدقها بأنها بإذن الله على ما يُرام.





كان لهذا الإنسان السيد محمد أمين شيخٌ جليلٌ، في ذات يوم أراد هذا الشيخ أن يرمِّم غرفةً ضمن باحة مسجد "أبو النور" بمنطقة الأكراد على حافة نهر يزيد، وهو فرع من فروع نهر بردى. وقد أشار عليه أصحاب الخبرة والاختصاص بالبناء بأنه لا يمكن ترميم الغرفة حتى يتم تحويل مجرى النهر مؤقتاً ولبضع ساعات خلال فترة الترميم.

وفعلاً على هذه النية ولهذا الهدف... حوَّل الشيخ مجرى النهر ولفترةٍ لا تتجاوز الساعتين ريثما ينتهي العمل، فما لبث الحسّاد وأولاد الحرام والمبغضون حتى أشاعوا خبراً بين أصحاب البساتين والمزارعين وأهالي المنطقة... بأن الشيخ "أمين كفتارو" قد حوَّل النهر لمصلحة جماعته وقطعه عنكم وعن بساتينكم ليسقي أراضي من يلوذون به من مريديه... وقد سرى هذا النبأ الصاعق بين أولئك المزارعين سريان النار في الهشيم فما أن سمعوا بذلك حتى هرعوا كالمجانين يتنادون للهجوم على الشيخ وقتله وإعادة النهر لمجراه.

وأخذوا يجتمعون من كل حدب وصوب ومن كل مكان وهم يحملون المعاول والعصيّ وغير ذلك، وقد تجمَّع المئات من الرجال والشباب بجمهرة غفيرة وشكَّلوا مسيرة شعبية عارمة هوجاء وهجموا باتجاه بيت الشيخ يريدون اقتحام داره وحرقها وقتله ومن معه من المريدين وقد مكر بهم المغرضون.

لقد أيقن الشيخ بالموت المحتم عندما رأى الحشد من بعيد، إذ لا مناص له ولا مفر كما لا قِبلَ له بالمواجهة والوقوف بوجههم وقد صمَّت آذانهم عن التحقيق وتبيُّنِ وجه الحقيقة وسماع سبب التحويل، فما كان منه إلاَّ أن استسلم للأمر الواقع للموت المحتم الذي بدأ يقترب منه شيئاً فشيئاً وكان حوله أربعةٌ من المريدين المخلصين المحبِّين صمَّموا على الموت معه ولن يتركوه يواجه الموت وحيداً.

وفي هذه الأثناء وهذا الظرف العصيب والخطير حيث لم يبقَ إلاَّ وقت قصير بين الشيخ وموته على يد هذه الحشود الغاضبة، وصل النبأ إلى إنساننا السيد محمد أمين بينما كان قادماً على نفس الطريق، فقالوا له: إن شيخك قد قُتل...

وما أن سمع ذلك النبأ الذي وقع عليه كالصاعقة... فانتفض كالأسد الهصور وانطلق بسرعة كبيرة يهدر ويزمجر وهو يردِّد العبارات التالية:

"شيخي يُقتل وأنا لا أزال على قيد الحياة، هذا لا يكون أبداً".

وخلال وقت قصير قطع المسافة ووصل فشاهد الرجال والشباب يركضون ويهتفون الهتافات المعادية التي تصمُّ الآذان وهم ما يفتأون يردِّدون: "قطع الأعناق ولا قطع الأرزاق نطلب روح من سلبنا ماءنا"... وقد قاربوا داره ودنوا منها.

وصلوا هم والسيد محمد أمين، فكان لقاؤه والجمع الغفير، عندها دوَّت صرخة الحق منه... فجلجلت كالرعد القاصف.

صرخة مدوّية سرت بينهم ووقعت عليهم وعلى مسامعهم كأنها قنبلة انفجرت بينهم، بل شعروا بالدنيا قد أطبقت عليهم...

واستمرَّ هذا الإنسان يكيل لهم الشتائم بأوصافهم الخبيثة... فدبّ بقلوبهم رعب وهلع غريب وشعروا جميعاً بانحلال عزائمهم وخمود ثورتهم، ولم يلبثوا حين انقض عليهم بعصاه كالقضاء المعَجَّل أن تطايروا رعباً وهلعاً... حتى وصل بهم الأمر إلى حد لم تعد تحملهم أرجلهم وشعروا بأن الموت قد خيَّم عليهم وأطبقت الدنيا فوقهم فلم يجدوا خلاصاً من ذلك الرعب إلا الفرار والهروب.

وفعلاً لاذ هؤلاء والذي يُقدَّر عددهم بالمئات جميعاً بالهزيمة والتواري عن أنظار هذا الإنسان الذي جلجل صوته المرعب في آذانهم فأحلَّ في قلوبهم الهلع فاختفوا بين الأشجار والسواقي وهو متابعهم كالأسد الهصور وهم لا يدرون ما أصابهم وما هذا الحال من الخوف المريع الذي انتابهم.

* * *

كان الشيخ قد شاهد هذا الإنسان من مسافة وهو قادم يصرخ بالقوم، وكيف تشتَّت الجمع وتمزَّق شذر مذر، هنا عادت إليه الحياة وإلى من معه وزال عنه كابوس الموت فأرسل باثنين من مريديه ليحضراه بين يديه.

وعندما دخل السيد محمد أمين إلى شيخه... والزبد الأبيض يقطر من فيه وهو في ثورة بركان الغضب التي لم يهدأ عنفها إلاَّ بعد ساعة كاملة من الزمن، ومنظره يهدُّ الجبال هدّاً. عندها قال له شيخه:

والله عندما رأيتك قادماً بتلك الثورة العظيمة ونظرت إليك شعرت بالرعب والخوف أكثر مما كنت أخاف من الموت المحتم، فلم أتمالك النظر إليك حيث لم أرَ مثل تلك الثورة قط ولا مثل مشهدك المهيب...

فما هذا السر العظيم بذلك الصوت الذي أودعه الله بك!.

ما هذا الثوب من العظمة والمهابة الذي ألبسك الله إياه!.

ما هذه الشجاعة التي ذابت في عظمة شدَّتها كل شجاعة!.

سلمت يداك وجزاك الله عني كل خير...

أما أنا فلا أستطيع أن أجزيك بل الله وحده يجزيك...





كان السيد محمد أمين يقطن في منطقة المهاجرين بجبل قاسيون المشرف على دمشق الفيحاء وروابيها الغنَّاء والتي تبعد عن المدينة عدّة كيلومترات فكان يضطر أحياناً لاستخدام الحافلة الكهربائية كوسيلة نقل في ذهابه وإيَّابه.

وفي إحدى المرات وكعادته أثناء عودته للبيت صعد مع ولده الحافلة الموصلة لمنطقة السكن، وبعد أن تحرَّكت الحافلة وأثناء السير جمعه الله بأحد معارفه داخل الحافلة، فسلَّم عليه وسأله عن أحواله وسارت الأمور طبيعية.

وفي تلك اللحظات مرَّ الجابي بهم طالباً الأجرة وبكل طيب دفع السيد محمد أمين مقداراً من النقود يعادل أجرة ثلاثة ركاب: هو وولده الذي كان يصطحبه معه ليساعده في بعض الأمور وذلك الصاحب، ولم ينتبه لما فعل الجابي بعد ذلك.

وعند الوصول للموقف المطلوب نزل مع ولده واتَّجه باتجاه البيت...

لكن الفتى أوقفه: أبي.. أبي لماذا دفعت للجابي عن صاحبك؟.

أجاب: دفعت عنه لأنه صاحبي.

فردَّ عليه الفتى: لقد أخذ منه الجابي مرةً أخرى. فسأله باهتمام: هل أنت متأكِّد من ذلك؟.

قال: نعم، يا أبي لأنه قطع تذكرة الكبار ذات اللون الأخضر.

وبالفعل كانت تذكرة أجرة الصغار حمراء... بنصف قيمة التذكرة الخضراء للبالغين الكبار.

همَّ باللحاق بالحافلة التي بها أخذ الجابي الأجر مرتين، لكنها كانت قد توارت عن الأنظار، عندها أوصل ابنه لباب داره وانتظر قدوم الحافلة التالية ليصعد بها قاصداً الحافلة الأولى وإلى آخر الخط فاختلفت الحافلتان بالاتجاه، كانت الحافلة التي بها الجابي الخبيث راجعة للمدينة من آخر الخط والتي هو فيها متجهة بالعكس لنهاية الخط، فلم يتمكَّن من إمساك الجابي وكان قد دفع قيمة تذكرة لآخر الخط ثم عاد بالحافلة للمدينة ودفع أجرة بطاقة عودة للمدينة مرة ثانية، حيث وجد الحافلة بمركز المدينة "المرجة" مركز انطلاق الحافلات الكهربائية، صعد إليها باحثاً عن الجابي ولما رآه هجم عليه وأمسكه بكلتا يديه من ياقته "قبَّتِهِ" وأراد أن يبطش به فاستولى الذعر والرعب عليه وأخذ يتوسل إليه طالباً العفو ومظهراً التوبة عن مثيلاتها وخاطبه قائلاً:

لماذا فعلت ذلك أيها السارق، كيف تأخذ الأجرة من صاحبي بعد أن دفعتها لك.

وبكلمات تليق به وبما فعل وبحكمة بالغةٍ أنَّبه وأدَّبه واستردَّ منه النقود وعاد للبيت بحافلة أخرى متَّجهة لهناك، ودفع أجرة العودة ببطاقة ثالثة.

* * *

لقد كلَّفته هذه الملاحقة ثلاثة أضعاف ما استردَّه: فما كانت غايته النقود أبداً لكن العبرة والغاية من ذلك هو منع الخداع، فما كان ليخدعه أحد أبداً ولم يرضَ أن يخدعه الجابي مهما كانت التكاليف.

(لستُ بالخَبِّ ولا الخَبُّ يخدعني).

كما أن هذا التمادي من الجابي وهذا التلاعب لسلب الحق يجعله يتمادى أكثر وأكثر وكيلا يكون مفتاحاً للشر فيعتاد على السلب والنهب ويستمر الحرام ويسري بدمه وما غذي بالحرام فالنار أولى به، لذلك أخذه بهذه الشدة والعنف محبة به وحماية له.

وبهذا التصرُّف الحكيم وبهذا العمل من هذا الإنسان الرحيم جعل منه لغيره عبرةً وردعاً وأعاده للحق ولم تعد تسوِّل له نفسه بالتمادي والسرقة بعد هذا الدرس وهذه الفضيحة والإذلال.

ولو لم يتصرَّف السيد محمد أمين معه هذا التصرُّف... فيا ترى ما هي نتائج هذا التمادي؟.

وماذا سيحل بصاحب هذا العمل "الجابي" ومن سار على مسراه إن لم يُؤخذ على يده ويُهَدُّ باطله هدّاً ويكون عبرة للمجتمع ودرساً لن ينساه.

إنه الشقاء والسلب والنهب والتباغض والتنافر في الدنيا وجهنم بالآخرة إن جَبَّنا وتقاعسنا فلم ننه عن المنكر ولم نأمر بالمعروف.

قال رسول الله ﷺ: «**من رأى منكم منكراً فليقوّمه بيده، وإن لم يستطع فبلسانه وإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**».





تسنَّم السيد محمد أمين منصب قيادة القلعة وسجنها المركزي، وما أن استلم ذلك المنصب المرموق الذي يتمنَّاه كل ضابط حتى كادت قلوب الحسّاد تتمزق ألماً وغيرة... ورَاحَ بعضهم متعاونين في الخفاء ليحيكوا مؤامرة مروِّعة... يريدون بها الخلاص منه بفصله عن منصبه هذا.

ومنذ الأيام الأولى رأى السيد محمد أمين المكر والخيانة بعيونهم فأدرك صعوبة ما هو فيه من موقف... وأدرك ضرورةَ التعاملِ معهم بتفكيرٍ وتخطيط... فالأمر ليس سهلاً... فما تراهم يدبِّرون ويكيدون له؟. ساد جو القلعة نوعٌ غامض من الترقُّب والحذر.

تلفَّتَ السيد محمد أمين حوله ممحِّصاً متفحِّصاً كلَّ من في القلعةِ ضباطاً ودركيين... فما وجد فيها من يمكن الاعتماد عليه والوثوق به سوى شرطي اجتمعت فيه كل معاني الطيبة والبساطة وقد نُقل بصحبته للخدمة بالقلعة وكان مرافقاً له.

ناداه إلى مكتبه فلبى فرحاً وهرول إلى المكتب تردِّد حجارة الممرِّ صدى وقْع حذائه الثقيل... وقف أمامَ ضابطنا مؤدِّياً التحية بقوة وعنفوان قائلاً:

احترامي سيدي...

ردَّ ضابطنا بلطف: أهلاً بأبي محمد... تفضَّل اجلس.

فجلس وهو بغاية الفرح والسرور لشديد محبَّته وتقديره لقائده ذلك الضابط الشجاع.

ابتسم السيد محمد أمين ثم قال: يا أبا محمد... أريدك أن تذيع وتنشر في كل أرجاء القلعة بين رجال الدرك والضباط والمساجين: (أن المدير الجديد للقلعة ضابطٌ ليس لسطوته حدٌّ ولا لجبروته ندّ، فلقد كان يعمل قائداً لفرقة "الكوماندوس" الفدائيين، والآن سلَّمته الحكومة الفرنسية هذا المنصب مستعينة به لتضرب بقوة على أيدي السجناء السوريين وتُذيقهم على يديه الويْلات، قل لهم: فعلاً إنه ضابط ليس ككل الضباط، إذ إن لقبضته الحديدية من البأس والقوة ما أن يضرب بها أحداً حتى يُفارق عالم الأحياء، فكما يُقال ضربته والقبر..).

اتَّسعت حدقتا أبو محمد دهشةً بما سمع من قائده وبدا الاستغراب على وجهه مُستنكراً ما سمع ثم قال: معاذ الله يا سيدي أن أتكلَّم بحقِّكم هذا الكلام... والذي لا أصل له، فأنتم مثال الأخلاق والرحمة والرجولة الحقَّة.

ردَّ ضابطنا: أيها الرجل الطيِّب المخلص، بل على العكس إنك وبقدر تصويرك لي اليوم بهذا المظهر تنفعني غداً.

خرج أبو محمد مُذعناً لأمر القائد، لكن لا يزال مُحتاراً مُستغرباً هذا الأمر... إذ لم يفهم بَعْد ما يرمي إليه سيده من وراء نشر تلك القصة ولكنه أحسَّ من خلال نظرات قائده ونبرات صوته بجديَّة الأمر وخطورته وأنه على حسب ما ينفِّذ تعليمات سيده سوف تترتب وتُبنى النتائج المرجوَّة، فاقتنع ونفَّذ.

* * *

بدأ أبو محمد يُذيع ما أراده منه سيِّده في كل مكان في القلعة والسجن بين الضباط... الدرك... السجناء...

ذاع صيت السيد محمد أمين وشهرته بالعنف والقسوة وشاع بين كل الأفراد في القلعة وسجنها وتناقله الجميع بشيء من الهيبة والحذر... مما أكَّد لهم صحة هذا الكلام جدِّية هذا الضابط، وأن مظهره حقّاً كان كالأسد الكاسر.

ولكن ورغم كل ذلك الترتيب العبقري والتدبير الذي دبَّره السيد محمد أمين فذووا النوايا السوداء من امتطى الشيطانُ ظهورَهم فأشعل الحسد في قلوبهم استمرُّوا في غيِّهم ومكرهم سادرين... إذ اجتمعوا وأجمعوا أمرهم على افتعال وخلق أحداثٍ في القلعة أو السجن تُثير البلبلة وتخلُّ بالنظام العام وتشيع الفوضى مما يُظهر ضابطنا "المدير" بمظهر العجز والفشل وبالتالي ما يكشف عن عدم كفاءته القيادية وعدم صلاحيَّته لهذا المنصب الرفيع.

وإن تمَّ تنفيذ مؤامرتهم فستضطر الحكومة الفرنسية لإقالته من منصبه هذا... وهذا ما قصدوه من أفعالهم... وما حسب له ضابطنا وتوقعه منهم.

* * *

فما هي إلاَّ أيامٌ قليلة وبينما كان السيد محمد أمين يجلس بمكتبه... اقتحم بعض رجال الأمن بالسجن "الدرك" غرفته مُصفري الوجوه ممتقعين وقالوا وهم يلهثون:

سيدي... سيدي... إن أحد السجناء في الزنزانة رقم (٢٠) المُعدّة لإقامة المحكومين بالإعدام قد حصل على خنجر كان قد دسّه إليه أحد رجال الدرك المتآمرين وطعن به سجيناً آخر وهو لا يزال الآن يهدِّد ويتوعد.

فأمرهم بالقبض عليه فأجابوا: إنه يطعننا إن اقتربنا منه... فهل تأمرنا بإطلاق النار عليه. (هنا فهم المؤامرة: يريدون قتل المجرم بأمره ليثبتوا عجزه عن ضبط السجناء وإيقاع جرم قتله برقبته).

لقد تحقَّق ظن ضابطنا وصدقت فراسته ووقع ما حَسَبَ له تماماً وتوقَّع حدوثه، فما نسب صيت القسوة والبطش والعنف إليه وذاعه في القلعة والسجن إلاَّ كإجراء إن لم يقف بوجه المكر والتلاعب ويمنعه فسيكون خطوة ومرحلة أساسية من ترتيب وخطّة يمنع بها الفوضى ويضبط النظام في القلعة وسجنها دائماً وأبداً.

وبالفعل فهذا الإجراء الذي اتَّخذه ما كان وحده ليردع الحسَّاد عن افتعال هذه الأفعال... فقد لجؤوا لإيصال سكينٍ عن طريق أحد أتباعهم من الدرك المتآمرين إلى ذلك السجين الذي طعن به سجيناً آخر طعناً قاسياً فسقط أرضاً وسط الزنزانة يسبح ببركة من دمائه، بينما تراجع جميع السجناء ولاذوا بالجدران خوفاً من سطوة وإجرام هذا السجين الذي بقي حاملاً السكين يضحك ضحكات هستيرية متنعِّماً بمنظر

الدم وأنين الجريح، ولم يعلموا أنه مدعوم ومدفوع لافتعال هذا الجرم ولإيقاع مدير السجن السيد محمد أمين بهذا الشرك.

تقبَّل القائد السيد محمد أمين هذا النبأ بثبات وقوَّة لم يتفاجأ بما سمعه فصرفهم غاضباً، ونظر إلى أبو محمد نظرات مبعثها الثقة بالنصر على من أراد شيوع الفوضى وإحلال النظام. ثم قال:

أبو محمد أيها المُخلص الأمين إذهب ومن فورك إلى تلك الزنزانة وقل لذلك المجرم إن مدير السجن يأمرك بالقدوم إليه فوراً.

أجاب أبو محمد: هيهات... هيهات... سوف يرفض يا سيدي وأنَّى لمثل ذلك المجرم أن يستجيب وقد تمادى في طغيانه وإجرامه!.

ردَّ عليه: ما عليك أيها المخلص... أنت بلِّغه ما أمرتك به وانتظر قدومي هناك خمس دقائق فقط ولا تتحرَّك من مكانك حتى أصل إليك.

فحيا قائده وهرول مُسرعاً لتنفيذ الأمر... وما أن وصل إلى الزنزانة حتى أخرج من وسطه المفتاح الضخم ودسَّه في القفل الحديدي... فصرصر الباب وفتح... ونادى على المجرم الشرس بصوت جهوري: إنَّ مدير السجن يأمرك بالحضور إلى مكتبه فوراً.

سمع السجين المجرم كلمات "أبي محمد"... فانفجر ضاحكاً كالمجنون...

ثم قال بكبرياء وغرور: يريدني أنا... أنا... أن آتي إليه!!. ها... ها ها.

تعالت قهقهاته ثانية... يا للعار... يا للعار... أنا آتي إليه؟!. ثم بدأ يشتم ويسب مدير السجن بأقذع كلمات السباب... وبعبارات نابية تدلُّ على سلوكيَّته المنحطة ودناءته اللامتناهية...

أبو محمد بقي واقفاً قرب باب الزنزانة... صامتاً... كابتاً ثورته القوية ضد هذا المجرم المتمادي... وذلك حسب تعليمات قائده... وقد ظنَّ السجناء أن أبا محمد ليس معه أمر بإطلاق النار على المجرم كما لا يجرؤ على العودة إلى مدير السجن الجبَّار القوي رعباً من جبروته بدون المجرم... وجبَّن خوفاً من هذا المدير الذي كان مدرباً للفدائيين "الكوماندوس" الرهيب فجمد في أرضه...

مرَّت خمس دقائق ثقيلة على الجميع حتى سمعوا صدى وقع جزمة ضابطنا الأبي يمشي برجولة وقوّة كأنه يتقلَّع من صخر إلى أن دخل الزنزانة والسيف على جنبه معلَّق وبمسدسيْه وعيناه تقدح شرراً... مُنتصباً كأنه جبل يتحدَّى الرسوخ في رسوخه...

حقّاً كان منظره مُهيباً... ثم جلجل صوته كالرعد القاصف في المكان مُخاطباً الدركي أبا محمد: ويحك... ويحك...أما أمرتك أن تُحضر لي ذلك الكلب الخسيس الحقير وعلى الفور؟. أَفعصيت أمري!.

وبسرعة البرق وبراحة يده لطمه لطمةً قويةً على وجهه كان لصدى وقعتها طنين... قذفته ملقىً على الأرض على بعد مترين مُنكباً على وجهه بعدما انتثر من فمه زوج من الأسنان... واصطبغت شفتاه بحمرة الدماء... كانت صدمة رهيبة... لم يجلس بعدها، بل بقي ممدَّداً من أثر الصدمة المعنوية لا الماديَّة حقّاً مصعوقاً وقد سيطر عليه الذهول والاستغراب... يكاد لا يصدِّق ما حدث...

بينما ساد المكان صمت رهيب وبدا الاستغراب والدهشة على وجوه جميع الشهود من السجناء والدرك...

لم يكن ذلك بالحسبان أبداً أبداً... ناهيك عن أن الأعراف العسكرية السائدة في ذلك الوقت تعتبر شتم دركي أمام الملأ "الناس" جريمة نكراء مهما كانت الدواعي والأسباب... فكيف بضربه؟.

لقد أدرك الجميع الآن قيمة الكلمات التي سمعوها عنه وأيقنوا بمصداقيَّتها... عندما شاهدوا هذه الحادثة الرهيبة العجيبة... وبحقِّ من؟!. بحقِّ رجل أمن (دركي)!. ولمجرَّد تأخّره في تنفيذ الأوامر... ورغم أن هذا التأخير كان خارجاً عن إرادته!!. فكيف سيكون عقاب سجين مُستحق وفي القلعة... إن لم يطع الأوامر؟.

إذاً صحيح ما رُوي عن قسوته وبطشه... إن ضربته والقبر لا يعرف أحداً عند مخالفة الأوامر، ولا يكترث بقانون وإنه مدعوم!!. صحيح إنه قائد فرقة "كوماندوس"... ألا إنه أشد وأقسى قائد!.

وفعلاً... الويل... الويْل لمن يُخالفه... لا بدَّ أن هذا ما دار بِخَلَدِ كل واحد من الذين شاهدوا هذه الحادثة من السجناء...

سادَ المكان صمت رهيب... فلقد أخرس هول هذا الحادث الجَمْعَ... وأخذت منهم المفاجأة كل مأخذ وسيطر الهلع والرعب عليهم جميعاً...

كل هذا ولم ينظر السيد محمد أمين إلى المجرم القاتل، لكنه كان يلمحه بطرف عينه بدقَّة...

بعدها وكقصف الرعد انطلق صوته آمراً السجناء بالخروج من الزنزانة... فامتثلوا للأمر مرعوبين... صاغرين... وراحوا يخرجون... الواحد تلو الآخر.

بتلك الأثناء أشار بعضهم للمجرم أن يفرَّ... بأن يندس بين جمهرة السجناء وبذلك يتوارى عن أنظار ضابطنا المهاب، وكانوا أصدقاءه... ففعل.

لكن ذلك لم يخفَ عن ثاقب بصر السيد محمد أمين وعظيم نباهته فقد كان يُرافقه بطرف بصره خِفْيةً وبدقَّةٍ متناهية وبشكل غير مباشر من قبل أن يرمي السكين إلى أن رماها...

واندس بين جمهرة المجرمين... المتتالين بالخروج... إلى أن جاء دوره بالخروج.

وما أن مرَّ أمام ضابطنا وتجاوزه بخطوة أو اثنتين حتى تبعه ضابطنا السيد محمد أمين وسار خلفه كظلِّه وبحركة خاطفة مدَّ قدمه من خلفه إلى أمام كلتا رجليه "للمجرم" المتحركتين فاشتبكت بالاثنتين... عندها وبنفس اللحظة كانت يده تهوي بقوَّة على ظهر هذا المجرم فانطرح على الأرض قطعة واحدة... فهل هذه قوة بشرية!. هذا ما تناقله المجرمون السجناء وهم مصعوقون.

عندها انهال عليه ضابطنا السيد محمد أمين ضرباً وركلاً.. ووطءاً فأغمي عليه، ثم نادى رجال الدرك الجبناء المتآمرين... وأمرهم بسحب ذلك المجرم إلى سجن السجن "السيلول".

* * *

عمَّ الخوف والفزع القلعة بمن فيها بعد أن شاع الحدث... واستقرَّت حقيقة الهلع في قلوب الجميع... فلقد أيقنوا تماماً أن كل من يقع تحت بطش قبضة هذا المدير الجديد لا تقوم له بعدها قائمة.

إذ لم يلحظوا اشتباك رجلي المجرم برجل الضابط التي أدَّت لسقوطه دفعةً واحدة على وجهه وظنّوها مجرَّد الضربة المرعبة... الرهيبة هي التي أدَّت إلى سقوطه القاسي هذا.

فقالوا يا الله ما أقواه!.

وكمرحلة أخرى في هذا التدبير العبقري... قام بعدها بزيارة لزنزانات القلعة وسجنائها، وكانت بعض زنزاناتها تتسع لحوالي مئة سجين... فبدأ يصول ويجول في ميدانها... نزع رتبته العسكرية ثم شمَّر عن ساعديه وتوجَّه نحوهم بوجه جدي كالأسد المستنفر وقال:

إنني أضع العسكرية وقواعدها جانباً، ومعلوم يا شباب أن ٩٩% ممَّن يدخل السجون هم من الشرفاء الأبطال (مع أنه يعلم أن الحقيقة هي العكس)... ومضى يقول: ولكن ها أنا ذا أنزع رتبتي لنلعب بروح رياضية وكشباب... والآن أي من يتحمَّل من قبضتي ضربة واحدة ويبقى ثابتاً فسأمنحه الامتياز على كافّة السجناء وأجعله طليقاً في القلعة كلِّها على السواء طوال النهار كما وأغمره بالإكرام والإنعام.

سمع الجميع هذا التحدي والإغراء... لكنهم جَبُنوا جميعاً تجاه ما رأوا منه وما سمعوا عنه، ولم يتجرَّأ أحدهم أن يقبل التحدي، إذ صعقتهم هيبته وأفزعهم بطشُه.

وبهذه الخطّة الغاية في الاتقان والحنكة... والحكمة البالغة استأصل هذه الفتنة من جذورها وحفر لها قبراً أودعها فيه...

ومن بعدها دانت له القلعة واستتبَّ الأمنُ فيها وساد النظام وبقي السيد محمد أمين غيظاً في قلوبهم.

* * *

جاء الآن دور أبي محمد المسكين... فقد أرسل إليه يدعوه إلى المكتب.

أتى حزيناً... مُنكسر القلب... بائساً... مُتسائلاً... مستغرباً... مُستنكراً ما حدث... ولسان حاله يقول:

أنا من أحبُّك... وأُخْلِص لك الإخلاص كلّه وأتفانى في خدمتك وكنتُ لك أطوع من بنانك... أنا يا سيدي... أنا يا سيدي... تفعل بي ما فعلت!!. ولم أعصِ لك أمراً؟.

قال له ضابطنا بلهجة تقطر حناناً وتفيض رحمة ولطفاً:

من المؤكَّد أنك حزين لما جرى... فلم يُجِب أبو محمد بكلمة... ثم تابع ضابطنا بلهجته اللطيفة، التي غمرته بالحنان:

يا أخي قد كنا أنا وأنت في شرك وكارثة محقَّقة وخطرٍ رهيب ولم يكن بوسعي لاجتياز هذا الخطر والقضاء على الفتنة التي بدأت تظهر في القلعة بمكرٍ وكيدِ الحاسدين... إلا أن أفعل ما فعلت...

ثم لاطفه بأعذب الكلام وأرقَّه حتى مسح عنه كلَّ ما به من سوء... وأخرج من جيبه ليرتين ذهبيتين ناوله ليرة ذهبية عن كل سن فقده... ولم يكتف بذلك، بل منحه إجازة طويلة مفتوحة لإصلاح أسنانه لشهر كامل لا تُسجَّل...

عندها اتَّسعت حدقتاه من الرضا والفرح وغمره البشرُ وبدا السرورُ يطفح من عينيه وانطلق صوتُه جزولاً يفوح أملاً وحبوراً: إذا كان الأمر كذلك يا سيدي فاضربني أيضاً وزدني ذهباً وإجازات... فضحك ضابطنا الحكيم.

ثم حيَّاه وخرج من عنده يتهادى في مشيته طرباً وفرحاً... وهكذا استوت الأمور في القلعة على الجودي... وخيَّم فوق أسوارها... طائر الأمن والسلام حتى حين.





ونطلُّ الآن على واقعة أخرى من وقائع السيد محمد أمين جديدة كل الجدّة غريبة كل الغرابة، فحينما كان ذلك الإنسان يشغل منصب مدير لسجن القلعة في دمشق وفي يوم من الأيام المخصّصة لزيارة السجناء من قبل عائلاتهم وذويهم أصدر أمره للدرك السجّانين بالسماح لزوجات السجناء بالاختلاء بأزواجهن لفترة قصيرة من الزمن في غرف انفرادية مغلقة.

وهذا الأمر ليس وارداً في قوانين السجون سابقاً أو لاحقاً فأعرب الدرك عن استنكارهم واستيائهم الشديد لهذا الأمر، واعتبروه انتقاصاً من كرامتهم أن يقوموا بحراسة السجناء بينما هم في خلوتهم مع أزواجهنَّ.

فما كان من ذلك الإنسان الشهم، الضابط الكبير إلاّ أن أخذ سلاحاً وقام بنفسه بدور حارس (جندي صغير): متنكباً بندقيته يذرع المكان جيئة وذهاباً أمام غرف السجن الانفرادية التي استعملها للخلوات بين الأزواج السجناء ونسائهن مدة الزيارة بخطوات عسكرية نظامية رتيبة إلى أن انقضى وقت الزيارة وعاد السجناء إلى مهاجعهم، عندها جمع رجال الأمن السجّانين وخاطبهم بلهجة آمرة عسكرية قائلاً:

ها أنا مدير السجن والقلعة قمت بذاتي بدور حارس سجّان ولي الفخر بالأمر بالمعروف والنهي عن الفحش، بدعم الحلال وإزهاق الحرام. فمن منكم الآن يترفَّع عن هذه الحراسة سيكون نصيبه العقوبات الصارمة.

لِمَ تنظرون بمعيارٍ منحط لهذه الخدمة الإنسانية التي حلَّلها الله، ولعلَّ الزوج بحاجة لأن ترتق له لباسه أو تحدِّثه بأمور عائلية خاصة لا تستطيع البوْح بها أمام السجَّانين وعلى مسمع من السجناء!.

هناك حُقَّ الحق ورجعوا إلى تأدية هذه الوظيفة الإنسانية راضين أو راغمين.

إذ بعد هذه المحاضرة وبعد أن رأى الدرك أن قائدهم قام بنفسه بذلك الدور رضخوا للأمر الواقع.

ولقد أدرك ذلك الضابط السيد محمد أمين بفطنته البالغة واستنارته بربِّه أبعاد ذلك العمل الإنساني، إذ إن هناك أمور عائلية بين الزوج والزوجة لا يستطيع السجين البوح بها أثناء الزيارة وعلى مرأى ومسمع من الناس.

كما أن هذا العمل لا يتنافى مع الهدف الذي من أجله وُضعت السجون الإصلاحية ولا يتنافى مع الرحمة الإلهية، حيث إن السجن وضع بالأصل لغاية الإصلاح وليس لهدم الأسرة وهدم النفوس البشرية.

كما أن عدم السماح للسجين بالخلوة بزوجته فترة من الزمن ينتج عنه في أغلب الأحيان شيوع الفاحشة بين السجناء والانحلال الأخلاقي والشذوذ الجنسي والتدهور المريع في الدين والأخلاق... بينما هذه الصلة البسيطة تُحصِّن السجين من تلك البشاعات... وتحفظ أيضاً زوجات السجناء من الشطط والاندفاع وراء الفاحشة فترة ابتعاد الأزواج... وتنمِّي الأمل في نفوس الطرفين على السواء... وتشدُّ السجين لأسرته والإقلاع عن كل ما يُبعده عنها من إجرام أو ارتكاباتٍ مشينة فتفتح باب التوبة على مصراعيه حقّاً.





وفُتحَ الباب ليسفر عن غرفةٍ في منتهى الجمال والروعة...

وقد اخترقت أشعة الشمس نوافذها فتراقص كلُّ ما فيها وازدهر...

وتفاعل نورها مع خضرة النبات فجعل الجوَّ فيها خفيفاً ولطيفاً...

وعلت أعناقُ الورود لتلامسَ الضياءَ...

وتقطفَ منه دفئاً يلوِّنُ خدودها ويقوي عودَهَا... ففاحَ عبيرُها وعانَق السماء.

وتجمعت عصافيرٌ رشيقةٌ اشتركت في تغريد لحنِ العذوبة وأنشودة اللقاء...

وخطا السجينُ داخلَ الغرفةِ خطوته الأولى...

* * *

في كل يوم عندما يأتي المساء... ويبدأ الظلام بالزحف إلينا من ناحية الشرق ببطء وتروٍّ ولا يلبث أن يلفَّنا بردائه ويسترنا حاملاً معه الهدوء والسكون. لننال قسطاً من الراحة والاسترخاء فيجدِّد كل واحد منا نشاطه وينفض عنه عناء اليوم وتعبه، وتبدأ النسمات اللطيفة بالعبور إلينا مشبعة بالرطوبة والنقاء... فننتعش ونملأ صدورنا من هوائها العذب الصافي... ويخلد الكل إلى النوم بأمان وسلام: الطيور في

أعشاشها... والحشرات في أوكارها... وهكذا كل حيّ في عالمه المخصَّص له والذي فُطِرَ على التكيُّف معه...

وينزل علينا سلطان النوم فنستسلم له برغبة وشوق لأن فيه راحتنا ومن بعده نقطة انطلاقنا لنكمل حياتنا بجد ونشاط متجدد وروح منطلقة حرة...

وتشرق الشمس علينا من جديد... شمس متَّقدة منذ آلاف السنين، دافئة منيرة، وتعود الأرض إلى حركتها ونشاطها ويخترق الدفء كل ذراتها متسلِّلاً إلى أعماقها... وتسقط أشعة الشمس على الأرض فتحيا وعلى الشجر فيخضر وينمو وعلى التراب فيتغذى وعلى الثمر فينضج... وعلى البحر فتتبخر مياهه ويتصاعد بخارها على جناح الرياح بخفة ورشاقة ليتوضَّع في السماء وتتشكل الغيوم على طبقات... وما أن تكتمل حمولتها حتى تمسك الرياح بلجامها فتسير في رحاب الله بسهولة ويسر إلى بلد شاءت إرادته جلَّ وعلا أن تُروى وتُسقى أرضها العطشى...

وتشتد زرقة السماء ويزداد صفاؤها... وتعود الطيور تحلِّق فرحةً جذولةً بالنور... تعيش في نعيم تغرد في سرور... ما أبدع الضياء، ما أعظم الخلاق!.

وتسبِّح الكائنات بحمد الله... مقدِّسة هذا العطاء معبِّرة عن حبها وولائها لهذا الإله القادر المقتدر العظيم... ساجدة على أعتاب العزيز مؤدية وظيفتها طمعاً بالرضا والعيش الهني الكريم وهكذا دواليك... أرض تدور سابحة في الفضاء... ترفدها بالعطاء هذه الشمس العظيمة ذلك السراج الوهَّاج الذي لا ينطفئ أبداً، بل لا يغيب ولا يخيب... ومن حولها قمر وكواكب وأجرام، والكل مرتبط ببعضه فلا خلل ولا اعتداء... حتى تكتمل الدورة وتمرُّ الأرض بالفصول الأربعة لتعود من جديد حيث بدأت أول مرة... لتخطَّ سنة جديدة في كونها العظيم وتتوالى علينا نعم الله دون انقطاع أو تقصير ويعيش الكل الحياة كأنما خلقنا بعد النوم من جديد.

وأنت أيها الإنسان ألست مخلوقاً مثل باقي المخلوقات التي خلقها الله نفساً مجردة، ثم خلق لها هذا الجسد وألبسها إياه... وجعل لك هذه الحواس لتستطيع بواسطتها التأقلم مع الطبيعة والتعايش مع ماديَّاتها ومحسوساتها... فعينك التي تُبصر بها، وأذنك التي تسمع بها، وأنفك الذي تشم به، ولسانك الذي تتذوق

به وتستطيع أن تعبر بواسطته عما يجول في نفسك من أحوال وهكذا إذا ذهبت تفكر في كل هذا، في آلية الجسد وتركيبه لوجدت خلقاً وتركيباً عجيباً.

ألا يجدر بك أيها الإنسان الضعيف المفتقر دوماً إلى راعيك وممدك أن تفكر في كل هذا وتتعرَّف على كل هذا لتستطيع من خلال تفكيرك واهتمامك الوصول إلى عظمة الله وقدرته العالية الحكيمة التي صاغتك على أبدع حال وأجمل صورة، فإذا أنت إنسان سويّ مكرَّم عند ربك مترفع على كل مخلوقات الأرض والكائنات!. والتي كلها لك مسخَّرات بأمر محبِّك بارئك!.

وهذه النفس التي لم تكن شيئاً مذكوراً. من أوجدها وأبرزها إلى حيِّز الوجود وجعل لها الحواس تتعرَّف بها على ما يحيط بها، ومن جهَّزها بتلك الملكات من تفكير وذاكرة وتخيُّل وإدراك!.

ومن الذي جعل فيها تلك الغرائز والطباع من خوف وسرور... وفرح وحزن... ورضا وغضب... وجعل لها الشعور باللذائذ والآلام.. وهذا العقل الذي تعقل به الخير من الشر، والنافع من الضار!.

إن الله جلَّ وعلا حين خلق النفس البشرية خلق فيها الشهوة والذوق، وهذه الشهوة تُعتبر من تمام نعمة الله على الإنسان وكمال فضله وإحسانه إليه... إذ أنه لولا الشهوة لما عرف نعمة الله ولما ذاق الإنسان لذة ولما وجد للحياة طعماً، بل كان أشبه بالجماد.

في الحقيقة كل شهوة يمكن الوصول إليها عن طريقين طريق ملتوية يستعجل فيها الإنسان للحصول على ما يريد ولو سلك إلى ذلك طريقاً دنيئة حقيرة غير مكترث بالقوانين والحُرمات: يعود فيها الأذى والضرر على صاحبه بالشقاء وعلى المجتمع الإنساني بالتخريب والفساد.

وطريق شريفة مفيدة يمشي بها الإنسان بنور الله وتقواه فتعود على صاحبها بالسعادة والسرور وعلى المجتمع بالخير والصلاح.

إن الله سبحانه وتعالى عندما خلق الأنفس وأخرجها إلى حيّز الوجود لم يتخلَّ عنها ويدعها تتيه في غيابة الشهوات التي قد تقودها إلى الهلاك إذا هي سلكت طريق الباطل والرذيلة وبذلك تضلُّ عن سعادتها وخيرها ولا تعود تستطيع الرجوع أو الإقبال على بارئها وموجدها.

بل إنه صبغها على حب الكمال الذي به تستطيع التمييز بين الخير والشر وتدرك طريق الحق والفضيلة وتتعرّف على الطريق السوي الذي يجب أن تسلكه لتحصل على شهوتها فتُجنَّب كل ضرر وأذى وتعيش في غنى عن الشقاوة والعذاب.

وما من إنسان إلا وفي نفسه هذه المحكمة الداخلية المعنوية التي تساعده على الحكم على الأشياء التي تصدر عنه أو عن الغير وتصنيفها ضمن الأعمال الفاضلة أو الأعمال الرذيلة.

قال تعالى: ﴿بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ، وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾[1].

وبذلك يكون الإنسان قد خُلق في أحسن تقويم بما فطره الله عليه من استعداده لاشتقاق الصفات الكاملة من ربه اشتقاقاً عظيماً. وجعل له القابلية للتحلّي بالفضيلة والكمال، وزيَّنه بالفكر والملكات ومنحه من البصائر وساق له من الآيات فكانت بذلك نفسه أشد قدرة وأصلب عوداً وأكثر تحمُّلاً من أنفس جميع الكائنات والمخلوقات على تحمل التجلّيات الإلَهية وشهود الكمالات التي فُطِرَ على حبِّها وبذلك يستطيع السمو بنفسه والفوز بالسعادة الأبدية والحياة الحقيقية الخالدة.

فالذي خرج عن طريق الحق وحاد عن سبيل سعادته بالله تتولّد في نفسه الشهوات الخبيثة وتبدأ تحدِّثه بالشرور والخطايا حتى ينغمس بالرذيلة ويعود عليه إعراضه وعمله المنحط بالخيبة والخسارة فما له في الدنيا إلا التعاسة والهمّ، وما له في الآخرة إلا الخزي والعار.

وإنك لتجد المقبل على ربِّه مطمئن القلب لا يبالي بشيء ولا يخاف الموت لعلمه وثقته أنه غير مقترف عملاً دنيئاً يستحق القصاص، وسمو سيره الذي قاده إلى التقوى والبعد عن كل ضرر وأذى، فتعرَّف على الذات العلية معرفة عالية قصرت عنها باقي المخلوقات فلا السماء ولا الأرض ولا الجبال ولا الأنهار... ولا الشمس ولا القمر حتى ولا الملائكة الكرام المقرَّبون استطاعوا تحمُّل التجلِّيات الإلَهية وشهود الكمالات التي انطوت تحتها أسماء الذات العلية كما استطاع الإنسان الكامل أن يناله منها.

وفي الحديث القدسي الشريف:

«ما وسعني أرضي ولا سمائي، ولكن وسعني قلب عبديَ المؤمن».

---

[1] سورة القيامة: الآية (١٤-١٥).

فمن أجل ذلك خُلقت أيها الإنسان... من أجل العزة والطهارة والإنعام... خُلقت لتكون حرّاً... خُلقت لتكون سلطاناً.

إلى ذلك خُلقت... من أجل شهودك الكمال والتنعم برؤية الأسماء الحسنى رؤية تجعلك تسبح في ذلك الجلال... والتمتُّع بذلك الكنز العالي أبد الآباد.

وفي الحديث القدسي الشريف: «**كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أُعرف فخلقت الخلق وعرَّفتهم بي، فبي عرفوني**».

وإلى ذلك دعى الرسل الكرام صلوات الله عليهم أجمعين... إلى ذلك حملوا الرسالة وأُرسلوا رحمة للعالمين... ليدعوا إلى الدين الحق وهو طاعة الله وحده واتِّباع أوامره... والانتهاء عما نهى عنه، فالرسل جميعاً أدلاّء على الحق... والحق واحد.

فالله جلَّ وعلا هو الخالق العليم... وله وحده الحق في هداية خلقه... وعلى الناس أن يعبدوه مخلصين له الدين ويقدّموا بين يديه من الأموال والأعمال ما يجعلهم مائلين إلى ربهم بالمحبة الخالصة الصادقة طمعاً بحنانه ورأفته والحصول على حبه ومغفرته ونوال فضله العالي الرفيع وجنَّاته.

وكذلك أمرَ الله الناس على لسان رسله الكرام أن ينتظموا في صفٍ واحد فيعبدوا ويطيعوا إلهاً واحداً... ويطيعوا رسوله الذي ما جاء إلا بالحق... وما يبغي للناس إلاَّ الخير... وما غايته إلاَّ سعادتهم وإرشادهم إلى ربهم وتذكيرهم بالعهد الذي قطعوه لربهم يوم خلق الأنفس جميعاً وعرض عليها الأمانة التي تطوَّع الإنسان بحملها والإخلاص لها.

فمن أقبل على ربه وتعرّف إليه فقد فاز بالسعادة الأبدية والحياة الحرَّة الحقيقية ومن أعرض عنه خسر نفسه وما أعدَّه الله له من عطاء في الجنان وأصبح مع أسفل السافلين وتمتد به هذه السفالة ويستمر عليه ذلك الحال إلى أن يُصار به إلى النار... إلى حيث المعالجة والمداواة... فخسارته، وهذا حاله.. ما بعدها خسارة.

أما الآن فأنتم معنا في جديد إلى وقفة مع الحق... مع صاحب النزاهة والشرف.

* * *

قام ضدَّه رجل عنكبوت استحوذ على قلبه الشيطان... وراح يحيك له مؤامرات وخططاً مزيناً له أعماله... محلِّلاً له الخطايا والذنوب... يَعِدُه بالعزّة والحياة... حتى أصبح يسير في الأرض فيعيث فيها فساداً ويوقع الأذى والضرر أينما حلَّ وارتحل.

واستسلم بكلِّيته لهذه الشرور.. وأضحى ملْكاً للشيطان وسلاحاً بين يديه لتنفيذ مآربه في تضليل بني الإنسان وإبعادهم عن مصادر الخير والحق والسرور وامتلأ قلبه حقداً وبغضاً، وصار يرى النعمة على غيره فيستهويها، يتمنى لو أن ما في الأرض من نِعمٍ ومال وملذات تصبح ملْكاً له يصرفها كيفما يشاء وأراد، وأعجبته نفسه وعزَّ عليه أن يتنازل عن شهوات دنيئة غلبته وتمكَّنت من قلبه الذليل، وعاش في الظلام، وازداد قلبه في الاسوداد وكره كل معروف وعفَّ عن كل إحسان حتى حجبته شهواته هذه عن النور الذي به يرى الحق وأصبح لا يميِّز بين الخبيث والطيب، بل يفعل كل ما يُطلب منه وكل ما يأمُره به هواه السقيم. قال تعالى:

﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾[1].

ولِمَ لا أكون أنا السيد.. سيد هذا الزمان.. أوليس بمقدوري أن أصبح رجلاً لامعاً مشهوراً يتحدَّث التاريخ عني.. سأعمل كل ما بوسعي لأحطِّم ذلك الرجل الذي يفوقني ومزاياه الحسنى خير بكثير من مزاياي ومواهبه أسمى من مواهبي، إنه العقبة الوحيدة التي تعترض طريق نجاحي، إني أحسده.

* * *

وبالفعل لم يدع هذا فرصة تفوته إلا واستغلّها لصالحه محاولاً فيها الإساءة إلى الإنسان الوحيد الذي يعتقد أنه يقف في وجه سعادته وتطوّره، فصارت مهاجمته وحياكة الأكاذيب عنه شغله الشاغل، وتشويه نزاهته وصدقه همّه ومبتغاه.

ولقد مدّه الله في طغيانه وختم على قلبه فإذا هو في ضلال مبين وعاش في قصره العاجي الذي بناه.. بناه بأحلامه بأطماعه التي أخذت منه كلَّ مأْخذ وملأت عليه لبَّه ورفعته عالياً نحو السلطة والجاه.

فكانت أيامه كلها عثرات، وأعماله كلها ذنوب، وحياته إلى غروب.

---

[1] سورة الفرقان: الآية (٤٣).

كان كل شيء فيه يوحي بأنه حيّ كغيره من الأحياء الذين على شاكلته، فهو يأكل ويشرب، يجوع ويشبع، يشتهي ويتلذَّذ، يثور.. يغضب.. ينتقم، ولكن لمن؟.

يثور لمصلحته، يغضب لنفسه، ينتقم إرضاءً لطموحه وغروره.

ولكن هل من الممكن لنا أن نعتبر أن حياةً جسدية كهذه هي الحياة الحقيقية التي خلقنا الله تعالى من أجل أن نعيشها؟.

وهل السعادة المرجوَّة هي بالطعام والشراب، والتمتُّع بما في هذه الدنيا من لذائذ وماديّات وشهوات بهيمية؟.

وهل نبض القلب ورفَّة العين تُعتبر حياة؟. أم أن صعود الصدر وهبوطه أثناء عملية التنفس هي دليل على وجودها واستمرارها؟.

أعصاب.. تلافيف.. عظام.. شرايين.. ويكمل الدم دورته دون توقُّف أو ملل.

لكن يا ترى هل ستستمر هذه العجلة في الدوران إلى ما لا نهاية؟. أم أنه سيكون لها حدٌّ فتقف عنده؟.

كل هذه الظواهر تشير إلى حياة جسدية بحته.

فلقد غطَّ في سبات عميق، إلى أجل مسمَّى عندها ستدور عجلة السنين باتجاه عكسي فتسحق هذا الغافل وتحمله مُرغماً كارهاً، وتلقيه في زاويته مُكبَّلاً بالظلام والندم والخسران، ساعتئذ لن يكون هناك مجال للراحة أو النوم، وتعود الشهوات أدراجها إلى بارئها حيث انتهت وظيفتها ولم يعد لها من فائدة تُرجى، ويعود المرء إلى فطرة كماله... والناس نيام إذا ماتوا انتبهوا: عندها ينتبه على القارعة لتبدأ نفسه بالتأنيب والتقريع.

ويصحو هذا المسكين على أوجاع وآلام لم تكن لتخطر له على بال، ويتيه في ظلمات سحيقة هو صنعها، هو اختار أن يصير إليها بعد أن عصب عينيه بمنديل أسود وسار في الحياة كبهيمة الأنعام، وسار وراء شهوات حقيرة ومتع زائلة وآلهة عاجزة فقيرة.

وهكذا كل إنسان ضلَّ عن الصواب، وحاد عن طريق الحق وباع سعادته بثمن زهيد، باعها بدراهم، بلحظات، فكانت خسارته كبيرة ليس يساويها ما في الكون من كنوز وثروات.

لكن إرادة الله سبحانه وتعالى والرحمة التي كتبها على نفسه والتي شملت كل البشر حكمت ألا يدع أمثال هؤلاء يسيرون في الأرض وهم على هذا الحال، ويمضون إلى أجلهم وهم في غفلة من أمرهم، فتُغلق في وجوههم الأبواب ويُطبق عليهم الحجر والتراب عند الموت والفوات وحلول البليات والآفات ولات ساعة مندم، بل إن رأفته وحنانه اقتضت أن ينبِّه كل من ضلَّ عن خيره، ويحذِّره من نتائج تماديه في طغيانه الذي سيجرُّ له أذيال الخيبة والشقاء، ومن ثم إلى الندم والخسران المبين، وذلك بأن يسوق له من الشدائد والمصائب ما يحيط به ويلهيه قليلاً عن الشهوة والرغبة الجامحة الدنيئة، فلعل هذه الشدة تدفعه للالتجاء والدعاء الصادق الذي يتجسد بالشعور بالذنب وحجم الخطيئة، عندها يلتجئ حقّاً إلى الله فيمضي في رحلة الغفران والتوبة متعلِّقاً بحبال المودَّة التي تكشف له حقيقة الدنيا وقذارة أعماله، ورحمة ربّه وواسع فضله وحنانه عليه وعلى المخلوقات.

وهذا ما حدث مع هذا الرجل الذي تغلغل في إعراضه وكَبُرَ بأطماعه وعَظُمتْ في نفسه المادّة، فامتطى جنح الخيال متنقلاً على متنه من ظلام إلى ظلام، معتقداً أنه يستطيع الوصول إلى القمر ويكون محطّاً للإعجاب والتقدير.

وفجأة تحطَّم ذلك الغرور في قلبه، وتبدَّد كبْره الذي أخلص له، وانهار قصره العاجي وتناثرت ذرَّاته في الفضاء، حتى سقط هذا المسكين في هوَّة سحيقة، سقط في الحفرة التي حفرها لغيره، أُصيب بالسهم الذي أطلقه قاصداً قلباً عظيماً، قلباً ما أراد له إلاَّ الخير والصلاح، وما دعى له إلاَّ بالهداية والسعادة الأبدية المطلقة في الدنيا والآخرة.

وكان أن عاد السهم مرتدّاً ليسقط في صدره، ويثقب قلبه الذي أخذ يقطر ألماً وحسرة... فاستسلم لليأس بعد محاولة منه للتماسك والظهور بعدم المبالاة والاكتراث، وانقاد وراء مخاوفه وتصوُّراته التي راحت تمرُّ أمام مخيلته متراقصة فتثير في قلبه الوجل والرعب مما سيلاقيه من عقاب، وما سيحل به من ذل وعذاب...

لله درُّ الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله.

وإن كان لهذه المخاوف أساسٌ فهو شعورٌ بالذنب وإدراكه الباطن بأنه على خطأ والحكم الذاتي الذي أصدره على نفسه بأنه مسيء مذنب. وأن لهذا الإنسان الطاهر حقّاً عنده، وها قد حان الوقت ليأخذ بثأره مستردّاً كرامته محطِّماً غروره وصلفه.

ويلاه ويلاه... ها أنا ذا أسير بين يديه متجردٌ من أسلحتي وقوّتي مُدانٌ بجريمتي وفعلتي، وليس هذا فقط بل إنني أعلنت عليه عدائي، ولم أقصِّر في مهاجمتي له ومحاربته، ليتني أستطيع النيل منه وقتله.

ولكن لا.. لن استسلم للخوف واليأس يجب أن أكون ثابتاً راسخاً مستجمعاً قواي لمواجهته والتصدي له ولبطشه.

وهكذا كانت تلك الليلة المشؤومة من أفظع الليالي التي مرَّ بها ذلك التعيس في حياته على الإطلاق عندما قُبض عليه متلبِّساً بفعلته، وزُجَّ به في غرفة مظلمة حقيرة في مخفر الشرطة ريثما يتم ترحيله إلى سجن القلعة (**قلعة دمشق**) لقضاء مدة الحكم فيها، ذلك السجن الكبير الذي كان يرحل إليه كل يوم مئات المعتقلين والمجرمين من كل أنحاء بلاد الشام وضواحيها.

إضافة لذلك فإن تلك القلعة الكبيرة كانت تحوي في مخازنها أسلحة وذخيرة تابعة للدولة الفرنسية التي كانت تحكم بلادنا آنذاك.

فكان تجهيز الجيوش وتزويدهم بالعتاد والمؤن يتم فيها وتحت إشراف مديرها العام السيد محمد أمين الذي كان يترأس كل أمورها وأقسامها، وانطلاق الجيوش منها، وبذلك ترى أن ضابطنا المدير العام يشغل منصباً ليس بالقليل لدى الدولة.

وبالطبع قلعة بمكانتها من المفترض أن يكون مديرها جديراً بالمسؤولية وأهلاً لثقة الحكَّام على اختلاف مراكزهم ومناصبهم.

وبذلك كان ضابطنا السيد محمد أمين محطّ مهامٍّ كبيرة ودقيقة تحتاج إلى قوّة شخصية وحكمة وفطنة عالية لنجاحها وإتمامها.

وكذلك أوكلوا إليه كل ما استعصى عليهم حلُّه من أمور إن كان ضمن القلعة أو حتى خارجها، وفي جميع أنحاء بلاد الشام، وقد نفَّذها على أكمل وجه وأروع صورة.

وكان أن استحق لقب "**أصلان**"[1] واجتذب اهتمامهم وأضحى وكأنه هو الرئيس وهم مرؤوسيه لشدة حُبِّهم له وإعجابهم بنزاهته وجليل أعماله الإنسانية الكبرى وتضحياته الجلّى.

---

[1] **أصلان**: كلمة تركية تعني: الأسد

وهذا ما دفع كثيراً من الناس إلى الغيرة من ضابطنا والعمل على منافسته ومحاربة صدقه وإخلاصه ومحاولة تحطيم ذلك الصرح الذي تصدى لقلاع كفرهم وضلالهم وقضى على أحلامهم وأطماعهم، وبدّد آثار السوء والمنكر وقبّح أعمالهم.

فلم يتورّعوا عن الإساءة إليه، والتشكيك في شرفه وخدمته وتدبير المؤامرات والمكائد التي إن وقع بها فلن يكون مصيره إلا النفي أو الإعدام، ومع ذلك فلقد نصره الله ومدّه بالقوة والسلطان ورزقه من الأعمال الصالحات والمهمات الناجحات ما ساعد في حمايته وحفظ مكانته.

* * *

والحالة التي نحن بصددها الآن تعرض صورة من تلك الصور، وتجسّد طرفاً من ذلك الواقع المؤسف الذي يؤكد أن الإنسان من دون الله يعيش في شقاء وظلام ويقضي حياته فيها وهو أعمى عن النور أصم عن الحق، وينتهي به المطاف إلى منزلة أدنى من الحيوان، أبعد مع الشيطان إلا ما رحم ربي.

ذلك الرجل سلك طريقاً بعيدة وراء أهوائه طمعاً بالحصول على شهرة قوية ومكانة عالية تحمله إلى السلطة لتنفيذ مآربه الدنيئة في الغنى والسيطرة الحمقاء فصار يخطو خطوته يظن أن الأرض ترتعش من تحته ويتطاول بعنقه حتى يخال أنه يبلغ السماء، أما صدره فلقد انتفخ وضاق لهول عظمته الموهومة، وتمادى في عصيانه واعتدائه حتى صار لزاماً عليه أن ينال جزاءه ونصيبه من العذاب حينما أصبح سجيناً يجلس بحزن واندهاش في زاوية مكان مظلم يترقّب لحظة ترحيله إلى السجن الفظيع، والوقوع بين براثن سَجّانها الظالم بظنه.

حقاً لقد تلاشت أحلامه وخرَّ صريعاً ضعيفاً لا يستطيع أن يردَّ عن نفسه حراً أو برداً... عطشاً أو جوعاً.

ومضى عليه الوقت بطيئاً مقيتاً وهو جالس على العارض الخشبي الذي وُضع في وسط الغرفة مفروشاً ببساط فقير رثّ، وقد سلك نورٌ خافت من نافذة وحيدة توضَّعت في وسط الحائط وأعلاه، وانعكس النور على ظهره فسقط على الأرض راسماً سجيناً بظل أسود مخيف، وصوتُ أقدام الحارس الذي أخذ يروح ويجيئ في الخارج بخطوات بطيئة أزعجه وأيقظ في نفسه ثورةً عنيفة.

وبدأ البرد يتسلل إلى عظامه... إنه برد الخوف والشعور بالوحدة وقسوة المرحلة القادمة التي توقّع بأنه سيعيشها، بل سيُدفن فيها وهو على قيد الحياة.

وبدأت أسنانه تصطكُّ، وأصابعه ترتجف، وجعل ينظر إلى قدميه متصوراً حجم الآلام التي ستنزل عليه... ورأى الورم يزحف إليها، وقطرات الدم الساخن يصبغها، وأشعلت اللهيب في قلبه وعقله. وبدأ العرق البارد يتصبّب بغزارة من جبينه الشاحب وهو لا يزال يراقب ظلَّه الأسود الذي ارتسم على الأرض، والذي ذكَّره بسواد ليله وقُبح أعماله.

وصرخ صرخة عالية هزّت أركان المكان فارتدَّ صداها وعاد ليسقط في أذنيه.

اغرب عن وجهي أيها الأسود، اذهب من هنا لا أريد أن أراك، إنك تذكِّرني بنفسي، عليك لعنة الله، اذهب يكفيني ما حلَّ بي من شقاء.

وهكذا كل عمل أسود يلازم صاحبه مثل ظله، يؤرّقه وينغّصُ عليه عيشه، ولا ينفكُّ يذكره بسواد قلبه وعتمة قبره.

وظلَّ سجيناً على هذه الحال حتى أنهكه الخيال، واستحوذ عليه الخوف من العذاب فتمدد مسترخياً محاولاً النوم والهروب من ذلك الواقع الذي صار إليه والتصورات التي راحت تخترق عليه وحدته وتبدد هدوءه وسكونه.

وما أن أغمض عينيه حتى شعر أن السوط يهوي عليه ويكيل له ضرباً مبرحاً دون رحمة أو رأفة، فانتفض مذعوراً مبتعداً عن ذلك العارض المشؤوم، ونظر حواليه في أرجاء الغرفة فلم يجد أحداً معه سوى ذلك الظل الأسود اللعين، نظر إليه فرآه هادئاً، كلَّمه فلم يجب، صرخ في وجهه فلم يعبأ فتجاهله وراح يتمشى في الغرفة بخطوات متعبة مبتعداً عن النوم ومحاولاته الفاشلة مستجمعاً قواه النفسية لعله يستطيع التماسك وعدم الانهيار.

ربَّاه ما الذي أصابني، هل جننت، أولم يعد بمقدوري الثبات والمحافظة على أعصابي وقوة إرادتي، وماذا يعني أن أُسْجنَ، السجن من شيم الرجال.

وإنني عندما قمت بتنفيذ فعلتي كنت أعلم تمام العلم بأنني إن كُشفت سأسجن لمدة ما، وأن عقوبتي ستكون في التوقيف وقد هيأت نفسي لتحمُّل ذلك في سبيل شهوتي الطاغية.

ولكن لمَ كل هذه المخاوف؟. أراني ضعيفاً وقد امتلكني الجبن والرعب.

لا... لا... يجب أن أعود إلى الحال الذي تصورت ذاتي عليه، لو تعرَّضت لذلك... إن هي إلا أيام وشهور سأقضيها في التحمل والصبر ريثما تنقضي بأمان.

عبارات أطلقها في الهواء علَّها تهدِّئ من روعه، لكن ما أن تذكَّر أن اسمه وضع ضمن اللائحة وأنه سيرحَّل إلى القلعة حيث يكون ضابطنا السيد محمد أمين مديراً فيها ينتظره، حتى طار صوابُه وعاد إلى حالة الاضطراب والقلق من جديد.

لكن... ذلك الرجل هل سيدعني أعيش بسلام، أم أنه سينتهزها فرصة ويكيل لي ألوان العذاب بعد أن أجرمت بحقه وعملت كل ما بوسعي للتفوُّق عليه ومهاجمته، بالطبع لن يتنازل ولن يسامحني، بل على العكس سيتَّخذ مكانته وسيلة ليحطمني ويجعلني عبرة لكل معتبر، نعم سوف يجلدني ويظلمني ويرميني بالعذاب.

شَعري الذي سيُحلق وأظافري التي ستُنتزع وظهري الذي سيمزّق، جلدي الذي سيحرق بأعقاب لفافات تبغه... أسناني... قدماي... عيناي... صحتي... شبابي... سمعتي...

ودارت الدنيا به، وتزلزلت الأرض من تحته، وهو لا يزال يعيش هذه الحالة الهستيرية السوداء، أمَّا ظلُّه فلم يتوقف عن ملاحقته واستفزاز أعصابه فاستشاط غضباً وشدَّ على أسنانه وبدأ يتقرب من الحائط ليقتل ذلك الرسم الأسود ويصرعه على الأرض متصوِّراً أنه يستطيع النيل منه. وركلَ الحائط بقدمه، ثم هوى عليه بقبضته، ولكن دون جدوى فلم يجد مهرباً من الاستسلام له، والاعتراف بوجوده، ووقع صريع الخيبة والألم.

وبات على يقين أنه لا مهرب من الجزاء، وما عليه إلاَّ الصبر وتحمُّل كل الأعباء.

نعم إنه تاريخي والماضي الذي صنعته بعملي، بل بأعمالي الفظيعة. لقد أخطأت في حياتي كثيراً، أخطأت بحق نفسي أولاً ولم أقصِّر عن الإساءة والتكذيب، كم من الليالي سهرت وأنا أرسم وأخطط، كم من الأيام قضيت وأنا أبحث واستفسر، كم باباً طرقت، كم نادياً، كم قهوة اتَّخذتها وسيلة لي للتقرُّب من الناس ومحاولة العبور إلى عقولهم.

عقلي الذي دار وقلبي الذي نبض، لساني الذي نطق، وقلمي الذي كتب.

أواه... أواه... أين المفرُّ من كل هذا، هل لي إلى الراحة من سبيل!.

هل إلى النوم من دليل، ربَّاه لم يعد لي طاقة على التحمُّل... رحماك إلَهي، رحماك... ليتني متُّ قبل هذه الكارثة، الموت أهون عندي من ذلك العار الذي سيلحق بي وأنا واقف أمامه مكبَّلاً ذليلاً محطَّم النظرات.

* * *

والآن دعونا نبحث في السبب الذي أدى بذلك السجين المذنب إلى الوقوع في هذه المخاوف والأحوال الفظيعة التي عاشها وراح يتخيل نتائجها.

نراه أولاً قد شعر بالخطأ، وبحجم إساءته، ومعرفته اليقينية أن نواياه لم تكن صالحة، إنما كانت ضدَّ الحق وأهله في سبيل غاية ذاتية ومنفعة شخصية متَّخذاً وسيلته إلى ذلك بالطعن بسمعة ذلك السيد الطاهر ومكانته الاجتماعية بين رؤسائه وبشرفه العالي ونواياه السامية الحميدة، حيث إن ضابطنا لم يكن يخشى في الحق لومة لائم، بل يفعل ما يأمره به صدقه وحبُّه لربِّه وخوفه على مصلحة عباده. لقد كان يعتبر نفسه كأنه مسؤول عن البشر، ووليّ أمرهم إلى الله، والأخذ بيدهم للسير على خطى حبيب المرسلين وإمام العالمين الطاهر العظيم سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم.

وإلى ذلك كان إنساننا السيد محمد أمين يرفض الموافقة على الأمور أو الطلبات[1] التي يتقدّم بها أمثال هؤلاء الناس لمعرفته بعواقبها الوخيمة وإدراكه بالنتائج السيئة التي ستخلِّفها ليس على الشخص فقط بل على المجتمع بشكل عام. كم وكم صارع الإقطاعيين والمتنفذين لصالح المستضعفين.

وهكذا فعندما وقف من قبل في وجه أطماع ذلك الذي أصبح الآن سجيناً رحمة به وخوفاً على مصلحته، اعتبرها إهانة له وعزم على محاربته ونوى قتله وبما أن ذلك المذنب اعترف ضمنياً في قرارة نفسه بأنه كان على خطأ، وأن ادعاءاته لم يكن لها أساس سليم تقوم عليه، بل هو هواه وشهوته التي استحوذت على قلبه وأعمته عن الصواب، بالتالي فإن ذلك الضابط يملك الصلاحية في تعذيبه والانتقام لنفسه مسترداً حقه وكرامته، ذلك ما أوقعه في تلك الأهوال والمخاوف التي تخيَّل أنها ستلمّ به وتُنزل عليه أقصى درجات العذاب حتى وصلت به لدرجة أن تمنَّى لو يمت قبل أن تجمعه اللحظات وجهاً لوجه مع ذلك الضابط المدير العام للقلعة والسجن.

---

[1] الطلبات التي تنطوي على تعدٍ على حقوق الآخرين وسلب أراضيهم وأموالهم مقابل الرشوة تقدم لرجال السلطة لدعمهم، فكان يرفض هذا النوع إطلاقاً، بل ويحاربه.

* * *

وهنا وفي نفس اليوم وصلت اللائحة بأسماء السجناء الجدد في موعدها المحدَّد واليومي، وكعادته جلس السيد محمد أمين وراء مكتبه في غرفة القيادة الخاصة به وأخذ يطَّلع عليها للتعرُّف على الأسماء المدوَّنة فيها.

وفجأة لمع في عينيه الطاهرتين بريق رائع بعد أن تسمَّرت عيناه على ذلك الاسم الذي استغرب له، إنه يعلم تمام العلم وليس هو من يخطئ التقدير...

الله... الله يا دنيا... دارت دواليبك القذرة حاملة على ظهركِ مئات الخاسرين، الذين اطمأنوا لكِ وتعلَّقوا بأذيالكِ، وهذا واحد ممن لفظتِ وافترستْ أنيابكِ، ولكن هنا في قلعتي وتحت سلطتي، هذا ما لم يكن ليخطر على بال أحد من سكانك.

معركة جديدة في قلعة مجيدة نحو غاية حميدة تحت رعاية رحيمة ونوايا سامية كريمة.

دموع عذبة انسكبت على خدِّ الزمان وارتفع صدر المجد بتنهيدة عطرة ملأت المكان، وتهدَّج الصوت الحنون بكلمات الحمد والشكر العظيم لهذا الإلّه الكريم الذي غمره بالحب والحنان.

كم أنت رحيم يا إلّهي... فعلى الرغم من إعراضه الكبير وشدَّة عدائه للحق وظلمه لنفسه، مع ذلك لم تُغلِقْ في وجهه أبواب الحب والمغفرة، بل إني أراه من أكثر الناس حظّاً وعناية.

من يصدِّق أن القدر ساقه إلى هنا، يا لها من مفاجأة كبيرة، من المؤكد أنه الآن في ذهول عجيب، وهو يتصور حجم فرحتي ورغبتي في الثأر منه، أو لعله يرتعش خوفاً ويذوب خجلاً وألماً، مسكين هذا الرجل... مسكين.

فارتسمت على وجهه ملامح الرأفة والحب القدسي وعلت شفاهه بسمة رقيقة عبَّرت عن سعادته وبالغ حمده وشكره لله تعالى أن منحه هذه الفرصة.

وبلهفة رحيمة نادى الدرك وقبل أن يرتدَّ إليه صوته كان أمامه في الغرفة ثلاثة من العناصر المخلصين له والمتعشِّقين لشخصه النبيل الذي غمرهم بالعناية والاهتمام... وكان دائماً عوناً لهم وسنداً على العيش بسلام دون الوقوع في المآزق أو الأخطار ضمن القلعة وخارجها.

إن القلعة ستتشرَّف غداً بقدوم ضيفٍ كبيرٍ وعزيز علينا وإني نويت أن أستضيفه لبعض الوقت هنا في قلعتنا فما عليكم إلا الإسراع في تجهيز أفضل الغرف لدينا على الإطلاق.. من حيث الحجم والإطلالة والمكان.

وإني أريد أن تُجهَّز بأفضل الأثاث وأفخره، وعليكم بطلاء جدرانها بالأبيض الناصع وتنظيف نوافذها وأبوابها وأرضها، ولا تنسوا أن تزينوا أركانها بالنباتات الخضراء والورود الجميلة، وهيِّئوا فيها كل أسباب الإنارة والراحة والاستجمام في الليل وفي النهار، ولا بأس أن تفرشوا أرضها بالسجَّاد الفاخر الجميل... أي باختصار يجب أن يتم تجهيز أروع غرفة بأفتن صورة وأبهى حُلَّة وأتمنى أن يتم هذا اليوم وقبل صباح الغد.

هيا سارعوا إلى تنفيذ المهمة استعداداً لاستقبال ضيف الشرف الكبير.

فانطلق رجال الدرك بعد تأدية التحيَّة العسكرية بكل قوة واحترام إلى الغرفة المحددة والتي تجتمع فيها كل المواصفات التي ذكرها القائد الرحيم.

وتقاسموا العمل، فمنهم من أحضر الدهان وبدأ بطلاء الجدران برشاقة ومنهم من راح يكنس ويغسل، ولما انتهى الجميع من عمل هذه البدائيات التي ستكون أساساً في ظهور جمال الأثاث وتناسقه مع المكان ذهبوا لإحضار قطع الأثاث الفخمة ليضعوها في الغرفة بشكل أنيق ومريح، ثم بدأوا بإحضار السجّاد وأحواض الخضرة اليانعة المزينة بالورود الفتية الجميلة التي ساعدت في استكمال المظهر العام للغرفة.

* * *

وخلال ساعات كان كل شيء قد تم على أبدع طريقة وهنا توجه أحد الدركيين إلى غرفة المدير القائد العام لإعلامه بانتهاء العمل وأن الغرفة لا ينقصها إلا تشريف سيادته لإلقاء نظرة عليها.

وفعلاً توجّه ضابطنا السيد محمد أمين وصعد إلى البرج الذي فيه تم اختيارها وتهيئتها، ولما اطلع عليها ومسح موجوداتها بنظرة سريعة وثاقبة، أسدى بعض الملاحظات الإضافية التي لاحظ أنها لم تكتمل لكنها لا تخفى عليه وهو صاحب الذوق الرفيع والدقَّة والكمال.

وبعد أن اطمأنَّ ضابطنا لكل الأوضاع، وكما اعتاد كل يوم، أخذ يتجوَّل في أرجاء القلعة يراقب الحراسة ويطَّلع على أحوال سجنائها، ويتأكد من الدقة والأمانة في تنفيذ كل الأوامر التي يصدرها والتي شملت كل الموجودين فيها.

وبات الصرح العظيم، صرح الفخامة والنور بانتظار قدوم ذلك الضيف ونزوله في كرم الضيافة وحسن التعامل وفائق العناية.

هل تعتقد أخي القارئ أن هذه مغالاة، أو أنه فخٌ ذكي نصبه المدير القائد ليوقع هذا السجين بين أنياب الظلم ويحيطه بألوان القسر والتعذيب والسخرية.

أما ذلك الرجل السجين فلقد ظلَّ يكابد الآهات والمخاوف طيلة تلك الليلة دون أن تغمض له عين أو يهدأ له بال، وكان كلما مضت عليه ساعة وشعر أن وقت الترحيل قد اقترب وأن ذلك لا مفرَّ منه، كلما تمكن منه الرعب وتغلغل إلى عظامه الخوف حتى شعر أنه في كابوس فظيع لا صحوة منه أبداً.

وها قد جاء الصباح حاملاً معه كل جديد، وهنا كان قد وصل إلى درجة انعدم فيها إحساسه وتوقَّف ذهنه عن التفكير فانصاع لأوامر الشرطي مسلّماً له يديه ليضع فيها السلاسل... وسار وراءه بخطوات ثقيلة مترددة، ليصعد العربة التي كانت تنتظر أمام المحكمة بجانب قسم الشرطة بساحة المرجة والتي غصَّت بالسجناء الذين سيتم ترحيلهم إلى سجن القلعة أيضاً.

وراحت العربة تشق الطريق بصعوبة، فلقد أثقلها تعب القلوب والعجلات الكبيرة التي أخذت تدور وترسم في قلب كل واحد من هؤلاء المساكين خطّاً بليغاً لن ينساه على مرِّ السنين رسمته بحبر الظلام وأعمالهم الدنيئة التي ساقتهم إلى هذه المحنة.

وراح كل واحد منهم يودع الحرية والنور، ناظراً إلى خارج العربة بأسى، معلّقاً بصره بالبيوت والطرقات تاركاً وراءه ذكريات الأيام الماضية.

ما الذي أدى بكم إلى هنا؟!.

ألم تكن لكم عيون فتبصرون بها؟!.

ألم تكن لكم آذان فتسمعون بها؟!

ألم ينعم الله عليكم بقلوب فتفقهون بها؟!.

مسكين ابن آدم... فعندما يرى نفسه قوياً يتمتع بالصحة والشباب، وينسى أنه مخلوق ضعيف فيستغني عن الله ولا يعود يلتجئ إلا إلى نفسه وماله وشبابه فيسير كما يحلو له طلباً لإرضاء الناس وإرضاء نفسه،

ويعادي الحق، يتمرَّد على المبادئ ويغوص في بؤرة الأقدار إلى أن يأتي يوم يسلبه الله إرادته وقوته بلمحة عين، ويعود لا يملك لنفسه نفعاً أو خيراً فيوضع في صندوق الموت ويحمل على الأكتاف عائداً إلى التراب الذي منه خُلق، وإليه يعود.

وهناك ستكون بانتظاره لائحة أعماله التي أدانته وغرست في قلبه الندم والحسرات.

وصلت العربة إلى مدخل القلعة، وهبط السجناء منها وقد غصَّت قلوبهم وطأطأت رؤوسهم وانتظموا في طابور طويل في ساحة سجن القلعة التي استعدَّت لاستقبالهم واحتوائهم، في حين وقف رجال الدرك على جانبي الطابور منتظرين لائحة الأسماء التي سيتلوها أحدهم ويحدِّد أرقام الزنزانات وأماكنها التي سيقضي كل سجين فيها مدة حكمه.

ولقد كانت القلعة العتيدة تحوي ضمن أقسامها أنواعاً مختلفة من السجون وفق الأحكام المختلفة، فالأحكام القصيرة التي لا تتجاوز مدتها السنة إلى الجنح كان قد خُصص لها سجون الأبراج، وهي تعتبر لا بأس بها بالنسبة للسجون الأخرى التي كانت تتجلى فيها الزنزانات بأقسى معانيها وأكثرها تأثيراً على نفوس المحكومين وخاصة أن نزلاءها كانوا من أصحاب الأحكام الطويلة وأحياناً مع الأشغال الشاقة "سجون ضمن سجون"، ويجلس كلُّ سجين هناك يضطر للخضوع إلى هذه الظروف الصعبة القاسية، ويعتاد على القسوة ويصبح وجه السجّان مألوفاً لديه، وتغدو الوحدة رفيقةً له ريثما يأتي فرج الله.

وبعد الانتهاء من لائحة الأسماء توجَّه السجناء بحراسة رجال الدرك كلٌّ إلى مكانه المخصَّص له، فمنهم في سجون انفرادية، ومنهم في سجون جماعية، منهم في القلعة وهم المعدمون والمؤبَّدون والمحكومون بالأحكام الطويلة المدى أصحاب الجنايات والجرائم والشذوذ، وسجن الأبراج لأحكام الجنح الأخف جرماً وغيرها.

واستجار سجيننا بالله، عندما نودي عليه... هيا أيها الدركي، اصعد به إلى غرفته الخاصَّة به، حان موعد اللقاء ولحظة الصفر قد اقتربت.

وصل إلى الغرفة وهو لا يدري كم من الدرجات صعد ولا كم من الممرات المظلمة عبر، خطوة بعد خطوة، ولم يشعر بنفسه إلاَّ أمام الباب حيث الظلام والتعذيب والرعب.

* * *

وفُتح الباب ليسفر عن غرفة في منتهى الجمال والروعة وقد اخترقت أشعة الشمس نوافذها فتراقص كل ما فيها وازدهر، وتفاعل نورها مع خضرة النبات فجعل الجو فيها خفيفاً ولطيفاً.

وعلت أعناق الورود لتلامس الضياء، واستقرضت منه دفئاً يلوّن خدودها ويقوّي عودها ففاح عبيرها وعانق السماء... وتجمعت عصافير رشيقة واشتركت في تغريد لحن العذوبة وأنشودة اللقاء.

وخطا السجين داخل الغرفة خطوته الأولى وقلبه يحدثه بأشياء كثيرة، لقد توقَّع أنه سيرى السوط بانتظاره، أو لعل ذلك المدير جالساً هناك يترقَّب وصوله، وعاد إليه اضطرابه عندما كشف على طبيعة المكان، وشعر أنه وقع في دوّامة جديدة لن يستطيع النجاة منها أبداً.

هذا ما كنت أتوقع وأخشى، هنا وفي غرفة المدير العام الفخمة سيكون اللقاء آن أوانك أيها الضابط لتثأر مني وتحيطني بكل ألوان الذل والشقاء.

وراح ينتظر نصيبه ويلعن حظَّه العاثر الذي قاده إلى هنا.

ومضى عليه بعض الوقت، وهو لا يزال على هذه الحال فتارةً يتمشى وتارة يقف مستنداً إلى الحائط، وتارة يجلس على كرسي قريب من الباب، ومع كل وضعية كان خياله يصوِّر له أشياء وأشياء فيملأ الغيظ قلبه السقيم، ويشدُّ على قبضته محاولاً عصر الهواء، بينما تسارعت نبضات قلبه واشتدت رياح أنفاسه حتى صار صدره يعلو ويهبط بقوة خوفاً من مجهول آت.

وجحظت عيناه وتسمَّرتا على الباب متحفِّزاً لكل حركة تُنْبئُ بقدوم السيد المدير.

وجاء صوت وقع أقدام قادمٍ من الخارج، وها هو ذا يقترب، لقد اقترب كثيراً، وفعلاً فُتح الباب وشعر السجين أن رأسه فتح معه، وشهق شهقة من أعماقه وفرَّ الدم من رأسه حتى صار وجهه أصفر وكأن بدت عليه علائم الموت، وهنا سطع عليه ضابطنا السيد محمد أمين بوجهه المشرق وقد تحلّى خداه بحمرة يانعة وأسفرت شفاهه عن بسمة حنونة جميلة، وفي عينيه بدت نظرة كريمة:

السلام عليكم ورحمة الله.. مرحباً بك يا أخي ضيفاً في قلعتنا المتواضعة.. واندفع نحوه مرحباً واحتواه برحمته كما تحتوي السماء الأرض وتحيط بها.

لم يكن السجين يتوقع أن يصل إلى درجة يشعر معها أن هذا الإنسان يحمل بين جنبيه كل هذه الرحمة التي احتوته وانتزعت من نفسه الخوف والبغض والكراهية، لقد عاد إلى الحياة وغمرته الغبطة والحنان، شعر بأعضائه كلها كأنها أغصان تسري فيها مياه الحياة فترتوي ريّاً منعماً كريماً وطابت نفسه وغمرتها الحياة. وجلسا معاً وجهاً إلى وجه، كلٌّ على كرسي في تلك الغرفة التي اكتملت فخامتها بقدوم ضابطنا السيد محمد أمين وأضحت وكأنها جنّة وارفة الظلال.

وراح سجيننا يتأمَّل الضابط وقد أصابته دهشة كبيرة وفرحٌ صاعق عميق استحوذ على مشاعره:

أنا؟. أنا من كرهت وأسأت... وأفنيت عمري سعياً وراء أهوائي التي دفعتني لأعمل كل مكروه وأقطع كل خير ومعروف..

ما الذي يدفعك أيها الإنسان السامي أن تعاملني بكل هذه الرأفة والتسامح... ما الذي يمنعك من قتلي واسترجاع حقك، والله إني لا أرى سبباً يجعلك تتقرب مني وتستضيفني وكأني حبيب أو صديق القلب الحميم.

حوار داخلي دار بين السجين وذاته، يحاول فيه العثور على سبب يجعل الضابط يستقبله بكل هذه المودّة والترحاب، ويحيطه بكل هذه العناية، التي أخجلته واستحوذت على قلبه، حتى بدأت جذوة النار في قلبه تنطفئ رويداً... رويداً لتنمو مكانها شجرة الحب المقدَّس والولاء له... ولهذا الإلّه القادر المقتدر العظيم، لك الحمد يا الله لك حبي وثنائي وهيامي لما أوليتني.

من المؤكَّد أن معاملة مثل هذه أَسَرَته وسلبته مشاعره وقادته نحو التوبة والندم، وهو الذي لم يكن يحمل بين ثنايا صدره إلا الحسد والضغينة وهو الذي جرى وراء مادياتٍ ومنافع ذاتية أراد الوصول إليها بأي ثمن.

وبدأ معه مشوار الصفاء...

كانت أولى خطواته هذا اللقاء، ثم تبعها خطوات أعظم وأبلغ...

وتابع السيد محمد أمين معه هذا المشوار، وتنازل عن أشياء كثيرة مقابل سعادة هذا الإنسان مقابل نجاته الحقيقية، وراح يؤانسه ويلاطفه ويقضي معه أجمل الأوقات، ويقدِّم له أفخر الوجبات التي كان يحضِّرها له خصيصاً من بيته ويحملها له بنفسه ليتأكد ويطمئن من أنه بحال جيد، وأنه ماضٍ في رحلته التي بدأها معه، ألا وهي رحلة العودة إلى الصواب ليرسم لنفسه طريقاً جديدة برعاية إلّه حميد مجيد.

وبدأ هذا السجين يُفتن بالسيد محمد أمين ويتشوق إليه وللجلوس معه ومحادثته، وصار يتمنى لو أنه يبقى معه طيلة النهار والليل ليغرف بوجوده من نبع الودّ، ويروي عطش القلب الذي خلَّفه جفاف السنين الماضية، وأضحت حياته بصحبته كلها ودّ ووئام، بل عشقٌ سامٍ وامتنان بعد أن اختفت من نفسه تلك الشرور والآثام.

وبما أنه فهم الدرس، واستفاد من هذه الأزمة التي نزلت به، فقد غيّر نواياه وقرر أن يثور على حياته السابقة، ويحطم مجراه المزري الذي كان يسير فيه، لذلك خفف الله عنه، وانقضت مدة توقيفه بسرعة لم تتجاوز العشرين يوماً وخرج بسند كفالة عزيزاً مكرماً، وفتحت له الحريّة ذراعيها من جديد ليعود إلى العيش طليقاً سعيداً، ولكن بقلب جديد وفكر جديد.

وبعد أن ودَّع مدير القلعة بحرارة بالغة شاكراً إياه حسن ضيافته العلية، وكرم شِيَمه معترفاً بفضله عليه، جميل لن ينساه مدى الحياة.

لقد دعى له السيد محمد أمين من صميم قلبه بالخير وحسن الختام، مؤكِّداً أن السعادة والنجاة في تقوى الله... ودوام السير حسب أوامره وقوانينه والانتهاء عمّا نهى عنه وحذّر منه، وكانت آخر دعواه أن الحمد لله رب العالمين.

وبذلك اتَّبع الحق، وصار من أنصاره وواحداً من أهله، وعاد إنساناً بنَّاءً يسعى إلى الحصول على مرضاة الله والتأكيد بأن هذا الإنسان الشهم الذي استضافه ما كان إلا صادقاً ونزيهاً، وما أتى إلا بالحق واليقين، في حين أنه "أي سجيننا" كان سابقاً من أشد المحاربين له ولأهدافه السامية.

﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [1].

* * *

ولعل الذي يخطر على بالنا بسبب هذه القصة "والشيء بالشيء يُذكر" ذكرى يومٍ عظيم في عهد قدوتنا الأسمى سيدنا محمد ﷺ، ذلك اليوم الذي فيه تمّ نصر المؤمنين بقيادته الحكيمة وعلى أياديه حينما دخل

[1] سورة فصلت: الآية (٣٤).

مكة فاتحاً على رأس قوة كبيرة من جيش المسلمين الذين هاجروا إلى المدينة المنوّرة تجنُّباً لأذى الكفار من أهلها وظلم زعمائها الذين حاولوا تكذيبه وقتل المؤمنين واقتحام حرماتهم وسلب أموالهم... فكان هذا الفتح لهم بمثابة نصر كبير، أعاد للحق مكانته ورفع راية الإسلام عالياً فوق كل راية.

وهناك وقف سيدنا وحبيبنا ﷺ مخاطباً، وقد تجمع الناس في جمهرة كبيرة قائلاً:

ما تظنون أني فاعل بكم!. فأجابوه: أخٌ كريم وابن أخ كريم...

فقال بكل تواضع وبكل قوة: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

مع أنه كان في مركز الحكم والسلطة وبمقدوره أن ينتقم للمؤمنين ويعاملهم بمثل ما عاملوهم به، ولكن ليست هذه غايته وليس من شيمه أن يثأر ويزأر.

فخضعوا له وبدأت قلوبهم تلين لهذه الرحمة والإنسانية التي أخجلتهم، ولم يكتفِ الكريم بذلك، بل إنه خصَّص الغنائم التي جناها جيش المسلمين بعد أن تمَّ انتصارهم في غزوة حنين للكفار وأكرمهم بها بأن أعطى لكل واحد منهم مئتا ناقة، وأربع مائة ناقة لمن كان زعيماً للكفر وإماماً للضالين أبا سفيان تفضَّل عليه بها ليقرِّبه منه وينتزع ما شبَّ في قلبه من عداء وحقد وكفر وظلام.. غدا بعدها وذريته منارات الإسلام وملوك الحق ورفع راية الإسلام على العالم بأسره بالعصر الذهبي للإسلام.

وبذلك فإنه يكون قد بادل الإساءة بالإحسان والبغض بالحب، مع أنه غنيٌ عنهم، وليس له حاجة بهم فيتقرَّب منهم، بل هو صدْق وتفانٍ ورغبة عظيمة للصعود بالبشر إلى المنزلة التي تليق بهم وتعيد لهم إنسانيتهم وليوفوا بالعهد الذي التزموا به أمام الخلائق أجمعين، بأنهم قادرون على حمل "الأمانة" وأنهم جديرون بالعودة إلى الجنة الخالدة.

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[1].

وهكذا نرى أن المدينة المنوَّرة ليست فقط الموجودة في الحجاز...

---

[1] سورة يونس: الآية (٢٥).

وأن الأعمال العظيمة لم تنقطع بعد رحيل رسول الله ﷺ عنا، بل إن المدينة المنوّرة أصبحت هنا في الشام أيضاً والأعمال المجيدة المضيئة تمت على أرضها وبين أهلها ولقوله ﷺ:

«**عليكم بالشام**»، وكما أطلق عليها تعالى: "الأرض المقدَّسة"، إذ هي مهبط الرسالات ومهد الأنبياء...

اسألوا تراب الشام إن كنتم لا تصدِّقون...

اسألوا سماءها إن كنتم في شك مما تسمعون...

وها هي أحجار القلعة تشهد...

ها هو نهر الفرات يسجد...

وها هم أهلها أحياء يُرزقون...

فلم لا ندخل البيوت من أبوابها بدل أن نحاول تسلق الجدران العالية التي ستودي بنا إلى السقوط، وربما تحطَّمت نفوسنا ولا نعود قادرين على الوقوف مرة أخرى... فنمضي ما تبقى من عمرنا زاحفين على الأرض مندثرين بين أحجارها...

نحن خلقنا هنا... ولكننا عائدون إلى هناك، وغبيٌ هو الذي يتصوَّر أن الأرض هي دار القرار له... وأنه سيلقى فيها كل ما يشتهي ويبغي.

صحيح إننا بشر... لكنا أُعطينا ملكات عالية... وفكراً عظيماً... لنصل بواسطته إلى التقوى... ساعتئذٍ لن يكون لأحد سلطان علينا... وسيكون هوانا تبعاً لما جاء به المرسلون صلوات الله عليهم وسلامه أجمعين.





لقد تبوّأ الضابط السيد محمد أمين عدة مناصب قيادية أثناء فترة الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان... فها هو يتسنَّم منصب مديرٍ لسجن القلعة (**قلعة دمشق**) المركزي وقائدٍ لحاميتها.

وبينما هو قائم على رأس عمله وقد ملَّ حياة المكاتب الروتينية، إذ هو بطل ميادين القتال، وإذا بقائد الجيش يتصل به هاتفياً ويكلِّفه بتجهيز قوة من رجال الأمن بقيادته بمهمّة القيام بجولة أمنية مع كثافة من الجند على قرى الغوطة الشرقية وذلك أثناء فترة الثورة السورية الكبرى، وما أن تناهى ذلك النبأ إلى مسامعه حتى عصف بقلبه السرور والابتهاج لأنه منذ فترة خمسة عشر يوماً تقريباً وهو يزاول أعمالاً مكتبية بحْتة ولم يكلَّف بأية مهمة خارج حدود القلعة، فهو يأنف حياة المكاتب ومن طبعه عدم الركون إلى حياة الدعة والرخاء كما سبق وتقدَّم.

وعلى الفور أمر بتجهيز الحملة، وفعلاً تمّ تجهيزها بأقصى سرعة ممكنة وهو بغاية الطرب، وما أن همّ بامتطاء صهوة جواده بخفة ونشاط واتزانٍ واضعاً إحدى قدميه في الركاب حتى جاءه أحد العناصر ليخبره بأن القائد العام على الهاتف يريد التحدُّث معه.

فعاد إلى مكتبه، فإذا بالقائد العام يطلب منه أن يبقى مناوباً في القلعة على أن يخلفه في قيادة الحملة معاونه الملازم أول.

فقال له ضابطنا بلهجة الودِّ والصداقة التي تربطهما (هذا القائد يُكنُّ له كلَّ المحبة والتقدير نتيجة أعماله الباهرة، ولكون ذلك القائد أيضاً صديقاً حميماً لشقيق ضابطنا "الجنرال سليم" منذ كان الأخير مديراً للكلّية الحربية في استانبول)، وبهذه اللهجة الودود حاول أن يثنيه عن قراره وقال له:

يا سيادة القومندان "الجنرال" إنه ينتابني ضيق شديد كوني ولمدة طويلة أزاول أعمالاً مكتبية مقيتة ولدرجة أنني بتُّ معها أشعر بأن روحي ستغادرني لطول مكوثي هذا وأنت تعرفني بأني لا أحبُّ ذلك، بل أمجُّه كثيراً ولكوني كما تعْلمُني مغْرم بالقتال والنضال على سرج سابحٍ (أي على صهوة الحصان)، فدعني أذهب لما كلّفتني ويبقى ذلك الضابط مناوباً بدلاً عني.

ولكن هذا القائد أصرّ على تنفيذ قراره ولم تفد معه كافة المحاولات للعدول عن رأيه، بل أنهى حديثه بصراحة قائلاً وبلهجة عسكرية حازمة ملقياً بحبال المودَّة بعد أن وضع الصداقة جانباً:

إنني آمرك أمراً عسكرياً بالمناوبة ويقود معاونك الحملة التفتيشية... "مفهوم"؟.

وهنا ردَّ عليه ضابطنا بعد أن انفعل كثيراً وأخذ منه الغضب كلَّ مأْخذ بقوله:

(أمرك)!. ضارباً بالقبضة الهاتفية على جهاز الهاتف بقوة وعنف مما جعلها تنكسر وتنشطر نصفين، وخرج من مكتبه آمراً: انطلقوا للمسير بإمرة فلان لتنفيذ ما أُوكل من مهام، وعاد أدراجه بعد أن ألمَّت به ثورة عارمة من الغضب والانفعال لا يعرف إلى التخلُّص منها وكبح جماحها سبيلاً... فاستدعى أحد مرؤوسيه وطلب منه أن يُحضر له قالباً كبيراً من الثلج، وعندما أحضر له ما يريد، أخذ يكسِّر الثلج بأسنانه من شدة الغضب علّه يتخلّص من حالته هذه ولكن دون جدوى، فلم يسكتْ عنه الغضب ولم يغادره الانفعال، عندها ترك المناوبة والوظيفة.

وفعلاً امتطى صهوة حصانه وغادر القلعة منطلقاً إلى بيته غير عابئ إثر موجة الغضب العارمة ولْيكنْ من بعده الطوفان، قائلاً في نفسه: تبّاً لهم ولهذه القلعة والوظيفة.

* * *

ولكن ما أن مضت فترة من الوقت وأخذت الشمس تتهادى مودّعة بحلل الجمال والمجد والجلال، تكنس نورها الوضّاء للغرب مُعلنة عن المغيب وأخذ الليل يُهاجم بجحافل ظلامه النور مهيمناً على ذلك الضياء، ومع هذا التبدل والانقلاب ما بين الليل والنهار أخذ انفعاله يهدأ وغضبه يتلاشى إلى أن ذهبت عنه تلك

الحالة تماماً وهنا بدأ يفكِّر ويقدِّر ويدرك حجم المسؤوليات الكبرى الملقاة على عاتقه وكيف أنه ترك مُهمَّته دون تعيين من يخلفه فيها وأخذ يسائل نفسه بأنه على سبيل الافتراض لو طرأ أي طارئ مع السجناء داخل القلعة، أو أي أمر آخر من الأمور فهذا يعني مسؤوليتي أولاً وأخيراً، ولا يجوز بحال من الأحوال الاستمرار بما أقدمت عليه وأنا غضبان، فما عليَّ إذاً إلا العودة للاضطلاع بمسؤوليتي وواجباتي وعسى الكرب الذي أمسيت فيه يكون وراءه فرجٌ قريب.

وفعلاً امتطى صهوة جواده عائداً إلى مقرِّ عمله وأخذ يمارس مهامَّه بعد أن أبدل جهاز هاتفه المكسور، وما أن شارف الليل على الانتصاف حتى اتصل به القومندان "القائد العام للشرطة والدرك العام" وخاطبه بتلهُّف بالغ، وذلك لشديد محبته له والتي أحيتها رهبة المأساة المروعة: أأنت موجود؟.

فأجابه: نعم موجود. أوليس أمر سيادتك الذي أبقاني؟. "قالها بمرارة".

فأردف القومندان قائلاً: إن ما عنيته بسؤالي بأنك لم تذهب مع الحملة؟.

أجابه: كيف يكون لي ذاك وقد منعتني أنت، وحلت بيني وبين هذه المهمة وأمرتني جبراً فأطعت؟.

فقال القومندان: الحمد لله على عدم وجودك معهم... أتعلم ماذا حصل لهؤلاء وما حلَّ بهم؟.

أجابه: بالنفي لا أعلم...

قال القومندان: ما أن وصلت الحملةُ مع ضبَّاطها إلى قرية "المليحة" بغوطة دمشق حتى وقعوا بكمين نصبه لهم الثوَّار، وتمَّ أسر كامل القوة مع قادتها، وإلى الآن ما زال مصيرهم مجهولاً لدينا ولا نعلم عنهم شيئاً، كما أننا لا نعلم أهم على قيد الحياة، أم أصبحوا في عداد الأموات!.

لقد كاد لهم أهل قرية "المليحة" بمؤامرة مع الثوَّار، إذ استضافوا الضباط وأكرموهم وفرشوا لهم الفرش حتى ناموا وسحبوا منهم أسلحتهم، فدخل الثوار واعتقلوهم جميعاً وأخذوهم أسرى ومصيرهم الآن مجهول، وقد نقل هذا التقرير لنا أحد أعيننا هناك.

فما رأيك الآن بما فعلت معك، ألم يكن خيراً؟.

فردَّ عليه قائلاً: إذاً... أنت يا سيادة الجنرال على علم مُسبق بذلك حتى حلت بيني وبينه.

فأجابه برعب: أعوذ بالله، إنني ما كنت أعلم شيئاً، حاشا وكلاَّ. وارتعدت فرائص القائد الكبير رعباً، إذ لو كان له علم فمعنى ذلك أنه متآمر معهم ومصيره الموت.

قال: إذاً الله هو الصانع وهو الذي لم يعرِّضني لذلك المأزق لا أنت.

فقال الجنرال: نعم الله... الله هو الصانع حقاً، الله أنطقني وأنا لا أعلم.

* * *

ونعود الآن إلى قرية المليحة لنرى ماذا حصل بالتفصيل هناك.

إنه بعد وصول تلك المجموعة إليها قام أهالي هذه القرية الكريمة باستقبالهم استقبالاً حافلاً، وبالغوا في إكرامهم وأحسنوا مثواهم.

وعند حلول المساء تمَّ توزيع العناصر على معظم منازل القرية، وبعد أن أُخذ الضباط ووضعوا كل ضابط في منزل وألبسوهم لباس النوم "بيجامات" وعلّقوا أسلحتهم على الجدران وهم في غاية الاطمئنان والإكرام، وبعد أن أَخلدوا إلى النوم وقعوا في المصيدة التي نصبها الثوار لهم بالاتفاق مع أهل القرية، فجاؤوهم يعتقلونهم ليلتقطوهم واحداً واحداً، ودون أدنى عناء.

قبضوا عليهم جميعاً وأوثقوهم بالقيود بعد أن أصبحت أسلحتهم التي لم يتمكَّنوا من استخدامها غنيمة سهلة بأيدي الثوار، وساقوهم حفاة وبلباس النوم إلى مدينة السويداء بجبل العرب حيث اشتعل فتيل الثورة السورية الكبرى فيها ليمتثلوا أمام قائد الثورة هناك آنذاك "سلطان باشا الأطرش".

ولا يخفى علينا صعوبة المسالك المؤدية إلى جبل العرب والتي تتميز بكثرة الصخور والأشواك وخاصة أن المسير نُفِّذ سيراً على الأقدام مما جعل الدماء تنزف من أقدامهم والسياط تنهال عليهم ضرباً.

وكان أكثر من تعرَّض للضرب والإهانة هو الضابط المكلَّف بقيادة الحملة وكان جسيماً بديناً، حيث اختصَّه قائد مجموعة الثوَّار بالتعذيب من قِبَلِه دون غيره وكان طيلة مدة مسيره ينهال على ظهره بالسوط وعلى كافة أنحاء جسده، وكانت ترافق كل جلدة على ظهر هذا الضابط عبارةٌ بذيئة ومنحطة من قبل قائد مجموعة الثوَّار له خصيصاً بسبب بدانته.

مع العلم أن هذا الضابط كان له في يوم من الأيام موقف مغاير تماماً مع هذا الشخص الذي هو الآن أسير بين يديه يذيقه من ألوان العذاب وصنوفه ما جعله بعد وصوله إلى مقرِّ قيادة الثورة بالسويْداء يفقد نصف وزنه تقريباً.

وبعد مضي فترة من الزمن تمَّ التفاوض بين حكومة الانتداب الفرنسي وقيادة الثورة، حيث أُطلق سراح هؤلاء الأسرى وفق شروط معيَّنة تمَّ الاتفاق عليها بين الطرفين.

وعودة ثانية إلى ذلك الضابط الأسير البئيس الذي كُلِّف بقيادة الدورية المكثفة بدل ضابطنا السيد محمد أمين وموقفه المغاير الذي سلف ذكره مع قائد مجموعة الثوَّار... تُرى ما هو هذا الموقف؟. نقصُّ ذلك منذ بادئ ذي بدء:

لقد كان الضابط الأسير هذا معاوناً لضابطنا السيد محمد أمين في قيادة القلعة بعهد الأتراك كما هو عليه الآن. وذات يوم قبض سجَّانوا القلعة على سجينٍ بالقلعة والذي أصبح الآن أشهر قائدٍ لمجموعة الثوار كما رأينا وقدَّموه لضابطنا المحبوب على أنه ضُبط متلبساً بمحاولة ارتكاب جرم شنيع ومناف للأخلاق والحشمة مع أحد الأشخاص الآخرين... وما أن سمع ضابطنا بذلك وتحقَّق وتأكَّد له صحة محاولته الجرم، حتى أمسك بتلابيبه وطرحه أرضاً على مرأى من كافّة السجناء في ساحة القلعة وانهال عليه ضرباً بسوطه تارةً وبقدميْه تارةً أخرى إلى أن أخذت الدماء تسيل من كافة أنحاء جسده، ولم يشفه ذلك، بل أخذ يمزِّق جلده بأسنانه.

وذاك الضابط المعاون من شدة تألمه عليه أخذ يطلق سيلاً من عبارات التوسل والترجِّي لكي يوقف عنه العذاب إلى أن غالبته العبرات وأخذ يجهش بالبكاء حزناً عليه وضابطنا السيد محمد أمين لا يأبه به ولا يصغي إليه.

لقد رَحِمَ الضابط المعاون هذا المجرم ولكن رحمته تلك لم تكن مبنية على علم بأن ما يلاقيه هذا المجرم الآن من ضرب مؤلم باطنه فيه الرحمة وظاهره من قِبَلِهِ العذاب، وكيف لا وهو ممن ذمَّهم رب العالمين بقوله:

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾[1].

---

[1] سورة الأعراف: الآية (٨١).

فالخارج عن حدود ما شرَّع الله يجب أن يعاقب عقاباً شديداً، وإن ما يلقاه هذا المجرم من العذاب الآن على يد ذلك الإنسان الطاهر هو محض الرحمة والخير لأنه محاولة لإنقاذه من براثن الانحطاط والانحلال الأخلاقي والشذوذ الجنسي الذي يجعله خاسراً لما أعدَّه الله له من خيرات في الآخرة غداً، بل ومعرَّضاً للعذاب الأكبر في الآخرة إن لم يتب ويرجع عن غيِّه فلا بد من التأديب للردع والتوبة، وعبرة لمن تسوِّل له نفسه مثيل هذا الجرم لكي يرتدع المجتمع.

وتمضي الليالي والأيام وتنقضي الشهور وينتمي هذا الشخص الانتهازي المنحط إلى صفوف الثورة السورية الكبرى وهذا شيء طبيعي بالنسبة لكافة الثورات والحركات فقد يتسلَّل إلى صفوفها بعض الانتهازيين والوصوليين والمنحطين الذين هم بمعزل ومنأى عما تهدف إليه الثورة من أهداف ومرامٍ سامية، ومبتغاهم وأهدافهم هو تحقيق غاياتهم الشخصية المنحطة متَّخذين من مبادئ وشعارات الثورة سلَّماً للارتقاء نحو المجد الكاذب، وسرعان ما يصلون إلى ما يطمحون لأنهم لا يدعون فرصة تمرُّ إلاَّ ويغتنمونها للظهور بالمظهر الدال على منتهى إخلاصهم وولائهم ووفائهم لتلك الثورة. ويتسنَّمون بالتالي المراكز القيادية التي يحقِّقون من خلالها ما يعجزون عن تحقيقه لو كانوا بمعزل عنها، وهذا ما انطبق على ذلك الشخص المنحط الذي هو الآن وكما رأينا قد أصبح قائداً علَماً لتلك المجموعة من الثوار، وضحيته التي بين يديه الآن هو نفسه الضابط المعاون الذي كان قد أبكته رحمته عليه في السجن وهو الذي وقع الآن أسيراً بين يديه، أليس ذلك موقفاً مغايراً بحسب صورته!. أمَّا حقيقته فهي عكس ذلك تماماً بدليل قاطع على أن تلك الرحمة غير المبنية على علم لم تشفع لهذا الضابط المعاون عندما أصبح الآن في قبضة هذا المجرم يذيقه شتى ألوان العذاب.

أما إنساننا السيد محمد أمين الذي ضربه ضرباً مبرحاً رحمة به فغايته: مرضاة الله والنهي عن المنكر والفحش جعلته غايته في حرز منيع وحصن حصين بالله من أن يناله ذلك المجرم أو غيره بمكروه طوال حياته لأن ما قام به من جليل الأعمال وعظيم التضحيات التي اتَّسمت بالرحمة والإنسانية وجلَّ قصده من ورائها رضى الخالق وإنقاذ عباده وإقالة عثراتهم والأخذ بيدهم وإسعافهم ولو أدى ذلك لسخط المخلوق، لذلك كان الله مؤيِّده وناصره وعاصمه جبراً من الوقوع بين براثن عدو الحق وعدوه كما في واقعتنا هذه... فالمقيموا حدود الله: الله وليهم وحافظهم.

﴿ . . فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾[1].

❁ ❁ ❁

(1) سورة يوسف: الآية (٦٤).



في عهد الاحتلال الفرنسي لسوريا أصبح ضابطنا السيد محمد أمين مديراً لناحية "قلعة عنجر" على الحدود اللبنانية السورية كقائد ومسؤول هناك، وكانت هذه القلعة بمثابة مستودع مؤقت انتقالي للأسلحة المرسلة بحراً عن طريق لبنان وتُعتبر مركزاً هاماً ومعقلاً قوياً ضد الثوّار السوريين.

وفي هذه الأثناء أرسلت الحكومة الفرنسية صفقة كبيرة من الأسلحة ومن مختلف صنوف السلاح لتمويل قواتها العاملة في سوريا ولبنان ضد الثوار وضد الوطن لتقمع الحركات الثورية التحررية أينما وجدت بواسطة باخرة من فرنسا نقلت شحنتها من الذخيرة والعتاد لهذه القلعة الحدودية مؤقتاً.

وتمَّ تخزينها في القلعة المذكورة ريثما يتم توزيعها على القوّات الفرنسية في سوريا، وبالطبع أضحت هذه الأسلحة جميعها تحت مسؤولية وإشراف هذا الضابط باعتباره المسؤول عن القلعة، ولكن وبنظر ثاقب صمَّم هذا الضابط السيد محمد أمين على تسليم الأسلحة إلى الثوَّار السوريين أعداء الحكومة الفرنسية ولو كلَّفه ذلك العمل حياته.

هذا وقد أعلم الثوّار بالأمر وأوعز إليهم بأن يبدأوا باستلام الأسلحة تحت جنح الليل، وقد صرف بعض رجال الأمن الغير مرغوب في وجودهم بشكل طبيعي بإجازات ليلية وأبقى المخلصين بالإضافة إلى معاونه

المخلص له أيضاً، وما أن حلَّ الظلام وأسدل الليل ستاره حتى جاء الثوَّار وبدأوا استلام الأسلحة ونقلها من القلعة تحت جنح الليل.

* * *

وبعد منتصف الليل اتصل الضابط المفكِّر بالقائد العام قائلاً:

لقد هاجمنا الثوَّار بأعداد كبيرة وبقوة رهيبة والآن تدور رحى معركة كبيرة بيننا وبينهم وهم يريدون الاستيلاء على القلعة... فالعجل العجل... النجدة النجدة.

وكان قد أمر رجال الأمن لديه بإطلاق النار في الهواء وبكثافة حتى يسمع أهل القرية، كما اتفق مع مختار القرية على القول أنه قد طلب منه المعونة فأجابه المختار: بأنه لا يستطيع أن يقدِّم أيَّة مساعدة لأنه يفتقر إلى القوَّات القتالية، وأهل القرية فلاحون لا سلاح لديهم.

ولدى وصول القوَّات الفرنسية "التي أعلمها ضابطنا السيد محمد أمين بعد فوات الأوان" إلى القلعة، وجدت أن مخازن القلعة قد فُرِّغت وفرَّ الثوَّار "غانمين سالمين".

ما أن وصل الخبر للمندوب السامي الفرنسي الجنرال "كاترو" بوقوع الكارثة العظمى حتى طار صوابه وكاد يفقد وعيه وامتلأ قلبه غيظاً وحقداً على الضابط السيد محمد أمين، فاعتبر أنها خيانة عظمى بنظره، وكيف يجرؤ هذا الضابط على تسليم حمولة باخرة كاملة من الأسلحة والذخيرة للثوَّار، إذ تُعتبر من أكبر صفقات الأسلحة التي ترسلها الحكومة الفرنسية إلى سورية نظراً لاستنفاد الجيش الفرنسي معظم ذخائره ومعداته القتالية مع الثوَّار.

ثانياً ما هو موقفه أمام حكومته؟. فكاد يفقد رشده وأصدر حُكماً بالإعدام مع التنفيذ الفوري على هذا الضابط ومعاونه ليلة إحضارهما موجودين لدمشق لتنفيذ حكم الإعدام بهما فجراً كالمعتاد، لكن العجيب أن ضابطنا لم يقابل هذا الحكم بضعف أو جبن أو خوف بل كأن شيئاً لم يكن. فما كان العمل الذي قام به إلاَّ نصرة للحق وما قد يقع من نتائج لا بدَّ أن بها الخير العميم للجميع فالفعَّال هو الله.

وبالفعل وبكل أمان واطمئنان اضطجع السيد محمد أمين في غرفة النظارة وغالبه النوم فنام، قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ . . ﴾[1].

فأيقظه معاونه الضابط قائلاً: نحن معدومين وتنام ألا تدري أننا بعد ساعات سنساق للموت، كيف يخطر على بالك النوم!.

وأخذ يضرب يداً بيد وهو يصرخ ويصيح: يا أولادي من لكم من بعدي!. وهو يذرع أرض الغرفة ذهاباً وإياباً بعصبية بالغة فاقداً صوابه ثم يلتفت باتجاه ضابطنا ويقول له: كيف تستطيع أن تنام وعند الفجر سينفَّذ بنا حكم الإعدام "الموت"؟.

فردّ عليه بسرور وهو يغالب النوم وبثقة مطمئنة: لا أدري سوى أنني أشعر بنعيم والنوم حلو وثقيل على جفوني ولا يخطر ببالي إلا النوم فدعني أنام.

وما أن سمع منه ذلك ورآه قد نام حتى انفجر باكياً نادباً: يا أولادي يا زوجتي ما حالكم من بعدي، وكان يُكابد الأسى، والخوف والحزن يملأ قلبه وقد أظلمت الدنيا بعينيه وعلى هذه الوتيرة الأليمة استمر حتى الفجر وعلى هذا الحال.

أما ضابطنا السيد محمد أمين فغطَّ في سبات عميق بنعيم وهو غير عابئ بالحكم وكأنه لا يوجد ثمَّة إعدام حقّاً.

* * *

وعند الفجر تمَّ سوْقهم لتنفيذ حكم الإعدام بهم وكان القائد العام للجيش الفرنسي مستنفراً فخرج من باب "السرايا" كي يشاهد المحكومين بالإعدام الذين ضيّعوا ودمَّروا ذخيرة وعتاد فرنسا بسوريا، بل وسلّموها لأيدي عدوِّهم.

وعندما مرُّوا من أمام "السرايا"[2] كان يحدِّق فيهم بعينيه الساخطتين ولكنه استحضرهم إذ أحبَّ أن يشاهد شخصيَّة هذا الضابط السيد محمد أمين ويعلم كيف تمّت تلك الخسارة الفادحة ووقعت الواقعة

[1] سورة الأنفال: الآية (١١).

[2] **السرايا**: قصر المندوب السامي الحكومي قرب المرجة بدمشق، والسرايا لا تزال حتى الآن مقر وزارة الداخلية السورية.

قبل أن يُعدم وكيف بلغت به الجرأة للحدِّ الذي أقدم فيه على هذا العمل الفظيع، ولبالغ الغرابة والاستنكار شاهده قادماً رافع الرأس ثابت الجنان يتهادى في خطواته العسكرية الرشيقة، قد افترّ ثغره عن ابتسامة عذبة وكأنه ينطلق إلى عرسه وهو مشوق فكاد القائد الفرنسي يجنُّ جنونه ويفقد صوابه ولا يكاد يصدِّق ما تُريه عيناه ولم يملك نفسه إلا أن صرخ بلهجة (هستيرية) متهدجة:

ويحك... ما دهاك... وما هذه الخيانة العظمى حتى سلّمت أسلحتنا لأعدائنا يا عدو فرنسا؟.

فأجابه بكل ثقة وبكلام متزن لا يبدو عليه أي اضطراب أو خوف:

لقد هاجمنا الثوَّار ودارت معركة كبيرة بيننا وبينهم استمرت ساعات طويلة وقد طلبت النجدة من القائد العام السوري لديكم وأخبرته بالأمر وبأن قوة الثوَّار كبيرة ولا نستطيع أن نستمر بالدفاع عن القلعة، ولما تأخرت النجدات لجأت إلى مساعدة مختار القرية الذي أجاب بأنه لا يملك السلاح والرجال لمقاومة قوَّات الثوَّار، وعندما لم تصلنا أي قوَّات أو نجدات، بل ولا أية مساعدة وبعد قتال انتحاري استطاع الثوَّار بعد معركة كبيرة غير متكافئة من الاستيلاء على القلعة وإثر انسحابنا القسري من الممر السري الأرضي مرغمين، وكان القائد العام السوري جالساً يسمع الكلام بالقرب من الجنرال الإفرنسي قائد قوَّات فرنسا بسوريا، فالتفت إليه الجنرال وقال له:

هل أخبرك هذا الضابط بالأمر وطلب النجدة؟.

فردَّ القائد العام للقوَّات: نعم.. وهو لا يدري عن ماذا يجيب لأنه كان بضياع تام من هول الموقف ولما تأكَّد الجنرال القائد من ذلك عاد إليه صوابه وهدأت ثورته وحِدَّته وعاد إليه تفكيره واستغرق بتأمّل جدّي عميق...

إذاً ليس على هذا الضابط أي حقٍّ بما جرى وقد أدَّى واجبه بشكل كامل وبإخلاص كبير، وتابع السيد محمد أمين حديثه بعد أن طلب الجنرال غاضباً رأيه بقائد رجال الأمن السوري لديه فأجاب مخاطباً الجنرال القائد:

أنت عندك قائد عام؟. هذا لا يصلح إلاَّ أن يكون "**بائع فول نابت**" فكيف يكون قائداً عاماً للشرطة والقوى المسلحة؟.

عندها التفت الجنرال إلى المترجم وسأل مستفسراً:

ماذا يقصد بقوله: "**بائع فول نابت**"؟.

فأجابه المترجم: أتذكر سيدي حينما كنا نتجول بعيد الأضحى بالبلد وشاهدنا رجلاً عجوزاً رثّ الثياب وطاعناً في السن على رأسه طربوشاً وسخاً وأمامه حلّة الفول المسلوق وبجانبه طاولة حولها كراسٍ صغيرة وأطفال يأكلون الفول كيف ضحكت من منظره العجيب، هذا هو من يقصده هذا الضابط ببائع الفول النابت.

وحيث كان منظر هذا البائع العجوز مضحكاً جداً وكان الجنرال قد شاهده يبيع الفول على عربة سابقاً وضحك منه، فما أن تذكَّر الجنرال الفرنسي منظر البائع ووصْف القائد العام للأمن والقوى المسلحة بهذا البائع حتى ضحك ضحكة من أعماقه وانفردت أساريره وبدا السرور والغبطة على وجهه.

والحقيقة أنه بهذه الضحكة انفرجت الأزمة الرهيبة وزال الخطر العظيم، وبذا زال خطر حكم الإعدام: إذ تناول سماعة الهاتف واتصل بالمندوب السامي الفرنسي الذي كان مستنفراً أيضاً ولم تغمض له عين بسبب هذه الكارثة وخاطبه بقوله:

سيادة الجنرال "**كاترو**" كدنا أن نقتل أفضل المخلصين لنا بفورة غضبنا مع أنه لا غبار عليهما وأخبره بالواقعة كما سمعها من ضابطنا، ثم وجَّه الجنرال الفرنسي هذا السؤال الذكي فجأة وهو يتفحَّص ضابطنا السيد محمد أمين:

بشرفك العسكري اصدقني... هل أنت راضٍ باحتلالنا لبلدكم حقاً؟.

فأجابه: إنني أتمنى أن أكون عوضك حاكماً على بلدك فرنسا وجالساً مكانك في باريس وبلدي يحكم بلدكم.

لكنه وبعد هذه الإجابة الصاعقة أردف قائلاً ومجاملاً للجنرال:

ولكن وبما أننا نحن العرب متخلِّفين وقد انتدبتكم جمعية الأمم علينا للنهوض بنا للتقدُّم والتطور ولنشر المدنية والحضارة في بلادنا ومساعدتنا على النهوض فقد رضيت.

أُعجب الجنرال بهذا الجواب وقال: جوابك حق، وحقاً إنك مواطن شريف ومخلص لبلدك ولنا عن علم وإنك اليوم لدينا مكين أمين... والآن عدْ لوظيفتك ولك شكرنا وثناؤنا على ما قمت به من دفاع مستميت... ولكن ضابطنا طلب منه أن يعفيه من الخدمة.

فسأله الجنرال متعجباً: لماذا هذا الطلب؟.

فأجاب: إذا استمرت خدمتي لديكم بجهاز الأمن فإن هذا القائد العام وبعد أن تكلَّمت بحقِّه ما تكلَّمت سوف يكيد لي ويدبِّر لي مقلباً ليسترد هيبته ومكانته وهو أعلى مرتبة مني فتصدِّقوه.

لكن الجنرال رفض إعفاءه من الخدمة قائلاً: سوف تستمر بالخدمة. ولن أسمع من أحدٍ عنك شيئاً أبداً.

عندها خرج هذا الضابط من عنده، وما أن سار قليلاً مبتعداً ومعاونه عن "السرايا" وشعرا بالأمان التام حتى عانقه معاونه وهو يقول والدموع تذرف من عينيه:

أنقذت حياتنا... يا عزيزي.

وما أن سمع ضابطنا السيد محمد أمين ذلك حتى سقط على ركبتيه وهو يقول بنفسه:

الله... الله هو الذي أنقذنا.. فوالله لقد أراني الله بأحرف من نور كُتبت على الجدار خلف وفوق الجنرال القائد كِلاَ السؤال والجواب: ما سأُسأل وبمَ أجيب.

ومن يتقِ الله يجعل له مخرجاً، ويجعل له من عسره يسراً، واتقوا الله ويعلمكم الله.





أخي القارئ: أما سمعت قول رسول الله ﷺ، إذ قال:

«**حب الوطن من الإيمان**».

* * *

أثناء العدوان الفرنسي على بلادنا قام السيد محمد أمين بتدبيرات رائعة فريدة من نوعها وخطط مُحكمة مجيدة ضرب بها الباطل وأهله من حيث لا يشعرون ويتوقعون، مناصراً بذلك الحق وأهله محاولاً إحلال العدل والأمان رافعاً الظلم والفساد عن البلاد. لنتابع معاً هذه الوقفة المشرّفة الرائعة التي وقفها...

كان هناك أمر وسيُنفَّذ، فكَّر ضابطنا السيد محمد أمين "كان برتبة ملازم أول" بالأمر فوجد أنه من اللازم أن يتم ويتحقَّق، فتحقيق مثل هذا الأمر فيه خير ونتائج جيدة مرجوَّة... لكن وللغرابة، فالضابط الفرنسي (الذي كان أيضاً برتبة ملازم أول) وقف ممانعاً إتمام هذا الأمر القانوني!. وأصرَّ رغم ما بيَّن له السيد محمد أمين من حسنات إتمامه وأن الأمر ضمن القانون، بقي ممانعاً رافضاً: هذا الأمر لا يمكن أن يتم...

لماذا هذا التعنُّت والرفض الأعمى؟. فقط لأنه ضابط فرنسي!. من ضباط الحكم!. فضابطنا السيد محمد أمين مِثْلُه في الرتبة العسكرية لكنه عربي، أي ليس من ضباط الحكم الفرنسي، ولذا أراد ذاك الفرنسي أن يفرض سيطرته الغاشمة جدلاً وفوقيَّةً على الضابط العربي بالرغم من عدم مطابقة أمره للقانون الفرنسي ذاته.

فكَّر ضابطنا السيد محمد أمين بالأمر قليلاً... لقد أدرك بنفسه: هكذا إذاً يريد أن يفرض رأيه وسيطرته عليَّ لمجرَّد التعالي وأنه من ضباط الدولة الحاكمة وأنا عربي فقط!!. رغم أني بيَّنت له أنَّ هذا الأمر لا يعنيه ولا علاقة له فيه... إذاً مكابرة ومعاندة بالمحسوس الملموس... هكذا إذاً... طيِّب سترى أيها الضابط المتكبر...

كان ضابطنا ما يزال ممتطياً صهوة حصانه ساكناً ممعناً النظر بهذه النتائج التي أدركها، ثم وبسرعة رفع رأسه وهمز فرسه لتتقدَّم بضع خطوات وانقض على الضابط الفرنسي الواقف بكبر وتعجرف، أثناء انقضاضه كان قد جرَّد مسدسه من غمده ملقِّماً إياه بسرعة البرق وواضعاً وملصقاً فوهته برأس الضابط الفرنسي غير مبال به ولا بدولته، ثم قال له:

أنت... يا حضرة الضابط الفرنسي هذا الأمر سيتم (وبلهجة قاسية سريعة أكمل قائلاً) وإيَّاك أن تتدخل فيما لا يعنيك... فهمت وإلا...

رجف قلب الضابط الفرنسي هلعاً ورعباً وقد مَثَلَ الموت بين عينيه وتصاغر كبره وعجرفته الحمقاء وقال بصوت يهتز متقطعاً: كم... كما تريد... كما تريد...

* * *

وبالفعل تمَّ الأمر القانوني على ما يرام... وكانت نتائجه كما يرجوها السيد محمد أمين تماماً، ولكن هل تذهب هذه الإهانة لضابط حاكم من ضباط الحكم الفرنسي سدى؟. هل تذهب هباءً منثوراً دون ردٍ قاسٍ عليها، وخصوصاً أنها صدرت عن ضابط عربي!!. ولكنها صدرت ضمن الحق والقانون.

فما تمَّ من إذلال هذا الضابط الفرنسي "تُعتبر رتبة ملازم أول في تلك الأثناء رتبة لها قيمتها وهيبتها وصلاحياتها الكبيرة" من قبل الضابط العربي يعني إذلال فرنسا، هكذا اعتبرها، بل تحدّياً للحكم بنظره الأعوج.

وقد كانت هيبة ضابطنا وشجاعته رادعةً صاعقةً للضابط الفرنسي وذلك ما جعله دائماً في بعد وتباعد عن السيد محمد أمين فلم يفكِّر بالانتقام لنفسه وجهاً لوجه بتاتاً، بل لجأ إلى جهاز حكمهم في سوريا فأوصل خبر ما حدث معه إلى بعض القوّاد الفرنسيين وتناقل هذا الخبر معظم كبار الضباط والقوّاد الفرنسيين في سوريا فغلى الحقد في دمهم... حتى وصل الخبر للجنرال "كاترو" ولكن قانونهم وتشريعهم لا يسمح لهم بعقوبة السيد محمد أمين أبداً ولا توجيه أي كلمة... بحقّه... فالسيد محمد أمين إنما قام بواجبه وهذا الأمر الذي نفَّذه من مهامه من صلب القانون، والخطأ الواضح هو تدخُّل ضابطهم الفرنسي!.

لقد كان تدخُّل الضابط الفرنسي تدخّلاً فضولياً، بل تعدِّياً ظاهراً وبوضوح وبذلك لا يستطيعون إلحاق أي أذىً أو "عقوبة" بحقِّ السيد محمد أمين بصورة غير قانونية وإن كان فسيشوهون سمعتهم وهذا ما تنعكس نتائجه الخطيرة عليهم، فما قَدِمُوا لبلادنا واستعمروها إلا بشكل انتداب من جمعية الأمم إذ ذاك، فقد جاؤوها لتطويرها والنهوض بها لمسايرة موكبة التقدُّم والحضارة في كل المجالات، هذا كان ادعاؤهم، وإن أخلُّوا بالقانون فتُفقد هيبتهم وتنعكس الآثار السلبية عليهم ولذا فكَّروا بعقوبة السيد محمد أمين أو بالتخلُّص منه بفكرة ذكية وخصوصاً أنهم يشكُّون بازدواجيته... لكنهم مكروا به، إذ أرسلوه إلى منطقة الدروز في جبل العرب، منطقة التمرد الثوري، حيث كانت الثورة السورية الكبرى مُشتعلة وبأشد أوارها.

عيَّنوه مدير ناحيةٍ لتلك المنطقةِ وقرَّروا تزويده بسريّة من العناصر ليتم الأمر بشكل طبيعي، غير ملفت للنظرِ وبذلك يكونون قد تخلَّصوا منه على يد الثوّار وللأبد، وهذا ما كادوه له فبعثوا أمر التعيين.

* * *

وفي اليوم المحدَّد للانطلاق للمنطقة... امتطى السيد محمد أمين فرسه وكانت السرية جاهزة للانطلاق، فانطلقت تحت قيادته... لم يكن ليخفى عليه "مكرهم" أي حقيقة سر هذا التعيين، ولكنه لم يأبه بالأمر، بل كانت ثقته بالله كبيرة وهو مدركٌ تماماً هدفه الذي يسعى له مطمئنٌ لتحقيقه.

سارت السرية وراء قائدها متَّجهين إلى منطقة الدروز... ساروا... وساروا... إلى أن اقتربوا من حدود المنطقة حيث وصلوا لوادٍ فاصل بين جبلين... هذا الوادي مُسَيطَرٌ عليه من قبل الثوَّار الدروز الذين سارعوا لنصب كمينٍ لهذه السرية بعد أن وصلتهم أخبارها...

وما إن مرَّت السرية بالوادي حتى انهال الرصاص عليها بغزارةٍ...

ولكن ما الحل؟. فلا ساتر هناك ليقيهم من طلقات الدروز إن استمروا بالمسير... والأمر بات جد خطير.

نظر القائد السيد محمد أمين إلى المنطقة نظراتٍ سريعة مستكشفاً متفحصاً الوضع الذي أصبحوا فيه... فرأى أن أفضل عمل وآمنهُ في مثل هذه الحالة أن يلتجئ بسريته لسفح الجبل وتحت صخوره.

وبسرعة أمر السريَّةَ بالاتجاه تحت الصخور الساترة، فاتجهت واستقرت بسفحه... عندها أصبح الوضع أكثر أمناً وانعدم وصول رصاص الثوّار الدروز إليهم.

بعد ذلك خاطب ضابطنا سريته قائلاً: ابقوا مكانكم ولا تغادروه فهو آمَنُ من غيره... انتظروني بينما أستكشف بقية الوادي عساني أجد ممرّاً محمياً من الرصاص فأعود مسرعاً إليكم ولا تحرِّكوا ساكناً.

وبسرعة همز فرسه فانطلقت به تشق طريقها الوعر بين الصخور والحجارة في ذلك الوادي... وسلك طريقاً ضيقاً وعراً بسفح الجبل مخفياً عن أنظار الثوّار إلى أن ابتعد عن السرية وخرج من جهة ثانية مكشوفاً للثوّار، ولكن قبل ظهوره للثوّار ربط قطعة قماش بيضاء كان قد انتزعها من ثيابه... ربطها بحربة بندقيته الحربية، ثم ظهر للثوّار وقد رفع البندقية يلوّح بها بالقطعة القماشية... وذلك إشارة السلام والمسالمة.

رأى الثوّار ذلك من الضابط القائد وبسرعة أرسلوا خمسة أو ستة عناصر منهم فنزلوا الجبل إلى قائد السريّة مُشهرين أسلحتهم والتقوا بالقائد السيد محمد أمين، عندها بادرهم السيد محمد أمين قائلاً: صحيح أنني ضابط عند العدو، لكني ثائر... أنا منكم... وهذا خاتم الثورة... وتكلَّم لهم عن بعض الرموز والإشارات والكلمات السرية الشائعة بينهم والمتعارف عليها فقط من قِبلِ الثوّار، عندها صدَّقوا كلامه.

سمعوا منه هذا الكلام المسِرّ وصدَّقوه بعدما سمعوا بعض الكلمات السرِّية وبعض الأمور التي لا يعرفها إلاَّ الثوّار... وأحسوا بنبرات الصدق والقوّة فاطمأنوا له وسُرُّوا به ونظروا ببعضهم نظرات تفاؤل وإقرار بمصداقيَّةِ ما سمعوا، ثم تكلَّم أحدهم "ويبدو أنه زعيم هذه المجموعة الصغيرة" قائلاً:

إذاً علينا يا رجال أن نوقف إطلاق النار... فهذا الضابط الشهم هو ثائر حقيقي ذو شأن خطير فعَّال...

فقاطعه السيد محمد أمين قائلاً:

لا، أيها الرجل الشجاع فلفرنسا عيونٌ عليّ، إذ تشكُّ بازدواجيتي وبتعاملي معكم ضدَّهم، فعليكم أن تتابعوا إطلاق العيارات النارية بأهداف خاطئة وذلك حتى المساء... عندها تفسحوا لنا المجال ليلاً. وأمام

عيون فرنسا نلقى المقاومة منكم وهذا أسلم لي وللثورة وأستر عن عيون فرنسا مما يُبيح لي أن أتابع تخطيطي بخفاء وسهولة تامّة ونجاح...

عندها التفتَ قائد مجموعة الثوّار قائلاً: هذا صحيح... إذاً اتفقنا أيها الضابط الشجاع... وتصافحا.

ردَّ السيد محمد أمين: اتفقنا وتبادلا ابتسامة السلام والتعاون المشترك... ثم التفت الرجل إلى بقية مجموعته قائلاً: هيا بنا يا رجال لنعد ظافرين... وبسرعة انفتلوا متفائلين وصعدوا الجبل عائدين لينضموا لبقية الثوّار في الأعلى.

وبالفعل تمَّ ما اتفق عليه السيد محمد أمين معهم... إذ تابعوا إطلاق النار باتّجاهات خاطئة بينما عاد هو لسريَّته وأمرهم بالمسير عند حُلول الظلام من حيث سار فساروا وراءه وأصوات الرصاص قد زالت وتوقفت... إلى أن وصلوا القسم وتمركزوا فيه بعد مرورهم بعدَّة أماكن ومحاولتهم التغطية والاختفاء عن عيون الثوّار وعياراتهم النارية.

ولم يترك السيد محمد أمين أيّة ثغرة تدينه أمام فرنسا بتعامله مع الثوّار...

وباليوم الثاني وبينما هو جالس بمكتبه الجديد في إدارة الناحية جاءه رجل من الدروز سكان البلد فدخل المكتب وقال: سيدي الضابط أريد أن أتكلَّم معك كلاماً سرّياً ضرورياً وهاماً...

قال السيد محمد أمين: تفضل وتكلَّم بما عندك.

فقال القروي: سيدي، هناك قافلة من المهربين على الجمال ستمر من قرب المنطقة... وقبل أن يُكمل حديثه... وقبل أن يفهم كفاية الحديث فإن السيد محمد أمين لم يشعر إلاَّ وثورة عارمة اندلعت في صدره... فهبَّ واقفاً وكالأسد المزمجر صاح بالرجل غاضباً:

الآن العدو يجثم على أرضنا فوق صدورنا يستغل خيرات بلادنا وينشر الظلم والفساد في قلوب العباد وأنت تأتيني لتخبرني بقافلة المهربين، وماذا تعني قافلة مهربين؟. ألا ترى ما يُعاني شعبنا من هذا المحتل الظالم!.

كان السيد محمد أمين يتكلَّم بقوَّة وعصبية ويتقدَّم خطوة إثر خطوة أثناء حديثه باتّجاه القروي... نظر القروي بوجه ضابطنا فرآه يقترب منه بوجه كوجه الأسد الغاضب فارتجفت أعصابه واصفرَّ وجهه فزعاً وخوفاً من شدة الهيْبة التي رآها بوجهِ الضابط ولم يدرِ بنفسه إلا وهو يتراجع للوراء خطوة إثر الأخرى، ثم

وبسرعة انقضَّ عليه الضابط القائد السيد محمد أمين، فانفتل القروي وفرَّ هارباً وهو لا يكاد يصدِّق بأنه سينجو من بطشة هذا الضابط الثائر... وباندفاعه هارباً وبسرعة قصوى سقطت عصابة رأسه "شماخه" من على رأسه وتابع راكضاً بسرعته القصوى حتى خرج من كل إدارة الناحية مُبتعداً متوغلاً داخل البلد.

* * *

وما أن حلَّ مساء هذا اليوم وهو مساء اليوم الثاني لدخول السيد محمد أمين هذا البلد حتى أُشعلت النيران على رؤوس الجبال في تلك المنطقة وانطلقت الأدخنة وألسنة اللهب مرتفعة في السماء ظاهرة للعيان وبالتتالي أوقدت على القمم، قمة إثر الأخرى.

فلقد كان هذا القروي الذي فرَّ هارباً... رجل من رجال الثورة وقد بعثه قادة الثوَّار في تلك المنطقة للتأكُّد من صحة كلام مدير الناحية الجديد ومن إخلاصه للثوَّار وثورته معهم ضد فرنسا، وما أن تمَّ لهم ذلك وتأكَّدوا بتمثيلية المهرِّبين تلك حتى أشعلوا النيران إشارة منهم لكافة دروز المنطقة كلّها بأن مدير الناحية الجديد ثائر... منا... ومتضامن معنا، فتعاونوا معه.

وبذلك علم ثوَّار المنطقة بأكملها أن هذا القائد الضابط العربي السيد محمد أمين إنما هو ثائر وطني مُخلص للثورة... بل ثائر خطير الشأن ودعم حقيقي لهم بوجه فرنسا.

بعدها أصبحوا على وفاق كامل معه واستسلام له، فما كانوا ليقدموا على عملية قتالية إلاَّ بتخطيط وتدبير مُحكم من عبقريته الرائعة الفذّة، فأي عملية مداهمة لقوات فرنسية أو لمخازن ذخيرة وأسلحة فرنسية إلاَّ وكان يخطِّط لها وبالتعاون معهم. فما أن يشنَّ الثوَّار هجوماً ما إلاَّ ويُرسل السيد محمد أمين خبراً للقادة المسؤولين الفرنسيين يُعلمهم بأمر هجوم الثوَّار ولكن بتوقيت مغالط ولا يصل هذا الخبر لكي يحشدوا قواهم للمؤازرة والدفاع إلا ويكون الثوَّار قد أنجزوا عمليتهم وفرُّوا غانمين سالمين مُنتصرين، عندها تصل قوات المؤازرة والدفاع الفرنسية... ولكن متأخرة!!. فلقد فات الأوان وتعود جارَّة وراءها أذيال الخيبة والخسارة.

وبذا كان الفرنسيون يحمدونه لإخبارهم بالهجوم، فلقد أخبرهم عند علمه بهجوم الثوَّار فوراً وأدَّى واجبه وما عليه من مهمة، ولا غبار عليه أبداً... بل هو مواطن يقوم بواجبه على أتمِّ وجه تجاههم مُخلص لهم "كان هذا تصوُّر القوَّاد الفرنسيين".

واستطاع هذا الضابط الشجاع المخلص لوطنه أن ينصر وطنه ويعمل لصالح شعبه... فساعد بذلك الثوّار وبنفس الوقت كَسِب رضاء فرنسا بتدبيره الحربي وتخطيطه الذكي.

لقد كان يخبر فرنسا بكل هجوم يشنُّه الثوّار ولكن بتوقيت مغالط فتصل القوّات الفرنسية دوماً ولكن بعد فوات الأوان بقليل، وبذا نصر الثوّار وهزم المستعمرين في مواقع عدّة، وإنما الحرب خدعة.





التفت فبدا على مُحيَّاه ظلٌّ وارف من التفكير العميق وطغى على قسمات وجهه سحابٌ مركوم من تأمُّل ثاقب دقيق، والتمعت في عينيه نظرة صدق مهول وتصميم لا يعرف الأفول، استغراق مهيب امتص كل ذرَّات نفسه، اعتصر فيضاً عرمرماً من الرحمة الإنسانية الكبرى فنامت على جبينه العريض الناصع البياض تجعيدات تنبئ عن استرسالٍ وسبْحٍ واسع يقارنه عزيمة تتخطى الزمن وتسبق الأحداث وترسم على صفحات التاريخ خطوط فجر تليد أغر.

كان هناك جندي تفضحه تنهداته وتكشف عما يتفاعل في صدره زفراته، تتعثر أنفاسه وتضطرب أمارات وجهه يدنو منه، اقترب ملهوفاً... سيدي... سيدي أريد إجازة: انتبه السيد محمد أمين من استغراقه ولم يصدِّق ما تسمعه أذناه... إجازة!.

نحن نسير إلى القتال وأنت تريد إجازة هل جُننت؟. انصرفْ... فانصرف وعاد إلى أفكاره.

كان هذا الجندي يرى في قائده كلَّ معاني البطولة والرجولة والإنسانية لذلك أحبَّه ووثقَ به وما هي إلاَّ برهة حتى كرَّ إليه على متن فرسه من جديد:

سيدي أتوسل إليك دعني أذهب الآن وفي الصباح التحق بكم فأنا أعرف الموقع الذي فيه تتمركزون في نهاية غوطة دمشق "وجعل يصفه له".. وأعدك بكل ما لديَّ من شرف بأنني لن أُخلف أبداً.

فأجابه: أيها المجنون... إن طلبك الإجازة يعني أنك جبان خائف من الموت وإذا أجبتك طلبك فإني أمنح إجازة من الموت، وإذا نما الخبر إلى قيادة الجيش فلا بد وأنهم سيتهموني بالخيانة العظمى وأُعدم وإياك.

قال له: سيدي أسألك بكل ما في قلبك من رحمة وأستجير بنخوتك وشهامتك فإني وكما لا يخفى عليك غريب عن هذه الديار النائية فلا أهل ولا أصدقاء وزوجتي قد داهمها المخاضُ وهي بين أمواج الألم وعادةً تتعسَّر ولادتها فمن لها؟.

ردَّ عليه: أيها الجندي قلت لك انصرف فلا أنا أستطيع ولا أحد غيري يقدر على تلبية طلبك.

ذهب الجندي وعيناه تزوغان وقلبه يتحرَّق ولكنه ما لبث أن عاد إلى موئله وسنده وغوثه وقبل أن يَصِل أشرقت الفكرة والتمعت في ذاكرة ضابطنا السيد محمد أمين فغزا سرورٌ طاغ طلعته وانثال من مقلتيه شلالٌ من العرفان لله لا يُوصف.

وما أن اقترب الجنديُّ منه حتى غمز له بعينه فهمز كل منهما جواده وسارا جنباً إلى جنب مبتعدين عن مسار الحملة عن جيش الاستطلاع المختلط وعن عيون الرقباء:

أيها المسكين قد تأثَّرت لحالتك وأشفقت مما أنت فيه من قلقٍ وحيرة لذلك قرَّرت منحك إجازة مديدة تذهب إلى زوجتك التي تناديك وقد تكون الدموع في عينيها فلا سند ولا معين والخطر محدق بها، ولا تقطع إجازتك حتى أُرسل في طلبك ولكنَّ هذا الأمر يتطلَّب منك تنفيذ مهمَّةٍ أكلِّفك بها.

فردَّ عليه وصوته يقطر لهفةً: مُرني يا سيدي وستجدني أطوع لك من بَنانِك.

هنا قال له: بعد قليل سوف نصل إلى الموقع الذي سيكون قاعدة انطلاقٍ استطلاعية وأنت تعرفه جيداً ومضى يشرح له تفاصيل المهمة والجندي ينصت باهتمام بالغ، وحين أنهى ضابطنا حديثه من شرْح الخطَّة سأله:

ولكن ما المهمة التي تأمرني بتنفيذها؟.

قال له: أقول لك حينما أُرسل في طلبك...

لقد ظنَّ أنه يريده لأمر شخصي فتركه على ظنه وصرفه قائلاً: والآن اذهب والتحق بفصيلتك.

هرول الجندي والدنيا لا تكاد تتَّسعُ لسروره ودموعُ الفرح تملأ عينيه.

* * *

كان ضابطنا السيد محمد أمين نائباً لقائد طليعة الجيش الفرنسي الاستطلاعية ولولا خشية قيادة الجيش لسلّمته القيادة، فلقد رأوْا من عبقريته وفنونه ما أذهلهم وزرع الحيرة في أفئدتهم وتركهم يغرقون في خضمٍّ لجيٍّ من الدهشة والإعجاب فلا يزال في ذاكرتهم أنه كان الضابط المسؤول في قضية الاستيلاء على أسلحة قلعة "عنجر"(١)، ولكن كانت هذه كلّها ظنون لديهم لم ترقَ إلى مستوى اليقين لذلك جعلوا منه نائباً للقائد لا قائداً تحسُّباً وحيطة.

وحينما انطلق النفير سارت الطليعة وسار السيد محمد أمين في ركابها، كانت ابتسامة الظفر والرضا ترتسم على ثغره، وفي جوانحه حمدٌ لا مزيد عليه وحبٌّ طاغٍ عصف بنفسه وجعله يهيمُ بالإله العظيم الذي هيَّأ له الظروف المواتية ليُكتب لخطَّته النجاح ومن ثم الخلود.

لقد نفذ صبر فرنسا وضجَّت من مناوشات الثوَّار لقواتها وأقضَّتْ مضجعها ضرباتهم فلم يغمض لها جفن ولم يستكن لها ساعد ولا ذراع، فحشدت تلك الحملة حتى بلغ طليعتها "ثلاثة آلاف جندي" مدجَّجين بأحدث صنوف السلاح تبغي إبادة الثوَّار عن بكرة أبيهم بعد كشف وتحديد مكانهم وعددهم.

طار نبأ هذه الحملة الاستطلاعية إلى كلِّ الأوساط فانتاب الرأي العام وجومٌ وحيرة وقلق، فما كان من قادة الثورة إلاَّ أن هرعوا إلى من يُستظل بظلّه فيُظلهم، إلى من يلتجؤون إليه فيكون نِعمَ الحصن وخيرَ حرزٍ أمين.

وهكذا كلّ مرة كان يرى منهم العجب العجاب: فكم ألقى بنفسه في أتون النار، وكم استهان بروحه ولم يبالِ بجسمه وهم دوماً يخذلوه ويتركوه وحيداً يجابه مصيره فتتدخَّل في الوقت المناسب العناية الإلهية وتسعفه فينقلب الفشل إلى نجاحٍ منقطع النظير، لكن هذه المرة الأمر جدُّ مختلف والفناء قابَ قوسين أو أدنى ولم يكن في وِسْعهم إلاَّ الالتجاء إليه فبذلوا له العهود وأقسموا الأيْمان أن يكونوا عند حسن ظنِّ ربهم وظنِّه فيهم فوعدهم: إن مكَّنني الله فلن أقصِّر، ولكنني لست القائد فَكِلوا الأمر لله.

* * *

نظر قائد الحملة الاستطلاعية إلى معاونه السيد محمد أمين نظرة حملت من الثقة أكثر مما تحمل من الإعجاب فقد عَلِمَ من درايته وحنكته وخططه ما جعله يسلِّمه قيادَه، لا بل ويتكئ على عبقريته بالكلية

فلا يقطعُ أمراً ولا يحرِّكُ ساكناً إلاَّ من بعد الرجوع إليه لذلك انتابه القلق والانزعاج عندما تطرَّف ضابطنا عن طريق مسير الجيش مع أحد عناصره لكنه سرعان ما أقبل راجعاً واقترب منه "وعلى مسمع من الجنود" قال بصوت مرتفع سَمِعَهُ الجنود حولهم وعلامات الألم تكسو وجهه:

إني ليأخذني العجبُ العجاب ويقتلني القلق فقد بحثت في المنطقة وسألت الرعاة واستجوبتهم حين تطرَّفتُ جانباً للبحث العملي والتقصِّي لدراسة القتال على أرض المعركة القادمة فعلمت بأنَّ الثوَّار قد تنادْوا من كل حدب وصوب فمن حلب وإدلب وحمص وحماة وجبل العرب وحشدوا حشوداً ضخمة وبلغ تعدادهم عشرة آلاف ثائر وما زال العدد بازدياد فالإشاعات التي بلغت أسماع الحكومة هي الحقيقة اليقينية وليست مجرَّد إشاعات، وكلّهم زحفوا تلقاء دمشق ولست أدري كيف يرسلون بهذا العدد الضئيل، أما كان من المفروض كدولة ضدَّ عصابة ثوارٍ أن يكون عديدنا ثلاثة أمثالهم لئلا يُحاط بنا، ألا ترى أنه لا يوجد معنا فرنسي واحد ولكن ليس بيدنا حيلة فقد فُرض علينا القتال ولا بد أن نقاتل وأن ننتصر، والحقيقة لن تكون هذه الطليعة مجرَّد استطلاعية، بل قتالية.

شخصت عينا القائد وامتقع وجهه وانتصب شعر رأسه فمن يعتمد على حنكته هو الذي يتكلَّم.

سرى الخبر بين الجنود سريان النار في الهشيم ووصلت الحملة إلى الموقع المراد وجرى الجنود لإعداده للتعسكر فنصبوا الخيام وجهَّزوها وجعلوا خيمة القائد إلى جوار خيمة معاونه وبينهما ممرٌّ عريض يقسم المعسكر شطرين وتركوا أسلحتهم في وسط المعسكر تستند على بعضها على أشكال هرمية ليسهل تناولها.

أسرع القائد خلف ضابطنا السيد محمد أمين عندما ولج إلى خيمته وقال له:

ماذا ستفعل الآن؟. وما الخطّة القتالية؟.

فردَّ عليه: أنا متعب، بل مرهق جداً وأريد أن أنام ساعتين على الأقل لأنفض عن كاهلي هذا العناء، وبعدها نخطِّط فأمامنا مجهودٌ كبير وهل تظن أن يغمض لنا جفن الليلة!. والثوَّار على مقربة منَّا!.

فقال القائد مستغرباً: وهل يطرق النوم لك جفناً في هذه الظروف العصيبة؟.

قال له: نعم ولِمَ لا، واستلقى على سريره العسكري وأغمض عينيه.

أخرج القائد زجاجة خمر وراح يعب منها حتى أتى على آخرها ورماها بنَزَقٍ وعصبية والرعب يأخذ منه كلَّ مأخذ وهو لا يفتأ يذرع الأرض أمام خيمة الضابط السيد محمد أمين جيئة وذهاباً: عند ذلك ابتهج قلب ضابطنا فرحاً وأملاً وسروراً.

* * *

في هذه الأثناء انفرد ذلك الجندي وهو يمتطي جواده وسار الهوينا باتجاه التلَّة التي يقْبعُ المعسكر خلفها ولما وصل إلى قمتها ما لبث أن لوى عنان جواده بسرعةٍ رهيبة وانقضَّ كالسهم هبوطاً جهة المعسكر فثار الغبار حتى طاول السحاب وعلا صهيل الجواد وسمع الجنود وقع حوافره تدقُّ الأرض وكأنما تنذر بخطر يوشك أن يقع.

شخصت الأبصار ويبست الحركة وأقبل الجندي يلوِّحُ بكلتا يديه يملأ الذعرُ وجهه ويسكن الوجل في عينيه وهو يصرخ بصوتٍ متحشرج كحشرجة نزاع الموت وأثناء عبوره الممر الفاصل بين خيمة القائد ومعاونه بذلك الصوت الراعد يملأ النفوس هلعاً ورعباً فتوضَّحت الكلمات:

"**انذبحنا يا عرب... انذبحنا يا عرب... انذبحنا يا عرب**".

وظلَّ هارباً لا يلوي على أحد ورنين صوته المرعب يُرجع البراري صداهُ.

جفل قائد الحملة وجحظت عيناه وبدا تأثير الخمر عليه واضحاً، نظر إلى ضابطنا "رجلَ الساعة المنتَظر" فإذا به يندفع من خيمته ويقفز مُعتلياً صهوة حصانه ويرخي لها العنان هارباً فانطلقت تسابق الريح وتطوي الزمن، تعلَّقت عيون الجنود بقائدهم... فما كان من الآخر وقد أخذ منه الخمرُ والفزعُ مأخذهما إلا أن أسرع بامتطاء حصانه وهمزه بعنف يحثُّه على الفرار وهو غير مصدِّق بالنجاة.

ساد سكون مشوب بذعر قاتل وجحظت الأعين رعباً وهلعاً ماذا!.

أما وقد فرَّ القائد ومعاونه فماذا على الجنود إلاَّ الفرار، فجأة كثر الهرج والمرج حتى بدا منظرهم كأنهم قطيع من الغنم فرّ من بطشة الأسد.

ولّى الجيش بأكمله الأدبار جنوداً وضباطاً ولاذوا بالفرار..

كأنهم هَرباً أبطالُ أبـرهــــةٍ[1]   أوعسكر بالحصى من راحتيه رُمي[2]

حقّاً لقد أدّى ذلك الجندي دوْره ببراعةٍ لا مثيل لها فلقد كان تصوُّره عن منظر زوجته التي تئنُّ تحت وطأةِ المخاض ولا أحد إلى جوارها وربما خُيِّل إليه أن حياة زوجته المسكينة في خطرٍ محدق وأنه إن لم يدركها الآن فسوف يخسرها إلى الأبد، فكان المشهدُ قطعةً من الحقيقة.

ما برح ضابطنا السيد محمد أمين معاون القائد العام ينهب الأرض بفرسه نهباً ثم بدأ ينحرف عن خط سير الفلول الهاربة قليلاً قليلاً، وعندما صار بعيداً منفرداً وفي مأمن من أنظارهم رجع عائداً الكرَّة إلى مكان المعسكر فوجد السكينة تغمر المكان والهدوء يلقي ظلاله على الأوابد والخيام، والخيام تشكو فراق ساكنيها، طاف حولها وجاس بناظريه جوفها فرآها خاوية على عروشها وفي الساحة كان جبل الأسلحة ملقىً على الأرض، لقد تركوا كل شيء وراءهم إلا النجاة.

بحث عن الهاتف الميْداني ولما عثر عليه أدار الساعد عدَّة دورات، ثم أمسك بالسماعة وطلب القيادة فألغيت المكالمات وخلت الخطوط فأخبار الجبهة لها الأفضلية والأولوية وما هي إلا هنيهة حتى كان الضابط المترجم على الطرف الآخر ينقل الحديث إلى قائد الجيش الفرنسي، وعلى الفور بادره بالسؤال بلهفة ما الأخبار عندكم؟.

قال له ضابطنا: مع الأسف سيئة للغاية ونحن في وضع لا نحسد عليه أبداً، فالثوَّار يُطبقون علينا من كل ناحية وينوف عددهم على عشرة آلاف وهم في كل ثانية يزيدون كأنما ينبعون من الأرض نبعاً وننفِّذ الآن عملية انسحاب منظَّم لنتفادى التفاف الثوَّار علينا وحتى نخرج بأقل ما يمكن من الخسائر.

فسأله: وأنت كيف استطعت البقاء وأنت تكلِّمني؟.

فأجابه: إن فرسي سبَّاقة.

وكانت بيده موس مرهفة وبسرعة البرق جزَّ بها سلك الهاتف الذي لفظ أنفاسه وبقي القائد المترجم ينادي بصوت يكدُّه الفزع:

---

[1] تشبيه بهرب أصحاب الفيل حينما أُرسلت عليهم الطيور الضعيفة وهم فارّين منها لا يلوون على شيء.

[2] يشبِّه فرار طليعة الجيش العربي المختلط بوقعة حنين حينما رمى الرسول ﷺ جيش العدو بالتراب وأصابت كل عين وولّى الجيش مدبراً ولم يُعقب.

آلو... آلو... آلو.. وما من مجيب.

* * *

وعندما وصلتْ إلى دمشق فلولُ المنهزمين بدأ كل منهم يروي الواقعة كما يخيِّل له فزعه ورعبه أحداثاً مليئة بقسوة وعنف تعيا على الاصطبار والقسم الأكبر منهم لم يلتحق بالثكنات لأنهم أيقنوا بزوال الاحتلال الفرنسي عن البلاد باجتياح الثوَّار الطامي، وشعروا أن الفرار خير من الموت المحتم فاعتُبروا في عداد القتلى.

لقد انقصم ظهر فرنسا وتقوَّضت أركان سلطتها وأصبحت كالمسنِّ الهرم.

نظر الجنرال سراي "المندوب السامي الفرنسي في سوريا" إلى الإفادات والتقارير الواردة إليه فهاله الأمر كثيراً وشعر بالمرارة تغزو حلقه وبالقنوط يعتصر فؤاده وبصفرة الوجل تصبغ وجهه، فقد ذهب في موقعةٍ أكثر جنده والثوَّار يتقدَّمون بأعداد رهيبة نحو دمشق وفي سواعدهم عزيمة وفي مُقلِهم تصميم أكيد ومن جباههم تتفجر إرادة لا تعرف النكوص، وكانت هذه خلاصة تقارير المعركة فانسدَّتِ السبل أمام عينيه وأظلم النهار من حوله وضاقت عليه الأرض بما رحُبت لا سيَّما وقبل فترة يسيرة كان الثوَّار قد استولوا على باخرة أسلحة وذخائر مرسلة للجيش الفرنسي بسوريا من قلعة "عنجر"، فما كان منه إلا أن التفت إلى معاونيه وأركان حربه وصرخ بمرارة وصوت رهيب:

انسحبوا... انسحبوا..

انسحبت القوات الفرنسية إلى لبنان تاركة وراءها كلَّ شيء... الثكنات، مستودعات السلاح والذخيرة.. نقاط الاستناد... المدافع الحاكمة على مفارق الطرق والقذائف إلى جوارها... والبنادق هنا وهناك. لقد فرُّوا بأرواحهم طلباً للنجاة وهم يغبطون أنفسهم بها.

ولكن الجنرال سراي عندما وصل إلى بيروت خشي أن تصل عدوى المقاومة إليها فيستنزف الأهالي قواهم فيصبح من الهالكين فآثر اللجوء إلى إحدى البوارج الحربية التي تقبع في البحر المتوسط ينتظر ما تتمخَّض عنه الأحداث وهكذا بقيت سورية خلواً من المغتصبين والأعداء تنتظر الشرفاء أن يأخذوا زمام المبادرة وينتهزوا الفرصة ويغسلوا العار ويزيلوا الضيْم ولكن...

طال المنامُ على الـهـوانِ فأين زمجرة الأســود

واستنصرت عصب البغـاة ونحــن فـي ذل العبيـد

قيد العبيد من الخنوع وليس من زرد الحديد

لقد انكشفت النيَّة وبانت الطوية.. أوَ ليس هذا ما طلبتم؟.

أوَ ليس هذا ما تريدون؟.

لقد رضي أن يذهب مع ربِّه فيقاتلا وما عليكم بعد هذا الفتح المبين سوى استلام الثكنات التي يصفر الهواء فيها والعتاد الذي علاهُ الغبار.

لكنهم بدلاً من ذلك ذهبوا يقتِّلون بعضهم ويعملون في سلبٍ ونهب المحلات التجارية حتى إن أحد قادة الثورة المزيفين قُتل في سوق البزورية وهو يسطو على أحد هذه المحلات التجارية.

ثلاثة أيام وثلاث ليال والمعسكرات تفتحُ صدورها للقادمين ولا من يحرِّك دماغه ذرَّة من تفكير من هؤلاء القادة من الثوَّار الذين لم يكونوا على مستوى القضية...

أين أنتم...

ألا تسمعون..

مالكم لا تتصرَّفون!.

* * *

ونامت أعين الدراويش فعادت الثعالب رويداً رويداً بعد أن اكتشف الفرنسيون بواسطة عملائهم أن أماكنهم ومعسكراتهم وسلاحهم الثقيل لم يمسسه أحد وأن الأمر لم يكن أكثر من مجرَّد كابوس مروِّع مرَّ بسلام.

أفاق الجنرال "سراي" من هذا الكابوس الثقيل صابّاً جامَ غضبه على دمشق مفرغاً حقده الدفين كاشفاً عن وجهه الوحشي الأثيم، فأمر مدفعيته الثقيلة بضرب حيِّ الميدان المجاهد فانهارت البيوت واختفت ضحكة الأطفال ورسمت الدماءُ على الوجوه أفظع آيات الهمجية وسال دمُ التشرُّد فأحرق البسمة وغطّى ألم اليُتْم الأبرياء وباتت دمشق منارةً على طوفان من لهب حي الميدان الشجاع.

❁ ❁ ❁



عيَّنت الدولة الفرنسية الضابط السيد محمد أمين مديراً لناحية في إحدى مناطق جبل الشيخ التي يقطنها السادة الدروز والمسيحيون. وذهب بكل ثقة بالله لاستلام مهمته.

وعند مدخل الناحية التقى بأحد أفراد رجال الأمن هناك "برتبة عريف" كانت تبدو عليه ملامح التحدِّي والتشامخ والتعالي، أما هندامه العسكري المتهلهل فقد كان يدلُّ على الفوضى وتدهور النظام لديه... والأدهى من ذلك أن هذا التافه بدأ بتوجيه التهديدات والكلمات النابية لاستثارة الضابط الجديد ومن ثم محاولة إذلاله، ولكنه تجاهله ولم يجبْه، بل تظاهر بأنه لا يسمع ولم يُعره أي التفات مما شجعه على مزيد من الوعود والتهديدات إن لم يخضع لإرادتهم (أي إرادة أحد الفريقين السادة المسيحيين أو الدروز).

إنها المواجهة الأولى وفعلاً تبدو المشكلة كبيرة ولكنه ما أقدم على أمر إلاَّ ونجح ذلك لأنه استند للذي بيده مقاليد الأمور، إنه استند إلى الله...

نعم تجاهل أمر العريف المشاغب، ولكن دواليب التفكير كانت بالغة الجاهزية القصوى لديه.

وعند وصوله قسم الشرطة العائد له وجده بحالة يرثى لها: دار علوية قديمة والغبار يملأ المكاتب، والإهمال بادٍ على ثنايا كل ما شاهده ورآه.

صعد إلى مكتبه العتيق على درج خشبي يتأرجح... دخل المكتب فوجد الغبار على الطاولة والحبر أضحى ناشفاً مسحوقاً جافاً فجلب الماء وصبَّه بالمحبرة على الحبر الناشف حتى أصبح سائلاً، وكانت السجلات يكسوها الغبار وكل شيء يدلُّ على الإهمال كما يدلُّ على المواجهة التي سيلقاها في هذا المكان، لا بدَّ أن في الأمر سراً ولا بدّ من التعامل مع الواقع بذكاء كي يتم التغيير الجذري مع أن الوضع جدُّ عسير على ما يبدو، نعم وكيف لا فقد كان الخوري في تلك الناحية قد ضرب الضابط "مدير تلك الناحية" الذي كان قبله وسط الكنيسة "فلقة" على قدميه ونُقل مدير الناحية ذاك. ولا بدَّ لسبب مهين اقترفه ذاك المدير، ولكن في ذلك ما فيه من نقص لهيبة الدولة في نفوس الناس هناك. بذلك حدَّثته نفسه، ولقد كان القسم يضم العريف المشاغب شاهده ثانية من نافذة المبنى القديم يتقدَّم عدة عناصر لدى علمهم بقدوم مدير الناحية الجديد للوظيفة وتجمَّعوا بساحة القسم، ثم انطلق هذا العريف باستهتار وبمفرده مرتقياً الدرج الخشبي العتيق قادماً إلى ضابطنا في غرفته.

كان هذا العريف "هو رأس الفتنة" يتصدر الزعامة، وكان كعادته مسؤولاً عن إفشال الضابط الجديد والسيطرة عليه فتستمر الفوضى ويتدهور النظام، وبالتالي تضطر الدولة الفرنسية لنقله ولإعادته ذليلاً مقهوراً وبهذه الطريقة فعلاً تكون الحكومة الفرنسية قد انتقمت من هذا الضابط الحرّ السيد محمد أمين "الذي تشك في إخلاصه لها ولكن بلا دليل".

وفعلاً صعد هذا العريف الدرج ودخل غرفة الضابط الجديد بهيئة عدم المكترث، أزرار بزَّته غير مبكَّلة، حاسر الرأس، فاتحاً عن صدره، بحذاء عسكري لم يربط انشوصاته "شوَّاطاته" متسخاً وكأنه يهزأ هزءاً ولا يعرف للنظام معنىً أبداً، فتجاهل الضابط الجديد رؤيته المسبقة أو أنه عرف أنه نفس العريف الذي أسمعه الألفاظ النابية قبل قليل على الطريق العام، بل تظاهر بالقراءة وهو مطرق الرأس يتظاهر بالانهماك بقراءة جدول أسماء بين يديه:

العريف فلان نفس اسم العريف الحاضر... "تمتم بصوت مرتفع عفوي مسموع":

لماذا لم يُرقَّع!. إنه يستحق الترفيع، عريف نشيط انضباطي يطيع رؤساءه، سأُرسل اسمه ليُرفَّع لرقيب، حيث كان بيد الضابط الجديد سجل الترفيع وأسماء رجال الأمن في القسم، ومنه عرف اسم العريف.

ولدى سماع هذا العريف هذه البشارات وهذا المدح والثناء عليه وبأنه سيُرفَّع لرقيب، بدأ فوراً يرتِّب هندامه ويربط انشوصات (شوَّاطات) حذائه وصدَّارته العسكرية حتى أصبح بهيئة نظامية رائعة ووقف أمام الضابط بكل انضباط.

كان الضابط يلحظه بطرف عينه ولكنه يُظهر انهماكه بجدول الأسماء بين يديه وإثر انتهاء العريف من ترتيب هندامه، رفع الضابط رأسه قائلاً:

ما اسمك؟. "وأمعن النظر به مُظهراً أنه لم يعرف أنه الشخص الذي كال له الألفاظ النابية"...

العريف فلان سيدي الضابط.

وبلهجة عسكرية جدّية استخدمها الضابط قال:

ما قرأته عنك من الانضباط والطاعة فإن مظهرك يدل عليه تماماً، بل يظهر لي أنك أفضل من الوصف، لذا: سوف أُرسل اسمك للترفيع وبعد فترة سأرسله ثانية لترفيع ثانٍ.

وتابع ضابطنا السيد محمد أمين بعد أن سيطر عليه حديثه آنياً: الشرطة تحت إمرتك الآن، اجمع الشرطة حالاً وأنت منذ الآن نائبي ومسؤول عن قيادتهم في فترات غيابي.

بتحية عسكرية نظامية رائعة أدَّاها باحترام أجابه: حاضر، سيدي.

وبالحال انصرف وجمع رجال الأمن وجهَّز الاجتماع على أفضل ما يمكن لأنه كان أشرَّهم وعليهم مسيطراً، وعاد: الاجتماع جاهز سيدي.

نزل الضابط الجديد واجتمع بعناصره وأعطاهم التعليمات كعادة أي ضابط يستلم واجباته بالمنصب الجديد.

إلاّ أن تلك الواقعة مع هذا العريف لم تنتهِ بعد، إذ من خبرته العسكرية يعرف أن الذي نشأ على الشغب والإجرام لا يُصلح بلطيف العبارة وجميل الكلام فلا بدَّ من التأديب والسوط وشديد الإهانة والإذلال، فهو يعرف أمثال أولئك الناس الخبثاء، لقد قضى حياته بمطاردة المجرمين وتأديبهم والانتصار عليهم ولم يذق طعم الفشل بحول الله أبداً.

استعمل الحكمة والتفكير في كل المواقف: والآن لا بدّ من خطَّة يسير عليها لتأديب ذلك العريف، المخدَّر آنياً بالوعود المبشِّرة.

استمال ثلاثة من الشرطة لجانبه وأصبحوا له مخلصين ويمكن الاعتماد عليهم في العمل. إذ امتازوا بإخلاصهم وتفانيهم لقائدهم الجديد.

* * *

وذات يوم وبعد انقضاء شهر كامل جاء الثلاثة سرّاً يخبرون القائد "الضابط" السيد محمد أمين:

سيدي، هناك مؤامرة تُحاك ضدك بقيادة العريف، لقد اتّفق الجميع على رفض أوامرك واستشارتك كي ينقضوا عليك بالضرب.

نعم هكذا اتفق الجبناء تجاه القائد الحكيم، لكن ما هي النتائج!.

أجاب القائد: أصغوا لما أقوله لكم: عند الاجتماع الصباحي "والاجتماع يكون بشكل مربع ناقص ضلع" تصطفون متوزعين ويقف كل واحد منكم بضلع.

اجتمع العناصر على شكل مربع ناقص ضلع بأوامر من القائد، وتمت خطوات الخطَّة من قبل الثلاثة، ثم أصدر الأوامر الوظيفية، فردَّ العريف الظالم:

الجميع رافضون أوامرك.

أظهر ضابطنا الدهشة ثم التفت إليه قائلاً:

سنرى من الذي يرفض.. الجميع أم أنت فقط، سنرى هذا الصف... ولا على التعيين "وبصوت صارم":

أنت أيها الجندي وأشار على أحد الثلاثة المخلصين له:

هل أنتم ترفضون أوامري؟.

فأجابه بصوت كالرعد: لا.. يا سيدي.

أوه. حسناً، سنرى الصف الثاني: أنت أيها الجندي:

هل أنتم ترفضون أوامري؟.

فأجابه بصوت كالزئير: لا.. يا سيدي.

سنرى الصف الثالث: أنت أيها الجندي "وهو المخلص الثالث له":

هل أنتم ترفضون هذه الأوامر؟.

فأجابه كصاحبيه: لا.. يا سيدي. ومن يرفض الأوامر العسكرية إلاَّ الجبان!.

عندها سأل فرداً من غيرهم فجبن وقال: لا.. يا سيدي لا أرفض.

ثم سأل سواه فأطاعه "وهنا أحسَّ بقية العناصر بالجبن ولم يجرؤوا أن يتفوَّهوا ولو بكلمة" لأنهم ظنُّوا أنهم جميعاً قد تراجعوا.

عندها وحين كرَّر السؤال للمجموع أجابوا: نحن جميعاً تحت أمرك سيدي.

فحُقَّ الحق وبطلت المؤامرة وفوراً ارتعدت فرائص العريف الخبيث، وأحسَّ بفشل المؤامرة وخيانة العناصر له، وأنه أضحى وحيداً لا ناصر له ولقد حان الأوان لتأديبه، إنها فرصة الضابط السيد محمد أمين وتخطيطه العظيم لكبح جماح هذا العريف المتآمر وتأديبه وأمثاله حق التأديب على يديه:

إذن الرفض من قبلك فقط، أتعصي الأوامر العسكرية "ارموه أرضاً"وبلحظة ألقوه على الأرض وكبَّلوا قدميه بالبندقية وانهال عليه هذا الضابط بسوطه بالضرب الشديد حتى أخذ يصرخ ويستجير من الألم، فأمر به إلى السجن ذليلاً مقهوراً.

لقد حطَّم طغيانه وعنفوانه الأرعن وأزال سيطرته الغاشمة وطوَّع الجميع لواجباتهم الأمنية.

* * *

كان يعلم أن أهالي المنطقة ينتمون لطائفتين:

أولاهما السادة المسيحيون والثانية السادة الدروز. ولقد كانت فرنسا تميل للسادة المسيحيين، فمال هو معهم أولاً ضد طائفة الدروز حتى أدَّبهم بشذوذهم وضمن الحق فخضعوا خضوعاً تاماً للقانون.

وبذلك كانت تُرسل تقارير المدح والثناء للدولة الفرنسية على هذا الضابط من قبل الإخوة المسيحيين.

ثم بدأ الموقف يميع من قبل الإخوة المسيحيين وظهرت علائم الشذوذ عن القانون واضحة حتى كاد الأمن الذي استتب على الدروز يفقد وينهار عند المسيحيين، عندها مال مع الدروز ضد المسيحيين بشذوذهم

أيضاً، وبدأ بالإصلاح الاجتماعي إلى أن طوّعهم جميعاً للقانون وردعهم وهيمن بالنظام وسلطته على الجميع، حتى إنه ضرب الخوري الشاذ بذنب كبير اقترفه على رجليه في الكنيسة مكان ضربه الضابط السابق "الذي كان مديراً للناحية قبله".

لقد ضربه بناءً على عمل صدر منه ولا يستطيع أحد أن يدافع عنه، إذ عاقبه بجرم مشهود.

وبذلك تواردت تقارير المدح والثناء على هذا الضابط إلى الدولة الفرنسية من قِبَل الدروز، فنال السيطرة على الطرفين، وحيث إن المسيحيين لم يستطيعوا مناقضة أنفسهم ليبعثوا بتقارير معاكسة.

بهذه النتائج العظيمة وأمثالها فرض هيبة السلطة على الجميع وخضعوا كلهم لهيمنة القانون والنظام بإمرته وعادت الناس لأعمالها ولحقولها وبلغ الإنتاج ذروته والمحاصيل غطّت الأسواق حتى غمرت أسواق العاصمة دمشق بعد الفوضى والإفلاس.

عندها قام بنقل قسم الأمن من البناء القديم المتداعي إلى بناء حديث كان أحد قصور الإقطاعيين الطغاة والذي ضبطه وهو يستولي على أراضي الفلاحين المستضعفين بالإجبار، واستحلَّه بالقوة العسكرية مما بثَّ الهيبة للقانون في نفوس الناس جميعاً.

دُهشت الحكومة الفرنسية كيف استطاع هذا الضابط أن يقيم النظام ويضبط الأمور بهذا الشكل الرائع، والدهشة الأعظم عندما أرسلوا أحد كبار قادتهم ليطَّلع على الأمور ومجرياتها... فبعد أن استقبله هذا الضابط الناجح وجد أن الأوضاع تغيَّرت جذرياً. فالقسم قد تغير بمكانه وأوضاعه ونظامه إلى قسم ممتاز يملأ العيون ويُدخل الهيبة في النفوس، فسأل القائد الفرنسي: كيف تمَّ ذلك!. حقّاً لقد أنجزت معجزة كبرى!.

قال السيد محمد أمين: أتحب أن أُطبِّق منع التجول بهذه الناحية...

كيف ستمنعه؟.!. هل يمكن لهذه المنطقة المضربة أمنياً الخضوع؟.

وكان القائد الفرنسي الكبير عندما عبر الأسواق وجدها تعجُّ بالناس والعربات والخيول والدواب، والحوانيت مترعة بالبضائع والبيع والشراء، والضجيج يملأ الآفاق.

عندها أمر رجل أمنٍ واحد لديه بإعلان منع التجول، فأخذ هذا الشرطي طبلاً وضرب عليه بأسواق البلدة. وبعد مضي /١٠/ دقائق فقط احتسيا فيها القهوة طلب ضابطنا السيد محمد أمين من القائد التجوُّل، فرأيا أن الحركة في الأسواق المليئة بالنشاط والضجيج قد توقفت تماماً، وأُغلقت النوافذ وكأن البلدة خاوية على عروشها، ثم اصطحب القائد الفرنسي الكبير بجولة في السوق الرئيسي للبلدة. فوجد أن الهدوء يُخيِّم عليه والشوارع خاوية من الناس وكأنهم يسيرون بين القبور. والغريب أن هذه البلدة كانت تُؤم من قبل كافة القرى المجاورة. وبعد التجوال وبأمر واحد من هذا الضابط تمَّ رفع حظر التجول بقرع الطبل أيضاً فخرج الناس كأنهم الجراد المنتشر، وعاد الضجيج والحركة الصاخبة كما كانت، والبيع والشراء على أشدِّه.

ذُهل القائد الفرنسي واستغرب كيف استطاع هذا الضابط السيطرة على أفراد الدرك (الشرطة) وعلى البلدة العاصية والقرى المحيطة بها، وقد أعجزت هذه المناطق الدولة الفرنسية.

* * *

نعم إن هذا العمل عجزت عنه الدولة للتناقضات الطائفية المتضاربة.

لقد خابت مساعي الدولة الفرنسية وخططها، إذ كان إرساله لهذه المناطق لأهداف مرسومة لظنهم بازدواجيته دون دليل ظاهر، فأرسلوه لهذه المنطقة المضطربة لكي يفشل بهذه المهمّة، وبالتالي يتم تسريحه أو طرده بحجة قانونية منطقية ليتخلّصوا منه بعد إذلاله.

"وحاشى لله أن يذل عبداً أميناً رحيماً مستقيماً"، كانوا يودُّون أن يُقتل على أيدي أهل هذه المنطقة، وبذلك يتخلّص منه الفرنسيون.

ولقد أرادوا الخلاص منه بأي طريقة قانونية وغابت عنهم حقيقة هذا الملقب قبلهم عند ضباط الأتراك ومسؤوليهم الكبار بـ "أصلان" أي: الأسد...

هذا الذي لم يخشَ من أحد إلاَّ من الفرد الواحد الصمد.





اتفق السيد محمد أمين مع الثوّار السوريين على أن يقوموا بانقلاب عسكري على العدو الظالم بعد أن قاسوا ما قاسوا من هذا العدو الكافر من فساد وظلم وقسوة فطلبوا منه أن يؤمِّن لهم الانقلاب، وفي حال فشله أو انكشاف الخطة تعهدوا بتأمين طائرة تنقله إلى العراق.

بدأ السيد محمد أمين باستمالة أصدقائه المخلصين من الضباط الأحرار فتمَّ له ما أراد، ليس ذلك فحسب بل عاهدوه على الشهادة أو النصر، ثم اتَّبع أسلوب إرسال الرسائل للضباط الكبار من السوريين والمغاربة. فكان يدخل للمقاهي الخاصة بارتياد كبار الضباط ويجلس على كرسي مقابل الضابط الذي يبعث له برسالة بريدية وبدون أن يشعره بمراقبته له ينظر إلى ملامح وجهه أثناء قراءة الرسالة، فإن رآه قد انسرَّ وبدت الدهشة على وجهه وعلائم القبول يقوم من مكانه ويجلس مع الضابط الكبير ويبدأ معه الحديث حول الخطَّة الانقلابية على هؤلاء الظلاّم الكفرة ويبيِّن له خطَّة العمل.

أما إذا شاهد أن الضابط وأثناء قراءته للرسالة اغتاظ وظهرت على ملامح وجهه دلائل السخط والغضب فكان السيد محمد أمين يترك المقهى وينسحب بهدوء.

وبهذا الأسلوب استطاع أن يؤمِّن العدد المطلوب من الضباط بعد فترة، حتى بلغ عدد الضباط القادة الكبار /١٥/ ضابطاً عدا أصدقائه.

* * *

وفي تلك الفترة كان قائد الفرقة المغربية مشهوراً بتبعيَّته التامة للفرنسيين معروفاً بقسوته البالغة وبطشه بالمواطنين.

وفي يوم من الأيام بينما كان السيد محمد أمين في داره طرق الباب ففتحه وفوجئ بالقائد العسكري المغربي يقول: كشفناك، أتفكِّر بأنك غير مكشوف.

فعرف ضابطنا أن الخطة قد كُشفت وجاء البلاء الأعظم.

دخل القائد المغربي الدار وبرفقته أربعة مسلَّحين وباقي القوة العسكرية حول الدار وطلب من ضابط الانقلاب السيد محمد أمين الاستسلام وأعلن إلقاء القبض عليه، فطلب ضابطنا التريث حتى يلبس بزَّته العسكرية وقال له:

أتأخذني بثياب النوم "بالبيجاما"؟.

وأثناء ارتدائه ثيابه العسكرية كان يفكِّر بحل يُخرجه من هذا المأزق، لقد دارت دواليب فكره بسرعة رهيبة بحثاً عن طريقة للنجاة فهداه الله إلى خطة فذَّة أثناء ارتدائه الحذاء العسكري "الجزمة" فقال للقائد المغربي:

قلت للثوَّار أنك خائن وستأخذ الثلاثين ألف ليرة ذهبية، ثم ترتد علينا والحمد لله أننا لم نعطك الذهب لتكون مُعيناً لنا بالانقلاب ولم نغترَّ بك، كما لم نضيِّع الذهب.

وما أن لفظ هذه العبارة "ثلاثين ألف ليرة ذهبية" على مسامع القائد المغربي حتى سال لعاب القائد الخبيث وتغيَّرت ملامح وجهه وتبدَّل حديثه من الجفاء إلى المودَّة، ومن العبوس إلى الابتسام، عندها أمر المسلَّحين الأربعة بالانضمام إلى القوة خارج الدار ثم قال للضابط الأمين:

أصدَّقت أنني جئت لأُلقي القبض عليك، لا أبداً، بل لآخذك لمكتبي ونتعاون على الانقلاب ضد الكفرة إن كان ممكناً، ولكن متى قبضنا الذهب نتمكَّن، فمتى سيكون موعد قبض الثلاثين ألف ليرة ذهبية من أجل أن نستخدمها في تيسير السُبل وتكون دعماً مادياً يُساهم في إنجاح الانقلاب؟.

فأجابه السيد محمد أمين "وقد علم أن إغراء الذهب أسال لعابه وأنه خائن يريد قبض الذهب لنفسه والتقرُّب لدى الفرنسيين بكشف الانقلاب، حقّاً لقد كان هذا القائد يميل للفرنسيين ميلاً عظيماً".

أوَ يمكن لمثلك أن يتخلّى عن الفرنسيين ويتعاون معنا!. لا أصدِّق.

فما كان جواب القائد المغربي الخبيث إلا أن قال: بشرفي العسكري إني مخلص لكم ولن أخونكم، بل سأكون معكم حتى النصر.

"أصلان" يا عزيزي إني مسلم ودم الإسلام يغلي في عروقي وكنت مضطراً لمسايرتهم وأترقب الفرص للانقلاب عليهم مثلك، وها قد آن الأوان وجاء الفرج فما عليك يا عزيزي إلا أن تؤمِّن لي الذهب لننجز الانقلاب، وها أنا أقدِّم يدي لتصافح يدك ولنكمل الطريق بسرعة، وأمِّن لي الذهب بسرعة لنتخلص من هؤلاء الكلاب.

ومدَّ يده للمصافحة فتقبلها ضابطنا بتردُّد قائلاً: أخشى أن تخوننا.

فأجابه القائد المغربي بخبث: حاشا وكلا.

ضابطنا: إن كنت لن تخوننا فسأحضر الذهب لك بعد أسبوع.

فوافق القائد الخبيث المكَّار وخرج من الدار وأمر القوّة بالمسير وانصرفوا وزالت الغمَّة والبلاء مؤقتاً.

* * *

وهنا بدأ الضابط يفكِّر بالحل والعمل قبل أن يأتي موعد تسليم الثلاثين ألف فيلقي عليه القبض ويكون مصيره الإعدام رمياً بالرصاص.

ذهب إلى الثوَّار يخبرهم بما حدث لكي يُسفِّروه بالطائرة التي وعدوه بأنها مهيئة بحال كشف الانقلاب لتنقله إلى خارج البلد، حيث إن أمره قد كَشَفه الخائن: لكنه فوجئ بأن الثوَّار كذَّابون ولم يؤمِّنوا الطائرة ولم يحسبوا له حساباً، بل يبغون الرئاسة فحسْبْ على حساب تضحياته وحياته، هنالك ثار غضبه فقال لهم مهدِّداً متوعداً:

والله... والله إني لن أصل إلى المشنقة إلاَّ وأجرَّكم معي جميعاً.

وتركهم يرتجفون رعباً ورجع إلى بيته وأخرج أمّه وزوجه وذهب بهم إلى مكان أمين، وبما أن الأمر جدُّ خطير وقد ينكشف الانقلاب بأية لحظة، لذا لجأ إلى التنكُّر بزي النساء تخفياً ودرءاً لخطر الإعدام المتوقَّع رمياً

بالرصاص وذهب إلى دار أحد أصدقائه المخلصين وقصَّ عليه ما جرى له وأنه أصبح ملاحقاً وبحكم المطلوب للإعدام، فأجابه صديقه:

على الرحب والسعة: هذه الدار واسعة وهي قسمين علوي وأرضي "وهكذا كانت الدور الدمشقية علوي للشتاء وأرضي للصيف". فخذ القسم العلوي واسكن به ريثما تنحل الأمور وتستطيع مغادرة القطر ونحن يكفينا الدور السفلي.

نام تلك الليلة وعند الصباح ذهب صديقه صاحب الدار إلى عمله وبقيت زوجته فقط في القسم السفلي غادية رائحة تقوم بعملها المنزلي المعتاد والضابط في القسم العلوي، لقد كَبُرَ عليه الأمر وأبت نفسه الطاهرة العفيفة البقاء وأنثى في دار واحدة، وفكَّر في نفسه كيف أسكن في دار لا يوجد فيها إلا الحريم!.

أبى البقاء وغادر الدار متنكِّراً بلباس النساء إلى مخبأ آخر يتوارى فيه عن الأنظار.

ويوم الجمعة ذهب إلى الجامع الذي يلقي فيه شيخه أمين كفتارو دروسه، وصعد السدَّة وجلس في داخل غرفة الخلوة يستمع إلى درس شيخه، وإذا به يسمع الشيخ يقول:

"لماذا هذا التخفي اخرج والله متولي الأمور، الله هو الفعّال، القضية انتهت فلِمَ الخوف، اخرج ولا تخف".

فما أن سمع هذه الكلمات حتى خلع ثياب النساء التنكرية ونزل إلى المجلس جهرة وجلس يسمع درس شيخه وقد كشف حاله للناس جميعاً، وبعد انتهاء الدرس ذهب إلى أمه وزوجه وأخذهما إلى البيت، لكن أمه سألته:

ما الذي حدث حتى عدت بنا إلى البيت؟.

فأجابها: لقد قال شيخي: بأن الله متولي الأمور... والمسألة انتهت.

قالت له: أوَ على هذا الأساس أعدتنا إلى البيت؟. يا بني، الله يرضى عليك هذا لا يكون ولا يجوز.

قال لها: لا تخافي شيخي قال ذلك.

فسكتت أمّه على مضض وظلُّوا على هذا الحال حتى جاء الموعد، أي يوم الاثنين موعد تسليم الثلاثين ألفاً.

* * *

وبينما كان الضابط الأمين جالساً في داره ضُحى فإذا به يسمع ضجة وصياحاً وقرْع حوافر خيل كثيرة، فعرف أن الموعد قد حان وأن البلاء الأعظم قد أتى، وإن لم يستلم القائد الخائن المبلغ فلا بد أن يقبض عليه ويسوقه إلى الإعدام مباشرةً.

فما كان منه إلاَّ أن تسلَّق شجرة بالدار ليفرّ هارباً عن طريق دار جيرانه، فلما استقرَّ على الجدار الفاصل بينهما تذكَّر أمّه وزوجته وكيف أن هؤلاء المجرمين قد اعتادوا إذا هرب من يبغون إلقاء القبض عليه يقومون بأعمال انتقامية من سلب ونهب وقد يعتدون على الأعراض، فغاض الدم من رأسه وعصفت بقلبه عاصفة غضب ثوري عنيف وغيرة محمدية فألقى بنفسه ثانية من على الشجرة عائداً القهقرى مصمِّماً على القتال حتى الشهادة دفاعاً عن شرفه وعرضه. فلقَّم مسدسه واندفع نحو الباب قافزاً من فوق رأس والدته التي كانت جالسة بصحن الدار تنقِّي صحن العدس من البحص الصغير فسمع عويلها وشتائمها التي أخذت تكيلها لشيخه الذي أودى بحياة ابنها بتنبؤاته الكاذبة وتلعنه بكل نعوت اللعن.

أما هو فقد انطلق إلى الطريق شاهراً مسدسه مستعداً للإطلاق ليَقتُل فيُقتل، وإذا بجاره يناديه:

"أبو فتحي" مالك ومالهم، لا تتدخل، هؤلاء المغاربة قائدهم قُتل...

فلم تحمله قدماه لروعة ما سمع فسقط على ركبتيه فرحاً بالنجاة.

تذكَّر ضابطنا الثائر للحق بأن سرَّه لا يعلمه إلاَّ القائد المغربي الذي كان يبغي العزَّة لنفسه عند الفرنسيين بكشفه الانقلاب بعد قبضه /٣٠/ ألف ليرة ذهبية، والآن قُتل القائد فأصبح سرُّه دفيناً، فشكر الله وحمده على تخليصه من هذا المأزق الحرج.

* * *

بعد فترة من الزمن اجتمع بشيخه (الشيخ أمين كفتارو) وذكر له الكلام الذي سمعه منه عندما كان متخفياً، فأجابه الشيخ:

يا بني والله لا علم لي بذلك وما سمعته مني فالله أنطقني به وأنا لا أعلم أني نطقت بتلك الكلمات ولا أذكر أني فهت بها، بل لا أعلم شيئاً عن الانقلاب.

ومنذ تلك الفترة بدأت والدته تدفع صدقة أسبوعية ضخمة للفقراء والمساكين على يد ذلك الشيخ الصادق، إذ قدَّرته ونظرت إليه بسبب تحقُّق قوله بعين الإكبار والإعجاب فأيقنت أنه يستقي من منبع الحق فسلكت مع أهل الحق، فكانت بسبب هذه الحادثة الرهيبة مع الصدّيقين وأهل اليقين وبلغت مراتب عالية بالإخلاص والصدق ونالت النجاة والنجاح والفلاح.

اللهم اجعلنا مفاتيح للخير مغاليق للشر







قائد فرقة من الجند يثق كثيراً بقائده الأعلى الموجّه له لما شاهد منه من الحكمة والذكاء... من الشجاعة والدهاء... من التخطيط العبقري العسكري السليم... ونتائج توجيهاته الباهرة النجاح، فتراه عندما يدخل معركة بفرقة الجنود يبقى على اتصال دائم بالقائد الأعلى... وخصوصاً في خِضمِّ المعركة وعندما يشتد الوضع الحربي تأزُّماً وتصاعداً وتضيق به وبفرقته مجالات التحرُّك والمناورة ويشعر بالخطر الحقيقي وقد هيمن على الفرقة ساريا... فلا يجد نفسه إلاَّ وقد أمسك بجهاز الهاتف الميداني واتصل بقائده الحكيم الرحيم يخبره بالواقع العسكري الأليم... طالباً رأيه الثاقب الحكيم لينفذه فوراً...

وبهذا الاتصال يوجِّهه قائده لخطة فينفذها مباشرة ويكون النجاح والنصر المبين وتنقلب الكفة تماماً من خسارة مدمِّرة لنصر ساحق... كل ذلك بفضل هذا الاتصال الذي أجراه مع قائده الأعلى... تماماً كما اتَّصل القائد العربي بعد عجزه عن فتح "بخارى" الحصينة بقائده الأعلى الحجَّاج بن يوسف الثقفي فأرسل له خريطة الفتوح وفتحها مباشرة.

فإن اتصل الإنسان بربّه حقّاً صارت له الصلاة الحقيقية بالله (تلك التي يطلبها الله من كل عباده ومن أجلهم)، تذوَّق وشاهد المصلي فيها طرفاً من أسماء الله الحسنى، طرفاً من الرحمة... الحنان... اللطف العدل... الإحسان... الجمال... عندها يذوق حقيقةً محبته تعالى لأن النفوس مفطورة على حب الكمال،

وبذا تتولد بقلب هذا المصلي حياةٌ حقيقية من الله، إذ يسقيه الله بهذه الصلة ماءَ الحياة الحقيقي الذي ينفتن فيه عما سواه وبذا تنهاه صلاته هذه عن الفحشاء والمنكر.

قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً ، لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً﴾[1].

وبهذه الصلاة ينصب في قلبه نور يفرّق به بين الخير والشر... وبين الحق والباطل.

فما دام واصلاً نفسه بالله متَّجهاً إليه اتجاهاً صادقاً يصلِّي الصلاة التي لا يرى فيها مع ربِّه سواه دام له هذا النور الإلَهي يضيء للنفس طريق الحق ويُريها الخير من الشر، كما قال تعالى:

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ . . ﴾[2].

والمؤمن الصادق يستهدي ربه في سائر شؤونه ويستلهمه الرشد والصواب في كل أمر من أموره... وفي الحديث القدسي الشريف: «**لا يزال عبدي يتقرَّب إلي بالنوافل حتى أحبَّه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به..**».

ومن كان كلام الله دليله في كل أمر من أموره فسيره كله في أمان واطمئنان ومن كان نور خالقه سراجه وضياءه فحياته كلها سعادة وسلام.

ومعظم خططه الحربية ﷺ وصحابته الكرام من بعده يجنيها في صلاته يريها الله له وبتطبيقها يكون النجاح الباهر بأقل عدد من الضحايا من الطرفين، إذ هو ﷺ رسول الرحمة بالعالمين.

وأمامنا قصة تبيِّن لنا مصداق هذا الكلام لعالمنا الرحيم والعلماء ورثة الأنبياء... وقعت بإحدى قرى الشام.

* * *

كانت براكين الثورة السورية الكبرى قد اجتاحت كل قطر في سوريا كالسيل العارم الطاغي، إذ لم تبقَ مدينة ولا قرية إلا وانضمت لنصرة الثورة السورية فالصراع دائر في كل مكان وقد زاد الطين بلَّةْ أنها وصلت

---

[1] سورة الجن: الآية (١٦-١٧).

[2] سورة الحديد: الآية (٢٨).

أنباء للحكومة الفرنسية عن طريق عيونها بأن هناك بلدة سورية تشكِّل عبئاً كبيراً أيضاً على فرنسا في سوريا... وأنها مقرٌّ خطير وملجأ كبير للثوَّار... تموِّهم فتساعدهم ليستطيعوا تنفيذ أعمالهم الثورية في ضرب المصالح الفرنسية في سوريا... عدا عن كل ذلك فمعظم شبابها ينضم لصفوف الثوَّار... إذن: إنهم قلباً وقالباً مع الثوَّار...

ازدادت حدة الأخبار تصاعداً... وازداد معها غضب الحكومة الفرنسية إلى أن بلغ السيلُ الزبى، فقرَّر المندوب السامي بعد أن أجَّجت الأخبار المنقولة فيه نار الحقد والغضب... وقرر بقسوته المعهودة حيال الظروف القاسية التي تواجهه مكشِّراً عن أنيابه الوحشية المفترسة مقابل أن يريح باله من هذه البلدة وما تزعم عيونه فيها من أنها مصدر للشغب والحركات الثورية التي تعكِّر صفو فرنسا وأمنها... عفواً أمن ظلمها واستغلالها في سوريا قائلاً بصوت يخرج من أعماق الظلمات:

اضربوا هذه البلدة... دمِّروها...

جهزوا فرقة من الجيش بالمعدات الثقيلة واضربوها بقسوة... لا ترحموها فالحرب لا ترحم... نكِّلوا بأهلها... ليمت حتى الأبرياء... ليُحرق الأطفال... لتقتل الشيوخ والنساء... فكلهم أعداء لنا... لا يهم ليقتل من يُقتل، بل المهم القضاء على هذه الفتنة الملعونة.

وصل الخبر المحزن لأهالي البلدة وزعمائها الثوَّار عن طريق بعض المخلصين للوطن والمتمثلين صورةً بموالاتهم لفرنسا ضمن صفوفها..

وقع الخبر على مسامعهم كالصاعقة القوية فاهتزت له قلوبهم هلعاً وباتوا مذهولين حيارى وكأنهم وبوقوع النبأ على مسامعهم يرون تنفيذه العملي أمام أعينهم ؛ كيف تُحرق البيوت... يتشرَّد الأبرياء... يُقتل الأطفال... تُذبَّح النساء والشيوخ... نعم لقد سبق ودمِّرت قرية "المليحة" قرب دمشق عن بكرة أبيها.

ثار البعض منهم مزمجراً إثر هذا النبأ، تتفجر بقلبه براكين وبراكين من الغضب وتهزه هزات الألم الثوري... لكن الآخرين منهم وقفوا حيارى فلقد أدركوا تماماً أنهم أمام هذا الإعداد والتجهيز العسكري الذي سيُشن عليهم عاجزين عن أيِّ ردٍّ ولو ردُّوا فلن يكون لردهم أدنى اعتبار أمام القوات الفرنسية ومعداتها الثقيلة، بل ستثور ثائرتهم وتزداد قوة بطشتهم وتنكيلهم بأهالي البلدة الأبرياء ومصالحهم الزراعية... فماذا ستشكل بلدة صغيرة أمام دولة من الدول العظمى؟!.

ولكن ما الحل... ما العمل؟. فلو أن الأمر فقط أمرنا لما باليْنا ولواجهنا، ولتكن الشهادة نصيبنا، لكن الأمر أمرُ شيوخٍ ونساء... أمر أولاد وأطفال أبرياء، لا نريد لقساة القلوب أن يكتبوا مصير أبريائنا بيدهم... رباه... رحماك... رحماك يا الله.

صمت الجميع يحبسون دموع الألم والحزن وكأن المجزرة تقع أمامهم الآن... ساد البلدة صمت حزين... سكون حائرٌ... فرفعوا أكفَّ الضراعة لله متوسلين بقلوبهم راجين أن يرفع عنهم هذه المجزرة... رحماك يا الله ففينا شيوخ ركَّع... رحماك ففينا صغارٌ رضع... وأطفالٌ رتَّع...

قطع هذا الصمت المشحون بالتوسُّل والدعاء القلبي الخفي صوت أحدهم المتأوِّه الحزين قائلاً:

تعرفون الضابط السيد محمد أمين... ذلك الضابط السوري الثائر... أما سمعتم ورأيتم أطواراً من إخلاصه وتضحياته لشعبه ووطنه وتعاونه الخفي مع الثوَّار ضد فرنسا الظالمة... وما من أحد إلا وسمع كيف سلَّم أسلحة قلعة عنجر كاملة لنا... للثوَّار خفية وأنجاه الله وسلَّمه من كيد فرنسا بمعجزة... وكذا أوقَفَ مسير عدّة حملات لبلاد عدة بتدبيره وتخطيطه الذكي... فلمَ لا نلجأ له... عسى أن يخلِّصنا من هذا المأزق... ويرفع عنا هذه المجزرة الوحشية...

ردَّ آخرون: وماذا يستطيع أن يفعل بمثل هذا الموقف وما إمكانياته بمفرده تجاه فرنسا مهما دبَّر وخطَّط علماً أنه لا يمكن له الظهور بهذا الوجه الحقيقي أمامهم والمواجهة وجهاً لوجه، نظن أن الأمر عقيم...

ردَّ الأول: ولكن عسى الله أن يجعل الفرج على يديه... فلماذا لا نجرِّب والله يتولى الأمور فإن لم نستفد من إمكانياته الرائعة فلن يضرنا الأمر أكثر مما نحن فيه.

وافق الجميع وبعثوا بأحدهم وعلى وجه السرعة ليخبر الضابط الثوري السوري السيد محمد أمين.

* * *

وصل الرسول لمنزل السيد محمد أمين مساءً فطرق الباب واستقبله ضابطنا وبكلماته التي تبعث في القلوب الظمأى روحاً وريحاناً فتطفئ لظى اليأس والقنوط، سمع قصته وكبير معاناة زعماء البلدة وثوَّارها من هذا الخطر الجسيم الذي اقترب موعده...

نظر السيد محمد أمين بواقع الأمر فأدرك تماماً حقيقته المرَّة وأحسَّ بما يعانيه قادة البلدة وثوَّارها من كابوس هذا الخبر القاسي المرير وما سيؤول إليه حال البلدة وأهاليها إن حدث (لا سمح الله) هذا الاجتياح

العسكري لها بحجة ضرب مواقع الثوّار الإرهابيين في البلدة (على حد زعمهم) فهم سيحرقون الأخضر واليابس... سيهدرون الكثير الكثير من دماء الأبرياء... ولكن ما العمل جراء هذا القرار النهائي الذي اتَّخذته الحكومة الفرنسية القاسية.. فكَّر قليلاً بالأمر... وعانى مرارة الخبر هذا... فمواجهة الثوَّار لا تجدي وإن حدثت فسيكون هناك أضعافٌ مضاعفة من الضحايا والتدمير عمَّا لو اتَّبع أسلوباً ثانٍ.

التجأ إلى الله حقَّ الالتجاء... فلقد كان وقْع الخبر عليه ثقيلاً مُرّاً، إذ يعلم تماماً ما ستقوم به فرنسا باتِّخاذ هذا القرار...

التجأ إلى الله طالباً: كيف النجاة!. وما هي إلا لحظات صمت... حقيقتها توسلٌ كبير وتضرعٌ عظيم لله إلا والخطة تطرق باله... فلقد برقت في مخيِّلته... وبها إن شاء الله الخلاص...

نظر نظرة يملؤها الأمل والثقة بالله وقد طفح البِشْرُ بوجهه والتفاؤل... بأنَّ الله سيردُّ أولئك القساة المعتدين ولن ينالوا من هذه البلدة... قال:

اسمع أيها الرجل... من فورك اذهب لأصحابك وأخبرهم بأن الضابط محمد أمين يبلِّغكم السلام ويقول لكم بأن تبحثوا عن رسَّام ماهر في البلدة فإن لم يوجد فعندنا رسَّام رائع ليرسم أفضل صورة وأتقنها وبحجم ضخم، تمثِّل القدس الشريف وليتعاون الجميع ويثبتوها بمدخل البلدة وعلى جدار البيت الأول المكشوف للقادمين لهذه البلدة... وبشكل جميل... وبإذن الله المشكلة محلولة.

ردَّ الرجل: فقط يا سيدي وستنحل المشكلة... كيف؟.

قال السيد محمد أمين: كما قلت لك... وأسرعوا بالتنفيذ ولا تتوانوا...

اطلبوا من الرسَّام أن ينفِّذ ذلك بأبدع ما لديه من مهارة وأسرع ما عنده والله يتولى الأمور.

عاد الرجل مسرعاً يزفُّ الرسالة للقادة والزعماء...

لقد فهموا مراد السيد محمد أمين... فأسرعوا بتنفيذ الوصية.

* * *

وما هي إلاَّ فترةٌ حتى كانت اللوحة الفنية الكبيرة الرائعة تستقبل داخلي البلدة على جدار أول بيت تغطيه بكامله عند مدخلها صورةٌ تمثِّل القدس الشريف تُرى وتشاهد من مسافات بعيدة بسبب ضخامة حجمها الكبيرة.

حان موعد انطلاق التجهيز العسكري لضرب البلدة...

انطلقت الحملة بضباطها ومعداتها الثقيلة وعُدَدها يرأسها أحد القوَّاد الفرنسيين... وقد كشَّر عن حقيقته الوحشية وكله إصرار على ضرب البلدة بمن فيها بحجَّة ضرب الثوَّار الإرهابيين في مخابئهم وملاجئهم ومواقعهم.

وما أن شارف على البلدة عن بعد حتى لَمَحَ الصورة... كان ينظر بمنظاره الحربي الميداني ليُصدر أوامره للمدفعية الثقيلة والدبابات بقصف القرية حينما استدعى معاونيه الضباط وطلب منهم تحويل مناظيرهم الميدانية الحربية لمدخل البلدة وسألهم ألا تشاهدون ما أُشاهد؟. قالوا: بلى.. أهل القرية حتماً منَّا.

إذاً هذه البلدة مسيحية... معظم أهاليها ينتمون لنا فَلِمَ ندمِّرهم... إنهم من أبناء ديننا... ومستحيل أن يصدر منهم ما سمعنا من أخبار...

إن هي إلا أخبار مغلوطة أو كاذبة ويجب القصاص ممَّن نقلها.

انطفأت نار ثورة غضبهم وأحسَّ القائد ببرودة أعصابه... فعليه الانسحاب وعدم قصف البلدة مطلقاً.

هنالك مباشرة اتصل بقائده في السرايا مركز الحكومة بالقائد العام للجيش الفرنسي ينبئه بالأمر... فما كان جوابه إلا أن قال:

هكذا... إذاً بلدة مسيحية!!. ولا بد أن ما وصلنا من أخبار مُخبِرينا خاطئة حتماً... إذاً تراجعوا... ولا تدخلوها، بل دعوها بسلام...

قائد الحملة: حاضر سيدي... فهذا أيضاً من رأيي... حالاً سننسحب.

وبسرعة أصدر أوامره للفرقة العسكرية بالانسحاب... فتراجعوا بمعداتهم الثقيلة المرعبة إلى موقع عسكري لصد هجمات الثوَّار...

وبذلك نجت البلدة من خطرٍ جسيم كان سيُلمُّ بها فيدمِّرها...

لقد عاد الأمن والأمان والاطمئنان للأهالي... وخلصوا من هذا الكابوس المرعب المخيف... خلصوا من جرائم وحرائق كانت ستحيل عيش من يبقى منهم على قيد الحياة مرّاً قاسياً والكثير سترديهم... فلقد استجاب الله لهم وأنجاهم من هذه الجرائم والأخطار... من هذه الحرائق والآلام... من الدماء التي ستهدر وتراق من المحاصيل التي ستحرق وتذروها الرياح... من البيوت التي ستخرُّ على رؤوس أهاليها فتغدوا قبوراً لهم... مجزرة كبيرة وأزالها الله بما ألهم عبده الصادق من خطة مهيبة... بما ألهم ذلك الإنسان الثائر الفدائي الصاعق على الباطل دائماً وأبداً والمناصر للحق... لشعبه... لوطنه الحبيب...

فهذا إنساننا الحكيم قد استغل حكمته البالغة هذه لنصرة الحق وأهله ضد الظلم والفساد... ضد تخريب قلوب العباد مخفياً حقيقته هذه عن أنظار فرنسا متوكلاً على الله في عملياته ودعمه للثوَّار ضد فرنسا.

نعم شكَّت فرنسا بازدواجيته ولكن لا برهان ولا دليل وحاولوا مراراً التخلُّص منه ولكن أبى الله إلا أن يحقِّق مبتغاه في الخير ونصرة الحق وكانت عنايته تعالى الرحيمة تتدخل في كل مأزق عسير فتنجيه من الموت المحتم... تنجيه من كيد فرنسا بأعجوبة... فالفعال هو الله وحاشا أن يُذل عبداً مخلصاً له... صادقاً معه.

فبنور الله وبما في قلبه من فرقان... من بصيرةٍ ثاقبة استطاع أن يدلي لأهالي البلدة بالخطة التي ضمنت سلامتهم... فكم وفَّر شلالات دماءٍ وآلامٍ وحسرات... حرائق ودمار.

ألا إنها ثمرة الصلاة الحقيقية... ثمرة الحب الإلهي والإيمان العالي:

الرأي قبل شجاعة الشجعان   هو أول وهي المحل الثاني





﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا . . ﴾[1]

لقد جرت العادة في الشام بأن يكون لكل حي من أحيائها زعيم يترأس الحي بالقول والمشورة والرأي في أي أمر كان كبيراً أو صغيراً، يتصف بصفات الشجاعة والكرم إلى غير ذلك من الصفات المحببة لدى الناس.

وجرت العادة أن يلتقي التجار والزعماء والوجهاء في القهوة لتبادل الآراء والمشورات أو للمسامرات.

وذات يوم كان زعيم حي الصالحية وزعيم حيِّ الشيخ محي الدين في إحدى المقاهي التي كانوا يرتادونها دائماً وكانوا على علاقة طيّبة وجيدة مع بعضهم البعض وكان لكل زعيم مرافقته الخاصة من الرجال تكون معه دائماً أينما حلَّ وارتحل.

وشاءت الأقدار والظروف بأن ينشب خلاف بينهما وهما في المقهى وزادت حدة الخلاف إلى التهديد والوعيد، كان كلٌّ زعيم منهما تحت إمرته أكثر من /١٥٠٠/ شاب وقد أشعل الشيطان بينهما فتيل الخلاف ونفخ في رأسيهما كبراً وإصراراً فلم يتنازل أحدهما للآخر وقد انتقل الخلاف والخصام من الكلام

---

[1] سورة الحجرات: الآية (٩).

إلى الاشتباك بالأيدي وشمّر كل واحد منهما عن ساعديه، لقد كانوا من عداد الرجال المشهورين بالقوّة والصلابة، أما مرافقة كل واحد منهما فليس لها أن تتدخل بين الرجلين لأن الأمر موكول إلى الزعيمين.

وأخيراً وبعد فترة من العراك والضرب استطاع أحدهما أن يطعن الآخر بخنجره طعنة قوية ألقته أرضاً دون حراك والدماء تتدفق منه، وما أن شاهد الضارب خصمه قد سقط والدم يسيل منه حتى فرَّ هارباً مع مرافقته قبل الانقضاض عليه ومهاجمته والثأر للزعيم المطعون.

وبسرعة تمَّ إسعاف الزعيم المطعون إلى المشفى من أجل إنقاذ حياته.

* * *

شاعت الأخبار وعمَّ في الشام ما حصل بين الزعيمين وأنَّ أحدهما مشرف على الموت فبدت علائم الخوف والرعب تظهر جليةً على وجوه الناس توقعاً لما سيحل وما ستؤول إليه نتائج ذلك من عواقب وخيمة لا تُحمد عقباها...

ولكن لم يقابل الناس ذلك النبأ بأي رد فعل لحل الخلاف سوى الكلام الفارغ الذي لا يحل أي عسير، بل تكهرب الجو وبدأ الحيَّان الاستعداد بنشاط فتزودوا بالعتاد وجهَّزوا السلاح للاصطدام القادم الرهيب.

وما أن بلغ النبأ مسامع السيد محمد أمين حتى أسرع كالبرق الخاطف إلى المشفى كي يتدارك الأمور قبل وقوع الكارثة الكبيرة بين الحيّين حيث استنفرت جماعة الزعيم المطعون وهيأوا أنفسهم بالرجال والسلاح للانقضاض على الحي الآخر والثأر لزعيمهم، وهم الآن ينتظرون النتائج وما سيؤول إليه مصير زعيمهم.. وعلى كل الأحوال صمَّموا على القتال والثأر ورد الاعتبار لزعيمهم المطعون.

لازم إنساننا الزعيم المطعون ملازمة الظل وأخذ يرعاه ويحنو عليه بالليل والنهار كالأم الحنون... مقدِّماً له كل ما يحتاجه من خدمات... وبذل كل جهوده في المشفى ولفت أنظار كل الأطباء لهذا الزعيم فأحاطوه بالرعاية وقدَّموا ما يلزمه من علاج وقد شاهد ذلك معظم رجال الزعيم وأهله وقدَّروا له هذا المعروف والجميل.

كما أن الزعيم بعد أن عادت إليه صحوته شعر بذلك ولاحظ خدمة هذا الإنسان الكبيرة له فحفظ له هذا العمل واستمرَّ السيد محمد أمين على ملازمة الزعيم فلم يتركه أبداً.

وما هي إلاَّ أيام عديدة حتى بدت علائم الشفاء تظهر على الزعيم... وأعلن الأطباء أنَّ الخطر قد زال، وتمَّت الموافقة على تخريجه من المستشفى بعد أن خلَّفت الطعنة القاتلة على رقبته ندبة سترافقه مدى الحياة.

* * *

وفي يوم خروجه من المشفى لم يكن أحد يعرف ما يدور في خلد هذا الزعيم من تخطيطات وتدبيرات ليثأر لنفسه من خصمه... إلاَّ أن السيد محمد أمين عاجله وقطع عليه وساوس الشيطان وقال له: أنت ضيفي اليوم.

لقد فاجأه بذلك ولم يستطع أن يردَّ طلبه بعدما رأى منه ما رأى من كبير العناية وبالغ الحفاوة والإكرام والرعاية عندما كان في أشد الحاجة للرعاية والعناية، وكيف أنه وضع جاهه العريض في خدمته وكبير الاهتمام به.

فقَبِلَ الدعوة شاكراً ممتناً، ذهب معه إلى بيته، لكن ما زال الحيَّان يعيشان حالة استنفار كامل استعداداً للمواجهة المتوقعة بإشارة من زعيمهم.

أعدَّ له هذا الإنسان في بيته ما يليق به كزعيم حي وأكرمه وسامره وطيَّب خاطره ولاطفه حتى أنساه وجوده لما لاقى من بشاشة ولطف هذا الإنسان.

وفي هذه الأثناء أرسل السيد محمد أمين ابنه الأكبر فتحي لدعوة الزعيم الآخر إلى بيته دون أن يُعلمه بشيء على الإطلاق سوى: والدي يدعوك إلى البيت.

وفعلاً ذهب الغلام ودعا الزعيم المتواري عن الأنظار والمتلثم دوماً خوفاً على حياته من الموت والقتل، لقد بقي طوال هذه الفترة مستتراً لا يعرف أحد له مكان باستثناء إنساننا الرحيم.

وعندما أقبل الرجل الطاعن خصمه بالخنجر استقبله السيد محمد أمين بالحفاوة والتكريم وبعد أن لاطفه وآنسه وطمأنه انتقلا إلى الغرفة التي يوجد فيها خصمه.

وما أن دخل الغرفة حتى وجد نفسه وجهاً لوجه أمام غريمه، ولدهشة ولغرابة ما شاهد وقف شاخص البصر لا يصدِّق ما رأى، أهو باليقظة أم في المنام ولكنها الحقيقة وخصمه أمامه، إنها حقّاً مفاجأة كبرى لا تخطر على الأذهان ولا تدور في الأفكار.

وكما حصل مع هذا الزعيم كذلك حصل مع الزعيم الآخر فحدَّق الاثنان ببعضهما البعض كالصقور الجارحة بصمت رهيب، وكان السيد محمد أمين يرقب الاثنين عن كثب وعيناه ينابيع الرحمة تفيضان بالحنان والعطف.

وفي هذه الأثناء لا يدري الزعيم المطعون ماذا حصل به وجرى له على الإطلاق سوى أنه شعر بالصفاء والحلم والرحمة تدخل قلبه وقد انتُزِع من نفسه كل حقد وبغض وصفى قلبه ولا يعلم مصدر ذلك، فلم يجد إلا قلبه يهفو للصلح.

وفعلاً نهض على رجليه والتفت إلى السيد محمد أمين وقال له:

"أهكذا تريد يا بك"؟.

وفجأة فتح يديه إلى خصمه مُعلناً الصلح وأقبل باتجاهه بالابتسامة والسلام، فبادره الآخر مشدوهاً بالسلام وتصافحا وتعانقا، حقّاً لقد وقعت المعجزة، إذ عادت المياه إلى مجاريها بين الزعيمين[1] بفضل هذا الإنسان الكريم.

لقد زال ما بينهما من الحقد والجفاء وحلَّ الوداد والوئام وتقاربت القلوب حتى كأن شيئاً من الخصام لم يكن.

وبعد أن قام بواجب الضيافة وما يليق بهما من حفاوة وإكرام، كان لا بد من إكمال الصلح ومتابعة المشوار معهما ليشهد الناس ذلك.

وفعلاً خرج معهما ووقف بينهما ومشى الثلاثة وهم يتسامرون ويضحكون وقد شاهد الناس جميعاً هذا المشهد العجيب:

إنه المستحيل يتحقَّق!.

وأخذ الناس يتساءلون أيمكن هذا؟.

وهل هذا معقول؟.

إنه لأمر غريب وعجيب؟.

---

(1) الزعيمين: أحمد الرمال ومحي الدين مللي.

ولكن كيف تمَّ ذلك؟.

فالكل كان يتوقع بين الحين والآخر القتال والموت يجثم بكابوسه على الألوف المؤلفة من الضحايا المرتقبة، وإذ يحدث العكس تماماً!.

استمروا بالمسير حتى بيت الزعيم المطعون حيث دخلوا مضافته وكان أهله وجماعته بانتظاره بفارغ الصبر ليثأروا لزعيمهم وهم على استعداد دمويٍ تام، وإذا بخصمه برفقته!. وليس بينهما أي عداء والأمور على ما يرام فانصعق الناس وساد سكون عميق وصمت مطبق رهيب اجتاح النفوس الحيرى المذهولة، جلسوا فترة من الزمن وقد علم الجميع بأن الخلاف حقّاً قد زال على يد الإنسان الذي معهم وعادت الحياة إلى طبيعتها بعد استنفار كامل مشحون بالرعب طوال تلك الفترة.

ثمَّ صحبهما هذا الإنسان إلى الحي الآخر ليُكمل ما عزم عليه منذ البداية وهو حل الخلاف بسلام وإنهاء الأزمة الرهيبة التي كانت ستقع لولا تلطف الله بهما على يد المحسن السيد محمد أمين وبحكمته التي استطاع بها إنقاذ الطرفين من بلاء عظيم.

دخلوا المضافة "قاعة الضيافة" واجتمعوا بجماعته وشاهد الجميع المعجزة: معجزة انتهاء الأزمة وحلِّ الخلاف.

لقد زالت الغمامة السوداء والخطر العظيم الذي حلَّ بهم منذ المشاجرة والخصام وكانوا لا يدرون بأي وقت تلهب النيران... وفجأة وإذ بالسلام والطمأنينة وانتهاء الخصام وعودة الحياة إلى طبيعتها.

* * *

وهكذا أنهى السيد محمد أمين الخلاف وخلّص أهل الحيَّيْن من مجزرة رهيبة ما كانت لتشهد مثيلها بلاد الشام من قبل وأنقذهما من بلاء عظيم قد يطول الأعوام والسنين...

حقّاً... وللعجب العجاب لقد عادت الحياة إلى طبيعتها... حتى بدون إراقة ولا نقطة دماء...

جزاه الله عن أهل الشام خير الجزاء...





سمع عن السمو والرفعة، وأن أُناساً علوا حتى وصلوا الشمس...

والشمس حملتهم إلى الأعلى... فتعرَّفوا على الله الواحد القهَّار... وشاهدوا أسماءه الحسنى.

وغرته المظاهر فراح يبني برجاً عالياً، يضع الأحجار فوق الأحجار، طمعاً بالوصول إلى الشمس التي ستحمله إلى العلياء، إنه يرغب في المجد.. ويظن أنه يستطيع الوصول إليه بالمال أو الأحجار، أو حتى بالذهب يريد العزة، لكنه لا يصدق بأنه إذا هجر الدنيا وعفَّ عن محرماتها سيحصل عليها، أو أنه سيحصل على العزّة بأعمال المعروف والإحسان.

وكيف لي أن أكون عزيزاً دون أن أكون ثرياً؟!.

وهل سيمدني إيماني وجهادي بالقوة!!.

والناس هل عساها تقدِّرني إلاَّ وأنا أملك الملايين، إني معترف بوجود الله وأرغب فعلاً بالتعرف عليه، سأصعد البرج الذي بنيته بنفسي ومالي، لعلي أصل إلى السماء.

﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[(١)].

(١) سورة القصص: الآية (٨٣).

وراح يحاكي طواحين الهواء وهو يعتقد أنها ستجدي نفعاً، وهو لا يدري بأن الهواء يبقى هواء، وأنه يسير نحو السراب... حتى كان الليل، وأظلمت الدنيا بوجهه، وكشرت عن أنيابها المخفيّة وراء حجاب مادي رخيص.

لا نور اليوم ولا ضياء... فالحلم قد تبدد، والمال فَقَدَ معناه، والشهوة انتهت وظيفتها... وكرسي الوزارة قد أصبح فارغاً.

ولم يبقَ سوى مكان صغير تحت التراب، سيوارى فيه جسد المذكور شاء أم أبى، وتوضع شطائح الحجر لتحجب عن الجثة النور والهواء، مخلّفاً وراءه الأهل والأحباب.

وإني لأعجب من أناس لا يعتبرون من الموت!. ولا يتأثرون به، مع أنه دائماً يتخطف الأحباب والأصحاب.

ورسول الله ﷺ قالها بكلمة: «**كفى بالموت واعظاً**». ولم يقلها ﷺ عبثاً، إنما قالها عن حق وعلم.

فإذا نحن لم نفكِّر بالموت ونعدّ له العدة، ونضع على الدوام نصب أعيننا اليوم الذي لا بد آت، وإن كل نفس منا ذائقة الموت لا محالة... فلا خير فينا، ولا في أمة تنسى موتاها، وتطوي على ذكراهم صفحات السنين، بل على العكس، ترى الناس اليوم يفرُّون من ذكره، وإذا اضطروا لحضور جنازة لقريب أو صديق لا يلبثون إلاَّ دقائق، وما أن تصبح الجثة تحت الثرى حتى يتسابقون لمغادرة المقبرة، ثم يتنفسون الصعداء، ويبقى المسكين وحيداً بعيداً عن قلوبهم... منتظراً منهم أن يعودوا، ربما يهون عليه الظلام، أو ترق جدران القبر لحالته، أو لعلَّ نسمة هواء تأتي من هنا، أو نقطة ماء تروي ظمأه تسقط عليه من هناك، ولكن يبقى الظلام ظلاماً والوحدة وحدة، والناس قد فلّوا، ومن لم يتعرَّف على ربِّه ويستأنس به كيف يبحث عن أنس بعده أو زاد!.

وهذه المقدِّمة الآنفة الذكر تعرض لنا سيرة رجل كان من المفترض أن يكون إنساناً عاش حياة رغيدة، تمتع بكلِّ ما في دنياه من متع وشهوات وبذلَ قصارى جهده ليصل إلى كرسي الوزارة، ذلك الحلم الذي ظلَّ يداعب مخيلته أعواماً.

ولأنه صدق في طلبه، حيث إن الشهوة قد ملأت ساحة نفسه وشغلتها ووصل جرثومها إلى سويداء نفسه وتسربت إلى كل ذرة من ذراتها المعرضة، لذلك حصل عليها بإمداد من الله سبحانه وتعالى، ذلك ولو أن

الله منع عنه هذه الرغبة وحال دون حصوله عليها لفتك جرثومها بنفسه وأحاط بها من جميع جهاتها، فلا يستطيع منها مخرجاً ولا يجد إلى الرجوع إلى ربِّه سبيلاً، بل تظل نفسه مشغولة بشهوتها.

ولكن ما أن تصل هذه النفس إلى ما أصرت عليه، حتى يجتمع جرثوم تلك الشهوة في مكان واحد وتخلو ساحة النفس مما كان يشغلها بكليتها، بعد ذلك ينزل الله الأمراض بذلك العاصي ويسلِّط عليه المصائب لعله يستفيد ويقبل على ربه حتى يسري النور الإلّهي إلى نفسه ويطهِّرها.

أما إذا لم تقبل النفس عليه سبحانه فإن جرثوم الشهوة يظل عالقاً بها مجتمعاً في جهة من جهاتها، ولا تزال على ذلك حتى يوافيها أجلها، فيكون عذاب القبر أو سعير النار سبباً في تطهيرها، نعم حصل هذا الرجل على حلمه وكان هو آخر ما حصل عليه، إذ لم يلبث فيه إلا قليلاً حتى جاءه البلاء "بلاء عظيم" كان بمثابة إنذار أخير له، قبل أن يحق عليه الموت وتتخطفه يد القدرة الإلّهية، ويتخطف جسده الفناء.

* * *

وفجأة خطر هذا الرجل "رئيس مجلس الوزراء" على قلب السيد محمد أمين وهو أحد أصدقائه القدامى، وقد ساقته قدماه، فرأى نفسه أمام بناء فخامة رئيس مجلس الوزراء السابق: صاحبه القديم أيام خدمته في الجيش التركي عندما كانا ضابطين.

ورأى البؤس والكآبة تخيِّم على تلك المنطقة، ومخلوقات تعيسة ترتدي أثواب الفرح والسعادة.

دخل البناء الفخم وهو لا يدري ما هذا الكرب والاستياء الذي ألم به... ألقى السلام على البوابين في القصر وسأل عن صديقه، فكان الجواب أنه مريض مقعد في غرفة الطابق الأرضي "القبو"... ولم يندهش لمرض سيادة الرئيس الأسبق بقدر ما اندهش لهذا الواقع!. صاحب كل هذا العز والجاه... ينام في طابق أرضي "القبو"!. هذا مقام الخدم!.

وتوجَّه بصحبة أحد الخدم إلى الغرفة المعينة، وقبل أن يصلها فاحت روائحها وروائح المريض الذي يقطنها!.

إلّهي ما هذا الشقاء؟!. يا حسرة على عبادٍ خسروا الداريْن...

يا حسرة على رئيس مجلس وزراء يحمل كل هذه الأوزار...

إيه... يا صاحبي مرحباً بك، قالها رئيس الوزراء السابق بصعوبة عندما دخل إنساننا السيد محمد أمين وألقى السلام عليه...

قالها وهو يكاد يختنق من شدة الإحراج والندم والتزم الصمت بضع دقائق ليتماسك، لكنه لم يستطع إلى ذلك سبيلا.

أخذت عيناه تذرف دموعاً غزيرة، كل قطرة منها كانت جمرة نار تسقط في قلبه فينزف دماً، يا ليتني سمعت كلامك يا صديقي عندما تكلَّمت معي عن الموت وعن بشاعة الدنيا، لكني كنت طفلاً لاهياً: أعجبتني لعبتي، وأخذتني غفوتي، وها أنذا على وشك النزول في حفرتي.

واطّلع السيد محمد أمين على واقع هذا الرجل، وعلم أنه تزوج من امرأة جديدة في سن الصبا وأنها هجرته عندما مرض وأصيب بالشلل، ورمت به في هذه الغرفة الحقيرة واستأجرت له ممرضة لتقوم بخدمته ورعايته.

ولولا الحياء والخوف من كلام الناس لرمت به وتخلَّت عنه كقطعة أثاث قديمة، ثم أعطت لنفسها الحرية المطلقة في العيش الرغيد، والتمتُّع بمال زوجها المريض واللهو مع أولاده الشباب على مرآه ومسمعه...

فلقد كانت أصوات اللعب والرقص تنبعث من غرفة في الطابق العلوي وهم يرتعون في لظى شهواتهم المحرقة ويدوسون بأقدامهم المبادئ والعواطف غير عابئين بهذا المسكين الذي غرق في بحر دموعه وهو لا ينفك يناجي وينادي ويرسل في طلب زوجته الحبيبة متمنياً منها نظرة أو التفاتة. لكنها وكأن في أذنيها وقر لم تُقم لذلك وزناً، ولم تُعر اهتمامها لهذا الزوج المقعد المسن، العجوز المتصابي:

دع الخانم وشأنها، ماذا تريد منها وأنت على هذه الحال!؟. وهل بقي فيك ما يفتح نفس الخانم!؟. إن السيدة لم تعد تصلح لك يا عزيزي، وإن كان لك حاجة فهاك الممرضة اطلب منها ما تريد.

كلمات بمنتهى القسوة تفوهت بها باستهزاء وقرف وكأنها تكلِّم خادماً، أو جرواً مريضاً، ولم تتنازل وتدخل الغرفة، بل وقفت على عتبة بابها، ووضعت يدها على خصرها تتلوى بثوب الذل والعار، ثوب لا يصلح إلاَّ للغواني القذرات، واستطاعت أن تعبِّر عن استهتارها وقرفها، مشيرة إليه بحركة صدودية ببطن كفِّها وكأنها تريد أن تبعده عنها قائلة: هذا ليس بمقام الخانم، ماذا بقي فيك ما ينفع للخانم!.

طفق بالبكاء بصوت متهدِّج وقلب محطَّم. وانصرفت عائدة إلى وكرها لتتابع ما يليق بقدرها ومكانتها المنحطة وكانت إرادة الله أن لا تنزل هذه الزوجة ملبية طلب زوجها، إلا بوجود صاحبه السيد محمد أمين

عنده!. ولو كان هذا المريض على درجة جيدة من التفكير والتمييز لاستطاع وقتها أن يحسم ويقرر ما بين النجاة أو الاستمرار في طريق النهاية المزرية التي وصل إليها.

إنه على الرغم من كل ما حدث، ومن بشاعة حالته التي وصل إليها لا يزال قلبه معلَّقاً بزوجته الصبيّة، ولا يزال ينتظر منها العطف والاهتمام، وهو لا يعلم بأن مرضه آت عن طريقها، عذابه يزداد أضعافاً بسبب توجهه إليها، ولو أنه عزل نفسه عنها وأدرك أن نجاته ممكنة بشرط أن يرميها من نفسه ويجعل وجهته إلى الله... لما كانت هذه حالته، ولفتح الله له أبواب رحمته ومغفرته، وأعانه على التخلُّص من أمراضه ومتعلقاته النفسية والجسدية.

* * *

وتبكي الأيام على رئيس مجلس الوزراء... ويبكي الزمان عليه وعلى أناس حالهم مثل حاله، وُلِدوا غرباء، وعاشوا أيامهم في ضلال، ورحلوا عنها وهم غرباء، حرموا أنفسهم ولم يتعرَّفوا على الله.

ويعود الوزير إلى صمته، وعيناه معلَّقتان في اللاشيء، ويطل من شباك ذكرياته يستعرض حياته في هذه الدنيا، وتطالعه أعماله المنحطة التي أحاطت به وتوضعت كالأغلال في عنقه.

فهو إن استطاع أن يغفو قليلاً تراه يصحو مذعوراً وكأنه رأى شبحاً أو سمع انفجاراً، فينتفض محاولاً الهروب والنسيان، لكن لا سبيل... فالجسد أصبح عاجزاً والنفس أضحت مكبلة بعملها وبُعدها عن خالقها.

وتداعت الذكريات... ومرَّت بباله أيامٌ قد خلت.

لقد ذهب في يوم ما لزيارة إنساننا السيد محمد أمين بنفسه، وحدث أن جلس معه وهو يعرف مكانته في المجتمع وبين الناس، ويعرف أنه بعد أن تقاعد تفرغ تماماً لنشر الحق وإرشاد الناس، وأن رجالاً كثيرين التفوا حوله وقدّروه وتتلمذوا على يده، لكنه عندما ذهب لم تكن هذه غايته وليس الذي دفعه هو التقدير أو حب لأهل الحق والبحث عن الحقيقة، إنما كان يريد منفعة شخصية، وطلبه كان بعيداً تماماً عن اهتمام وتوجه السيد محمد أمين.

لقد حاول استغلال مكانة وشعبية السيد محمد أمين وطلب المساعدة منه، إذ كان ذلك عندما ترشَّح لمجلس النواب، لأنه يعلم بأن النجاح يتطلّب أكبر عدد ممكن من الأصوات التي تؤيد مرشحاً ما وتؤهله للرئاسة.

إذاً هذا ما جاء بك إلى هنا، جئت لتطلب مني أن أذكرك أمام جماعتي، وألفت نظرهم أن ينتخبوك، حسناً إنه أمر بسيط، ولك يا صديقي ما تريد إن شاء الله...

ولم ينسَ ذلك المرشَّح أن يعرض استعداده الكامل لتسهيل أي أمر أو خدمة يحتاجها إنساننا إذا هو نجح بالانتخاب.

وجاء وقت الدرس وحضر المريدون وتواجدوا كلّهم في صالة الاجتماع، واتخذ المرشد مكانه في المجلس، وفي قلوب أصحاب المجلس، وراح يقصُّ عليهم ما جرى معه ويعلمهم بطلب هذا المرشَّح وسبب قدومه للزيارة. ثم أردف قائلاً:

وبما أنه لا يتوجب علينا أن نفضح أمر إنسان ونبيِّن صفاته الخلقية وسلوكيته في الحياة إلاَّ بحالتين اثنتين فقط:

أولاهما: في حالة الخطبة والزواج، لأن ذلك يتعلق بمصير إنسانة مكرَّمة عند الله ومُغرَّر بها.

وثانيهما: في حالة الرئاسة، وهي الحالة التي نحن بصددها الآن، لأن ذلك يضرُّمصلحة الأمة وبمستقبل هذا البلد.

لذلك وبناءً على ما تقدَّم أُصرِّح وأبيِّن بأن تاريخ هذا المرشح غير مُشرِّف ولا يليق به أن ينجح بالانتخاب، إنه رجل معروف بتعاطي الخمر والكذب والتعدي على مصالح الآخرين... و...

وكشف لهم عن طرفٍ من صفاته المخجلة وسيرته المزرية، ثم ترك لهم الحق في الحكم، والحرية المطلقة لمن أراد أن ينتخبه وهو يعلم تمام العلم أن أحداً منهم لن يقوم بذلك، وكيف يفعلها من كانت قدوته بهذا الكامل الطاهر العفيف!.

* * *

ذكريات أيضاً أخذت تطرق مخيلة السيد محمد أمين وهو جالس بقربه يؤانسه ويلاطفه ويملأ عليه وقته بالحب والعطف والرعاية متمنياً أن يجد له مدخلاً ليرشده إلى النجاة، لكن زوجته قد أخذت منه كل مأخذ ولم يعد يستطيع الانسلاخ عنها.

وهذا ما جعل إنساننا يتذكَّر يوماً كان فيه بمنزله عندما أتت سيارة حديثة فخمة، يقودها رجل عليه هيئة الترف والأُبَّهة بصحبة آخر على شاكلته، كانا قد طرقا باب داره، وعندما فتح انحنيا أمامه بكل تهذيب وأدب وبلَّغاه دعوة سيدهما له لحضور اجتماع سيُقام لتهنئة رئيس مجلس الوزراء بمناسبة نجاحه وتقلده هذا المنصب الرفيع.

تساءل السيد محمد أمين وقتها وبكل لطف، من يكون رئيس مجلس الوزراء الذي يدعوني لحضور هذا المجلس.

ودُهش عندما عرف اسم الرئيس!.

إنه صديقه القديم الذي طرق بابه ذات مرة طالباً مساعدة، وعندما تساءل كيف تسنى له أن ينجح بالانتخاب؟.

فعَلِمَ منهما أنه حاز على أكبر عدد من الأصوات دوناً عن أصدقائه المرشحين نوَّاب مجلس النوَّاب، لذلك فقد استحق الرئاسة "رئاسة الوزراء".

أطرق مفكِّراً، ثم دخل غرفته بعد أن استأذن منهما بضع دقائق.. وهو إذ اندهش، لم يندهش لأن فلاناً من أصدقائه قد أصبح بهذه المكانة، فإن المناصب والكراسي لا تهمه، وليس هو من يقيم لذلك وزناً. إنما لنجاح إنسان بهذه الصفات المنحطة.

ونظر فرأى أمماً تنهار أمام عينيه، وأمماً نحو الهاوية، وشعوباً تاهت معالمها حتى غدت بينها وبين الهلاك شعرة لا سيما والحرب العالمية الثانية تأكل بطغيانها كل أخضر ويابس.. زمانٌ كأهلِهِ وأهله كما ترى.. كما تكونوا يولّى عليكم.

استقل مكانه في السيّارة الفاخرة التي ستنقله بصحبة المبعوثين إلى حرم القصر الجمهوري، بعد أن ارتدى أفخم بزَّة وأروعها، وقد تبدَّت علائم العز والفخامة عليه بأجلى صورها وأروعها.

واخترقت السيارة بوابة القصر قاصدة القاعة الكبرى التي أسفرت عن حديقة واسعة مترامية الأطراف غناء غاية في التنظيم والعناية... صُرفت عليها مبالغ كبيرة وجهود طائلة حتى غدت تليق أن تكون ملحقة بقصر الرئاسة، ولقد كانت الزهور الافرنجية والورود الدمشقية محيطة بها تزينها متناثرة هنا وهناك بألوان

زاهية غريبة، وصفوف من شجر الصنوبر والسرو تسورها وبعض شجيرات من النخيل وأنواع أخرى متفرقة ومنمقة بشكل هندسي جميل، والهواء العليل يتخلل الأوراق والأزهار ويجعل الجو الجبلي لطيفاً نقيّاً.

أما نوافير وبرك الماء، فلقد كانت عجباً، فكل بركة كان يحرس أطرافها الأربعة تماثيل تجسد الأسود وهي في وضعية التأهب فاغرة فاهها معلنة ثوريتها والغضب واضح على عينيها.

والماء يعزف لحناً حزيناً وهو يتدفق مسترسلاً من الأعلى إلى الأسفل متدرجاً حسب تنظيمه... وبعض الطيور اختارت لها مكاناً أميناً فوق الشجر لتعيش عليه وتغرد بسلام.

وصلت السيارة إلى موقفها، وبسرعة نزل أحد الحاجبين منها وفتح الباب للضيف الكريم مردداً أحلى العبارات التي اعتاد أن يلقيها على مسامع أسياده.

هبط السيد محمد أمين منها وتوجه بصحبتهما لصعود السلم متجهين نحو قاعة الاستقبال الفخمة.

كان الدرج من الرخام وجدران القصر مبنية من الحجر الثقيل، مدبب من الخارج ومصقول من الداخل بملاسة وخفة ومطلي باللون الأبيض البهيج اللماع... وبساط أحمر طويل مزين بنقوش صغيرة، فُرش على طول الممر من السلم وحتى عتبة الصالة الكبرى، ومصابيح النور تدلت من السقف معلقة بسلاسل ذهبية تضيء الممر ليل نهار.

وفُتح الباب الكبير ليكشف عن القاعة والموجودين فيها، لقد كان عدد المهنئين كبيراً، جاؤوا من مختلف أنحاء الجمهورية للتعرُّف على صاحب الحظ السعيد الذي استحق هذا الكرسي. وكان له نصيب للحصول على الرئاسة.

وقد كان فخامته متّخذاً كرسياً في صدر الغرفة والأنظار كلها معلّقة عليه، ويتحدَّث بطلاقة وفوقية وهو يدخّن غليونه الخشبي الكبير.

وما أن وقعت أنظاره على إنساننا النبيل ورآه يخطو داخل الغرفة خطوته الأولى بوقار وهيبة متناهيتين، حتى أسرع نحوه وبادره السلام وأخذه بكل ترحاب وود، وأجلسه بجانبه، وهو لا ينفك يرحب به ويشكره على قبول الدعوة، ويعرِّف الموجودين به ويعلمهم بفضله ومساهمته الكبيرة التي كانت سبباً بفوزه ونجاحه.

كان ذلك الاستقبال الحافل سبباً في لفت الأنظار، وشدّ النفوس إليه... حتى راح المهنئون يتساءلون ويتهامسون من يكون صاحب هذه الشخصية، وما هي مكانته حتى استحوذ على اهتمام الرئيس إلى هذه الدرجة؟. وهذا بيت القصيد، ولقد وصلنا إلى سبب هذه الزيارة الأساسي.

* * *

والآن ينظر السيد محمد أمين إلى الرئيس وهو ملقى على فراشه ذليلاً ضعيفاً واقفاً على عتبة الموت، ويعود ليتذكَّر منظره المؤسف المؤلم وهو يهرول خارج القاعة محاولاً الهروب وعدم السماح لشبح الموت أن يطرق مسمعه ويبدد فرحته.

حدث ذلك عندما كان رئيس مجلس الوزراء هذا يقصُّ على الموجودين في تلك الجلسة حادثة جرت معه وهو في "استانبول" في شبابه، ويشرح لهم عن الصدمة التي ألمت به، وهو يجري وراء امرأة ذات طول فارع وقدٍّ ممشوق تتبختر وتتمايل في شوارع المدينة متنقلة بين محلاتها ومتاجرها تختار ما يناسبها وتشتري ما يلزمها من حاجيات وأمتعة، حتى دخلت تلك الفتاة في أحد الأزقة القديمة الضيقة فاعتقد أنها وقعت في المصيدة وأنه وصل إلى ما يريد، وفرك كفاً بكف ولمعت في عينيه نظرة الخبث والمكر وكأنه ذئب يتأهب للانقضاض على فريسته، وكله رغبة في الحصول عليها.

وبما أن الحجاب الكامل كان في ذلك الزمان قانوناً ولزاماً مفروضاً على كل امرأة مسلمة أن ترتديه تستر به مفاتنها ووجهها، فإن ذلك كان مطبقاً في دولة تركيا التي كان نجاحها في القديم على أسس الدين القويم.

فأخذ يحمحم ويصفر لها بنعومة ورِقَّة ليلفت نظرها ويميل قلبها... ولكن يا لخيبته فلقد طار صوابه وولت رغبته أدراج الرياح عندما كشفت تلك اللعينة عن سترها ضاحكة مستبشرة معتقدة أنها نالت إعجابه وحازت قلبه ولبه قائلة:

هل أعجبتك.. أو ما زلت تلاحقني وتضايقني، ويلاه ما هذا.. (زنجية)، لقد كانت ذات فم كبير وشفاه عريضة حمراء، أما أسنانها فمع شدة سواد فاتنته بدت بيضاء ناصعة ودلَّت لسانها الأحمر.

لقد دارت الدنيا به واسودَّت، وبصق على الأرض لاعناً نفسه وقال:

تفو عليكِ، زنجية سوداء ضيَّعت ساعتين ونصف من وقتي وأنت زنجية!. وتأسف على وقته الذي هدره راكضاً لاهثاً وراءها متخيلاً أنه ذكي وماهر.

حقّاً إنه أعمى القلب، فالإسلام لم يفرّق بين الأبيض والأسود إلاَّ بالتقوى. ولكن هذا الأعمى يفرّق.

هذه القصة الشنيعة أضحكت الموجودين وأمتعتْهم وتعالت أصواتهم مقهقهين غير مدركين قذارة ما حدث...

واحد فقط ممن كانوا أدرك أبعاد هذا الأمر، ولم يطاوعه قلبه الرحيم أن يظل صامتاً، بل استغلها فرصة، وأوقف هذه المهزلة حينما رفع يده واستأذن للكلام وطفق يتحدث بكلمات جديّة وتعابير قوية موضحاً بشاعة الدنيا ألا وهو السيد محمد أمين قائلاً:

وهكذا الدنيا... يا صديقي نحيا فيها ونجري وراء مادياتها وزخرفها ومتعها لاهثين، يسابق كل واحد منا الآخر طمعاً بنيل أكبر قدر ممكن من المال والمتعة، ونبيع في سبيلها مبادءنا وإنسانيتنا ونتخلى عن عهودنا وشرفنا، مقابل لعبة أعجبتنا فسلبت قلوبنا وأذهلت عقولنا... حتى يأتينا الموت يتخطفنا فنصحو على واقع مرير مؤلم، وإذا بالمال قد ذهب والشهوة انقطعت عنا، ولم يبقَ سوى عمل مظلم يلاحقنا ويلازمنا مثل ظلنا.. الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا.

فتساءل رئيس مجلس الوزراء برعب:

ماذا!؟. ماذا تقول!؟. الموت؟!!.

اصمت... اصمت يا عزيزي، لا تذكر هذا اللفظ أمامي وفي مجلسي...

لا.. لا أريد السماع... ولا أتمنى أن تعود لذكره... يكاد يغمى عليّ عندما أسمع بسيرته المقيتة.

ووضع يده على فم السيد محمد أمين النزيه محاولاً ثنيه عن التحذير من الموت أو الحساب فأبعد يده عن فمه واستمر بالكلام. وعندما فشل لم يجد بداً من الفرار ومغادرة القاعة بمن فيها غير عابىء بهيبة الوزارة ولا بكرسيها... ومضى السيد محمد أمين متمّاً وعظه وبيانه.

ونظراً لكبر سن رئيس مجلس الوزراء وشكل جسمه الذي اتَّخذ منظر جرَّة ضخمة "خابية" ذات عنق قصيرة، وبطن منتفخة مدورة..

لذلك كان منظره وهو يركض مضحكاً للغاية، وهو يتدحرج فارّاً من ذكر الموت وسيرته التي ترعبه، مما جعل كافة الحضور يضحكون على مظهره.

ولكن هل كان يعتقد السيد رئيس مجلس الوزراء هذا أنه سيخلد فيها، أو أنه سينجو من هذا اليوم، أم أنه يتصور أن هذا اليوم بعيد بعد الأرض عن النجم؟!.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ . . ﴾[1].

وما كان من السيد محمد أمين بعد الذي حدث إلاَّ أن تابع حديثه مع الموجودين بعد عاصفة الضحك والاستصغار للسيد الرئيس، ولقد أصغوا إلى السيد محمد أمين باهتمام بالغ وتأثُّر كبير، بعد أن كانت نفوسهم قد توجهت إليه بكليتها لما رأوا منه من اتزان ووقار، وخاصة أن الوزير الرئيس الذي وقَّره لم يستجب لطلبه ورغبته بتغيير منهج الكلام حسبما يحب ويرتاح.

وكيف له أن يصمت!. وكيف له أن يشيح بوجهه ويعتبر هذا الأمر لا يهمُّه أو يعنيه وهو يعلم تمام العلم مغبَّة السير وراء هذه الشهوات والماديات، وأنَّ هؤلاء الذين يتَّبعون الشهوات الرخيصة ماضون في طريق مسدودة لا سبيل للعودة منها، والظلام يلفُّهم ويملأ نفوسهم غلاً وضلالاً.

كيف لا يتكلَّم!.

وهل سيطاوعه قلبه أن ينصرف دون محاولة ردّهم والأخذ بيدهم وإرشادهم إلى الطريق الأسلم، التي تؤمِّن لهم السلام والأمان وتوفِّر لهم العز والنعيم في دنياهم ومن ثمَّ بعد موتهم.

ليس هو من يفعلها، وليس هو من يعرض عن فعل الخير، أو يتوانى عن إرضاء ربّه، والعمل لأجل مصلحة عباده، وتقواهم التي ستمنع شرودهم في صحراء قاحلة دون زاد أو دليل، وهذا ما فيه هلاكهم وضياع لمعالم إنسانيتهم.

ونعود لنلقي نظرة على فخامة رئيس الوزراء لنعرف شيئاً عن حالته بعد أن غادر القاعة بمن فيها... نراه قد شعر بالندم، وأنه فقد شيئاً من هيبته ومكانته، وراجع ما حدث فرأى الخطأ واضحاً أمام عينيه، وأن تصرُّفه كان عشوائياً فقرر أن يعود ويعتذر مبرراً ما حدث لصديقه وللسادة الحضور.

---

[1] سورة النساء: الآية (٧٨).

واستجمع قواه وحشدها ورسم على وجهه الثبات والوقار محاولاً الدخول بجرأة لفرض هيبته على الجو واسترجاع قلوب الموجودين، وعاد إلى مكانه وأبدى أسفه للضيف الكريم، ووضح له أمام الآخرين أنه اندفع بشكل لا شعوري، ذلك لأن ذكر الموت يخيفه ويقلق راحته، وحتى عندما يضطر للمرور من أمام المقبرة بسيارته ويشاهد "حبَّ الآس" النبات الذي يُوضع على القبور فإن جسده يقشعر، وضربات قلبه تتسارع، ويمضي بقية نهاره معكَّراً عصبي المزاج، وإذا أتى الليل فإن النوم لا يعود تلك الليلة ليطرق جفنيه أبداً.

إن هي إلاَّ حياتي الدنيا سأعيشها وأعطي لنفسي الحرية المطلقة للتمتُّع بها، وبعد الموت فليكن ما يكون، ولا أظن أنه سيكون لي من بعدها بعث أو نشور، ولكن ما مصيري إن كان هناك سؤال وحساب!.

وهذه هي النتيجة... رئيس الوزراء أضحى عاجزاً عن الشعور بالمتعة، وها هو ذا ملقى على فراشه كبعوضة، وقد أشاحت الدنيا بوجهها الصبوح عنه، فبدا وجهها الآخر، وجه أسود مظلم مخيف، وليس ينفعه اليوم من عمله وملكه وولده.

وظلَّت القدمان مشلولتين، واليدان معرضتين، أما الوجهة فلقد كانت نحو النسيان، وما لبث أن تخلى الجسد عن وظيفته، وعادت الروح إلى بارئها بعد نزاع طال أياماً، ووقع ما لم يكن بالحسبان...

أين أنا... ومن أنا... وكيف أتيت إلى هنا.

فالنفس غريبة... والجسد غريب... والمكان مظلم ورهيب...

أما الصاحب والحبيب... فلا يوجد... وليس هناك بنت أو ولد ولا حتى زوجة أو قريب، بل قيود وأغلال... أعمال وأعمال تمر بالبال وتفتك بالأوصال.

لا مفرَّ اليوم ولا مخرج... إن هو إلاَّ سجن أبدي حكم على نفسه به ولكن مع الأشغال الشاقة المؤبدة.

لقد حاول السيد محمد أمين أن يظل عنده لبعض الوقت، ممسكاً بطرف آخر خيط بينه وبين الحياة، يحاول جاهداً وبصدق ألا ينقطع هذا الخيط وهو على هذه الحال متمنياً لو يستطيع أن يطرق قلبه أو يَلفِتَه إليه منتظراً أن تقع عيناه بعينه، أو لعلَّ هذا القلب يستطيع الانسلاخ عن ماضيه وستصبح نجاة السيد الرئيس ممكنة... ولكن حتى الجفن كان قد استسلم للخجل وظلت مرسومة على الجبين وصمة العار التي لطَّخت الحاضر والماضي.

لذلك انقطع آخر خيط، وانطفأت آخر شعلة في المصباح وتصدع أساس ذلك البرج الذي بناه على الرمال، عندما كان يحلم بالوصول إلى المجد والخلود، وغارت أركانه في الأعماق وأطبقت على جدرانه ظلمة وعتمة ونيران. أما الآن فليس ينفعه رجاء أو ندم... وليس يعيده مال أو خدم.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ، وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ ، وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ ، وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾[1].

وفي الحقيقة إن الموت الحقيقي هو موت النفس وصدودها عن خالقها وبارئها، وليس الموت هو مجرد مفارقة الروح للجسد، لأن الحياة هي حياة النفس والعمل هو عملها والكسب إنما يعود لها، ونتائج توجهها ينعكس على صفحاتها.

فمن توجَّه إلى الخالق، إلى الحي الذي لا يموت، والنور الذي لا ينقطع ظلت نفسه حيّة... محاطة بالأنوار... خالدة في جنَّات العزيز الرحمن.

❁ ❁ ❁

[1] سورة فاطر: الآية (١٩-٢٢).



دعا الشابُّ صاحب سوق الخجا بدمشق خيرةَ علماء الشام لوليمة غداء، وكان من جملة المدعوين للحضور عالمنا السيد محمد أمين.

وفعلاً قام هذا الشاب الكريم بواجبه على أتمِّ وجه باستقبال وإكرام الضيوف الأعزاء، وعندما وُضِعَت المائدة وفرش الطعام الفاخر دعاهم ليتناولوا طعامهم فأجابوه: لا يُؤكل الزاد إلاَّ بأهله.

فاعتذر عن مشاركتهم الطعام وبيَّن لهم أن غذاءه مقتصر على السوائل لأنه لا يستطيع تناول الطعام مثلهم، فألحوا عليه أن يأكل معهم ولو لقمة واحدة فاعتذر أيضاً وبأنه سيزعجهم إذا أكل معهم...

ولكنه أخيراً استحى منهم وتناول لقمة واحدة حاول مضغها وبلعها لكنه لم يستطع، بل احمر وجهه وتهدَّج صوته وظهرت عليه بوادر الاختناق ووقع على الأرض يتخبط من ألم فقدان التنفس حتى أشرف على الهلاك، وبعد نصف ساعةٍ ذهب عنه الألم تماماً وبقي اصفرار وجهه فقط.

ولما شاهدوا ذلك تأثَّروا من هذا المشهد وفقدوا شهيتهم للطعام.

لم يدع عالمنا الجليل هذه الحادثة تمرُّ هكذا، بل حدثته نفسه قائلة:

إن هذا الشاب طيِّب وكريم وحسن الخُلُق ديّن، يده طولى في أعمال البر والخير والله عادل ورحيم فكيف يبتليه بهذا الواقع المؤلم!!. أواه لا بد من أنه قد أصاب أمراً، فما أصابكم من مصيبة إلاَّ وقد أصبتم مثليها، وتعالى الله علواً كبيراً عن الظلم.

وعند انتهائهم من تناول الطعام وبعد زوال آلام الشاب وإصراره على إكرامهم ودَّعوه وانصرفوا إلى بيوتهم ولم يهتم أحد منهم أو يعبأ بما حدث مع هذا الشاب إلا السيد محمد أمين الذي أبى أن تمرَّ عليه هذه الحادثة دون أن يعرف السبب، فهذا الشاب المؤمن شاكر مستقيم فَلِمَ آلَمَه الطعام، وماذا فعل حتى ينال هذا القصاص، كيف يعرف وما هو الحل مع أن الآية تقول:

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ . . ﴾[1].

صَاحَبَ هذا الشاب مدة طويلة من الزمن واحتك به مراراً فوجده نزيهاً وكريماً وشريفاً فزاد شغفه بتقصِّي ومعرفة السبب، لكن سر هذا الشاب دفين فلم يُبح له بشيء.

لكنه تابع معه الصحبة والصداقة سنوات عديدة، وبعد /١٢/ عاماً تأكَّد من نزاهة إنساننا الرحيم وأنه على سرِّه لأمين فاستسلمت له نفسه، عندها باح بمكنوناتها وعميق سرِّها، إذ قال: سأخبرك بسبب مصابي:

لقد كنا أسرة تتألف من عدَّة أفراد وكان أبي يملك كافة الحوانيت في سوق الخجا الكبير وكان غنياً واسع الثراء، لكنه كان بخيلاً جداً لأبعد الحدود حتى إنه كان يطعمنا الخبز فقط...

وحاولنا معه مراراً كي يُنفق علينا مثل ما ينفق عامة الناس، لكنه رفض بل زاد في بخله وتمسُّكه، وكان سيِّء الخُلق قبيح المعاملة حتى أصبحت حياتنا جحيماً لا يُطاق بوجوده وبخله وسيِّء معاملته لنا. كنا نتوجه بالدعاء كبيرنا وصغيرنا لله كي يخلِّصنا منه وعشنا فترة طويلة على هذا الحال المضني المترع بالشقاء.

وفي يوم من الأيام مرض مرضاً شديداً فقرَّر الأطباء أن يجروا له عملية جراحية خطيرة، وفعلاً قام الطبيب ومعه العدَّة الكاملة لإجراء العملية له، وفي فترة حرجة وخطيرة أثناء إجراء العملية احتاج الطبيب لإحدى الأدوات الطبيّة الضرورية لكني كنت قد أخفيتها فبحث عنها الطبيب وفتش وصاح ولكن دون جدوى، وخلال هذه الفترة كان والدي قد مات وغادر الحياة.

---

[1] سورة النساء: الآية (١٤٧).

نعم لقد ندم هذا الشاب بعد ذلك على فعلته التي فعلها بحقِّ والده، وهنا تبيَّن لعالمنا الجليل السبب وعلم بعد استقصاء وبحث على مدى /١٢/ سنة حقيقة الأمر وبأن الله تعالى حَرَمَ هذا الشاب من ورثة أبيه عدلاً وبعمله.

ولو أنه صبر على والده لفارق الحياة بنفس اللحظة التي مات فيها حتى لو كانت عدّة الطبيب كاملة، لو صبر القاتل على القتيل لمات دون قتل أي في أجَله.

وهكذا كان ظنُّ هذا العالم الجليل السيد محمد أمين طوال حياته بربّه عالياً وأنه عادل ورحيم بخلقه وعباده لا يسوق لهذا الإنسان إلاَّ ما فيه خيره وإصلاحه في الدنيا قبل الآخرة بناءً على ما كسبت يمينه، فحكم العدالة في البريَّة جاري.

﴿ . .وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[1].

كما ازداد يقيناً بنزاهة تصرُّفات الحضرة الإلَهية وأنه أجرى على جسد هذا الشاب ما أجراه كي يشفيه نفساً ويكون عبرة لمن يلهث وراء المال على مذبح الإنسانية مهما كان نوع وانحطاط الإنسان فقيمته الإنسانية عند ربّه أغلى من الدنيا وما فيها، فلا تكن غايتك من جهادك ضد أخيك الإنسان المنحرف الضال من أجل مال ولا من أجل عرضٍ ولا أرض ولكن لردِّه إلى الصواب والسموِّ به وردِّه إلى الحق والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه.

* * *

نعم لقد ندِم هذا الشاب ندماً كثيراً بعد ذلك على فعلته التي فعلها بحقِّ والده من أجل المال فسلك سُبُل الاستقامة والطاعة وأخذ يُنفق مال والده بوجوه الخير وإسعاف ذوي الحاجة والعجزة وإكرام أهل الدين وعلمائهم وبرِّهم، فلا شك أن الله قَبِلَ توبته لسلوكه السامي النبيل، لكنه تعالى حرمه من مال والده قِصاصاً له في دنياه فقط، وحاشا لله الرحيم العادل أن يجلب لعبدٍ من عباده السوء: إلا بما قدَّمت يمين هذا العبد.


﴿ . .وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾[2].

[1] سورة النحل: الآية (١١٨).

[2] سورة فصلت: الآية (٤٦).



لقد دُعي السيد محمد أمين من قِبَل "أحد الباشوات" من معارفه إلى وليمة، وكان هذا الباشا يقطن في قصره في منطقة الزبداني، ولقد كان ذا جاه عريض إبَّان الحكم التركي تسنَّم منصباً رفيعاً في الحكومة التركية "إذ هو تركي الأصل" وله اطلاع واسع على أعمال هذا الإنسان الذي كانت أعماله الشغل الشاغل في جهاز الحكم التركي فلقبوه "بأصلان" أي الأسد، إذ كان لا يخشى في الحق لومة لائم وبذلك أذهلت أعماله كل إنسان فنال حبَّ مرؤوسيه ورؤسائه وتقديرهم وخاصَّة قائد الجيش التركي "القومندان" الذي كان يحبّه محبة فائقة حتى جعله من أقرب المقربين إليه مما أثار حفيظة بعض الضباط الأتراك عليه كونه عربي الأصل ويشغل هذه المكانة وهذا الاحترام من أعلى سلطةٍ في جهاز الحكم، ولكنهم لم ينالوا منه، بل زاده الله رفعةً وسموّاً لأصالته وطيب عنصره.

كان لهذا الإنسان معارف كثيرة والكل يكنُّون له كل الاحترام لمقدرته الفائقة على حلِّ الأمور والقيام بكل الأعمال الموكلة إليه على أكمل وجه، لقد أذهل الجميع بأعماله وخططه الرائعة فحاز احترامهم أجمعين.

انطلق هذا الضابط على فرسه من دمشق إلى منطقة الزبداني واستغرق من الصباح حتى الظهر وعند وصوله استقبله الباشا "المتقاعد عن العمل" والذي انزوى عن المجتمع وعن السياسة ولكنه عرف ما عرف عن هذا

الضابط من تكريس حياته لخدمة الخلْق ونصرته للحق في كل المجالات... لذلك نال إعجابه وحبه الكبير وحاز على تقديره.

وبعد أن استقبله الاستقبال الحافل قام بإكرامه أيُّما إكرام وتحادث معه بأطيب الكلام، ثم تناول هذا الضابط المحبوب حديثه الرائع ودامت الجلسة المباركة إلى ما بعد منتصف الليل، وحين آن الأوان للذهاب إلى النوم وبعدما أمر الباشا بتهيئة مكان الإقامة لضيفه الكريم بأفضل وسائل الراحة، دعاه إلى المكان المخصَّص له.

لكن الضيف السيد محمد أمين توقف قليلاً وقال: أريد أن أتفقَّد الفرس.

فردَّ الباشا: اترك عنك هذا الأمر وسوف آمر الخدم بالاهتمام بها.

لكن الضابط الضيف رفض قائلاً: لا يسعني إلا أن أذهب بنفسي لأطَّلع على أوضاعها، ويطمئن قلبي وتقرّ عيني.

استغرب الباشا منه ذلك الإصرار على الذهاب لاصطبل الخيل فكرَّر قوله: اترك عنك هذا الأمر، وأخذ بيده يقوده لغرفة النوم.

عندها التفت إليه ضابطنا وقال: إن لم تدعني، فاسمح لي بالذهاب الآن إلى الشام.

ولقد كان الوقت متأخراً "بعد منتصف الليل"، فقال: هل ستذهب الآن؟!. أوَمنْ أجل خاطر فرس!.

فأجابه: نعم... والله إن لم تدعني سوف أذهب الآن إلى الشام.

فاستغرب هذا الإصرار منه على قيامه بخدمة الفرس بنفسه، واضطر إلى الموافقة على طلبه، فأمر الخدم بإحضار المشاعل ونزل السيد محمد أمين إلى مكان الخيول، فوجد أرض الاصطبل مرصوفة بالحجارة وبعضها ذات رؤوس شبه مدببة مما يُعيق جلوس الفرس ونومها براحة تامة، فتضطر إلى الوقوف طول الليل، وإذا جلست فإنها لا تستطيع التحرك فالأوجاع والآلام تنتظرها، وبذا تبقى طوال الليل تكابد التعب والمشقة.

وعندما رأى هذه المشاهد تأثَّر كثيراً وحزَّت بنفسه الأحزان على هذه المخلوقات المسكينة ومعاناتها.

فوراً طلب من الخدم إحضار كيس تبن فجعل يفرشه فرشاً من أجل راحة فرسه ونومها، وهنا أمسك الباشا بيد هذا الضابط محاولاً ردَّه عن هذا العمل قائلاً: دعِ الخدمة للخدم.

لكنه أصرَّ على استكمال خدمة الفرس.

فقال الباشا: لا حول ولا قوة إلا بالله، أمِنْ أجل فرس تُهمُّ نفسك وتتعبها دعها وإن فطست فأنا أعطيك خيراً منها من أصايل هذه الخيل واختر ما تشاء.

لكن الضابط لم يرضَ، لقد كانت رحمته عظيمة بالحيوان وبالإنسان.

وبعد أن هيَّأ لها فرْشها على الوجه التام عاد وطلب من الخدم كمية من العلف مع غربال لتنقيتها من الحجارة "البحص الصغير" لإطعام الفرس.

انشدَهَ الباشا من هذه التصرُّفات الغريبة غير المألوفة من الأسياد، إذ لم يعهد من قبل أن قائداً بهذه المنزلة يطعم تلك الحيوانات ويهتم بنومها وتشغل باله ويخدمها بنفسه إنه لأمر غريب بنظره، والأكثر غرابةً أن الخيول كثيرة لدى الباشا ومن أروع الخيول وعرض عليه أن يختار أجمل ما عنده بدلها لكنه رفض.

أحضر الخدم غربالاً من أجل تنقية طعام الفرس بناءً على طلبه، فوضع التبن والشعير بالغربال وقام بغربلتها فأخرج منها كمية كبيرة من الحجارة الصغيرة كانت موجودة ضمن "التبن" والتي كانت ستؤلم فرسه كثيراً أثناء مضغها طعامها وتكاد تكسر أضراسها.

وفعلاً كانت خيول الباشا الأصيلة تقاسي الأمرَّيْن حين تقع الحجارة الصغيرة بين أضراسها ويعصف بها الألم.

وعندما هيَّأ لفرسه طعامها وماءها وفرْشها قال ضابطنا السيد محمد أمين: الآن أذهب إلى النوم قرير العين خالي البال.

عصفت بقلبه رحمة غامرة سرت من أعماق نفسه وجرت على لسانه نصائح للباشا لكي يصدر تعاليمه لساسة الخيول بأن يهتمُّوا بمكان نومها وطعامها والماء الذي تشربه وأن تكون العناية شاملة.

وقد أكَّد عليه بعدم الاستهتار بهذه النصائح وإلاَّ فالله تعالى بالمرصاد وسوف يُرسل له علاجات: مصائب وبلاءات في الدنيا قبل الآخرة وله أجر عظيم إن أولاها حقّها من العناية والرعاية ولا يكلِّفه ذلك إلاَّ إصدار أوامر الرحمة.

وأخبره بأن تلك المخلوقات ستقف مُحاسبة إيَّاه تريد حقَّها يوم القيامة منه إن ظلمها رغم أن ذلك لا يكلِّفه إلاَّ أن يُصدر تعليماته للخدم.

لكن الباشا لم يهتم ولم يبالِ بهذا الأمر وما كان جوابه إلاَّ أن قال:

معقول أن الله يحاسبني من أجل الخيل فهي لا قيمة لها وإن ماتت نأتِ بغيرها، بل هي مسخَّرة لنا ولخدمتنا.

وفي الصباح ودَّع ضابطنا السيد محمد أمين صاحبه وقلبه مترع بالحزن عليه بسبب قسوته وعدم إصغائه للنصيحة، تلك النصائح الرحيمة التي تسمو بالإنسان إلى السعادة دنيا وآخرة.

* * *

بعد فترة من الزمن مرض هذا الباشا ولمدة سنوات طوال، ولقد علم هذا الضابط بما حلَّ به من آلام مرهقة، فكان لا يستطيع النوم على أي جنب من جسمه العليل طول الليالي يصرخ ويتقلّب ذات اليمين وذات الشمال لا يستطيع النوم لا ليلاً ولا نهاراً اللهم إلاَّ غفوات وبشقِّ النفس وكيفما تحرك يعصر به الألم حتى إنه ما كان ليستطيع الأكل إلاَّ النذر القليل من الطعام، بل وبصعوبة بالغة، لقد أصابته آلام لا تُطاق في فكه وأسنانه فما كان ليستطيع مضغ شيء، وكل لقمة طعام كان يُدخلها بفمه تجعله يصيح من بعدها من شدة الألم. وبقي على هذا الحال حتى وافته المنية.

عمله عاد عليه "ما عانته تلك الحيوانات عاد عليه"، وذاق آلامها قبل الفراق.

وهكذا فكل ظالم لا بدّ أن يعود عليه عمله مهما طال به الأجل.

ولقد دفن الباشا في منطقة الزبداني قبل مدخل البلدة وسمِّيت المنطقة باسم الجرجانية وما زال ضريحه ماثلاً أمام قصره "قصر الجرجانية" عبرةً لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.





قصتنا هذه يمكن أن تكون غريبةً على مسامعك...

لكنها حقيقةٌ قصَّها علينا ابن السيد محمد أمين وذلك عندما كان هذا الابن في العاشرة من العمر... خرج يومها مع والده لحضور دعوةٍ ضمَّت كبارَ المسؤولين آنذاك والأغنياء في دمشق.

كان السيد محمد أمين وأخوهُ الجنرال سليم بك الذي قَدِمَ من استنبول زائراً أخاه في دمشق قد دُعيا لحضور ذلك الحفل...

وحين قصَّها ابنُ السيد محمد أمين وعاد له استغرابه وذهوله لِمَا حدث أمَامه يومَها، إذ ما يزال بعد مضيٍّ أكثر من ستين سنةٍ على الحادثة... مستغرباً ومتذكِّراً ما حدث.

* * *

مقدمـــة

حقيقة: منذ سنوات كثيرة بدت ظاهرة غريبة بين أقلِّية من الناس وهي اهتمامهم بالسحرة ومتابعتهم ومشاهدةِ أفانينهِم... ألاعيبه وتخييلاته أمامهم فتراه أحياناً يخرجُ طيوراً كثيرة من جيبه فتطير في السماء، أو يُخرِجُ من فمه ليرات ذهبٍ أو... أو... بيض دجاج... الخ...

من هذه التخييلات والخيالات التي لا تمتُّ لعالَم الحقيقة بصلة، بل كلُّها خيالات وتخييلات يستعين الساحرُ بعالَم نفوس الشياطينِ من الجنِّ ليُخيِّل أمام أعينِ الناس ما يخيِّله.

﴿ . .يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾(١).

ولو كان هناك شيءٌ يتعدَّى الخيال للحقيقة لما احتاج الساحرُ أن يتسوَّل المال من الناس بعد إنهائه عروضه، إذ أين ذهبت كلُّ تلك الليراتِ الذهبية التي أخرجها من فمه أثناء العرض حتى أصبح بنهاية العرض بحاجة للَّيرات الورقية من الناس يتسوَّلها منهم تسوُّلاً؟.

* * *

حلقتنا... بينما كان يجلس إنسانُنا السيد محمد أمين... وأخوه الجنرال سليم وبينهما الطفل الصغير ذو العاشرة من العمر... ابن إنساننا السيد محمد أمين، وكان هناك عدد من كبارِ المسؤولين والضباطِ والأغنياء في تلك الدعوة، وطبعاً كالعادة بذاك الزمان وخصوصاً في مثل هذه الدعوة التي يحضرها الأثرياءُ... يأتي ساحرٌ كبير معروفٌ على مستوى الشرقِ الأوسط ليس سوريَّ الأصل... لعلَّ الكبارَ الآن يذكرونه إن ذُكِّروا به فقد ذاع صيتُه وانتشر بالشام لكثرة أفانينه وألاعيبه الخيالية(٢).

وبالفعل... ما هي إلاَّ مدةٌ زمنية قصيرة حتى حضر هذا الساحرُ... رآه جميعُ المدعوِّين فخاطبه بعضُهم: ماذا ستقدِّم لنا اليوم أيها "العالم المغناطيسي"؟.

فقال: كلُّ واحدٍ منكم يخرج ليرةً ذهبية ولْيضعْها بكفِّه ويُطْبِق على يده عليها بكلِّ ما أوتيَ من قوَّةٍ وعزم يتمسَّكُ بها وضمْن قبضتهِ وأنا سأقرأ على يده لأفتحَها بدون أن ألْمسها، فإن فتحتُها أخذت الليرة الذهبية لي، فهل أنتم موافقون؟.

ردَّ معظمُهم: موافقون... فهم يريدون أن يضيِّعوا وقتهم ويقضوه باللهو واللعب ورؤية الغرائب والعجائب التي لا يعرفون سرَّها لمجرّد التسلية.

---

(١) سورة طه: الآية (٦٦).

(٢) لقب ذاك الساحر "**الحاوي أو الجاوي**".

هنالك مدَّ أحدُ كبار الأغنياء يده إلى جيبه فأخرج ليرةً ذهبية ووضعها بيده وأطْبَقَ عليها متمسِّكاً بها بقوَّةٍ داخلَ قبضته، اقترب الساحرُ منه ووقف أمام يده وبدأ بحركاته وتَمْتَمَاته، وما هي إلاَّ لحظات... حتى شاهد الجميعُ... كيف بدأت يد المتحدِّي تنفتح وبذاتها...

فبدأ يشدُّ بيده بكل ما أُوتيَ من قوَّةٍ محاولاً إبقاءها مطبقة ممانعاً فتحها، ولكن لا فائدة فما تزال يده تُفْتَح بطريقة سحرية غامضة وكأن هنالك عدداً من الأشخاص قد أمسكوها وبدؤوا يفتحونها.

لكن الغنيَّ أخذ يقاومُ ويشدُّ محاولاً ممانعة فتْحها وللأسف فما تزال تُفْتَح وببطء.. ذُهل الحضور لِمَا رأَوْا وكان أكثرهُم ذهولاً ذلك الضحيَّة الذي يحاول ممانعاً فتحَ يدِه... ولكن لا فائدة... فقد فُتحت يده قسراً وجبراً عنه فاستسلم للأمر الواقع... عندها مدَّ الساحرُ المحتال يدَه وتناول ليرة الذهب (ولعابه يسيل) ليضعها بجيبه... إذاً لقد كسبَ الجولَة الأولى... وسيكسبُ اليوم الكثيرَ الكثيرَ... وبسحره الخبيث ولعبته الماكرة.

إنها سرقة برخصة... وبأسلوب جديد "سرقة... علنية" متَّفقٌ عليها.

انتهى المتحدي الأول... وجاء الآن دورُ الثاني... إنه أغنى رجلٍ بالشام في ذلك العصر، فهو يملك عدداً من المصانع في دُولٍ أجنبية... عدّة مثل تركيا... إيطاليا... فرنسا... سويسرا.

أخرج ليرةً ذهبية ووضعها براحةِ كفِّه وأطبق عليها قبضتهُ بقوَّةٍ كبيرة معتزّاً بضخامةِ جسمه وقوَّة عضَلاته، شدَّ يده بكلِّ ما أوتيَ من قوَّة حتى ظهرت عروقُ يدِه بارزة، وانتفخت عضلاتُه ظاهرةً، اقترب الساحرُ... من يدِ ذلك الرجلِ وبدأ بحركاتٍ وتمتماتٍ غامضة... وما هي إلا لحظاتٍ حتى بدأت اليدُ المطْبَقَة تُفْتح شيئاً فشيئاً... وكأنما هنالك قوَّةٌ خفية عن الأنظار لكنَّها موجودةٌ تفتح هذه اليد مُتغلِّبةً على قوَّةِ شدِّ صاحبِها الكبيرة... فقد بدأ يشدُّ معتصراً قواهُ عساه يُقاوم القوَّة الخفيَّةَ التي ما تزال تُجبِر يده على الانفتاح.

وللأسف فقد احتقن وجهُه... ومن المؤكد أنها ارتفعت درجةُ حرارته من شدَّة ما شدَّ... بقبضته.

وبدأ التعب يتسلَّل إليه... ولا فائدة فما نجح، بل فشل وفُتحت يدُه كاملةً منبسطة وبدت ليرة... الذهب... ظاهرةً.

هنالك مدَّ اللصُّ المتحدي يدَه فتناولها ليضعها مبتسماً ابتسامةً مِلْؤها المكر بعيون مظلمةٍ كسواد الليل البهيم، نظرات حادَّة... إنها ثاني ليرة ذهبية يكسبها.

السيد محمد أمين كان يَرْقب الوضع تماماً مدركاً بإيمانه العميق بالله سرَّ عمل ذلك الساحر... عالماً أن لا سلطان له إلا على مستحقٍّ بعيدٍ عن الله، فلو كان الإنسانُ ملتجئاً بحقٍ لله وعائذاً به لما كان له سلطان عليه...

هنالك وقبل أن يمدَّ الثالثُ يده إلى جيبهِ ليقع بيد هذا اللصِّ الماكر كما وقع من قبله اثنان وبالتالي... سيتابع جولتَه على الجميع... واحداً تلْوَ الآخر.

فهذا ما تمَّ الاتفاق عليه... لكن السيد محمد أمين أبى أن يُكمل هذا الخبيثُ دورته على الجميع ويسلبهم ليراتِ الذهب بما لا يرضى به الضمير الحرّ.

بل توجَّه قائلاً: هلمَّ إليَّ فأنا أقبل تحديك، تعالَ أتحداك... هنالك وأمام كل الحضور ترك الشخصَ الذي آل إليه الدورُ ومشى باتِّجاه السيد محمد أمين يتبخترُ... مفتخراً... وكلُّه ثقة بأن النصر حليفهُ مدركاً تماماً أن المؤمنين الحقيقيين بهذا الزمان مفقودون: وإذا ما خلا الجبانُ بأرضٍ طلب الطعن وحده والنزال.

هنالك وقف أمام السيد محمد أمين الذي قال له: سأقبل بمواجهتك وأقبل تحديك ولكن لي شرط واحد: إذا فتحتَ يدي وأخذتَ الليرة سأعطيك من بعدها عَشر ليرات ذهبية أخرى بالإضافة لتلك، وإن لم تستطع فطلبي منك أن تتوب عن هذه الأعمال فهذا السحر لا يزيدك إلاَّ كفراً وشقاءً وبُعداً عن الله... فهل أنت موافق؟.

ردَّ الساحر وبكل ثقة فالطمع والشرَهُ بإحدى عشرة ليرة أعمى قلبَه... "رزقة موفقة" بهذا اليوم ولربما يحتاج أشهراً ليجمعها.

أما الجنرال سليم أخو السيد محمد أمين فقد تفاجأ بما سمع من أخيه... ولمشاهدته ما رأى بأم عينه ما حدث مع الاثنين السابقين... إذاً لا بد وأن يخسر أخوه إحدى عشرة ليرة ذهبية!... بدل الليرة الذهبية الواحدة!...

فلماذا يتورَّطُ بهذه اللعبة، مالَه ومالَها... حاولَ أن يثنيه عن ذلك، إذ دفعه بيده خِفْيةً معبِّراً عن نصيحته: أنْ مالَكَ ومالَهُ لتخسرَ الآن إحدى عشرة ليرة ذهبية!.

أما الغلام ابنُ السيد محمد أمين "صلاحُ الدين" الذي كان يجلس بين عمه وأبيه فقد أحسَّ بحركات عمِّه المنبِّهة لوالده محاولاً أن يثنيه عن إقدامه على هذا التحدِّي.

أما السيد محمد أمين فلم يُعِرْ أدنى اهتمام لطلب أخيهِ، بل أخرج ليرةً ذهبية... (قديماً "بذاك الزمان" الليرة الذهبية تُعتبر عملة متداولة ومعظم الناس يحملونها).

هنالك هدأ الأخ الجنرال سليم رغماً عنه والتزم الصمتَ والسكون مراقباً أخاه الذي وضع الليرة وأطبقها بشكل طبيعي... اقترب الساحرُ... لقبالتِه وبدأ الهجومَ بحركاته وتمْتماته... والغريب أن الوضع بقي كما هو فَيدُ السيد محمد أمين ما تزال مطبقةً بشكل طبيعي وبقوّة والساحرُ... ما يزال يتمتمُ ويُشير بيديه بحركاتٍ مختلفة... طال الوقتُ بالساحر ولم يتغير شيءٌ بالوضع فما يزال كما هو... وما زال يحاول ويحاول ويتمتم ويتحرَّكُ ويحرِّكُ يديه بإشارات وحركات ولكن لا جدوى.

لم يفقد الأملَ قُرابةَ الثلث ساعة، حيث بدأ التعب والإنهاك يأخذ منه كل مأْخذٍ (فما شاهده الغلام صلاح الدين والذي لا يزال يذكره الآن بأنَّ عرقَ الساحرِ المُقْرِف ذا الرائحة النتنة... قد سال من كل أنحاء وجهه فبلل ذقنَه... وسالَ إلى الأرض قطراتٍ... قطرات).

حاول بكلِّ علمه ومهارته... فلم يستطع أن ينجز عمله في هذه المرَّة حتى إنَّه بدأ ينظر من النافذةِ... إلى البابِ... إلى النافذةِ ينظر نظراتِ المستغيث!. المدَدَ!. بمن يستغيث!!. وممَّن يطلب المعونة؟. تمتم باضطرابٍ بكلمات مُبْهمةٍ... غريبة واضطربت حركاتُه وبدا كأن الخوف قد ملأ قلبَه...

أما السيد محمد أمين وبكل ارتياح واطمئنان... فقد بقي جالساً بمكانه مُطْبِقاً مشرقاً وجهُه.

هنالك لم يعد الساحرُ ليحْتمل الوضع فانفجر صارخاً قائلاً للسيد محمد أمين:

أنت "يا بك" حامل اسم.

فردَّ عليه السيد محمد أمين بقوّةٍ وبصوت أعلى وأقوى من صوتِ الساحر:

أنا حامل اسم "الله"... جلجلت كلماته بالمكان وتردَّد صداها الرهيب... فخيَّم الصمت على جميع الحضور ممزوجاً بالدهشة والذهول...

لقد فشل الساحرُ...وأيَّ فشلٍ!!. إنه فشلٌ كبير، فلقد بلَّلَه عرقُه وأُثيرت أعصابُه وغلت مراجلُ نيران قلبه وبدون فائدة جناها... لقد خسر الجولة...

عندما سمع تلك الكلمات التي وقعت على مسامعه كالرعد القاصف والتي اكتسحت شرورَه وباطلَه صمت ولم يفتح فمه بكلمة بعدها أبداً، بل ترك المجلس وسار مذلولاً حقيراً يجرُّ أذيالَ خيبته وخسارتِه الكبرى...

فلقد استقرَّت في نفسه فكرة وأدرك أمراً...!!.

إن هذا الإنسان غريب السِرِّ، ذلك مبلغه من العلم.

* * *

مرةً ثانية كان اللقاءُ بمنطقةٍ تابعة لدمشق إنها منتزه رائع هو منتزه الربوة... تمَّ ذلك أيضاً بدعوةٍ حضرها المسؤولون والأغنياء وكان من جملة المدعوين إنسانُنا الفاضل السيد محمد أمين.

قَدِم الساحرُ وكعادته فتفاجأ بوجوده... فاندحر باطله وشرُّه أمام الحق وبات ذليلاً مهموماً... إذ لن يستطيع اليوم أن ينفِّذ أحابيله وسحره.

فجاء راجياً ذليلاً قائلاً: "يا بك" كرامة لله حبيبك اتركني أعمل... اتركني أترزَّق... يا بك انظر إلى كل الحضور فرداً فرداً فهل في أحدهم ذرَّةُ خير... كلّهم بعيدون عن الله وقرينهم الشيطان... فاتركني وشأني معهم.

لكن السيد محمد أمين لم يُعِرْهُ اهتمامَه ولم يعبأْ بكلامه... فالساحر يريد منه أن يترك المجلس كي يستطيع أن يأتي بسحره أمام الناس...

نظر السيد محمد أمين إلى الحضور فأحسَّ أن الجميع يرغبون بالساحر، إنهم يريدون أن يضحكوا ويستمتعوا بتلك الألاعيب السحرية، عندها قال بنفسه: إذا كان الكلُّ يريدون الساحر "سأدعهم وشأنهم". وتركهم مغادراً...

* * *

وهكذا كلما رأى الساحر السيد محمد أمين في مجلس أيقن بفشله فهرب ليأتي إليه متوسِّلاً راجياً منه المغادرة إذا كان المجلس ميالاً للفجور كي يخيِّل بأعماله فيسحر أعين الناس ويؤذيهم بالخفاء وليكسب المال بالحرام...





منذ عقود عدة تغنّى الشعراء بدمشق الروضة الفيحاء، تغنوا بنهرها العذب ذي المياه الرقراقة وبلطيف طقسها ورقّة هوائها... بجمال طبيعتها، ونسجوا أشعارهم يصفونها حتى إن بعضهم ذهب ليقول بأنها جنة الله في الأرض...

أما في البادية فكانت سنة قحط وبلاء فعمَّ على العرب الفقر وحدثت سرقات بسبب ما ألمّ بالعرب من فقرٍ مدقع.

* * *

في كل سنة كان السيد محمد أمين يهجر دمشق إلى أطرافها ليستأجر بيتاً في الريف ويضمن بستانه "ضمان" كالمعتاد آنذاك فيقضي وأسرته الصيف فيه ليأكل الأولاد ما شاؤوا بالحلال من ثمرات البستان... وبإحدى السنوات وفي ضاحية "قدسيا" الجميلة ذات المناظر الجذّابة حدثت مجريات حلقتنا هذه...

تعالَ أخي القارئ معنا لنعيش مع السيد محمد أمين في بستانه الأخضر ذي الثمار اليانعة والهواء اللطيف ولبضع ساعات متابعين... حيث سنرى عدالة الله قائمة... نرى إخلاص إنساننا وعظيم حرصه لإرضاء خالقه جلَّ وعلا...

* * *

فبينما كان يجلس على كرسيه الخشبي قرب أذان العصر... يتمتع وينال قسطاً من حرارة أشعة الشمس عساه يُذْهِبُ عنه ما ألمَّ ببطنه من مغصٍ لوعكة صحية ألمت به، وبينما هو سارح بأفكاره يتمتع بأشعة الشمس سمع صوتاً، أصغى بأذنه عساه يعرف مصدر هذا الصوت الخفيف مراقباً بنظره الجهة التي منها صدر...

وما هي إلاَّ لحظات حتى ظهرت امرأة من بدو عرب البادية... كانت متسللة لمنتصف البستان تمشي متخافتةً تبغي السرقة من ثماره بسبب القحط والجفاف بالبادية ولم تلحظ وجود السيد محمد أمين "صاحب البستان"، فما أن لاحظها هذا الإنسان الطيِّب السيد محمد أمين حتى صرخ قائلاً: "وَلِكْ لقد رأيتك".

سمعت صوته فانفتلت كالأرنب تركض لتتوارى عن الأنظار وتخرج من البستان.

لقد ذهبت... توارت عن أنظاره... هنالك صمت مفكِّراً ولبرهة بأمرها... فلعلّها جائعة... محتاجة والجوع كافر لا يرحم... لربما هذا ما دفعها للسرقة من البستان بسبب ما أصابهم بالبادية من جفاف وقحط.

فقام من فوره ومشى مسرعاً لموقد النار في البستان الذي عليه طبخة "الكوسا المحشي"، وما هي إلاَّ لحظات حتى أخذ من "معجن الخبز" رغيفاً وضع عليه عدة كوسايات من "المحشي"...

وعلى بعد ليس بالكبير وقفت الخادمة الصغيرة... إنها بنت بدوية في السابعة من العمر... خادمة بسيطة مُدَلَّلة عند السيد محمد أمين الطيب، وبنفس الوقت لتتلقى تربية طيّبة على يديه، فلقد سرى صيت سمو ونبل أخلاقه بين معظم الناس.

ناداها السيد محمد أمين: تعالي يا شاطرة وبسرعة...

أقبلت عليه ووقفت تنظر إليه، فناولها ما يحمل بيده من زاد قائلاً: هيا يا شاطرة إلحقي بتلك المرأة البدوية فقد ذهبت بهذا الاتجاه، ومتى عثرت عليها ناوليها هذا الزاد... هيا أسرعي وراءها قبل أن تبتعد.

حملت الزاد وركضت بالاتجاه الذي أشار إليه سيِّدُها، وما هي إلا دقائق قليلة حتى عادت بوجه فرح... تتمشى إلى سيِّدها.

قال لها: هل وجدتيها؟.

قالت: نعم وجدتها...

قال: فهل أعطيتيها الزاد (الطعام)؟.

قالت: نعم... لقد أخذته مني وبسرعة لفَّت جميع قطع "الكوسا المحشي" داخل الرغيف وأخذت تأكله بشراهة ونهم وبسرعة... هكذا. "وقلَّدت أمام إنساننا الكريم الكيفية التي أكلت بها المرأةُ زادَها". وأخذت تفغر فاها وتقضم كما يقضم الأسد الجائع المفترس وتهز رأسها وفكيها بشكل مثير.

كانت هذه الطريقة لا تدل إلاَّ على مدى جوع تلك المرأة المسكينة!.

لقد صَدَقَ ظنُّه فالمرأة يكاد يقضي عليها الجوع... وحدَّث نفسه قائلاً:

يا لها من مسكينة... إذاً إنها متضوِّرة جوعاً، ولعل ما بعثتُ لها من زاد لا يكفيها.

وعلى الفور سارع برغيفين ووضع فيهما عدداً كبيراً من "الكوسا المحشي" من طبق الكوسا من على موقد النار في البستان... أعطاه للخادمة الصغيرة قائلاً:

أسرعي وراءها والحقيها بهذا الزاد...

تناولت الزاد من يد السيد محمد أمين وركضت إلى المرأة البدوية.

كانت المرأة البدوية للتوّ قد انتهت من طعامها الأول... لقد أنهته بكامله.

ناولتها البنت ما بيدها من طعام آخر، فأخذته المرأة وبدأت تأكله أيضاً ولكن بنفس الشراهة والسرعة الأولى...

كان ذلك ما أخبرت به الخادمة الصغيرة سيدها عندما سألها: هل وجدتها ثانية؟.

قالت: نعم... بدأت تأكله هكذا "وهزّت برأسها مقلِّدة شره المرأة وجوعها".

هنالك صمت إنساننا سارحاً بأمر هذه المرأة... فلربما عندها أولاد صغار... بالتأكيد جائعين، أمَّا هي فقد شبعت اليوم ولكن أولادها؟. وبقية الأيام القادمة؟.

قال للبنت: هيا يا صغيرتي... الشاطرة بسرعة إلحقيها وأوقفيها قبل أن تغادر البستان وتتوارى عن الأنظار.

فما أن اتَّجهت البنت تمشي عائدة للمرأة حتى قام إنساننا الكريم السيد محمد أمين منفتلاً باتجاه البيت مسرعاً.

وهناك ومن البيت حمل مبلغاً لا بأس به من المال بجيبه أخرج منه عشر ليرات... (كانت ليرة الذهب بـ خمس ليرات نقدية، وبالتالي ١٠ ليرات تعادل ليرتين ذهب) قائلاً بنفسه:

هذا المبلغ كفيل بأن يكفيها وأسرتها مدة شهرين أو أكثر، ثم عاد لمكان جلوسه، وهناك جلس ينتظر عودتها.

* * *

طال الوقت... وتأخرت الخادمة الصغيرة، ثارت نفسه ثورة عنيفة خشية ذهابها، فإن لم تأخذ الليرات العشر فستبقى عائلتها تتضوَّر جوعاً، ثم انتظر قلقاً.

مضى وقت آخر فرآها من بعيد تتمايل يمنة ويسرة بمشيتها متلاعبة متباطئة وهي تمضغ عِلكتها "مِسكَتها" ثم تنفخ بالوناً بفمها وبكل برودة... فناداها إنساننا بغضب فأسرعت إليه.

سألها: أين المرأة هل استوقفتيها...

قالت بصوت رخو بارد ممدود: لم أجدها...

عندما سمع ذلك... صاح بها غاضباً من برودتها وتباطئها شاتماً إيَّاها بقوله:

"أبوكِ عكروت".

سمعت شتيمته لوالدها فنكست رأسها مُطرِقة بالأرض ووقفت عن مضغ العلكة مرخية بشفتها السفلى وانكسر خاطرها.

أما إنساننا الكريم فأخذ ينادي أولاده الثلاثة كي يحضروا إليه مسرعين، وما هي إلاَّ لحظات حتى كان الثلاثة يقفون بين يديه ينتظرون أمره.

مدّ يده إلى جيبه وأخرج فئتي العشر من الليرات فأعطى ابنه الكبير فئة العشر ليرات وابنيه الأوسط والأصغر عشر ليرات أخرى ثم بعثهم في الاتجاهين الوحيدين للبلدة قائلاً:

كل واحد منكم يذهب في اتجاه، فأنت يا صلاح ويا وليد اذهبا من هذا الاتجاه، وأنت يا فتحي اذهب من الاتجاه الآخر. والذي يجد منكم امرأة بدوية صفاتها كذا... يناولها فئة الليرات العشر ويعود... مفهوم؟.

ردَّ الأولاد الثلاثة حاضر يا أبتاه... ثم انطلقوا كالصواعق مسرعين.

وما هي إلاَّ ربع ساعة أو أقل حتى عاد الثلاثة واحداً تلو الآخر... فلقد عثر عليها أحدهم وأعطاها ما بعث لها والده "الليرات العشر" فلم تكد المرأة البدوية تصدِّق أهي بحلم أم علم، ذهبت والفرحة تغمرها... لم تعد تعي لشيء مما حولها تطوي طريقها طيّاً مسرعة فرحة لأهلها.

عندها اطمأن السيد محمد أمين وسُرّ بذلك كثيراً، وما هي إلاَّ لحظات حتى اشتدت عليه آلام المغص في بطنه بسبب إصابته بإسهال، فأمسك بطنه وجرى مُسرعاً باتجاه الحمّام وفي الطريق اعترضه غصن شجرة... فاصطدم جبينه به...

كان اصطداماً مؤلماً حقّاً لكن آلام المغص والإسهال عادت لتشتد عليه فتحمل ألم الصدمة هذه وتابع مشيته مُسرعاً ليصل الحمّام بأقرب وقت ممكن.

هنالك قال مُتسائلاً في نفسه: ربّي ماذا فعلت أنا؟. لقد أطعمتها "للفقيرة" أول مرة وثانيها حتى شَبِعَتْ وأعطيتها من المال ما يكفيها وعائلتها مدة شهرين أو أكثر... فهل هذه الصدمة جزائي؟.

فما أن أتمَّ حديثه القلبي حتى أحسَّ بهاتف يهتف بداخله "بقلبه":

وتلك الطفلة المسكينة، لم شتمت والدها وكسرت بخاطرها؟. صحيح أنك أطعمت المرأة الفقيرة وأشبعتها وأعطيتها ما يكفيها وعائلتها مدة شهرين أو أكثر... وهذا تؤجر وتُثاب عليه، ولكن تلك الطفلة المسكينة لِمَ كسرت بخاطرها؟.

فأجاب بنفسه: أليس ذلك من أجل مساعدة تلك الفقيرة؟.

فجاء الهاتف: ذاك العمل له ثوابه وأجره، وهذا العمل عليه قصاصه وعقابه.

عند ذلك فهم المراد من صدمة الغصن بجبينه...

وما أن غسَّل يديه حتى سارع عائداً حيث ما تزال البنت الصغيرة واقفة... فقال لها وبلطف: هل أنتِ "زعلانة" مكسورة الخاطر؟. (فالمعروف عن البدو أنهم إذا سمع أحدهم شتيمة بحق والده فإنه يتأثر كثيراً ويحز الألم بنفسه) فأطرقت رأسها بالأرض بادياً عليها الحزن والتأثُّر العميق... إنها مكسورة الخاطر.

فقال السيد محمد أمين لها: "الآن اطلبي مني ما تريدين أعطيكِ".

فما أن سمعت طلب تحقيق رغباتها حتى استبشرت ورفعت رأسها فرحة قائلة بسرعة وعلى التتالي: "ثوب، وإسوارة ذهب، واسكربينة (حذاء)"، أي إنها تريد ثوباً وأسوارة ذهبية وحذاءً.

عندها نادى السيد محمد أمين صهره (زوج ابنته) الذي أتى مُسرعاً.. فقال له: أريدك أن تذهب الآن إلى دمشق المدينة وتشتري لهذه البنت ثوباً وإسوارة ذهبية وحذاء، خذها معك...

ردَّ الصهر متململاً: ولكن سيدي الوقت بعد العصر وهذا وقت التنزُّه والبسط والسرور "وصابح القوم ولا تماسيهم"، فغداً بالصباح أذهب وأشتري لها ما تريد...

قال السيد محمد أمين: لا... بل اذهب الآن.

عندما رأى الصهر إصرار عمّه الذي هو مرشده وأستاذه بالدين استجاب لطلبه مرغماً ونزل لدمشق المدينة مع الطفلة واشترى لها "الثوب والاسوارة والحذاء".

قصة لو كُتبت بالإبر على آماق البصر لكانت عبرةً لمن اعتبر...

قصة واقعية هي عبرة بالغة... تتجلَّى في معانيها العدالة الإلَهية السارية في الكون على كافة المخلوقات...

تُبيِّن لنا أن الله لا يرضى الظلم لعباده ولا يقبل بأن يهضم أو يظلم إنسانٌ على حساب الإحسان والإنعام والخير للمستحقين...

فلو أن إنساناً سجد في كل بقعة من بقاع الأرض وظلم نفساً واحدة ما أغنى عنه سجوده وعبادته ولا تردُّ عنه العقاب المستحق على نفسٍ ظُلمت... والله رحيم بكافة عباده وكافة مخلوقاته... فكن بهم رحيماً تنل رضاء الله.

أما إحسانك فسيوفيك الله أجره بالتمام... وللإحسان ثوابه وعلى الأذى والضرر حسابه وعقابه، وكما هو المثل العامي:

"حط إيدك بعينك مثل ما بتجعك بتجع غيرك"

عامل الناس بمثل ما تحب أن يعاملوك به...

أكان الذي تعامله صغيراً أو كبيراً... عاجزاً أو امرأة ضعيفة... أو كل من كان تحت رعايتك وأضعف منك... حذار أن تطغي عليهم أو تظلمهم فيسلط الله عليك من هو أقوى منك... وكما تدينوا تدانوا...

والحمد لله في بدءٍ وفي خِتَمِ





﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ، وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ ، فَلَوْلا إِنْ كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ، تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1].

توفي للسيد محمد أمين صديق تربطه به علاقة قوية، وفور سماعه نبأ الوفاة وكان صديقه المتوفى قد قاسى سنتين قضاها بالآلام المرضية الصعبة ومرَّ بسلسلة من الأوجاع الشديدة.

شيَّعه حزيناً إلى المقبرة وبعد انفضاض المشيِّعين مكث بجانب قبره مدة طويلة وهو يبكي عليه بكاءً طويلاً، ثم غادره يعتصر الألم نفسه من الحزن النابع من قلب رحيم.

وفي منزله لم يكن الحزن الشديد الذي انتابه على فقدان صاحبه ليفارقه مما جعله يجلس في داره ويتذكَّر صاحبه ويبكي عليه، ومن شدة ما أمضَّه البكاء والإرهاق وتأثّره على فراق صاحبه الذي قاسى الأمراض سنتين حافلتين بالأوجاع حتى أخذته سنة من النوم رأى خلالها صاحبه يقول له:

يا أخي إنني مسرور وفي غاية البسط ولا يُزعجني إلاَّ بكاؤك عليَّ: أنا بخير...

---

[1] سورة الواقعة: الآية (٨٣-٨٧).

استيقظ السيد محمد أمين من نومه وهو يستعيذ بالله:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، لعلَّ هذا شيطاناً يريد تحويلي عن صاحبي ومصيره المؤلم، وعاد للبكاء ثانية حتى انهار جسده.

حلَّ به التعب ثانية فأخذته سنةٌ من النوم، وإذا به يرى صاحبه للمرة الثانية بالرؤيا وهو يقول له: والله أنا مبسوط لكن صوتك الباكي هو الذي يزعجني، أنا بخير.

انظر الآن... سوف أقص لك قصتي لكي لا تقول بعدها عني بأني شيطان... جاءك بالمنام.

* * *

أنت تعرف بأني مريض منذ سنوات ومشلول، وبينما كنت مستلقياً على سريري فجأةً شدَّ عليَّ الألم بقوَّة لم أعاين شبيهاً له منذ بداية الألم والمرض، وعندها التجأت إلى الله بقوة، شعرت بعدها بأنني سليم مُعافى تمام العافية، بل بصحة جيدة جداً... تفحَّصت جسمي ويداي وقدماي... فلم أجد أي ألم، لقد أصبحت سليماً معافى من كل شيء... قفزت من فرحي على الأرض وصرخت منادياً زوجتي وأولادي:

تعالوا انظروني، لقد شُفيت ولدى قدومهم إذا بهم لا ينتبهون إلي، والأشد غرابة دخلت زوجتي وأولادي غرفتي ولم يُعيروا أي اهتمام لكلامي، بل تركوني خارجاً ودخلوا الغرفة فلحقت بهم "لكن ما القصة لا أفهم".

تركوني وألقوا أنفسهم على جسد شخص غريب مُلقى على سريري، لقد كانت زوجتي كاشفة عن وجهها ورأسها وبحالة شديدة من البكاء مع الأولاد.

ثارت ثائرتي وغضبت منهم وصرخت محاولاً منعهم "مالكم وماله"، كيف تكشفون على هذا الغريب، لكن بدون جدوى، بل انفجروا ببكاءٍ شديد.

وبعد قليل أتى المغسِّل وغسَّلوا هذا الميت الغريب، سألتهم: من هذا الميت فلم أتلقَّ أي جواب، بل حملوه على النعش. هنا صمَّمت على معرفة هذا الميت.

وفي الطريق لتشييعه للصلاة عليه وللغرابة الشديدة رأيت أصحابي القدامى الذين كنت منذ سنوات طويلة لم أرهم، فسألتهم عن هذا الميت فلم يجبني أحد. وكنت كلَّما كلَّمت أحداً من أصحابي لا يلبث أن يجهش بالبكاء.

(إذ ذاك كان السيد محمد أمين يشهد في رؤياه أحوال صاحبه المتوفى وما يتكلَّم عنه من أحداث مرَّ بها)، لقد أوصله قلبه الرحيم المفيض بدموع الحزن على صاحبه لهذه الرؤية المشهودة من بداية الموت وحتى اللحظة هذه.

وتابع صاحب هذا الإنسان سرد قصته عليه بعد وفاته، قال:

وصمَّمت على أن أعرف هذا الميت الذي حاز على اهتمام الجميع، وسألتهم ولم يردوا عليَّ.

وخلال مدة بسيطة جُهزت الجنازة للصلاة وصلُّوا على هذا الميت وصلَّيت معهم، ثم خرجت الجنازة، وعند وصولهم المقبرة ووضعهم النعش على الأرض وإخراج جسد الميت ليواروه قبره، صمَّمت على معرفته في اللحظات الأخيرة، نعم سوف أنظر إلى وجهه عندما يضعونه في قبره لأرى من هو.

وتجمَّع الناس حول القبر وتقدّمت بين الناس لأنظر لوجه هذا الشخص بُغية معرفته ووقفت على حافة القبر لأرى من هو.

وعندما كشف الحفَّار عن وجه هذا الميت شعرت بثقل في رأسي ودوار عظيم أفقدني توازني وسقطت في القبر فصرخت:

يا ناس... يا ناس، لأخرج من هذه الورطة، لكن للغرابة لم يردُّوا عليَّ وقاموا بوضع الشطائح والتراب، وصرخت بهم: يا جماعة أنا عائش، أنا حي، والله حي، لمَ تعملون بي هكذا؟.

لكنهم لم يستجيبوا لطلبي وتركوني في هذه المصيبة.

وتابع هذا الميت يصف وصفاً مشهوداً لصاحبه... السيد محمد أمين الذي بكى عليه ذاك البكاء.

والله لقد مررت بلحظة رعب وفزع شديدين لم أرَ مثيلها في حياتي كلَّها، وفيما أنا في هذه الحالة في القبر من الرعب العظيم والفزع أنبش التراب للنجاة لمست يدي حلقة حديدية فأمسكت بها وشددتها بقوة، وإذ بسرداب يبدأ بدرج، الحمد لله، الحمد لله الذي خلّصني من هذه المصيبة الكبرى.

نزلت الدرج فوجدت حديقة غنَّاء والعصافير تزقزق وتغرد، ورأيت أنواعاً من الطيور والأزهار لم أرَ مثيلها في حياتي كلّها.

وفي داخل هذه الحديقة قصرٌ يحار العقل بجماله لم أرَ شبيهاً له طيلة حياتي الماضية. في هذه الأثناء وعبر هذه المشاهد الرائعة التي أخذت بقلبي وسحرت بصري سمعت صوت الأذان فتذكرت أني لم أُصلِّ صلاة العصر، وبسرعة شمّرت عن ساعديَّ للوضوء من تلك البحرة الجذّابة للقلوب الماثلة أمام هذا القصر، وبدأت بالوضوء وخلال وضوئي؟. سمعت صوتاً غريباً...

يا للعجب!. تذكَّرت بأنني دخلت إلى هنا بالخطأ... ولم أستأذن بسبب حالة الرعب الشديدة، فرفعت صوتي مُنبّهاً الشخص الآتي:

يا جماعة... أنا دخلت إلى هنا بالخطأ، أنا إنسان غريب، لكن لا فائدة، الصوت يقترب والمشية مشية امرأة، فرفعت صوتي: يا أختي... أنا دخلت إلى هنا بالخطأ، ولكن صوت وقع الأقدام كان يزداد قرباً، إنها مصيبة.

أختي أنا غريب، لكنها لم تعبأ بصراخي، بل تقدَّمت نحوي وشعرت بيد تلتف حول عنقي، أعوذ بالله، أعوذ بالله يا أختي أنا غريب.

قالت: أنا زوجتك... إني زوجتك... حوريَّتك.

نظرت إليها وإذ بامرأة ذات قسط من الجمال عظيم، بل لا مثيل له ولا شبيه في الدنيا بأسرها، لكني أشحت بوجهي عنها قائلاً:

أعوذ بالله، أنا زوجتي أم فلان (حيث لم يكن في ذاك الزمان كشف وجه، وكان الحجاب مضروباً على وجوه كافة النساء المسلمات)، فأجابت:

أمُّ فلان زوجتك بالحياة الدنيا!.

يا للغرابة، أدركت عندئذٍ أني بالبرزخ.

وتابع هذا الميت لصاحبه الذي انكبَّ عليه من بين كل أحبابه، فلم يتأثَّر أحد عليه كما تأثَّر عليه هذا الإنسان المحب، بل ولم يشعر بالتفات عظيم من أحد كالتفات هذا الصديق والصاحب الوفي.

وأنا الآن بخير عظيم... والله إني في غاية البسط والسرور، لكن والله لا يزعجني ويقلقني سوى صوت بكائك... والحمد لله... والله تفضّل عليَّ وجعلني في غاية السعادة والنعيم.

والآن أنت نائم وقبل قليل رأيتني وظننت بأنني شيطان ولست بشيطان، أنت الآن سوف تستيقظ من نومك فلا تقل عني شيطان، أنا والحمد لله في غاية النعيم والبسط المقيم.

* * *

ويقول السيد محمد أمين صاحب هذا الميت: فوالله عندما تحدَّث لي بذلك ما كان ينطق بشيء إلا وكنت أرى هذه المشاهد أثناء نطقه عنها.

وفعلاً استيقظ السيد محمد أمين من نومه فحمد الله كثيراً على حالة صاحبه الجيدة(١)، ومن بعدها اطمأنَّ قلبه عليه وهدأ روعه وحمد الله كثيراً على نجاته.



(١) اسم المتوفى الذي صلّى على جسده هو: "**أبو راشد الشوا**" وكان مسكنه فوق نهر يزيد أحد فروع بردى وأعلاها على الجبل وله بيت وحديقة تطل على النهر، حيث كانت له خمائل كان يعتزل دوماً وحيداً بها.



في ليلة غاب قمرُها وساد ظلامها وحلك ديجورها وجنَّ ليلُها...

كانت السكينة تبسط كفّها على الأرجاء...

والهدوء يفرد جناحه على الأنحاء...

وأشباح الأوابد تمنح الوجود نوعاً من الخشوع...

صمت شامل مطبِق، كان ذلك في إحدى مزارع الغوطة الغربية "الهامة" حيث استأجر السيد محمد أمين مزرعة تفاح يتربّع فيها بيت ريفي جميل لقضاء فصل الصيف.

في إحدى الليالي وفي منتصف ليلٍ غاب قمره... جلس أستاذنا السيد محمد أمين يتأمَّل الأحداث التي مرَّت به خلال النهار يقلِّبها يفكِّر فيها ويعدُّ البرامج والخطط لليوم القادم... لقد اعتاد ذلك كلَّ يوم وقبل أن يداعب النعاس أجفانه.

فجأة... عكَّر هذا الصفاء وشرخَ هذا السكون أصوات حركات مبهمة لا تكاد تُسمع كأنها وقع الريح على ورق شجر جاف أحسَّ أنها تنبعث من المزرعة، أصاخ بسمعه وركَّز انتباهه فبدا الصوت الخافت جلياً...

تسلل من أمام البيت على رؤوس أصابعه وولج البستان وأخذ ينتقل بخفة بين الأشجار يتتبع مصدر الصوت. وعندما أصبح على مقربة منه رأى شبحين يخفي الليل معالمهما منهمكيْن في قطف ثمار التفاح ووضعها في كيس كبير كان بيديهما وبينهما، عاد السيد محمد أمين أدراجه إلى المنزل كما أتى خفيفاً كالنسيم وبسرعة تناول مسدَّسَه من تحت وسادته ولقَّمه وذهب إلى حيث اللصوص، دنا منهم وعندما أصبح في المدى المناسب توقف وصوَّب مسدسه بالدقة المعهودة فيه وبالبراعة المعروفة عنه وضغط على الزناد فمرت الرصاصة تئز بينهما، ومع سكون الليل وهدأة الكون خُيِّل للسارقين أنها طلقة مدفع فأصابهم رعب وهلع كبير فاندفعا هاربيْن تاركين وراءهما كل شيء كأنهما حمرٌ مستنفرة فرَّت من قسْورة حتى كادت أقدامهما تدق بظهورهما من وقع المفاجأة وشدة الوجل.

ثم أطلق السيد محمد أمين طلقة أخرى كادت تلامس رؤوسهما فطارا ركضاً وقفزاً هرباً يطلبون النجاة. وعندما وصلا إلى السياج قفز الأوَّلُ من فوقه إلى المنحدر لكنه فَقَدَ توازنه بعد أن تجاوزه فانزلق على المنحدر وهرب، وأما الثاني فعندما قفز علقت قدمه بشوك السياج "السور" لكنه تحت تأثير ثقله أُفلت منه فتدحرج إلى الأسفل وهو لا يصدِّق بالنجاة، وكان كلما انضغط بطنه مع ما تثيره طلقات الرصاص فيه من الهلع والفزع يعطِّر الجو مما بعث في نفس السيد محمد أمين روح الغبطة والفرح فأطلق لضحكات سروره العنان، لقد غمرته موجة عارمة من النعيم لم يسبق لها مثيل لما أدخله من الرعب في قلوب المرعبين.

وإذ حدث؟؟. ويا لهول ما حدث..

ففي تلك اللحظة... وفجأة التمع نصل فوق رأس السيد محمد أمين فحسب أن رجلاً آخر كان معهما لم يلحظه... فانثنى برشاقة وسرعة فائقة عقلها بمتابعته للأشرار والضرب على أيديهم وقفز إلى الخلف مسافة متر ونصف فاستقرَّ على الأرض جالساً فهوى النصل في المكان الذي كان يقف فيه وبلمح البصر كان مسدسه بيده يصوِّبه على المهاجم وما كادت يده تضغط على الزناد حتى لمح شعر امرأة يلوح ممَّن ظنَّه رجلاً، وفي اللحظة الأخيرة حوَّل فوهة المسدس إلى الأعلى فطاشت الرصاصة.. وصرخ أم فتحي!.

وإذ بها هي زوجته بذاتها، فَصُعقت لما سمعته ولم تحملها قدماها فالذي كانت تحسبه عدواً إذ به زوجها!. لقد سمعت صوت العيارات النارية فظنَّت أن المجرمين قد هاجموا زوجها فهرعت في الظلام إلى عدة الزراعة

على الحائط بجانب باب دار البستان فوقعت يدها على فأس تناولته وأسرعت إلى من يطلق النار وأهوت الفأس على رأسه فقفز تلك القفزة الرائعة فكانت له النجاة.

يا لها من لحظة يرتعش الفؤاد كلما ذكرها إجلالاً وعرفاناً للإله فيسجد القلب لهذه الرحمة الفائقة والعناية الشديدة التي يوليها عباده المخلصين... لقد أنجاه الإله وزوجه بنفس اللحظة وتدخلت عنايته بالوقت المناسب... فما أروعك يا إلهي.. وما أعظم قدرتك.

* * *

عندما بزغت الغزالة[1] من كناسها تتهادى في حلل الجلال والنور والجمال صبيحة اليوم التالي وأشرق ضوء النهار رأى السيد محمد أمين كيساً ضخماً مملوءاً إلى نصفه تفاحاً وآخر فارغاً في مكان الحادث... لقد كانت الشجرة التي حاول السارقان قِطافها تحمل أروع الثمار وأكبرها حجماً، إنها شجرة ليس لها مثيل في البستان كله مما يدل على أن اللصوص يعرفون المكان قبل القيام بعملية السرقة عن تصميم وتخطيط وعلم.

وفي الضحى مرَّ مختار القرية على معلِّمنا الكبير وبعد أن تبادلا التحية قال له المختار:

يا بك، خيراً لقد سمعنا بالأمس صوت إطلاق رصاص من عندكم... فما الذي حدث؟.

نظر إليه إنساننا فبدا على وجه المختار أنه يعرف السارقين تمام المعرفة، إذ إن القرية صغيرة وسكانها أقلَّة... لذا فمن البديهي أنهم يعرفون من يقوم بمثل هذه الأعمال.. أضف إلى ذلك أن بعضهم يعتبر مثل هذه الأعمال ضرباً من الرجولة حتى إنهم يتفاخرون بسردها على روَّاد المقاهي من قرنائهم.

﴿كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾[2].

التفت إنساننا الأمين إلى المختار وقال له:

نعم فقد حاول اثنان سرقة التفاح من البستان ولكن ظلام الليل أسعفهما وإلا لأجهزتُ على حياتهما الخبيثة.

قال المختار مستغرباً: أتقتل رجلين من أجل حفنة من التفاح.

---

[1] الغزالة: الشمس.

[2] سورة المائدة: الآية (٧٩).

ردَّ السيد محمد أمين بجرأة وحزم... وقوة وإباء: نعم... أقتلهما من أجل تفاحة واحدة تُسرق.

اعترت الخشية المختار وسرت هيبته لنفسه كالهيبة من الأسد عندما يُصيب مَنْ دونه عند لقائه، لقد قرأ المختار على مُحيّاه الأمين أجلى آيات القوة والتصميم ما كان له ولأهل القرية رادعاً عن التورط في مثل هذه الأعمال المحرَّمة بعدها.

وفعلاً وبعد هذه الواقعة لم يجرؤ أحد على الاقتراب من البستان.

لقد أعطانا السيد محمد أمين أمثولة وعبرة عملية في كيفية استئصال شأفة جرثوم اجتماعي خطير يقوّض أركان المجتمع ويحطُّ من شأن الإنسان... فعمَّت رحمته السارقين أنفسهم، إذ حماهم مما في نفوسهم من شر وهذا ما انعكس وينعكس على المجتمع فيحلُّ فيه الأمان وينشُر على ربوعه السلام والمحبة فيتحوَّل المجرمون للعمل الشريف المنتج حينما يجدون من يصدُّهم ويردعهم.

وبعد فترة وجيزة وزَّع هذا الرجل الإنسان أكثر من نصف ثمار البستان هدايا للمختار ولأهل القرية بالحلال!!.





ليست رواية خيالية ولا حكاية أسطورية...

بل هي واقعة حقيقية...

قصة لا مجال فيها للمبالغة أو الخيال، تُروى بكل صدق وأمانة... ليأخذ بها كل إنسان، وليس لنا هدف من سردها، بإذن الله سوى كل خير وحب وإرشاد.

وهي إن كانت تدل على شيء... إنما تدلُّ على عظمة الإلّه وحبّه الكبير لنا نحن البشر..

إن رحمة الله بعباده تقتضي ألاَّ يدعهم ينغمسون في أوحال شهواتهم الدنيوية الرخيصة، وهم يعتقدون أن المتعة والراحة لا تكون إلاَّ في الدنيا... وما فيها من مال وامرأة وولد، فيُرسل لنا سبحانه وتعالى ما ينبِّهنا ويحذِّرنا مغبة الريح التي ستعصف بنا وتحملنا شئنا أم أبينا إلى الهاوية.

صحيح أن الله تعالى قد أغدق علينا من نعم شتى، وخلق ما خلق من أرض وما فيها من بحار وجبال وأنهار، وسماء وما فيها من كواكب وأجرام، وجعل لنا السمع والبصر والفؤاد لنحيا فيها ونتمتع، لكن بشرط ألاَّ نعبد المخلوق وننسى الخالق.

وإن الدنيا لم تُخلق للتمتُّع بها فقط، ولكن خُلقت للتعرُّف من خلالها على الله، فمن فهم سبب البلاء وأنه مما جنته يمينه وعرف أنه من الله رحمة، فيحمد ربَّه ويشكره، ويثوب إليه ضارعاً متضرعاً تائباً أن يخفِّف عنه ويرفع ما وقع فيه من كرب وعذاب. قال تعالى مخاطباً رسوله الكريم ﷺ:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[1].

وما أن يتوب عما مضى من أخطائه حتى يخفِّف الله عنه ويشفيه من مرضه ويفتح له باباً من أبوابه ليتعرَّف من خلاله على كمالات الله وأسمائه الحسنى.

وبقدر ما يكون الواحد منا صادقاً في التجائه... أميناً على وعده الذي قطعه على نفسه أمام الله، بأن يتراجع عن ظلمه وبعده عن ربِّه... بقدر ما يكون الله معه فيجعل المرض صحة ويجعل العسر يسرا...

أما إذا كان التجاؤنا وقتياً تغلب فيه مصلحتنا الشخصية على حبنا لله وعلى الرغبة الصادقة في العودة إليه والامتثال لأوامره، فإن مرضنا سيكون علينا لعنة وعسرنا سيكون ناراً على قلوبنا، ولن يرفع الله والحالة هذه عنا ابتلاءه لنا ونبقى في ظلماتنا نتيه ونتيه حتى يأتينا الموت ليرمي بنا إلى ظلمات أعمق وأكبر.

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾[2].

والقصة التي سنتلوها عليكم الآن تحمل في طيَّاتها الشيء الكثير... لمن أراد النجاة فيعتبر ويستنير...

وهي أكبر دليل لنا على قدرة الإلّه العظيمة، وإرادته الحكيمة بأن ينزل علينا قليلاً من المشقَّة والمرض والعذاب حتى يقينا شرَّ العذاب الأكبر، إن نحن تابعنا إشراكنا وازددنا في إعراضنا عن منابع نوره وطهارته:

* * *

"سليم بك" رجل من أصل عربي هاشمي، ولد في دمشق من عائلة دمشقية ميسورة الحال، ذكية الأنسال وشاء القدر أن يكون لهذا الرجل أخ وهو إنساننا السيد محمد أمين.

---

[1] سورة البقرة: الآية (١٨٦).

[2] سورة الفرقان: الآية (٢٧).

عاش الأخوان وترعرعا في بيت واحد... أما والدهما فقد وافته المنية وكانت إرادة الإلّه أن سافر الأخ الكبير السيد سليم إلى تركيا واستقر في استانبول وذلك هو طلبه ومبتغاه. وكان له نصيب للزواج من ابنة وزير الخارجية للامبراطورية التركية آنذاك، وبالطبع فهي زوجة تليق به وبمكانته السياسية والاجتماعية المرموقة حيث إنه أضحى في ذلك الوقت يشغل منصب قائد لإحدى الفرق التركية برتبة جنرال...

وقد استطاع من وراء منصبه ثم امتهانه التجارة أن يكوّن ثروة كبيرة ظنَّ أنها تجعله في مأمن من الذل وغدرات الزمان.

وطبعاً كان المال حلاَّل المشاكل بنظره ونظر الكثير من الناس...

توالت سنون من بعدها سنون وأصبح السيد سليم أكثر تمسُّكاً بالدنيا وتعلُّقاً بالمال.

وجاء ما لم يكن بالحسبان...

فلقد دبَّ المرض في أوصاله وبدأت أعضاؤه تفقد قدرتها على الحس والحركة..

وما لبث أن أصيب بالشلل النصفي ولا يزال شبح هذا المرض يسير ويسير حتى أوشك أن يقضي عليه ويرمي به إلى دفاتر النسيان...

هنا، شعر السيد سليم بالخطر، فأرسل يحضر طبيباً وراء طبيب، لكن دون جدوى فلقد أجمع الأطباء على رأي واحد ونتيجة واحدة...

إذاً... ليس عندكم أي حلٍّ يشفيني... أو حتى يوقف استمرار زحف هذا اللعين في جسمي؟.

مع الأسف إنك الآن في أخطر مراحل حياتك... وهذا داء ليس له عندنا دواء وحسب رأينا فإن أيامك باتت معدودة لا تتجاوز الخمسة عشر يوماً ستقضيها في الفراش دون حراك نسأل الله أن يتولاَّك برحمته ويخفِّف عنك.

هنا وصل مريضنا إلى قمة الشعور باليأس والألم... أفنيت عمري كلَّه وأنا أبحث عن الثروة... وعندما أصبحت عندي صرت لا أملكها... ولا أستطيع أن أنتفع منها وها أنذا راحل وتاركها!.

أين أنت يا أخي الآن؟!.

أشعر بحرقة في جوفي، وشيء ما يناديني ويشدني إليك...

يجب أن أُعلمك بمرضي، يجب أن أُرسل إليك...

ليتني أستطيع السفر والعودة إلى أرض أجدادي...

إلى أمي...

إلى تاريخي...

إلى طفولتي...

إليك يا أخي وحبيبي... في الشام...

خسئتِ يا دنيا غدَّارة أنت...

وأنت أيها المال فلْتُحرق وتنثر في الهواء أو تُلقى في غياهب البحار... لا أريدك وأنت عاجز عن مساعدتي.

ضياع وغربة... وحدة وحرقة... شريط ذكريات يمر أمام عينيَّ، والنوم قد غادر مقلتيَّ، والخوف من الموت، والمصير المجهول... ظلمة القبر وعتمة المكان سوف تخنقني...

ربَّاه ما السبيل إلى النجاة من كل هذا؟!.

ربَّاه إني أشكو إليك ضعفي وقلة حيلتي فانتشلني.

ثورة مزَّقت أعماقه لم يشعر بها أحد ممَّن كانوا حوله... عندها شعر بالحاجة إلى أخيه وضرورة الإرسال إليه لإعلامه بمرضه طالباً رأيه بما يخص التركة والوصية. لمن أوصي وبكم أوصي ولمن أكتب من إرثي فأنا منتقل لا محالة.

وطبعاً وصلت البرقية، وعندما قرأها السيد محمد أمين واطلع على محتوياتها قرأ فيها حزناً دفيناً وندماً وألماً كبيراً من أخيه على نفسه وعلى عمره الذي أمضاه راكباً قطار الدنيا الذي نقله من محطة إلى محطة، وفجأة وجد نفسه قد وصل إلى آخر محطة حيث لا بد من مغادرة القطار، تاركاً وراءه الأهل والمال والذكريات، إلى عا لم المجهول ليس فيه عيش إلاَّ للأتقياء...

أما إنساننا فلقد كان أمله كبيراً، وثقته بالله عظيمة بأن الله قادر أن يشفيه ويعيد إليه الحياة من جديد شرط أن يفهم حقيقة هذا البلاء، بأنه من الله عين الرحمة ﴿ ..وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ.. ﴾[1]. وفرصة كبيرة وأخيرة على أن يغيِّر مسراه ومنهجه، وينفق في سبيله تعالى ما يقرِّبه من جنابه ويكون له سبباً للإقبال عليه والاستنارة بنوره.

لا مجال للانتظار... كل يوم يفوت ليس من صالح أخي العزيز... يجب أن يكون الردُّ سريعاً.

أبرق إليه يدعوه إلى ما هو أهم من المال والإرث والوصية، إذ إن ردّه تضمن ما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي العزيز سليم حفظه المولى آمين...

سلام من الله عليك ورحمة من لدنه وبركات، أما بعد:

وصلتني رسالتك، ولقد قرأت فيها أشياء كثيرة... قرأت شوقك وحنينك إلى بلدك وأهلك... وقرأت حزنك وأسفك وكل ما يدور في نفسك وإني أعلم أنك الآن في حال سيء... لكني أريدك أن تكون على ثقة كبيرة بأن الله رحيم وعادل... وبأنه سبحانه قادر على كل شيء:

وليس يعجز من خَلَقَك أول مرة، وربَّاك وسوَّاك على أحسن حال أن يشفيك ويبنيك من جديد... الذي وضع المرض هو تعالى وحده يرفعه.

لكن هذا متوقف عليك وقرار حسْمه إنما هو بيدك أنت، وإني لأوصيك بشيء هام، هو سبيلك إلى النجاة والتقرُّب إلى الله... إنها الصدقة يا أخي... وليس سواها، هذا ما أوصانا به الرسول الأعظم ﷺ وهذا ما أُوصيك به:

«داووا مرضاكم بالصدقة».

---

[1] سورة البقرة: الآية (٢١٦).

عليك بالصدقة يا سليم، فإن فيها نجاتك وسعادتك في الدارين، وبإذن الله ستُشفى وتعود لك صحتك وتتابع مسيرتك في هذه الحياة بنور الله ورعايته إذا أنت أردت وكله متوقف على اختيارك وقرارك.

وطبعاً ألفُت نظرك إلى شيء مهم وهو أن الصدقة تكون على قدر حال المتصدِّق، وإني لأعلم بأن لك قطعة أرض كبيرة ثمينة وسط استانبول وأشير عليك أن تبنيها على هيئة كتلة كبيرة تتألف من قبو ومتاجر ومكاتب وما تبقَّى تبنيه مساكن تنظمها على النحو الآتي:

- غرفة وصالون ومنافعهما لرجل عاجز مثلاً.
- غرفتان وصالون ومنافعهما لعائلة وسط.
- ثلاث غرف وصالون ومنافعهما لعائلة كبيرة.

ومن ثم تؤجِّر القبو والمتاجر والمكاتب على أن تجعل أحد هذه المكاتب مكتباً رئيسياً ومسؤولاً عن حصر إيرادات هذا المشروع تصرفها على شكل رواتب شهرية بنسب ثابتة لمن تُسكنهم في هذه الشقق وللعائلات الفقيرة واليتامى والمساكين والعجزة المقطوعين، ولكلٍّ على قدر حاجتهم أي ما يجعلهم يعيشون في كفاف.

ختم برقيته وكله أمل ورجاء ودعاء إلى الله أن تلاقي عند أخيه صدى وأن يستجيب أخوه لهذه المشورة... وأن يعمل على تنفيذها فوراً بعد نيّة صادقة ينويها بينه وبين ربه.

كانت حالة السيد سليم تزداد سوءاً وقلبه يزداد حسرة وآهات تنطلق من جوفه تمزِّق أعماقه لا تزيده إلا حزناً وألماً ويأساً.

وصلت برقية إنساننا إليه فبعثت فيه إشراقة أمل ما كان يحلم بها... ورأى بصيص نور ينبعث منها فتعلَّق بها، لكنه تريَّث قليلاً يتساءل صدقة!. لم يسبق لي أن سمعت عن شيء اسمه صدقة يشفي من مرض عضال مثل مرضي، إذا كان فيما يخص الأرض فأنا لست أرغب بعد اليوم بمال أو ملك، ولكن إذا كان الطب عاجزاً عن شفائي أو مساعدتي، فهل ستشفيني صدقة... ربَّاه هل هذا صحيح؟.

وبينما هو على هذا الحال يتساءل ويفكِّر أخذته سنة من النوم ورأى في منامه أن أخاه قد جاءه وسلَّم عليه وجلس بقربه يحادثه ويؤنس وحدته، يحنو عليه ويجيبه عن استفساره ويشرح له عن الصدقة وعن عظمة

الله وقدرته ورحمته، وعن سبب المرض، وعن الدواء الوحيد لكل بلاء، إنها الصدقة يا عزيزي وليس سواها فهي سبيلك الوحيد للتقرُّب من الله، فبالصدقة تكسب النفس ثقة من خلال عملها الذي قامت به فتقبل على ربِّها دون خجل، وبإقبالها وعروجها تجاه خالقها تشفى من العلل والأدران التي علقت بها في الدنيا، وحين تُشفى النفس ينعكس شفاؤها على الجسد، الذي هو مرآة تعكس حال النفس البشرية.

إن الله يا سليم قريب مجيب شرط أن ندعوه ونحن بحال الإيمان لا الإعراض، والاستجابة لا النكران... فهو الله العزيز، الكريم، المجيب، السميع... الحق الوكيل... يتوكل أمورنا إذا نحن سلَّمنا به وتوكلنا عليه، وإن كل شيء في النهاية سيؤول إليه، توجه إلى الله، ادعه اطلب منه ما تشاء، وقدِّم ما تحب بين يديه، عسى الله يقرِّبك منه ويدخلك في رحمته... فكِّر في بدايتك عندما كنت نطفة تشكَّلت من مجموع الثمار والطعوم، ثم أصبحت جنيناً في بطن أمك، من الذي وضعك في رحمها؟. من الذي خلقك وربَّاك وسوَّاك؟. من الذي أرشدك إلى ثديها لترضع لبناً سائغاً فيه غذاء لك يتناسب وعمرك؟. ثم إلى طفل ثم إلى شاب...

فكِّر في كل هذا، فكِّر في الشمس والقمر، في السماء، في الليل في النهار، من الذي خلق كل هذا؟.

إنه الله يا أخي... إنه الله يا عزيزي.

عندها استيقظ السيد سليم من الحلم الطويل...

استيقظ من عمره كله من دنياه... من غفلته والدموع قد بللت وجنتيه بعد أن أدرك ما سمعه من أخيه وعَقَلَه، وشعر بصحة ما يقول وصدَّقه، لقد أسعدته رؤية أخيه وأسعده ما قال.. إنه خلق في نفسه حبّاً جديداً وكبيراً، حبّاً لله وحبّاً للرسول ﷺ، واندفع بقلبه السقيم يدعو ولديْه... أن آتوني بالمهندسين والمتعهدين، أحضروا لي خبراء البناء... يجب أن أُشفى، يجب أن أبدأ مشواري الجديد، لا أريد أن أموت وأنا على هذه الحال.

وطبعاً كان في اندفاعه هذا صادقاً صدقاً حقيقياً... وحاشى لله أن يردَّ عبداً بحاجته طالما أنه أنفق مما يُحب في سبيله:

«**لا يؤمن أحدكم حتى ينفق مما يحب**».

نعم لقد نفَّذ وصية أخيه بحذافيرها...

أدرك جدّية المرحلة القادمة وحساسيتها، وأنها تتطلّب منه الصدق والمثابرة وعدم التوقُّف أو التراجع عن قراره في تخصيص هذه الأرض الغالية وإيراداتها للمحتاجين والمقطوعين، وبأنه عمل خالص لوجه الله على نيّة شفائه من علله الجسدية والنفسية التي كانت الدنيا سبباً في تراكمها والبعد عن الله يدعم تفاقمها...

وبناءً على ما تقدم راح يراقب نفسه وينتظر، ولم يكن هو وحده الذي يراقب وينتظر، إنما كان قلب السيد محمد أمين في لهفة وقلقٍ يكاد أن يتلاشى معها صبره.

يا إلهي!. هل من الممكن أن تحدث فعلاً؟.

أمعقول أن يعافيني الله ويرفع عني ما أرادت حكمته أن يحل بي!.

إنني فعلاً أشعر بتحسن... أشعر أن شيئاً ما يسري في عروقي يحرك كل أحاسيسي، شيئاً يدفعني أن أقف... أن أسير... أن أعود ولكن إلى أين؟.

هل أعود إلى حياتي... إلى شروري إلى غفلتي وإعراضي... إلى ظلمي وجحودي... هل أنسى الله مرة أخرى... هل أنسى فضله وإحسانه... هل عساي أعود إلى سباتي.

وماذا ستنفعني وقتها صحتي وعافيتي... لا والله لا أريدها، ولا أرغب بها وسيلة تساعدني على الاستمرار في طريقي هذه، طريق مظلمة باردة... وكل خطوة فيها هي أبعد من سابقتها... وأخيراً أصل إلى المأوى الذي صنعته أنا بنفسي، بعملي، ببعدي... ربَّاه ما الذي جاء بي إلى هنا... هل كنت أصم؟. هل أنا أعمى حتى قادتني قدماي إلى هنا... نار تلَظّى، سيكون لي فيها علاج من أدراني وأمراضي النفسية الدنيئة!. لا وألف لا وكلا... إلهي إني أسألك الصفح والعفو والغفران... ربَّاه إني عبد وقف ببابك طالباً أن تفيض عليه رحمة وحباً وماءً طاهراً ونوراً تغسل به نفسي المشبعة بحبِّ الدنيا، ربَّاه إن لي حاجة عندك، وأسألك ألاَّ تردَّني بحاجتي. ربَّاه أعاهدك على الصلاة ما دمت حيّاً وستر زوجتي يا رب...

وما هي إلاَّ أيام بعدها أيام حتى بدأ التحسن فعلاً.. عندها صدق هذا الإنسان بطلبه، وأصرَّ على صدقه، وناجى ربه ليالٍ طوال، وبكى واستغفر وقدّم مما يحب قرباناً عند الله عسى الله أن يستجيب ويغفر، ونجح في الاختبار، واستغل فرصته الأخيرة قبل أن تُغلق الأبواب وتسقط الأوراق وتصعد الروح إلى السماء ويُضم الجسد في التراب... وتبقى النفس تائهة نادمة.. ليس لها مكان على أرض ولا في سماء سوى الظلمات من بعد ظلم... ووحدة وخوف وآهات وآهات تدوي تمزِّق السكون... تهز الأركان، توقظ سكان القبور...

إلهي هل من عودة لنا نعمل صالحاً لنصلّي، لنسجد... لكن هيهات هيهات فالعمر قد مضى والموت قد وقع، ولكني على عهدي باقٍ.

لكن السيد سليم أقام حساباً لكلٍّ هذا وأراد فعلاً أن يتّقيَ شرّ ذلك اليوم وأن يُعدَّ نفسه ويحررها من أغلالها.

لقد بدأ الدم يتدفق والأعصاب تتنبه واستيقظت العظام وتململت ورفرف القلب مغرّداً... علت البسمة الشفة... وتحشرج صوت الفرح وعجز عن الكلام... وأشرقت أنوار شمس في صباح جديد... وتفتّحت أزهار الربيع بعد خريف طال أعواماً وأعواماً.

ولقد ظلله الله برحمته وحنانه وكانت عنايته تعالى به فائقة... وأغدق عليه سروراً ونعيماً، بثَّ في قلبه شيئاً من الفضيلة والخير والحب في النجاة انعكست على جسده الذي اهتزَّ وشُفي ورفل بالحياة.

حقّاً لقد اكتملت فرحته عندما استطاع أن يذهب إلى الأرض المعيَّنة التي سيُقام عليها المشروع الخيري ليضع حجر الأساس ومشياً على الأقدام في البناء الذي سيضم عشرات المحتاجين والمقطوعين، ويؤمّن لهم عيشاً مريحاً ويعوّضهم عن أيام فقر وحرمان ضمتهم وأشبعتهم بؤساً.

وعاد ليعيش دنياه الجديدة التي أرادها الله له...

وبالطبع لن ينسى أخاه، ولن ينسى فضله ودوره في شفائه من علل أصابت نفسه قبل أن تُصيب جسده ولن يترك الصلاة، وسيطلب من زوجته العصرية ارتداء اللباس الشرعي، وفعلاً تمَّ ذلك.

أما إنساننا السيد محمد أمين فقد كانت سعادته كبيرة ليس تسعها أرض ولا سماء وخصوصاً عندما رأى صورة أخيه التي كانت مرفقة بخطاب أرسله له السيد سليم يقصُّ فيه ما جرى معه ويشرح له الخطوات والمراحل التي مرَّ بها حتى وصل به المطاف أخيراً إلى الشفاء.

"تلك الصورة أُخذت له وهو يضع حجر الأساس للبناء بنفسه". لا تزال هذه الصورة التذكارية لدى دار السيد محمد أمين زاده الله تعالى رفعة وقرّبه وأدناه.

* * *

لقد قدَّم السيد سليم عملاً عالياً وضحّى بالشيء المحبَّب إلى قلبه، صدقة لوجه الله ومن أجل الحصول على رضاه ومغفرته ولشفائه وهو يعلم تماماً بأن الله غني عنا، ونحن من يحتاج إليه، وليست الصدقة مجرَّد تقديم المال ليضيفه الله إلى خزائنه.

﴿ . .وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ. . ﴾[1].

إنما الصدقة تعبير عن صدقنا وتصديقنا إن سلكنا الطريق كله توصلنا للإيمان بعدها بلا إلّه إلا الله، أي لا فعَّال إلا الله ولا مسيِّر ولا قادر ولا مقتدر إلا الله... وفي حال الصدق في التوجه والنية حقَّ على الله أن يستجيب ويعدِّل حالك أيها الإنسان.

ولقد أمدَّ الله في عمر السيد سليم من بعدها سنين طوال تجاوزت خمس عشرة سنة بعد بناء البناء وتأمين حياة ومعيشة الفقراء... يرفل فيها بكامل صحته وقوته، وأغدق الله عليه من بسط وسرور ما كان يشعر بمثله قبلها أبداً.



[1] سورة البقرة: الآية (٢٧٢).



تعالَ معنا أخي القارئ الكريم لنتعرَّف على شيء ربما كان غائباً عنَّا...

لنسافر إلى لبنان مع مرشدنا الكبير السيد محمد أمين "بالتاكسي" ونُطلّ على أثر من حكمته وحسن تصرُّفه الحكيم:

* * *

ذات يوم ولبعض الأمور قرَّر مُعلِّمنا الكبير السفر إلى لبنان مصطحباً ابنه معه ورافقه عدد قليل من مريديه "طلاب العلم عنده".

وفي الكراج "كراج التاكسيات" لم يغب عن فطنته ودرايته ماذا يترتب عليه وإخوانه الذين هم تحت لوائه كمسافرين، فذكَّرهم قائلاً:

أي بنيَّ... هل دفعتم صدقة السفر؟.

وكما توقَّع تماماً فقد غاب الأمر عن ذاكرتهم ولم يدفعوها، وكان قد مدَّ يده إلى جيبه وأخرج ليرة سورية كاملة عنه وعن ابنه وليد كما وأخذ من كل واحد منهم نصف ليرة وتصدَّق بها لفقير بكراج السيارات السفرية "التاكسيات".

دفع الجميع الصدقة عن طيب خاطر واندفاع إلاَّ واحداً منهم تلكّأ وتردَّد بالدفع رغم أنه كان غنياً (من عائلة معروفة)...

هنالك وبسرعة مدَّ الأستاذ الفاضل السيد محمد أمين يده وسحب النقود من يد مريده المتلكِّئ سحباً وأعطاها للفقير... ثم امتطوا السيارة التي انطلقت مغادرةً... دمشق العاصمة إلى لبنان...

* * *

وفي الطريق كان الهدوء سائداً داخلها تزيِّنه بعض الكلمات العذبة اللطيفة من ثغر المعلِّم الكبير السيد محمد أمين شفاء ورحمة ونعيم لقلوبهم يوجِّه ويلاطف بها مريديه الذين أصغوا إليه بأدبٍ واحترام جمٍّ إلاَّ الولد الصغير فقد جلس قرب النافذة يتفرَّج على مناظر الطبيعة الجذَّابة...

كانت السيارة ما تزال مُنطلقة بسرعتها المعتدلة عندما حدث أمرٌ مفاجئ، فلقد تفاجأ السائق بشاحنة كبيرة مواجهة عند مفترق طرقٍ، حاول السائق تلافي الحادث مهدِّئاً من سرعته ولائذاً لأقصى اليمين...

ولكن المفاجأة كانت أسرع من الحيطة، فلقد اصطدمت الشاحنة بالتاكسي من جانبها الأيسر وكان الاصطدام قاسياً...

كان يجلس من جانب الطرف الأيسر في المقعد الخلفي وليد ابن السيد محمد أمين ولا يزال غارقاً بمناظر الطبيعة... وعندما حدث الاصطدام طار الولد في الهواء من أقصى اليسار وكأن يداً حملته إلى حضن أبيه في المقعد الخلفي من الطرف الآخر (اليمين) في السيارة فألقته... والحمد لله في حضنه الشريف.

جاءت الإصابة سليمة فأيضاً لم يُصب الإخوان بأذى على الإطلاق... إلاَّ المريد المتلكِّئ بدفع الصدقة "الذي دفعها على استحياء".

وهكذا شاءت إرادة الله أن تعلِّمه ما قيمة صدقة السفر... ولماذا سنَّها الرسول الكريم بدرس عمليٍّ مؤثِّر... إذ أصيب برضٍّ بسيط في قدمه جعله يلازم الفراش شهراً كاملاً...

صَدَقَ من قال: "**باكروا بالصدقة فإن البلاء لا يتخطَّى الصدقة**".





محمد أمين شيخو
صفحات من المجد الخالد
صفحات من المجد الخالد
رُبَّ سائل يسأل : كيف استطاع هذا العلَّامة العظيم أن يأتي بالحق ،ماعجزت عنه الأوائل، وكافة الأئمة الفطاحل فأُجِيْبُكَ:وأن ليس للإ نسان إلاَّ ماسعى ..
آثارهُ تُنبيكَ عن أخبارهِ
حتى كأنكَ بالعيانِ تراهُ
تاللهِ لا يأتي الزمانُ بمثلِهِ
أبدًا ولا يحمي الحقيقةَ سواهُ
كان عمراً غالياً ثميناً قضاه هذا الإنسان الطاهر بالجهاد والرغبة في التقرُّب من الله ...وبهذا القرب نال ما نال من درجات وكمال .. وحقَّقَ ما حقَّقَ من أمجاد وأعمال مشحونة بالجهاد الإنساني المقدَّس.. وبالتضحيات الإنسانية الكبرى .. حتى كانت حياته مثلاً أعلى لسلوكٍ أسمى من أجل نصرة الحق .. ببطولات لامثيل لها هزمت الباطل وجعلته زهوقاً.
لقد رهن حياته الثمينة بأجمعها لخدمة أخيه الإنسان .. يُسابق عجلة الأيام في جريها ويُضاهي الشمس بنورها .. وقد تحوَّل على يديه ليل الشام إلى نهار لما يسطع عليها من أنوار أعماله وبركات تضحياته حتى كان يواصل الليل بالنهار مضحِّياً براحته ولو لم يطرق النوم له جفناً عدة ليالٍ متواليات باستثناء غفوات وهو يحاول ويُجاهد في سبيل إنقاذ أخيه الإنسان من مستنقعات الحزن والآلام غير مبالٍ بما يعترضه من أخطار الموت أو الإعدام ولا بما يتكبده في سبيل الله من مال أو تنازلات .. وكثيراً ما كان يبقى خاوي الوفاض على الرغم من سابق غناه المادي ..وهنا فلا غرابة ولا غروَ أن يفتح الله عليه تلك الفتوحات الباهرة والتي حصل عليها بصدقه وتضحياته وأعماله الكبرى.
كذلك فكل من جاهد في الله حق جهاده وصدق في حبِّه وطلبه لله تعالى وللرسول ﷺ فالباب مفتوح له ولكل سالك مريد صادق .
الناشر
دار نور البشير
للطباعة والنشر والتوزيع